

الكواكب الزاهرة
في اجتماع الأولياء يقظة
بسيد الدنيا والآخرة ﷺ

للعارف بالله تعالى الشيخ أبي الفضل
عبد القادر بن الحسين بن مغيزل الشاذلي

تقديم

بسم الله الرحمن بخلقه أجمعين، الرحيم بأوليائه المسلمين والمؤمنين والمحسنين، والحمد لله تعالى القائل: «ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون، لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم».

وصل اللهم على سيدنا محمد سيد ولد آدم الإنسان الكامل والخليفة الحقيقي في أرض الشريعة الملكية وسماء الحقيقة الجبروتية القائل ﷺ: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته». والقائل ﷺ: «من رأني في المنام فسيراني في اليقظة ولا يتمثل الشيطان بي».

وبعد في إطار الحديث عن الأولياء وما اختصهم الله به من كرامات وأعظمها اجتماعهم يقظة بالنبى ﷺ نقدم للقراء الكرام كتاباً فريداً ووحيداً في هذا الباب هو كتاب (الكواكب الزاهرة في اجتماع الأولياء يقظة بسيد الدنيا والآخرة) للعلامة الشيخ أبي الفضل عبد القادر بن الحسين بن عمر المحيوي القاهري الشافعي الشاذلي المعروف بابن مغيزيل المولود سنة خمس وستين وثمانمائة هجرية والمجهول تاريخ الوفاة وفرغ من تأليف كتابه سنة أربع وتسعين وثمانائة هجرية. ويجيب المؤلف فيه على تساؤل رؤية النبي ﷺ يقظة علاوة على رؤيته ﷺ في المنام ويتحدث عن مراتب الأولياء وكراماتهم وعن الفرق بين الكرامة والسحر والمعجزة وعن استحالة الحلول والاتحاد وعن مقامات الصديقين ودافع المؤلف عن بعض الشبهات التي تثار حول التصوف ويقول المؤلف عن كتابه: «جُمع على الشريعة والحقيقة لم أجد أحداً سبقني إليه ولا عثر أحد غيري عليه، إذا استثنينا رسالة الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي (تنوير الحلك بجواز رؤية النبي والملك).

وسبق طبع هذا الكتاب للمرة الأولى في دار جوامع الكلم عام 1999م بتحقيق جماعة من علماء الأزهر الشريف ثم طبعه كل من الاستاذين أ.د/ أحمد عبد الرحيم السايح والمستشار توفيق علي وهبة عن مخطوطتين إحداهما من الهيئة العامة لدار الكتب والثانية من مكتبة الأزهر الشريف. ونشر الكتاب أيضاً الدكتور محمد بن بركة البوزيدي الحسني ضمن جمهرة الأعمال الصوفية عن مخطوطة بتلمسان وحيدة ووهب حقوق نشره للزاوية البلقاندية الهبرية بتلمسان فجزى الله تعالى الجميع خيراً على حبهم لرسول الله ﷺ وحرصهم على نشر التراث الصوفي المعرفي ليستفيد منه المريدين السالكين والواصلين العارفين.

هذا ونرجو الله تعالى أن ينفعنا والمسلمين بما في هذه الكتب من الحب والإخلاص والصدق واليقين ومن أنوار أسرار ما تعبدنا الله به على لسان نبيه ﷺ: **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾** [الأحزاب: الآية 21]، وقوله تعالى: **﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾** [النجم: الآيتان 3، 4] وقوله تعالى: **﴿وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾** [النساء: الآية 69] لننال السعادة الحقيقية المتمثلة بمعرفة الله تعالى في الدنيا، والنظر إلى وجهه الكريم في الآخرة مصداقاً لقوله تعالى: **﴿وَجُوهٌ يُّومَدُّ نَاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾** [القيامة: الآيتان 22، 23].

ترجمة المصنف (*)

هو الشيخ عبد القادر بن حسين بن علي بن عمر المحيوي القاهري الشافعي الشاذلي ويعرف بابن مغيزل [وقيل ابن مغيزيل]. ولد في رجب سنة خمس وستين وثمانمائة بسويقة السباغين، ونشأ فاشتغل وقرأ على السنهوري في ابن المصنف، وعلى البرهاني الكركي الإمام التوضيح لابن هاشم ولازمه، وعلى الزين الانباضي بداية الهداية للغزالي ولقنه الذكر، وعلى ابن قاسم والخيزري والديمي وخطيب جامع طولون على ابن أبي داود الجوجري بل حضر دروس الشمس الجوجري وغيره، واختص بجلال الدين بن السيوطي وبالغ في المناضلة عنه والتنويه به وقصر نفسه عليه زمناً وأذهب كتبه التي كان ينتفع بها في تحصيل جملة من تصانيفه التي يخفى شأنها على غير أولي البصائر وصار يطمعه أنه إذا عمل قاضياً يقرر له كذا وكذا بل يكون هو المرجع ثم تنافرا وتشاققا لسوء عشرة ذلك وظهور مقدمات كذبه؛ ولازمي في قراءة شرحي للتقريب بعد سماعه مني للمسلسل بشرطه وجزء عاشوراء للمنزري وعليّ لتحفة عيد الفطر لزاهر بن طاهر بن محمد النيسابوري الشحامي المحدث وغير ذلك وسمع على المحب بن الشحنة وأبي السعود العراقي ومما سمعه عليه بعض السنن الكبرى للنسائي والزين عبد الغني بن البساطي والبهاء المشهدي والشمسين السنباطي وتردد إليه كثيراً والعقبي والإمام السيوطي والشهاب البيجوري والشمس محمد بن أحمد القمصي سمع عليه من فضل المدينة في جامع الترمذي إلى آخره والزين بن مزهر سمع عليه بشرى اللبيب، وأخذ التصوف وشرح التائية عن أبي عبد الله محمد بن عمر المغربي نزيل القاهرة واغتنب به في ذلك وتولع بالكتابة في شرح الملحّة وغيره وكذا اغتنب بأبي النجا بن الشيخ خلف الفوي ولازمه ونوه به وكان معه علي بن الأسبوطي وعظم اختصاصه بالبرهان الكركي الامام ومع ذلك كله فهو فقير صابر لطف الله به .

هذا ولم تذكر المراجع عنه شيئاً غير ذلك إلا أنه كان حياً سنة 894 هجري وقت الانتهاء من تأليف كتابه "الكواكب الزاهرة" مما يعني أنه كان دون الثلاثين من عمره وقت كتابة هذا الكتاب .

(1) انظر كتاب (الضوء اللامع للإمام السخاوي، ترجمة رقم (703) [2/370]).

مقدمة المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه الإعانة

أحمد الله حمداً مستمراً على الدوام، وأثني عليه ثناء المعترفين بإلهيته على ممر الدهور والأيام، وأشكره الذي تفضل علينا بأنواع العلوم بين الأنام، ووهب قوماً من خواص عبادته نوراً يهتدي به النجباء العظام الفخام، فصاروا أقماراً في سماء العناية يتلألؤن بين النجوم الأعلام.

فهم القوم الذين بزغت لهم شمس الحقائق والمعارف فاضمحل دجى الجهل والظلام، وارتفعت لهم بحار الشريعة فسارت سفينة التحقيق مقلعة في تيار الغرام.

وأوحده توحيد أهل التوحيد حين ناداهم بخطاب أولي قديم في الأزل، في مقام التجلي بإشراق شمس القدم، قبل وجودهم في الأبد: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [سورة الأعراف، آية: 172]، فشهد لهم بالتوحيد في قدم القدم، ثم أوجدهم حيناً بعد إيجادهم علماً لسبق الإرادة في أزل الأزل، واصطفاهم بالأعمال الصالحة الموصلة إلى جنات الفردوس التي ادخرها لأوليائه الذين سهل لهم طرقها فسلكوا السبل الموصلة إليها ذللاً.

خلقها لهم قبل أن يخلقهم، وأسكنهم إياها قبل أن يوجدهم، وحفها بالمكاره الموصلة إلى دار الامتحان، ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، وجعل ميعاد جزائهم في القدم القدوم عليه، وضرب مدة الحياة الفانية دونه أجلاً، وأعد لهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وجلاها عليهم حين عاينوها بعين البصيرة. التي هي أنفذ من رؤية البصر وبشرهم بما أعد لهم فيها على لسان رسوله خير البشر، وكمل لهم البشرى بكونهم: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [سورة الكهف، آية: 108].

وجعلهم في دار الفنا أهل حزبه وطاعته، فغرقت أوقاتهم في بحار جوده وعبادته، ثم تفتت قلوبهم شوقاً إلى الخطاب القديم الأزلي فوعدهم بالنظر إليه في دار البقاء على بساط قربه وعنايته.

فاشدد شوقهم حتى كانت أجسادهم في غلبة الشوق والحب كالقتلى بلا محالة وصارت أرواحهم في الحجب سائرة في الملكوت جواله، ثم أتخفهم في دار الدنيا تلطفاً بهم وتجلي على قلوبهم بجمال الصفات.

فأحيوا لما استنشقوا نسيم القرب في هذه الحالة فشاهدوا جمال الصفات دون سبحات جلال الذات، إذ لو تجلى ببارقة من جلال الذات لاحترقت جميع الموجودات لكونها حادثة. فاعلم، إذ لا بقاء للحادث كالظلم مع إشراق نور القدم. فسبحان من جذب خواص خلقه للسباحة في بحر العلوم بين عباده، واختارهم للتبحر في لجة قاموس تياره وأمواجه، وأظهر لهم أسرارهم ومعانيهم فانكشف لهم مع ذلك الكائنات ثم اغترفوا من مدد أمداده، وأطلعهم على حكم معلوماته وكنه مدلولاته.

فهبت عليهم رياح العناية مع تخصيص اجتهاده، وبسط لهم بساط قربه على أنهار محبته فارتوت أنوار قلوبهم تشوقاً من زلال اشتياقه، وأردفهم العادات الكائنات في أزل الأزل من نعيم جزيل نواله، وخصهم بالمواهب الإلهيات والمعاني الربانيات واصطفاهم لولائه، وأيقظهم لخدمته، وألهجهم بذكره.

ففاحت عليهم نسيمات قربة ووداده، وكشف لهم عن عالم الملكوت حين أشرقت أنوار قلوبهم لمشاهدة المعاني والأرواح الكريمة على صورة أحبابه، وعانوا أموراً برزخية بعيني البصيرة والبصر.

فمن ذاك رؤيتهم جهرة لسيد أنبيائه، وهذا ممكن عقلاً وشرعاً ودليلاً الشرعي وما كان معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لأوليائه.

وحجب قوماً عن فهم تحقیقات العلوم فصار سوء فهمهم ذريعة لعناد أصفياؤه، فهم في عشرات جهل مركب وبسيط، فنعوذ بالله من أليم حجابهم. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة أنجو بها يوم لقائه من الفرع الأكبر، وأن تكون وسيلة للأمن من أليم عذابه.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، سيد من يسجد تحت العرش في عرصات

قياماته، فيسمع النداء من قبل الله: «ارفع رأسك، وقل يسمع لك»⁽¹⁾، فيشفع في عصاة رعايته، ﷺ، واجعلنا في زمرة الداخلين في شفاعته. وعلى آله وأصحابه وأتباعه ما هبت الأرياح في أرضه وسماواته، وناح طائر على غصون الشجر يتبلبل بلغاته.

أما بعد

فضل علم الحقيقة:

فإن العلوم وإن زخرت بحارها، وتشعبت غصونها، فعلم الحقيقة أعظمها قدراً، وأغزرها علماً، إذ به يطلع على أسرار العلوم الشرعية، وعلى معارف حكم التكليف المحصيات؛ لكونه باطناً للعلوم الظاهرات. ولا سبيل إلى معرفته إلا لمن صب عليه فيضاً إلهياً واستنار قلبه بمواهب العناية فإذا يفصح عن الحقائق والإشارات الربانيات. ولعمري، هذا مقام لا تقاس به الكسبيات، وكيف تُقاس به وهو كشف عن شهود الملكوت بالمغيبات؛ بدليل قوله ﷺ:

«إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل العلم بالله، فإذا نطقوا به لم ينكره

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب قول الله تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [سورة البقرة، آية: 31] حديث رقم (4206) [4/1624] ونصه كاملاً: عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقتك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا فيقول لست هناك ويذكر ذنبه فيستحي اتنوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض فيأتونه فيقول لست هناك ويذكر سؤاله ربه ما ليس له به علم فيستحي فيقول اتنوا خليل الرحمن فيأتونه فيقول لست هناك اتنوا موسى عبداً كلمه الله وأعطاه التوراة فيأتونه فيقول لست هناك ويذكر قتل النفس بغير نفس فيستحي من ربه فيقول اتنوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمة الله وروحه فيقول لست هناك اتنوا محمداً ﷺ عبداً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيأتونني فأنتطلق حتى أستأذن على ربي فيؤذن لي فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله ثم يقال ارفع رأسك وسل تعطه وقل يسمع واشفع تشفع فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمني ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة ثم أعود إليه فأرأيت ربي مثله ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة ثم أعود الرابعة فأقول ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود قال أبو عبد الله إلا من حبسه القرآن يعني قول الله تعالى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [سورة البقرة، آية: 162].

إلا أهل الغرة بالله»⁽¹⁾.

إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة المرويات؛ ولهذا لا يوفق لفهم كلام القوم إلا من تغلغل بالعلوم الثقليات، وكرع في مناهلها الشفيات، وسبح في بحر أسرار علوم التنزيل وإشارات التأويل، لأن القرآن ظاهره أحكام بشرائع، وباطنه حكم بمعارف بحقائق.

وفي ذلك إشارة إلى أنه أحاط بعلمي الشريعة والحقيقة، بدليل ما أخرجه الفريابي في تفسيره عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل آية ظهر وبطن»⁽²⁾.

قال ابن النقيب في تفسيره: ظهر الآية: ما ظهر من معانيها لأهل العلم بالظاهر، وبطنها: ما تضمنته من الأسرار التي أطلع الله عليها أرباب الحقائق. وأخرج أبو نعيم عن ابن مسعود قال:

«إن القرآن أنزل على سبعة أحرف ما فيها حرف إلا له ظهر وبطن، وإن علي بن أبي طالب عنده منه علم الظاهر والباطن»⁽³⁾.

وأخرج الديلمي في مسند الفردوس بسند مسلسل من طريق أحمد بن غسان، عن عبد الواحد بن زيد، عن الحسن، عن حذيفة مرفوعاً: «سألت جبريل عن علم الباطن ما هو؟ فقال: قال الله: هو سرُّ بيني وبين أحبائي، أودعه في قلوبهم»⁽⁴⁾ انتهى.

واعلم أن نسبة علم الحقيقة إلى علم الشريعة، كنسبة علم المعاني والبيان إلى علم النحو، فهو سره ومبني عليه، فمن أراد الخوض في علم الحقيقة من غير أن يحكم علم الشريعة، فهو من الجاهلين ولا يحصل على شيء.

كما أن من أراد الخوض في أسرار علم المعاني والبيان من غير أن يحكم

(1) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، عن أبي هريرة، حديث رقم (802) [1/210].

(2) أورده الألويسي في تفسير روح المعاني، سورة الفاتحة (1) ﴿يَسِّرْ لَنَا الْخَيْرَ﴾ [7/1] ونصه كاملاً: عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل آية ظهر وبطن ولكل حرف حد ولكل حد مطلع».

(3) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء، ترجمة علي بن أبي طالب [1/65] ورواه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق، في آباء من اسمه علي [42/400].

(4) أورده علي القاري الهروي في المصنوع ضمن حديث رقم (197) [1/122].

النحو، فهو يخبط خبظ عشوى⁽¹⁾ من غير فائدة أصلاً. وكيف يدرك أسرار أحوال الإسناد والمسند إليه والمسند ومتعلقات الفعل من لم يعرف المبتدأ من الخبر، والفاعل من المفعول. هذا بين لكل أحد. والحقيقة سر الشريعة ولبها الخالص، كما أن المعاني والبيان سر النحو ولطائفه.

وقد نص جماعة من أهل الأصول على أن بعض أبواب التصوف من الفقه حيث ذكروا حد الفقه.

ووافقهم ابن السبكي في «منع الموانع»، وضم إليه مسائل أصول الدين، فقال: إنها عندي فقه. انتهى.

قال أبو طالب المكي في «قوت القلوب». «علماء الظاهر زينة الأرض و الملك، وعلماء الباطن زينة السماء وزينة الملكوت، وعلماء الظاهر هم أهل الخبر واللسان، وعلماء الباطن أرباب القلوب والعيان».

قال بعض العارفين: علم الظاهر محكوم، وعلم الباطن حاكم، والمحكوم موقوف حتى يجيء الحاكم فيه.

وقال بعض العارفين: علماء الظاهر إذا أشكل عليهم العلم في مسألة لاختلاف الأدلة، سألوا أهل العلم بالله؛ لأنهم أقرب إلى التوفيق، وأبعد عن الهوى.

وقد كان الإمام أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين يختلفان إلى معروف الكرخي، ولم يكن يحسن من العلم والسنن ما كانا يحسنانه.

وقد قال النبي ﷺ للذي سأله عن البر والإثم:

«استفت قلبك وإن أفنأك المفتون»⁽²⁾.

أي: لأن المفتين يعولون على التأويل والرخص، والقلب المنور بالإيمان يفتيه عن الله، فلولا أن علم القلب هو حقيقة الفقه، ما رد النبي ﷺ صاحبه من فتيا أهل

(1) وإنهم لفي عَشْوَى أمرهم: أي في حيرة وقلّة هداية (تاج العروس) للزبيدي.

(2) رواه بنحوه الدارمي في السنن، باب دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، حدث رقم (2533) [2/320] ورواه بنحوه أبو يعلى في المسند، مسند وابصة بن معبد، حديث رقم (1586) [3/160] ورواه غيرهما ونصه كاملاً: «استفت نفسك، استفت قلبك يا وابصة ثلاثاً البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفنأك الناس وأفتوك».

الظاهر، ولا حكم على المفتين به، فقد صار علم القلب هو علم العلم، إذ جعله الرسول ﷺ قاضياً على المفتين بالحكم وصار عالم الباطن هو عالم العلماء، ولم يسعه تقليد العلماء.

وقال في موضع آخر - وقد ساق الحديث فردّه إلى فقه القلب، وصرّفه عن فتيا المفتين - فلولا أن القلب فقيه، وأن علم الباطن حكم على العلم الظاهر وهم علماء الألسنة، ما ردهم إلى علم الباطن وهو علم القلوب.

وقال ابن مسعود لما مات عمر:

«إني لأحسب أنه قد ذهب بتسعة أعشار العلم»، قيل له: تقول هذا، وفيها جملة من الصحابة؟! قال: ليس أعني العلم الذي تريدون، وإنما أعني العلم بالله تعالى⁽¹⁾.

وقال ابن مسعود: «ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العلم بالخشية»⁽²⁾.

وقال بعضهم: إنما العلم نور يقذفه الله في القلوب.

فحينئذ إذا تقرر هذا. فالعالم بعلمي الظاهر والباطن. إذا طرأت كائنة من كرامات الأولياء نزلها على الكتاب والسنة؛ إذ لا منافاة بين الشريعة والحقيقة عند أهل الحقائق أرباب الولايات، كما قال سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد - قدس الله روحه:

«مذهبنا هذا مشيد بالكتاب والسنة».

وقال سلطان أهل المحبة ابن الفارض - رضي الله عنه ورحمه -

وفي الذّكر ذكر اللبس ليس بمنكرٍ ولم أعد عن حكمي كتابٍ وسنة⁽³⁾

(1) أورده الغزالي في إحياء علوم الدين، الاب السادس في آفات العام . . . ، [64/1] وأورده أبو حاتم البستي في روضة العقلاء، ذكر الحث على لزوم العلم . . . ، [38/1].

(2) أورده أبو طالب المكي في قوت القلوب، الفصل الحادي والثلاثون، كتاب العلم . . . ، [2/2].

(3) أحد أبيات تائية سلطان العاشقين الشيخ عمر بن الفارض التي مطلعها:
سقتني حُمياً الحُبِّ راحةً مُثَلّتي وكأسي مُحَيّاً مَنْ عَنِ الحُسْنِ جَلَّتْ

والقصيدة من البحر الطويل وتفعيلته:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن.

(الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي).

قلت: وممن وهبه الله علمي الظاهر والباطن من المتأخرين، علامة الوجود، أستاذ أهل زمانه علماً وعملاً، شمس الدين البساطي المالكي - سقى الله عهده وثره -، كانت له الإمامة في علوم كثيرة قد افتخرت به المالكية في جميع الأقطار. وكأثر بعلمه بحر مصر بل جميع البحار، وصار خيراً مفرداً في زمانه قد خضعت له أساطين عصره وأوانه، كان في ابتداء أمره قد تصدى لخدمة القطب العارف سيدي علي وفا الشاذلي.

ولهذا فتح عليه، وترادفت عليه مواهب العناية، وانعدقت عليه سائر العلوم العقلية والنقلية، ثم فهمه الله كلام القوم، وشرح تائبة للشيخ ابن الفارض شرحاً بديعاً.

سمعت منه شيئاً رفيعاً في مجلس بعض الرؤساء من النسخة التي بخطه، وأما ما حكاه شيخ شيوخنا شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر رحمه الله - في ترجمته عن الشيخ علاء الدين البخاري، فلا يغتر به لكونه مردوداً عند محققي أئمة التصوف.

والبساطي رحمه الله كان من أكابر المحققين في علمي الظاهر والباطن، بل كان بلبل الأفراح قد ملأ دوحها طرباً، وفي العليا باز أشهب.

فحينئذ من كان علمه قاصراً على الظاهر، فربما تقع كرامة لولي جحدها وأنكرها، وقال بخلافها؛ لقصوره عن فهم دقائق العلوم الشرعية الدالة على ثبوت كرامات الأولياء المستمدة من المقام النبوي.

سبب تأليف الكتاب:

ومما وقع في الفتاوى سنة إحدى وتسعين وثمان مائة. السؤال عن رؤية النبي ﷺ يقظة هل تقع كرامة للأولياء أو لا؟

فأجبت: بأن ذلك ممكن وقوعه شرعاً، فضلاً عن جواز وقوعه عقلاً. ثم إن جماعة من علماء عصرنا وقع خلاف بينهم في ذلك:

فبعضهم: أنكر إمكان ذلك؛ لعدم اطلاعهم على نقول الأئمة وأخبار السلف.

وبعضهم: قال بالإمكان، لكن فهم من إطلاق تصريح بعض العلماء بالرؤية

إمكان رؤية الجسم الشريف.

وهو خطأ مردود على قائله.

بل الصواب الذي صرح به المحققون من العلماء قاطبة: أن الروح الشريفة تتشكل شكلاً مثالياً، كصورته عليه السلام بدليل حديث المعراج؛ لأن مذهب أهل السنة والجماعة؛ أن ما كان معجزة لنبي، جاز أن يكون كرامة لولي بشرط عدم التحدي.

فيراه الصالحون حينئذٍ دون غيرهم على سبيل الكرامة.

ولأن مشاهدة الموتى في اليقظة نوع من الكشوفات التي خص الله تعالى بها أوليائه، كما صرح بذلك حجة الإسلام الغزالي في كتابه «المنتقى من الضلال» وتبعه الإمام الياقعي المترجم في طبقات الإسنوي: بأحد الأئمة الأعلام الجامعين بين الفقه والتصوف في كتاب «خلاصة المفاهر» و«روض الرياحين».

وأما القول برؤية الجسم نفسه، فهو قول سخيف لا عبرة على تقدير ثبوته، ويلزم على هذا القول الفاسد خلو القبر عن الجسم لو رآه أحد في غير مكانه، وكذا لو رآه شخصان أحدهما بالمشرق، والآخر بالمغرب في زمن واحد.

وهذا من المحالات عقلاً، كما هو صريح في «بهجة النفوس» للشيخ أبي محمد بن أبي جمرة؛ ويشهد لذلك ما نص عليه علماء المعقول: وهو أن الجسم الواحد لا يمكن أن يجعل في مكانين في آن واحد، كما هو مقرر في القواعد العقلية. والله أعلم.

ثم خطر لي أن أفرد الكلام على هذه المسألة في مصنف مستقل حافل مشحون بكلام الأئمة، وأذكر نقولاً من كلام المحققين، أعلام الإسلام، في تبرئة السادة الصوفية من الحلول والاتحاد على سبيل التنظير والاستطراد؛ لأن هذه الرؤية اليقظية من كرامات الأولياء، فناسب استطراد ذلك.

وأبسط الكلام على ذلك بسطاً إلى الطرق الأفضى من حيث النقول الغريبة التي أطلعني الله عليها، وأحل شيئاً من مشكلات أهل التصوف، فأفصح عن فتح مغلقها وإيضاح معانيها بتقرير منزل على الكتاب.

فهو جمع على الشريعة والحقيقة لم أجد أحداً سبقني إليه، ولا عشر أحد غيري عليه. قال ابن مالك إمام أهل عصره في علمي العربية واللغة، وأحد مشايخ محيي الدين النووي في أول «التسهيل»: وإذا كانت العلوم منجاً إلهية، وموهاب اختصاصية، فغير مستبعد أن يدخر لبعض المتأخرين ما عسر على كثير من المتقدمين.

وقال الزركشي في القواعد نقلاً عن صاحب «الأحوذى»: ولا ينبغي لمصنف يتصدى إلى تصنيف أن يعدل عن غرضين: إما أن يخترع معنى . وإما أن يبتدع وضعاً ومبنى . وما سوى هذين الوجهين فهو تسويد الورق، والتحلي بحلية السرقة . ثم أختتم المصنّف إن شاء الله تعالى يفصل في الكلام على إمكان رؤية الحق - تبارك وتعالى -، فحينئذ لا غرو أن يسمى بـ«الكواكب الزاهرة في اجتماع الأولياء يقظة بسيد الدنيا والآخرة»، وأن يلقب بـ(الفتح المبين في معرفة مقامات الصديقين). فاللهم إني أسألك أن تدخلني في شفاعته وتحت لوائه من غير عذاب يسبق، وأن تجعل جميع مقاصدي وأقوالي خالصة لوجهك الكريم، وأن تشغلني بك عن جميع خلقك .

وأن تمتعني بالنظر إلى وجهك الكريم يوم لقائك، وأن تجمعني على أحبائك وأهل صفوتك في جنات عدن برحمتك على بساط قربك لمناجاة خطابك، وسائر مشايخي، ومن أحبني وأحبته فيك، وجميع المسلمين . فأقول وبالله المستعان .

الكلام على رؤيته ﷺ مناماً

الكلام أولاً على رؤيته ﷺ مناماً؛ لأن رؤيته - عليه السلام - في المنام قد تكون توطئةً وتمهيداً لمن يراه من الصالحين في اليقظة؛ ولهذا كان المعراج مرتين: مرة في المنام تمهيداً وتمريناً لمشاهدة الملكوت بالمعراج. وثانياً في اليقظة. وهذا قول ذهب إليه جماعة من العلماء، وممن اختاره أبو نصر القشيري، وابن العربي، والسهيلي.

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: كان الإسراء في المنام واليقظة، ووقع بمكة والمدينة.

قال شيخ الإسلام ابن حجر: وهو غريب، إلا أن يريد تخصيص المدينة بالنوم ويكون في كلامه لف ونشر غير مرتب، ويكون الإسراء الذي اتصل به المعراج وفرضت فيه الصلاة في اليقظة مكة، والآخر في المنام بالمدينة.

قال: وينبغي أن يزداد فيه أن الإسراء في المنام تكرر بالمدينة. اهـ.

فإذا تقرر هذا فناسب الكلام أولاً على رؤيته مناماً، فقال النووي في فتاويه: رؤية النبي ﷺ في المنام لا يختص به الصالحون.

هل تعد رؤيته ﷺ تشريعاً؟

قال في الروضة: ولكن لا يعمل بما يسمعه الرائي منه في المنام مما يتعلق بالأحكام؛ لعدم ضبط الرائي، لا للشك في الرواية. فإن الخبر لا يقبل إلا من ضابط مكلف، والنائم بخلافه. اهـ.

ونظير هذا ما وقع لشيخ الإسلام الحافظ ولي الدين العراقي حين سئل عن رجل حلف بالطلاق أنه رأى ليلة القدر في اليقظة فهل يصدق في دعواه في رمضان أو غيره، أو لا يصدق إلا في العشر الأخير من رمضان أو غيره، أو لا يصدق إلا في العشر الأخير من رمضان؟

وهل يشترط في هذا الرجل المدعي الرؤيا الصلاح أم لا؟ وبأي شيء يعلم كونه

صادقاً أو غير صادق؟ فأجاب - رحمه الله - ما نصه: «مذهبنا انحصار ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان. فإن أخبر أنه رآها في غير العشر الأواخر، فهو كاذب، وإذا حلف فهو حانث، والمخبر عن غيب كشف له لا يصلح صدقه من كذبه.

ويخطر لي أنه قد يكشف لأهل الصلاح عنها على سبيل الكرامة، ولغيرهم على سبيل الزجر والمؤاخظة، فلا يختص بالكشف عنها أهل الصلاح. والله أعلم». اهـ قوله: (فإن الخبر لا يقبل إلا من ضابط مكلف والنائم بخلافه) هكذا قاله النووي. وسبقه إلى ذلك ابن الصلاح في فتاويه، وقال: ليس ذلك من عدم الوثوق بالمرئي. بل من جهة عدم الوثوق بضبط الرائي، فإن حالة النوم حالة غيبية وبطلان القوة الحافظة لما يجري في النوم على التفصيل.

وقال ابن الأستاذ: عندي في هذا نظر، فإن رؤيته حق، وقوله حق.

ولم أرَ أحداً من العلماء وافق ابن الأستاذ على هذا، فقد ذكر القاضي حسين في فتاويه في مسألة صيام رمضان فيمن رأى ليلة الثلاثين من شعبان أن النبي ﷺ قال: غداً من رمضان. قال: لا يجوز له العمل به؛ لأنه ﷺ حكم أن الصوم لا يجب إلا برؤية الهلال أو استكمال ثلاثين. وافقه على ذلك جماعة من الأصحاب.

ونقل أيضاً في شرح مسلم عن أصحابنا وغيرهم أنهم نقلوا الاتفاق على أنه لا يغير - بسبب يراه النائم - ما تقرر في الشرع.

وفي فتاوى الحناطي أحد أئمة أصحابنا إن إنساناً رأى النبي ﷺ في منامه على الصفة المنقولة عنه، فسأله عن الحكم، فأفتاه بخلاف مذهباً وليس مخالفاً لنص ولا إجماع، فقال: فيها وجهان:

أحدهما: يأخذ بقوله؛ لأنه مقدم على القياس.

وثانيهما: لا؛ لأن القياس دليل، والأحلام لا تعويل عليها، فلا يترك من أجلها

الدليل.

وعن كتاب (الجدل) للأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني: حكى وجهين في أن الرجل لو رأى النبي ﷺ في المنام، وأمره بأمر هل يجب عليه امتثاله إذا استيقظ؟ كذا هو في مجموع منسوب لابن الصلاح حكاه عنه ابن الملقن، وحكى الزركشي في «الخادم» عن كتاب «أدب الجدل» ما حكيناه عن فتاوى الحناطي. فلعله انتقل أو سقط شيء من النسخة.

وفي المجموع المذكور لابن الصلاح حكاية وجهين في وجوب التمسك بالحكم من حيث هو في الحالة المذكورة.

وعن روضة الحكام للقاضي شريح من أصحابنا: لو قال النبي ﷺ: لفلان علي فلان كذا، هل للسامع أن يشهد لفلان على فلان؟ كذا وجهان..

ونقل الزركشي عن الشيخ عز الدين بن خطيب الأشموني قال: أخبرني والدي: أن إنساناً رأى النبي ﷺ في المنام، وقال له: اذهب إلى موضع كذا وخذ ما فيه من ركاز، ولا خمس عليك فيه وأنه توجه إليه فوجده كما أخبره ﷺ وأنه استفتى الفقهاء بدمشق فكلهم أفناه بعدم الوجوب.

وقالوا: قد ظهرت دلائل صدق الرؤيا، والشيطان ممنوع من التمثل بالنبي ﷺ قال: وأفناه شيخنا عز الدين بن عبد السلام بوجوب الخمس عليه.

واستدل على ذلك بأن طريق رفع القواعد النسخ، فلا نسخ بعد انقطاع الوحي لموته ﷺ قال: ثم إني حكيت هذه الحكاية بين يدي شيخنا تقي الدين بن دقيق العيد - رحمه الله -، فصدق رؤيتها.

وزاد على ذلك أن الشيخ عز الدين كان يرى ذلك من باب الترجيح على تقدير صدق المنام.

قال: وأظن أنه أراد بالترجيح أن رواية الجمهور وجوب الخمس نصاً، ورواية هذا شاذة في المنام. والأول أرجح قطعاً، فالعمل بها واجب، والله أعلم.

أدلة تصديق رؤياه ﷺ مناماً وحجيتها في رؤيته ﷺ يقظة

وأما تصديق رؤياه ﷺ في المنام، فلما روي عنه ﷺ من الأحاديث الصحيحة منها: ما رواه البخاري من حديث ثابت عن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «من رآني في المنام فقد رآني؛ فإن الشيطان لا يتمثل بي»⁽¹⁾ وفي الصحيح من حديث أبي قتادة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من رآني فقد رأى الحق»⁽²⁾.

وفي البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «من رآني فقد رأى الحق، فإن الشيطان لا يتكونني»⁽³⁾.

وفي مسلم عن أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من رآني في النوم إنه لا ينبغي للشيطان أن يتمثل في صورتي»⁽⁴⁾.
وفي رواية: «فإنه لا ينبغي للشيطان أن يتشبه به»⁽⁵⁾.

وفيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة، ولا يتمثل الشيطان بي»⁽⁶⁾.

-
- (1) ورواه مسلم في صحيحه، باب قول النبي ﷺ: من رآني في المنام فقد رآني، حديث رقم (2266) [1775] ورواه الترمذي في سننه، باب ما جاء في قول النبي ﷺ من رآني في المنام. . . ، حديث رقم (2276) [535/4] ورواه غيرهما.
 - (2) رواه الترمذي في الشمائل المحمدية، حديث رقم (414) [352/1].
 - (3) صحيح البخاري، باب من رأى النبي ﷺ في المنام، حديث رقم (6596) [2568/6].
 - (4) صحيح مسلم، باب قول النبي ﷺ: من رآني في المنام. . . ، حديث رقم (2268) [1776/4] ورواه أحمد في المسند، عن جابر بن عبد الله، حديث رقم (14821) [350/3] ورواه غيرهما.
 - (5) صحيح مسلم، باب قول النبي ﷺ من رآني في المنام فقد رآني، حديث رقم (2268) [4/1776] ورواه الطبراني في الكبير برقم (280) [111/22] ورواه غيرهما.
 - (6) صحيح البخاري، باب من رأى النبي ﷺ في المنام، حديث رقم (6592) [2567/6] وصحيح مسلم، باب قول النبي ﷺ من رآني في المنام فقد رآني، حديث رقم (2266) [4/1775] ورواه غير البخاري ومسلم.

زاد مسلم: «أو فكأنما رأني في اليقظة»⁽¹⁾ هكذا بالشك، ووقع عند الإسماعيلي في الطريق المذكور:

«فقد رأني في اليقظة»⁽²⁾ بدل قوله: «فسيراني».

ومثله في حديث ابن مسعود عند ابن ماجه، وصححه الترمذي، وأبو عوانة، ووقع عند ابن ماجه من حديث أبي جحيفة:

«فكأنما رأني في اليقظة».

فهذا ثلاثة ألفاظ: «فسيراني في اليقظة».

«فكأنما رأني في اليقظة».

«فقد رأني في اليقظة».

وقد اختلف العلماء في معنى هذه الأحاديث.

فقال المازري: اختلف المحققون في تأويل ذلك، فذهب القاضي أبو بكر بن الطيب إلى أن المراد بقوله: «من رأني في المنام فقد رأني» أن رؤياه صحيحة لا تكون أضعافاً، ولا من تشبيهات.

قال: ويعضده قوله في بعض طرقه: «فقد رأى الحق». وفي قوله: «فإن الشيطان لا يتمثل بي» إشارة إلى أن رؤياه لا تكون أضعافاً.

قال: وقال آخرون: بل الحديث محمول على ظاهره، والمراد: أن من رآه فقد أدركه ولا مانع يمنع من ذلك.

وأما كونه فقد يرى على غير صفته، أو يرى في مكانين مختلفين معاً، فإن ذلك غلط في صفته، وتخيل لها على غير ما هي عليه، وقد يظن بعض الخيالات مرثيات؛ لكون ما يتخيل مرتبطاً بما يرى في العادة فتكون ذاته ﷺ مرثية وصفاته متخيلة غير مرثية، والإدراك لا يشترط فيه تحديق البصر، ولا قرب المسافة، ولا كون المرئي ظاهراً على الأرض أو مدفوناً.

وإنما يشترط كونه موجوداً، ولم يبق دليل على فناء جسمه ﷺ بل جاء في

(1) ورواه ابن ماجه في السنن، باب في رؤية النبي ﷺ في المنام، حديث رقم (2904) [2/

1284] ورواه الطبراني في الكبير، حديث رقم (279) [22/111] ورواه غيرهم.

(2) ورواه أحمد في المسند برقم (3798) [1/400] ورواه ابن ماجه في السنن، باب رؤية النبي

ﷺ في المنام، حديث رقم (3900) [2/1284] ورواه غيرهم.

الخبر الصحيح ما يدل على بقاءه ويكون ثمرة اختلاف الصفات اختلاف الدلالات .
وقال القاضي عياض : يحتمل أن يكون معنى الحديث : إذا رآه على الصفة التي
كان عليها في حياته ، لا على صفة مضادة لحاله ، فإن رأى على غيرها كانت رؤيا
تأويل ، لا رؤيا حقيقة ، فإن من الرؤيا ما يخرج على هيئته ، ومنها ما يحتاج إلى
تأويل :

وقال النووي : هذا الذي قاله ضعيف . بل الصحيح أنه يراه حقيقة سواء كان
على صفته المعروفة ، أو غيرها . كما ذكره المازري .

قال شيخ الإسلام ابن حجر : وهذا الذي رده النووي روي عن ابن سيرين
اعتباره : فقد روى إسماعيل بن إسحاق القاضي بسند صحيح من طرق حماد بن زيد
عن أيوب قال : كان محمد بن سيرين إذا قص عليه رجل أنه رأى النبي ﷺ ، قال :
صف الذي رأيته .

فإذا وصف له بصفة لا يعرفها ، قال : لم يره .

والذي قال القاضي توسط حسن ، ويمكن الجمع بينه وبين ما قاله المازري أن
تكون رؤياه على الحالين حقيقة ، لكن إذا كان على صورته ، كان ما يرى في المنام
على ظاهره ، لا يحتاج إلى تعبير ، وإذا كان على غير صورته كان النقص من جهة
الرأي ؛ لتخيله الصفة على غير ما هي عليه ويحتاج ما يراه في ذلك المنام إلى
التعبير .

وعلى ذلك جرى علماء التعبير ، فقالوا : إذا قال الجاهل : رأيت النبي ﷺ ، فإنه
يُسأل عن صفته . فإن وافق الصفة الرؤية ، وإلا فلا يقبل منه .

وذهب الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة إلى ما اختاره النووي ، فقال - بعد أن
حكى الخلاف - ومنهم من قال : إن الشيطان لا يتصور على صورته أصلاً .

فمن رآه في صورة حسنة ؛ فذاك حسن في دين الرائي ، وإن كان في جارحة من
جوارحه شين أو نقص ، فذاك خلل في الرائي من جهة الدين . قال : وهذا هو الحق ،
وبه تحصل الفائدة الكبرى في رؤياه حتى يبين للرأي هل عنده خلل أو لا .

لأنه ﷺ نوراني مثل المرأة الصقلية ما كان في الناظر إليها من حسن أو غيره
مصور فيها ، وهي في ذاتها على أحسن حال لا نقص فيها ولا شين .

وكذلك يقال في كلامه ﷺ في النوم إنه يعرض على صفته فما وافقها فهو حق ،

وما خالفها فالخلل في سمع الرائي أو بصره، قال: وهذا خير ما سمعته في ذلك . قال شيخ الإسلام ابن حجر: ويظهر لي في التوفيق بين جميع ما ذكروه: أن من رآه على صفته أو أكثر مما يختص به، فقد رآه ولو كانت سائر الصفات مخالفة وعلى هذا فتفاوت رؤيا من رآه:

فمن رآه على هيئته الكاملة فرؤياه الحق التي لا تحتاج إلى تعبير، وعليها ينزل قوله: «فقد رأني». ومهما نقص من صفاته فيدخله التأويل بحسب ذلك، ويصح إطلاق أن كل من رآه في أي حالة كانت من ذلك، فقد رآه حقيقة. «انتهى ما قاله ابن حجر».

وقال حجة الإسلام الغزالي: ليس معنى قوله: «رأني» أنه رأى جسمي وبدني قال: والآلة تارة تكون حقيقية، وتارة تكون خيالية. . والنفس غير المثل المتخيل، فمن رآه من الشكل ليس هو روح المصطفى ولا شخصه، بل هو مثاله على التحقيق.

قال: ومثل ذلك من يرى الله سبحانه وتعالى في المنام، فإن ذاته منزهة عن الشكل والصورة، ولكن تنتهي تعريفاته إلى العبد بواسطة مثال محسوس من نوره أو غيره.

ويكون ذلك المثل حقاً في كونه واسطة في التعريف، فيقول الرائي: رأيت الله - تعالى - في المنام.

لا معنى إني رأيت ذات الله. كما يقول في حق غيره.

وقال الإمام أبو القاسم القشيري ما حاصله: إن رؤياه على غير صفته لا تستلزم أن لا يكون هو، فإنه لو رأى الله - تعالى - على وصف يتعالى عنه وهو يعتقد أنه منزّه عن ذلك لا يقدر في رؤيته، بل يكون لتلك الرؤيا ضرب من التأويل.

وقال الطيبي: المعنى من رأني في المنام بأي صفة كنت فليستبشر ويعلم أنه قد رأى الرؤيا الحق التي هي من الله وهي مبشرة، لا الباطل الذي هو الحكم المنسوب للشيطان فإن الشيطان لا يتمثل بي.

وكذا قوله: «فقد رأى الحق»، وكذا قوله: «فقد رأني» فإن الشرط والجزاء إذا اتحدا دل على الغاية والكمال، أي: قد رأني رؤيا ليس بعدها شيء.

والله أعلم.

أقسام الناس بين الجزم برؤيته ﷺ والتجويز

تنبيه :

قال القرافي في القواعد، وتبعه الزركشي في الخادم، وحكاه جماعة من العلماء: إنما تصح رؤية النبي ﷺ لأحد رجلين: أحدهما: صحابي رآه فعلم صفته فانطبع في نفسه مثاله، فإذا رآه جزم بأنه رأى مثاله المعصوم من الشيطان.

وثانيهما: رجل تكررت عليه صفاته ﷺ المنقولة في الكتب حتى انطبت في نفسه. كما حصل ذلك لمن شاهده ورآه، فإذا رآه، جزم برؤية مثاله ﷺ، كما يجزم به من رآه.

وأما غير هذين، فلا يحصل الجزم. بل يجوز أن يكون رأى النبي ﷺ بمثاله، ويحتمل أن يكون من تمثل الشيطان، ولا يفيد قول الذي يراه: «أنا رسول الله» ولا قول من يحضر منه.

قلت: حاصل ما ذكره القرافي هو عين ما قاله القاضي عياض وشيخ الإسلام ابن حجر، ووجه التحقيق في ذلك هو أن مراد القرافي - رحمه الله - بهذين الرجلين: كون الرؤية في حقيهما قطعية لا تحتاج إلى تأويل.

لأن التعبير علم بالاجتهاد، والاجتهاد مظنون، فأشبهه الفقه. ولأن الفقه ولأن الاجتهاد أيضاً لا مجال له في القطعيات، كما هو مقرر في أصول الفقه. بخلاف غيرهما بأن يراه أحد على غير صفته، فلا يحصل الجزم برؤيته.

لأنه جعل الرؤية في حقيهما - والحالة هذه قطعية، وفي حق غيرهما ظنية، وهذا ملحوظ من فحوى قوله: «وأما غير هذين فلا يحصل الجزم»، فنفي الجزم فقط لكونه قطعياً فتعين قسيمه، وهو الظن بطريق اللزوم. فافهم ذلك فإنه نفيس لا تراه الآن مسطوراً. والله أعلم.

وقال ابن بطال: معنى قوله: «فسيراني في اليقظة» يريد تصديق تلك الرؤيا في اليقظة وصحتها وخروجها على الحق، وليس المراد أن يراه في الآخرة؛ لأنه سيراه

يوم القيامة في اليقظة جميع أمته، من رآه في النوم، ومن لم يره منهم.
وقال ابن التين: المراد: من آمن به في حياته ولم يره لكونه حينئذ غائباً عنه
فيكون هذا مبشراً لكل من آمن به ولم يره أنه لا بد أنه يراه في اليقظة قبل موته. كذا
قاله بعض العلماء.

وقال المازري: إن كان الملحوظ «فكأنما رآني في اليقظة» فمعناه ظاهر، وإن
كان المحفوظ «فسيراني في اليقظة» احتمال أن يكون أراد أهل عصره ممن لم يهاجر
إليه فإنه إذا رآه في المنام جعل ذلك علامة على أنه يراه بعد ذلك في اليقظة، وأوحى
الله بذلك إليه ﷺ.

وقال القاضي عياض: قيل معناه: سيرى تعقيب تأويل تلك الرؤيا في اليقظة
وصحتها وقيل: معنى الرؤيا في اليقظة، إنه سيراه في الآخرة.
وتعقب بأنه يراه في الآخرة جميع أمته من رآه في المنام ومن لم يره.
يعني: فلا يبقى لخصوص رؤيته في المنام مزية.

وأجاب القاضي عياض: باحتمال أن رؤياه له في المنام على الصفة التي عرف
بها وصفه عليها موجبة لتكريمه في الآخرة، وأن يراه رؤية خاصة من القرب منه، أو
الشفاعة له بعلو الدرجة، ونحو ذلك من الخصوصيات.

قال: ولا يبعد أن يعاقب الله المذنبين في القيامة بمنع رؤية نبيه ﷺ مدة.
وحمله ابن أبي حمزة على محمل آخر: فذكر عن ابن عباس أو غيره أنه رأى
النبي ﷺ في النوم، فبقي بعد أن استيقظ متفكراً في هذا الحديث، فدخل عليه بعض
أمهات المؤمنين - لعلها خالته ميمونة، فأخرجت له المرأة التي كانت للنبي ﷺ فنظر
فيها، فرأى صورة النبي ﷺ ولم ير صورة نفسه.

قال شيخ الإسلام ابن حجر: ويعكر عليه أن جمعا جماً رأوه في المنام ثم لم
يذكر واحد منهم أنه رآه في اليقظة، وخبر الصادق ﷺ لا يختلف. انتهى، وسيأتي
الجواب عن ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

«باب» في الكلام على رؤيته ﷺ في اليقظة:

قال الإمام عفيف الدين الياضي في كتابه «خلاصة المفاهر في مناقب الشيخ
عبد القادر». نقلاً عن الشيخ الكبير العارف بالله المعروف بالشيخ بكا - رضي الله عنه
- قال: حضرت مجلس الشريف محيي الدين عبد القادر الجيلاني - رضي الله عنه -

مرة، فبينما هو يتكلم على المرقأة الأولى من الكرسي إذ قطع كلامه، وسها ساعة ثم نزل إلى الأرض، ثم صعد الكرسي وجلس على المرقأة الثانية، فأشهدت المرقأة الأولى قد اتسعت حتى صارت مد البصر، وفرشت من السندس الأخضر، وجلس عليها رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي - رضي الله عنهم - .
وتجلى الله على قلب الشيخ عبد القادر فمال حتى كاد أن يسقط، فأمسكه رسول الله ﷺ لئلا يقع، ثم تضاءل حتى صار كالعصفور، ثم نما حتى صار على صورة هائلة، ثم تواری عني ذلك كله.

فسأله الشيخ بكا عن رؤية النبي ﷺ وأصحابه في اليقظة، فقال: أرواحهم تشكلت، وإن الله تعالى أيدهم بقوة يظهر بها فيراهم من قواه الله تعالى كرؤيتهم في صور الأجساد وصفات الأعيان، بدليل حديث «المعراج» .
وسئل أيضاً: عن تضاؤل الشيخ عبد القادر ونموه، فقال: كان التجلي الأول بصفة لا يثبت لبدوها بشر إلا بتأييد نبوي، فلذلك كاد الشيخ يسقط لولا تداركه رسول الله ﷺ .

وكان التجلي الثاني بصفة الجلال؛ فلذلك تضاءل، وكان التجلي الثالث بصفة الجمال؛ فلذلك انتعش ونمى. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.
وذكر الياضي أيضاً: بالإسناد أن الشيخ عبد القادر قال: ما من نبي ولا ولي إلا وقد حضر مجلس الأحياء بأجسامهم، والأموات بأرواحهم.
وروى الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله الشاذلي عن الشيخ أبي العباس المرسي أنه قال: «والله لو حجب عني رسول الله ﷺ طرفة عين ما عدت نفسي من المسلمين» .

ومما اشتهر عن شيخ الإسلام شرف الدين البارزي أنه رأى النبي ﷺ في اليقظة بشاطيء بحر الفرات، ثم صنف بعد ذلك توثيق عرى الإيمان، ونص على مسألة الرؤيا في فصل في حياة الأنبياء .

وقال حجة الإسلام الإمام الغزالي: ولا تظن أن روزنة القلب لا تنفتح للملكوت. بل لو أن رجلاً راض نفسه، وتخلص قلبه من الغضب والشهوة والأخلاق الرديئة، ويخرج من قلبه مراده لهذا العالم، ويجلس في موضع خالٍ، ويغمض عينيه، ويعطل حواسه .

ويعطي لقلبه المناسبة لعالم الملكوت، يقول على الدوام: الله! الله! بالقلب لا باللسان، إلى أن يصير من نفسه، ومن جميع العالم بلا خير من شيء إلا من الله، فإذا صار كذلك، وإن كان مستيقظاً انفتحت له الروزنة، وما يراه الخلق في النوم يراه هو في اليقظة، وأرواح الملائكة تظهر له في صورة حسية، ويرى الأنبياء كلهم، ويأخذ عنهم الفوائد، ويحصل له منهم المدد، ويرى ملكوت السموات والأرض، ومن انفتح له هذا الباب يرى الأمور العظيمة الهائلة التي لا تدخل تحت الحس والخيال.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الأنعام، آية: 75].

وقال رسول الله ﷺ: «وزويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها»⁽¹⁾.
وجميع علوم الأنبياء عليهم السلام - من هذه الطريق، لا من طريق الحواس والتعليم، وبداية هذا كله المجاهدة.

قال الله تعالى: ﴿وَأذْكُرِ أَسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ [سورة المزمل، آية: 8].
يعني: تنظف من كل شيء، وانقطع عن كل شيء، واعطِ كليتك له، ولا تشتغل بتدبير الدنيا؛ فإنه - سبحانه وتعالى - يكفيك مؤنتها ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [سورة المزمل، آية: 9]. هذا كلام الغزالي بحروفه.

وقال ابن العربي المالكي - في قانون التأويل - ما حاصله:
وأما رؤيته ﷺ في اليقظة، فهي ممكنة، وإذا كانت ممكنة فلا يختص بها واحد دون آخر. ثم قال: ولا المسلمون دون الكافرين، فتكون في حق المؤمن كرامة، وفي حق الكافر عقوبة وإنذاراً.

قلت: هذا في الإمكان العقلي، وأما الوقوع فاختص به الصالحون كرامة لهم

(1) رواه مسلم بنحوه، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، حديث رقم (2889) [4/2215] ونصه: «إن الله تعالى زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم وإن ربي قال يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها أو قال من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً.

دون غيرهم، إذ لا يلزم من الأمر الممكن عقلاً وقوعه على جميع الأفراد وإن كان عاماً. فممن نص على وقوعها كرامة في يقظة الخواص دون العوام الإمام الياضي في روض الرياحين فقال ما نصه:

«رؤية الموتى في خير أو شر نوع من الكشف يظهر الله تعالى به حال الموتى، بشارة أو موعظة أو مصلحة من اتصال خير إليه أو قضاء دين عليه، أو غير ذلك. وهذه الرؤية قد تكون في النوم وهو الغالب، وقد تكون في اليقظة وذلك من كرامات الأولياء الذين هم أصحاب أحوال ومقامات، فينظرون الموتى في اليقظة وقت ما يريد الله بحكمته يعلمها، وفي ذلك حكايات يطول ذكرها.

وقال حجة الإسلام الغزالي - في كتابه: «المنقذ من الضلال» - وقد مدح طريقة الصوفية - ثم قال: «فماذا يقول القائلون في طريقة أول شروطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها استغراق القلب بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله.

قال: وفي أول الطريقة تتبدى المكاشفات حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء عليهم السلام، ويسمعون منهم أصواتاً، ويقتبسون منهم فوائد ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق، فلا يحاول محاول أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز منه.

وعلى الجملة ينتهي الأمر إلى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول، وطائفة الاتحاد، وطائفة الوصول، وكل ذلك خطأ ولا ينبغي لمن هو في تلك الحالة أن يزيد على أن يقول:

وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر⁽¹⁾

هذا آخر كلام حجة الإسلام، وناهيك به جلالته وفخراً.

(1) أحد أربعة أبيات لسليمان الصولة المتوفى سنة 1317هـ شاعر ولد في دمشق وتعلم بمصر وعاد إلى الشام في حملة إبراهيم باشا على البلاد الشامية واستقر في دمشق فاتصل بالأمير عبد القادر الجزائري ولزمه مدة ثلاثين سنة وله فيه قصائد، وسافر إلى مصر سنة 1883م فأقام إلى أن توفي بالقاهرة، له ديوان مطبوع وكتاب (حصن الوجود الواقعي من خبث اليهود) (الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي).

ما وقع لبعض الأولياء حال رؤيته ﷺ

ولما حج القطب العارف السيد أحمد بن الرفاعي أنشد عند الحجرة النبوية لنفسه:

في حالة البعدِ روحي كنتُ أرسلُها تقبّلُ الأرضَ عني فهي نائبتني
وهذه نوبةُ الأشباحِ قد حضرتُ فامدّدْ يمينك كي تحظى بها شفّتي
فعند ذلك خرجت اليد الشريفة من الحجرة، فقبلها.

قلت: هذا يسمى عند الصوفية بالكشف الصوري، صرح بذلك ابن السبكي، وغير واحد.

ولقد أخبرني بالسند المتصل الشيخ الصالح نور الدين علي بن أحمد بن علي الطندتاوي الفرضي سمعاً من لفظه بخانقاه سعيد السعداء قال: أخبرني شيخنا العلامة أحد أئمة الشافعية زين الدين بن عبد الرحمن البوتيجي قال: أخبرني ولي الله الشيخ أبو بكر الشاذلي أنه كان في صلاة.

ولما قال في التشهد: السلام عليك أيها «النبى» ورحمة الله وبركاته، فكشف له عن الحجرة النبوية، فرأى النبى ﷺ، وهو يقول: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا أبا بكر.

وقال صاحب البهجة: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أبي الحسن علي بن أبي المحاسن يوسف بن أحمد بن محمد القرشي المارديني قال: سمعت أبي يحدث عن أبيه قال: كان شيخنا الشيخ موسى الزولي - رضي الله عنه - كثير الشهادة لرسول الله ﷺ، وكانت أغلب أفعاله منه ﷺ، وكان إذا مس الحديد بيده لأن له حتى يصير كاللبان.

ووقع مرة بماردين حريق فاضح، واستطار في أقطار البلد، فضج الناس بالشيخ موسى، فأعطاهم عكازه وأمرهم أن يلقوه في النار، فذهبوا وألقوه فيها فانطفأت لوقتها، كأنها لم تكن قط، وجاؤوا فأخرجوا العكاز فما رأوه احترق، ولا اسود، ولا سخن، فأتوا به إليه، فقال: إن الله وعدني أن لا يحرق بالنار ما مسته يدي.

وقال في البهجة أيضاً: أخبرنا أبو الحسن علي بن عبد الله الأبهري قال: سمعت الشيخ أبا الحسن الخفاف البغدادي بها يقول: سمعت شيخنا أبا السعود الحريمي يقول: كان الشيخ خليفة يرى رسول الله ﷺ كثيراً في اليقظة والمنام، ورآه في ليلة واحدة تسع عشرة مرة، وقال له في إحداهن: يا خليفة، لا تضجر مني، كثير من الأولياء مات. بحسرة رؤيتي انتهى.

«تنبيه»: قال شيخ الإسلام ابن حجر في فتح الباري، ونقل ابن أبي جمرة عن جماعة من الصالحين أنهم رأوا النبي ﷺ في المنام، ثم رأوه بعد ذلك في اليقظة وسألوه عن أشياء كانوا متخوفين منها، فأرشدهم إلى طريق تفريجها، فجاء الأمر كذلك.

ثم قال شيخ الإسلام: قلت: وهذا مشكل جداً، ولو حمل على ظاهره لكان هؤلاء صحابة، ولا يمكن بقاء الصحبة إلى يوم القيامة.

شبهة وجواب:

ويعكر عليه أن جمعاً جمماً رأوه في المنام، ولم يذكر واحد منهم أنه رآه في اليقظة، وخبر الصادق ﷺ لا يتخلف.

وقد اشدت إنكار القرطبي على من قال: من رآه في المنام فقد رأى حقيقته، ثم يراها كذلك في اليقظة، قال: وقد فطن ابن أبي جمرة لهذا، فأحال بما قال على كرامات الأولياء.

والجواب عن ذلك: أن قوله ﷺ فيما رواه أبو هريرة:

«من رآني في المنام، فسيراني في اليقظة».

هذا من خبر الصادق، صدق بجماعة من الصالحين رأوه في المنام، ثم رأوه في اليقظة، ولا يلزم إطلاق الصحابة عليهم؛ لأن الصحابي من لقي النبي ﷺ مؤمناً به، أي في عصر الرسالة، ومات على الإسلام ولو تخللت ردة في الأصح. وكلام القرطبي صحيح في حق من قال: من رآه في المنام فقد رأى حقيقته.

وقد علم أن الرؤية في المنام رؤية تخيل وحسبان، لا رؤية عيان.

وليس كذلك رؤية الأنبياء - عليهم السلام -؛ لأن ما يرونه في المنام فكأنهم قد رأوه في اليقظة تخصيصاً من الله - تعالى - لهم وتمييزاً لهم عن أبناء جنسهم.

قاله إمام المتكلمين أبو بكر الباقلاني. والله أعلم.

الاستدلال على الجواب:

«تذنيب»: تقدم أن ابن أبي جمرة نقل في بهجة النفوس ظناً منه عن ابن عباس أنه رأى النبي ﷺ في النوم، فتذكر بعد استيقاظه قوله عليه السلام: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة»، وبقي متفكراً فيه، ثم دخل على بعض أمهات المؤمنين، فأخرجت له جبته ﷺ ومرآته، فنظر في المرآة فرأى صورة النبي ﷺ، ولم ير صورة نفسه. انتهى.

أنشدني العلامة تاج الدين عبد الوهاب بن شرف الدين لنفسه:
مرآة وجه رسول الله نأقلها يظن نأقلها الحبر ابن عباس
وأبدت المرأة المرأة مظهرة كرامة الوجه عند الله للناس
قال الإمام العلامة السيد بدر الدين الأهدل اليمني أحد فقهاء الشافعية في كتاب «الرؤية»، وفتت عليه واستوعبت مطالعته، فما أكثر فوائده!!.

منها: ما نصه رؤية النبي ﷺ في اليقظة جائزة لا يتخيلها العقل، ولم يمنع منها الشرع، وكذلك رؤية سائر الأنبياء بعد موتهم، بل وسائر الأموات، وكذا رؤية الملائكة، ورؤية الجن والشياطين، ورؤية الجنة وعوالم الملكوت.
وقد وقع ذلك كله للأولياء، وشاهده الأصفياء، وصدق به الموفقون من العلماء أهل السنة القائلين بإثبات كرامات الأولياء، وأن كل ما جاز للأنبياء من المعجزات جاز مثله للأولياء من الكرامات، بشرط عدم التحدي.

فانظر إلى تصريحه بذلك. ثم قال بعد ذلك صريحاً لتحقيق هذه اليقظة وتمييزها من يقظة العوام إلى يقظة الخواص التي هي ظرف لهذه الرؤية الشريفة:
وأما وقوعها للأولياء، فقد تواترت بأجناسها الأخبار، وصار العلم بذلك علماً قوياً انتفى عنه الشك، ومن تواترت عليه أخبارهم لم يبق له شبهة في ذلك.
ولكن يقع لهم ذلك في بعض غيبة حس وغموض طرف لورود حال لا تكاد تضبطه العبارة ومراتبهم في الرؤية متفاوتة.

قلت: هذه اليقظة برزخية مستمدة من المقام النبوي أكرم الله تعالى بها أولياءه ليتحفهم بمشاهدة الملكوت بدليل أنه ﷺ كان يؤخذ عن الدنيا عند تلقي الروح، لما روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض. قيل: وما بركات الأرض؟»

قال: زهرة الدنيا. فقال له رجل: هل يأتي الخير بالشر؟! فصمت النبي ﷺ حتى ظننا أنه ينزل عليه، ثم جعل يمسح عن جبينه، فقال: أين السائل؟ قال: أنا. فذكر الحديث⁽¹⁾.

فظاهر هذا: أن النبي ﷺ كان ينتقل من الحال المعروفة إلى حالة تستلزم الاستغراق والغيبة عن الحالة الدنيوية حتى ينتهي الوحي، ويفارقه المَلَك. قال شيخ الإسلام البلقيني: هي حالة يؤخذ فيها عن حال الدنيا من غير موت، فهو مقام برزخي يحصل عند تلقى الوحي، ولما كان البرزخ العام ينكشف فيه للميت كثير من الأسرار، خص الله نبيه ببرزخ في الحياة يلقي الله فيه وحيه المشتمل على كثير من الأسرار.

وقد يقع لكثير من الصلحاء عند الغيبة بالنوم أو غيره اطلاع على كثير من الأسرار، وذلك مستمد من المقام النبوي، ويشهد له حديث: «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»⁽²⁾. هذا آخر كلامي البلقيني.

وقال الإمام الياقيني في «روض الرياحين» حاكياً عن الشيخ أبي العباس الخراز قال: وردت من السياحة على الشيخ أبي العباس المريني - بفتح الميم وكسر الراء وسكون الياء المثناة من تحت وكسر النون وياء النسبة -، وكان رجلاً كبيراً، فلما جلست إليه سأله سائل فقال له: يا سيدي، أيما أفضل العقل أم الروح؟ فشهدت الشيخ قد أسرى بروحه وروحي إلى أن دخلنا السماء الدنيا، فاشتغلت برؤية أملاكها وأنوارها، وغاب الشيخ عني، فطلبت مستقراً أستقر فيه فلم أجده، فنزلت ووقفت، ونظرت إلى الشيخ فإذا هو مستغرق في غيبته، ثم بعد لحظة حضر.

(1) ورواه الطبراني في الأوسط، حديث رقم (8990) [15/9] ورواه البيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم (10289) [274/7] ورواه غيرهم.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب الرؤيا الصالحة. . .، حديث رقم (6586) [2563/6] ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، حديث رقم (2263) [4/1773] ورواه غيرهما.

فقال السائل: لما أسري بالنبى ﷺ - صحبة جبريل - عليه السلام - فأنتهى معه جبريل إلى حده ووقف، وقال: يا محمد ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [سورة الصفات، آية: 164]، منذ خلقت ما تعديت من هاهنا. فتقدم النبى ﷺ إلى مقامه الذي اتصل به، فكان جبريل - عليه السلام - روحاً، وكان محمد عقلاً.

قال اليافعي رضي الله عنه: أخذوا العلم من معدنه، ولم يأخذوه من تقليد ولا معقول، وذلك عادة شيوخ هذه الطائفة أرباب المعارف الإلهية.

قلت: هذا تحقيق لكلام البلقيني، ويشهد لذلك قول بعض العارفين بالله:

ما من شيء أخبر عنه الكتاب والسنة من الغيب إلا شهدته.

ولما صنف الحافظ أبو الفضل عبد الرحيم العراقي كتاباً سماه «الباعث على الخلاص من حوادث القصاص». موضوعه الإنكار على الصوفية فيما يقولونه حال قصهم من أمور غير منقولة ولا تعلموها من أحد.

فانتدب للرد عليه أستاذ الأستاذين قطب العارفين سيدي علي بن وفا الشاذلي في مصنف سماه «الباعث على الخلاص من سوء الظن بالخواص»، قاله فيه ما نصه:

أما من تكلم في الكتاب والسنة بما استنبط منهما أو فهمه من الأحكام أو الحكم التي لا تخرق إجماع من يعتد بإجماعه، فهذا لا سبيل إلى تخطئته بتكلمه بذلك سواء تكلم بما سبق به أو لم يسبق، وهل هذا إلا شأن المجتهدين بما جعل الله في قلوبهم من نور هدايتهم وإرشادهم، فحاشاهم بذلك عن الحكم بخطأهم، كيف وفهمهم ذلك مضاف لجود الله - تعالى - وتخصيص نبيه ﷺ - كما قال علي - رضي الله عنه - وقد سئل: هل خصكم نبيكم دون الناس بشيء؟ قال: لا. ثم قال: إلا أن يؤتي الله عبداً فهما في كتابه⁽¹⁾.

هذا من جملة كلام قطب الدائرة في الرد على العراقي. والله أعلم.

(1) رواه ابن أبي شيبه في المصنف، من قال لا يقتل مسلم بكافر، حديث رقم [27471] [5/409] ونصه: عن أبي جحيفة قال قلنا لعلي هل عندكم من رسول الله ﷺ شيء سوى القرآن فقال لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يعطي الله رجلاً فهماً في كتاب الله وما في هذه الصحيفة قال قلت وما في هذه الصحيفة قال العقل وفكاك الأسير ولا يقتل مسلم بكافر.

دليل أوليته ﷺ ونبوته حينئذٍ :

فصل :

إذا تقرر ذلك فاعلم أن الروح العلية المحمدية هي روح الأرواح، وهي الأصل المبتدأ به في أول الأمر، والفعل الصادر عن الحق، وآدم كالخبر والمصدر والمفعول المطلق الفرع عن الفعل بالنسبة إلى الاشتقاق الصوري الجثماني. قال سلطان أهل المحبة شرف الدين بن الفارض قدس الله روحه.

فَذَا مُظْهِرٌ لِلرُّوحِ هَادٍ لِأَفْقِهَا شُهُوداً بَدَأَ فِي صُورَةٍ مَعْنَوِيَةٍ
وَذَا مَظْهِرٌ لِلنَّفْسِ حَادٍ لِرَفْقِهَا شُهُوداً غَدَا فِي صِيغَةٍ صُورِيَةٍ
وَمَنْ عَرَفَ الْأَشْكَالَ مِثْلِي لَمْ يَشْبَهُ شَرْكَ هَدَى فِي رَفْعِ إِشْكَالٍ شُبْهَةٍ
المعنى: إن مثل محمد ﷺ في السبق الأول كمثل آدم - عليه السلام -، فالمظهر الأول أب في المعنى للمظهر الثاني الأب في الصورة مع فرعه، كما عبر في الثانية عن ذلك الحال على لسان وارد الروح النبوية.

وهو المسمى عند القوم بالمدح المستور؛ لكونه مستوراً بضمير المتكلم، وهو اصطلاح أهل الحقيقة مدح الرسول ﷺ لا يفهمه إلا علماء الحقائق العارفون بمصطلح القوم، فقال - رضي الله عنه - .

وَكَلَّمَهُمْ عَنْ سَبْقِ مَعْنَايَ دَائِرٌ بَدَأْتَرْتِي أَوْ وَارِدٌ مِنْ شَرِيعَتِي
وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ ابْنَ آدَمَ صُورَةً فَلِي فِيهِ مَعْنَى شَاهِدٌ بِأَبُوتِي
لأنه ﷺ أول شمس بزغت وأشرقت من عين علم القدم بظاهر وجود حضرة الشهود من باطن غيوب كرة القدم.

وأخرج ابن أبي حاتم في تفسيره، وأبو نعيم في الدلائل من طرق، عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ [سورة الأحزاب، آية: 7] قال:

«كنت أول النبيين في الخلق، وآخرهم في البعث»⁽¹⁾.

فبدأ به قبلهم.

وأخرج أبو سهل القطان في جزء أماليه عن سهل بن صالح الهمداني قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي: كيف صار محمد ﷺ يتقدم الأنبياء وهو آخر من بعث؟

قال: إن الله لما أخذ من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألسنت بربكم؟، كان محمد ﷺ أول من قال: «بلى» ولذلك صار يتقدم الأنبياء، وهو آخر من بعث.

وأخرج الإمام أحمد والبخاري في تاريخه والطبراني والبيهقي وأبو نعيم عن مسرة قال: قلت: يارسول الله، متى كنت نبياً؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد». وأخرج الإمام أحمد والحاكم والبيهقي عن العرياض بن سارية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته.

وأخرج الحاكم والبيهقي وأبو نعيم عن أبي هريرة رضي الله عنه:

قيل للنبي ﷺ: «متى وجبت لك النبوة؟ قال: بين خلق آدم ونفخ الروح فيه». وأخرج البزار والطبراني في الأوسط وأبو نعيم من طريق الشعبي عن ابن عباس قال: قيل: يا رسول الله: متى كنت نبياً؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد» وأخرج أبو نعيم عن الصالح بن صالح قال: قال عمر: متى جعلت نبياً؟ قال آدم منجدل في الطين». مرسل.

وأخرج ابن سعد عن أبي الجدها قال: قلت: يا رسول الله: متى كنت نبياً؟ قال: «إذ آدم بين الروح والجسد».

وأخرج ابن سعد عن عامر قال: قال رجل للنبي ﷺ: مت استنبئت؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد حين أخذ مني الميثاق».

فإذا تقرر ذلك علمت أنه ﷺ هو أول فجر طلع من ظلمة العدم، وأول برق لمع

(1) رواه الطبراني في مسند الشاميين، عن أبي هريرة برقم (2662) [34/4] ورواه الديلمي في الفردوس عن أبي هريرة برقم (4850) [282/3] ورواه غيرهما.

من سر أسرار القدم وعلمت أنه الإمام الأعظم المقدم، والمصلي في محراب الحقيقة، التالي وحده على لسان جميع الخليقة.

فإذا ثبت ذلك تحققت أن ماء طوفان نوح ونار الخليل وحزن يعقوب وصبر أيوب ومعجزات الأنبياء وكرامات الأولياء وغير ذلك مما دخل تحت عبارة أو إشارة: «ما هو» إلا كذرة من ذراته لأن الأنبياء - عليهم السلام - قطرات بلل من قطراته، وما تخرج من ثمرة كلمة من أكامها، وما تحمل من أنثى خضرة أو فكرة في أرحام أفهامها ولا تضع واضعة نطق بحكمة الله وحكمه إلا وهي داخلية تحت دائرة سره، وعلمه؛ ولهذا قال سلطان أهل المحبة ابن الفارض على لسان وارد الروح النبوية:

وَحَزَنِي مَا يَعْقُوبُ بَثَّ أَقْلَهُ وَكُلُّ بَلَى أَيُوبَ بَعْضُ بَلِيَّتِي
فَطُوفَانُ نُوحٍ عِنْدَ نُوحِي كَأَدْمِي وَإِيقَادُ نِيرَانِ الْخَلِيلِ كَلْوَعَتِي

فنوح نوح جزء من نوح روح الأرواح العلية النبوية الفريدة بالسبق المعنوي وهي النسخة الأولية المحمدية، وكل شيء سواها بمنزلة الضوء لها والجزء منها والولد الناشئ عنها منسوب إليها.

قال شيخ الإسلام تقي الدين السبكي في كتاب «التعظيم والمنة في: ﴿لَتُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾» [آل عمران، آية: 81]: في هذه الآية من التنويه بالنبي ﷺ وتعظيم قدره العلي ما لا يخفى، وفيه مع ذلك أنه على تقدير مجيئه في زمانهم يكون مرسلًا، فتكون نبوته ورسالته عامة لجميع الخلق من زمن آدم إلى يوم القيامة، وتكون الأنبياء وأممهم كلهم من أمته.

ويكون قوله: «بعثت إلى الناس كافة»⁽¹⁾ لا يختص به الناس من زمانه إلى يوم القيامة، بل يتناول من قبلهم أيضاً، ويتبين بذلك معنى قوله ﷺ: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد»، وأن من فسره بعلم الله بأنه سيصيره نبياً لم يصل إلى هذا المعنى؛ لأن علم الله محيط بجميع الأشياء، ووصف النبي ﷺ بالنبوة في ذلك الوقت ينبغي أن يفهم منه أنه أمر ثابت له في ذلك الوقت.

ولهذا أرى آدم اسمه مكتوباً على العرش «محمد رسول الله»، فلا بد أن يكون

(1) جزء من حديث رواه الطبراني في الكبير برقم (6674) [154/7] ورواه أحمد في المسند عن ابن عباس برقم (2742) [301/1] ورواه غيرهما.

لذلك معنى في ذلك الوقت، ولو كان المراد بذلك مجرد العلم بما سيصير في المستقبل لم يكن خصوصية بأنه نبي وآدم بين الروح والجسد؛ لأن جميع الأنبياء يعلم الله نبوتهم في ذلك وقبله، فلا بد من خصوصية للنبي ﷺ لأجلها أخبر بهذا الخبر إعلاماً لأمته؛ ليعرفوا قدره عند الله فيحصل لهم الخبر بذلك.

تقرير بديع للسبكي: شبهة وجواب:

قال السبكي: فإن قلت: أريد أن أفهم ذلك القدر الزائد، فإن النبوة وصف لا بد أن يكون الموصوف به موجوداً، وإنما يكون بعد بلوغ أربعين سنة أيضاً. فكيف يوصف به قبل وجوده وقبل إرساله، وإن صح ذلك فغيره كذلك؟

قلت: قد جاء أن الله خلق الأرواح قبل الأجساد، فقد تكون الإشارة بقوله: «كنت نبياً» إلى روحه الشريفة أو إلى حقيقته، والحقائق تقصر عقولنا عن معرفتها، وإنما يعلمها خالقها، ومن أمده بنور إلهي، ثم إن تلك الحقائق يؤتي الله كل حقيقة منها ما يشاء في الوقت الذي يشاء.

فحقيقة النبي ﷺ قد تكون من قبل خلق آدم أتاها الله ذلك الوصف بأن يكون خلقها متهيئة لذلك، وإفاضته عليها من ذلك الوقت فصار نبياً، وكتب اسمه على العرش، وأخبر عنه بالرسالة لتعلم ملائكته وغيرهم كرامته عندهم.

فحقيقته موجودة من ذلك الوقت، وإن تأخر جسده الشريف المتصف بها، واتصاف حقيقته بالأوصاف الشريفة المفاضة عليه من الحضرة الإلهية، وإنما يتأخر البعث والتبليغ، وكل ما له من جهة الله، ومن جهة تأهل ذاته الشريفة وحقيقته معجل لا تأخر فيها، وكذلك استنباؤه وإيتاؤه الكتاب والحكم والنبوة، وإنما المتأخر تكونه وتنقله إلى أن ظهر ﷺ وغيره من أهل الكرامة.

قد تكون تلك الكرامة عليه بعد وجوده عنده كما يشاء سبحانه وتعالى، ولا شك أن كل ما يقع فالله عالم به من الأزل، ونحن نعلم علمه بذلك بالأدلة العقلية والشرعية، ويعلم الناس منها ما يصل إليهم عند ظهوره كعلمهم بنبوة النبي ﷺ حين نزل عليه القرآن في أول ما جاءه جبريل وهو فعل من أفعاله من جملة معلوماته من آثار قدرته وإرادته واختياره في محل خاص يتصف بها.

فهاتان مرتبتان: الأولى معلومة بالبرهان، والثانية ظاهرة للعيان، وبين المرتبتين وسائط من أفعاله تعالى تحت على حسب اختياره منها ما يظهر لهم بعد ذلك، ومنها

ما يحصل به كمال لذلك المحل وإن لم يظهر لأحد من المخلوقين .
 وذلك ينقسم إلى كمال يقارن ذلك المحل من حين خلقه، وإلى كمال يحصل
 له بعد ذلك، ولا يصل علم ذلك إلينا إلا بالخبر الصادق، والنبى ﷺ خير الخلق،
 فلا كمال لمخلوق أعظم من كماله، ولا محل أشرف من محله، فعرفنا بالخبر
 الصحيح حصول ذلك الكمال من قبل خلق آدم لنبينا ﷺ من ربه سبحانه .

لطائف في قوله تعالى : «لتؤمنن به» :

وإنه أعطاه النبوة من ذلك الوقت، ثم أخذ له المواثيق على الأنبياء ليعلموا أنه
 المقدم عليهم، وأنه نبيهم ورسولهم، وفي أخذ المواثيق لطيفة، وهي في معنى
 الاستخلاف؛ ولذلك دخلت لام القسم في : (لتؤمنن به ولتنصرنه).
 لطيفة أخرى، وهي كأنها أيمان البيعة التي تؤخذ للخلفاء، ولعل أيمان الخلفاء
 أخذت من هنا، فانظر هذا التعظيم العظيم للنبي من ربه سبحانه وتعالى .
 فإذا عرف ذلك، فالنبي ﷺ هو نبي الأنبياء؛ ولهذا ظهر ذلك في الآخرة جميع
 الأنبياء تحت لوائه، وفي الدنيا كذلك ليلة الإسراء صلى بهم، ولو اتفق مجيئه في
 زمن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وجب عليهم وعلى أممهم الإيمان به
 ونصرته .

وبذلك أخذ الله الميثاق عليهم، فنبوته عليهم ورسالته إليهم معنى حاصل له،
 وإنما أمره يتوقف على اجتماعهم معه، فتأخره ذلك لأمر راجع إلى وجودهم لا إلى
 عدم اتصافه بما يقتضيه، وفرق بين توقف الفعل على قبول المحل وتوقفه على أهلية
 الفاعل .

فهنا لا توقف من جهة الفاعل، ولا من جهة ذات النبي ﷺ الشريفة، وإنما من
 جهة وجود العصر المشتمل عليه، فلو وجد في عصرهم لزمهم اتباعه بلا شك .
 ولهذا يأتي عيسى في آخر الزمان على شريعته، وهو نبي كريم على حاله، لا
 كما يظن بعض الناس أنه يأتي واحداً من هذه الأمة . نعم هو واحد من هذه الأمة لما
 قلنا من اتباعه للنبي ﷺ، وإنما يحكم بشريعة نبينا محمد ﷺ بالقرآن والسنة، وكل
 ما فيها من أمر أو نهى، فهو متعلق به كما يتعلق بسائر الأمة، وهو نبي كريم على
 حاله لم ينقص منه شيء، وكذلك لو بعث النبي ﷺ في زمانه أو في زمان موسى
 وإبراهيم ونوح وآدم كانوا مستمرين على نبوتهم ورسالتهم إلى أممهم .

والنبي ﷺ نبي عليهم، ورسول إلى جميعهم، فنботه ورسالته أعم وأشمل وأعظم ومتفقة مع شرائعهم في الأمور؛ لأنها لا تختلف، وتقدم شريعته ﷺ فيما عساه يقع الاختلاف فيه من الفروع إما على سبيل التخصيص، وإما على سبيل النسخ، أو لا نسخ ولا تخصيص.

بل تكون شريعة النبي ﷺ في تلك الأوقات بالنسبة إلى أولئك الأمم ما جاءت به أنبياءهم، وفي هذا الوقت بالنسبة إلى هذه الأمة هذه الشريعة والأحكام تختلف باختلاف الأشخاص والأوقات.

وبهذا بان لنا معنى حديثين كانا خفيين عنا: أحدهما: قوله ﷺ:

«بعثت إلى الناس كافة»⁽¹⁾. كنا نظن أنه من زمانه إلى يوم القيامة، فبان أنه جميع الناس أولهم وآخرهم.

والثاني: قوله ﷺ: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد» كنا نظن أنه بالعلم، فبان أنه زائد على ذلك ما شرحناه.

وإنما يفترق الحال بين ما بعد وجود جسده ﷺ وبلوغه الأربعين، وما قبل ذلك بالنسبة إلى المبعوث إليهم وتأهلهم لسماع كلامه، لا بالنسبة إليه ولا إليهم لو تأهلوا قبل ذلك.

وتعليق الأحكام على الشروط قد يكون بحسب المحل القابل، وقد يكون بحسب الفاعل المتصرف، فهنا التعليق إنما هو بحسب المحل القابل وهو المبعوث إليهم وقبولهم سماع الخطاب والجسد الشريف الذي يخطبهم بلسانه، وهذا كما يوكل الأب رجلاً في تزويج ابنته إذا وجدت كفواً.

فالتوكيل صحيح، وذلك الرجل أهل للوكالة، ووكالته ثابتة، وقد يحصل التصرف على وجود كفاء، ولا يوجد إلا بعد مدة، وذلك لا يقدح في صحة الوكالة وأهلية التوكيل. انتهى كلام السبكي بحروفه، وهو تقرير بديع لم يسبق إليه، والله أعلم.

(1) جزء من حديث رواه يزيد بن خصفة عن السائب برقم (6674) [154/7] ونصه كاملاً: «قال رسول الله ﷺ: «فضلت على الأنبياء بخمس بعثت إلى الناس كافة وادخرت سفاعتي لأمتي ونصرت بالرعب شهراً أمامي وشهراً خلفي، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي». ورواه أحمد في المسند، حديث رقم [301/1] (2724).

فصل في شكل الأرواح:

وهو المعروف عند الصوفية بـ«عالم المثال» قال الله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [سورة مريم، آية: 17].

اعلم أن الولي إذا بلغ درجة التبدل أعطي قوة التشكل والتطور على اختلاف الصور، وهذا أيضاً مستمد من المقام النبوي؟ لاجتماع النبي ﷺ ليلة الإسراء على أرواح الأنبياء متشكلة، وهو الصحيح عند الجمهور.

وما كان معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي بشرط عدم التحدي.

قال الإمام العلامة علاء الدين القونوي شارح الحاوي في كتابه «الإعلام بالمام الأرواح بعد الموت محل الأجسام» بعد أن ذكر فيه حديث صلاة موسى في قبره مع رؤيته ﷺ له في السماء السادسة، وتكرر مراجعته له في أمر الصلاة:

وهذان يحتاجان إلى التوفيق بينهما، فيجوز أن يقال: لا ينبغي أن يظن انقطاع التفاتهم إلى قبورهم بالكلية ولا ارتفاع التعلق بينها وبينهم بدليل استحباب زيارتها في عامة الأوقات؛ وما ذلك إلا لأن بينها وبينهم علاقة مستمرة غير منقطعة، فلها بهم اختصاص خاص، والله أعلم بكيفية ذلك الاختصاص.

وكذلك قبور سائر المؤمنين بينها وبين أرواحهم نسبة خاصة مستمرة فيعرفون بها من يزور قبورهم، ويردون السلام على من يسلم عليهم، يدل عليه قوله ﷺ: «ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا إلا عرفه ورد عليه السلام»⁽¹⁾.

وقد يستدل أيضاً باستحباب السلام عند دخول المقابر بأن يقول الداخل: «سلام عليكم دار قوم مؤمنين»⁽²⁾ كما ورد به الحديث على شعورهم بالإسلام، وأن أصحاب القبور بيننا وبينهم اختصاص خاص لا يوجد في غيرها.

وقد أخبرني الشيخ فخر الدين غصنفر التبريزي: أنه لما توفي شيخه تاج الدين التبريزي كانت تشكل عليه مسائل فيطيل الفكر فيها ويبذل المجهود في حلها، فلا ينحل له شيء منها، قال: فكنت آتي قبر شيخي تاج الدين، وأتوجه إليه وأجلس

(1) أورده ابن كثير في التفسير، سورة العنكبوت، [439/3].

(2) جزء من حديث رواه أحمد في المسند عن أبي هريرة، حديث رقم (7980) [300/2] ورواه أبو يعلى، عن السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها، حديث رقم (4620) [87/8] ورواه غيرهما.

عنده، كما كنت أجلس في حياته بين يديه، وأفكر في تلك المسائل، فتنحل لي حينئذٍ ولا تنحل في غير ذلك المكان.
قال: وقد جربت ذلك غير مرة.

وقد أجاز الفقهاء: استئجار من يقرأ القرآن عند القبر. وقالوا: إن صاحبه ينتفع بالقراءة عنده، وقد يشعر كلام بعضهم أن ذلك الانتفاع هو أن يحصل له أجر المستمع لقراءة القرآن، وأما أجر نفس القراءة فإنه مقصور على القارئ ولا يتعداه، وحديث قتلى بدر ومخاطبة النبي ﷺ بقوله:

﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا...﴾⁽¹⁾ [سورة الأعراف، آية: 44] إلى آخر الحديث

المشهور، وكل ذلك مما يدل على أن الأموات يسمعون.

وقد تبين في علم الكلام أن السمع من الأعراض المشروطة للحياة، فهم أحياء إلا أن حياتهم دون حياة الشهداء؛ لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله، فحياتهم أعلى وأشرف وأكمل من حياة غيرهم من الأموات.

وحياة الأنبياء - صلوات الله عليهم - أتم وأكمل من حياة الشهداء وإثبات حياة أخرى مغايرة لهذه الحياة المعهودة التي لا بد لصاحبها في مطرد العادة البشرية من التعدي ولوازمه، وغير ذلك ليس محل نزاع.

ومن الجائز أن يقال: أرواح الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - بعد المفارقة بمنزلة الملائكة وأفضل منهم، وكما أن الملك يتشكل في صور مختلفة يجوز أن تكون أرواحهم كذلك: وقد كان جبريل - عليه الصلاة والسلام - يتمثل للنبي ﷺ في صورة دحية الكلبي، وتمثل لمريم بشراً سوياً.

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب قتل أبي جهل، حديث رقم (3757) [4/1461] ونصه كاملاً: عن قتادة قال ذكر لنا أنس بن مالك عن أبي طلحة أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقتلوا في طوي من أطواء بدر خبيث مخبث وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرضة ثلاث ليال فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها ثم مشى واتبعه أصحابه وقالوا ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته حتى قام على شفة الركي فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قال فقال عمر يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها فقال رسول الله ﷺ والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم قال قتادة أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً ونقمة وحسرة وندماً.

وفي الممكن أن يخص الله تعالى بعض عباده في حال الحياة أيضاً بخاصة لنفسه الملكية القدسية وقوة لها تقدر بها على التصرف في بدن آخر غير بدن المعهود استمرار تصرفها في الأول .

وقد قيل في الأبدال: إنهم إنما سموا أبدالاً؛ لأنهم قد يرحلون إلى مكان ويقيمون في مكانهم الأول شبحاً آخر شبيهاً بشبحهم الأصل بدلاً عنه، هذا أحد ما قيل في تسميتهم أبدالاً .

وإذا جاز في الجن أن يتشكلوا في صور مختلفة، فالأنبياء والأولياء والملائكة - عليهم السلام - أولى بذلك .

عالم المثال :

وقد أثبتت الصوفية عالماً متوسطاً بين الأجساد والأرواح سموه عالم المثال، وقالوا: هم أطف من عالم الأجساد، وأكثف من عالم الأرواح، وبنوا على ذلك تجسد الأرواح وظهورها في صور مختلفة من عالم المثال، وقد يستأنس بقوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [سورة مريم، آية: 17]، فتكون الروح الواحدة كروح جبريل مثلاً في وقت واحد مدبرة لشبحه الأصلي، ولهذا الشبح المثالي .

وينجلي بهذا ما قد اشتهر نقله عن بعض الأئمة أنه سأل بعض الأكابر عن جسم جبريل - عليه الصلاة والسلام - فقال: أين كان يذهب جسمه الأول الذي سد الأفق بأجنحته لما تراءى للنبي ﷺ في صورته الأصلية عند إتيانه إليه في صورة دحية؟ وقد تكلف بعضهم الجواب عنه بأنه يجوز أن يقال: كان يندمج بعضه في بعض إلى أن يصغر حجمه، فيصير بقدر صورة دحية، ثم يعود ينسبط إلى أن يصير كهيئته الأولى بناءً على جواز التحلل والتكاثف في الأجساد .

وما ذكره الصوفية أحسن وهو أن يكون جسمه الأول بحاله لم يتغير، وقد أقام الله تعالى له شبحاً آخر وروحه تتصرف فيهما جميعاً في وقت واحد وكذلك الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ولا بعد في ذلك؛ لأنه إذا جاز إحياء الموتى لهم بإذن الله - تعالى -، وقلب العصا ثعباناً، أو أن يقدرهم الله تعالى على خلاف المعتاد في قطع المسافة البعيدة كما بين السماء والأرض في لحظة واحدة، إلى غير ذلك من الخوارق .

فلا يمتنع أن يخصهم بالتصرف في بدنين، أو أكثر من ذلك، فيجوز أن يكون

موسى - على نبينا وعليه السلام - مع كونه في السماء السادسة تمثل بشبح آخر مثالي في قبره .

فراه النبي ﷺ ليلة أسرى به على ذلك المثل يصلي في قبره، ثم رآه بعد ذلك أو قبل ذلك في السماء السادسة، فتعين حمل صلاته في القبر على أنها صلاة مثالية عن شبح مثالي .

وبهذا يظهر وجه حج الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وتلييتهم بعد موتهم . قال الصوفية : وعلى هذا الأصل تخرج مسائل كثيرة، وتنحل به إشكالات غير يسيرة كقوله : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ [سورة آل عمران، آية : 133] .

وهي فوق السماوات، سقفها عرش الرحمن، كيف أريها النبي ﷺ في عرض الحائط حتى تقدم إليها في صلاته ليقطف منها عنقوداً على ما ورد به الحديث . وجوابه : أنه بطريق التمثيل إلى غير ذلك من الصور .

(يحكى) عن قضيب البان الموصلي، وكان من الأبدال : أنه اتهمه بعض من لم يره يصلي بترك الصلاة، وشدد النكير عليه في ذلك، فتمثل له على الفور في صور مختلفة، وقال : في أي هذه الصور رأيتني ما أصلي .

ولهم حكايات كثيرة مبنية على هذه القاعدة، وهي من أمهات القواعد عندهم . والله أعلم .

هذا كله كلام القونوي سقته بحروفه، وهو أجل من يعتمد عليه في ذلك، فإنه علم من أعلام الشافعية، إمام في الفقه والكلام والمعقول، ليس ممن تلتبس عليه الحالات بالممكنات .

وقد قرر هذه القاعدة وارتضاها واستحسنها، وخرج عليها الأحاديث، واستنبط لها أصلاً من القرآن الكريم، وصرح كما قرىء في كلامه بأنها من الجائز والممكن ومما لا بعد فيه، فما بقي بعد هذا إلا محض العناد .

وقال الإمام الياضي في كتابه (روض الرياحين) :

ومنهم قوم يصلون بين الناس ولا يرون في الصلاة يحتجبون عن الناس بأحوالهم، ولهم أطوار وراء العقل لا تدرك بالعقول، وإنما تدرك بالنور ويعرفها العارفون . وقد سمعت من بعض أهل العلم الظاهر أن بعض الفقهاء كان ينكر على بعضهم ببعض الأشياء المعقولات فقال له : يا فقيه، إن هناك أشياء وراء العقل .

أنظر! أين تراني الآن؟! فنظر إليه فإذا هو في الهواء، وإذا هو في مكانه أيضاً.
ولهذا قال سلطان أهل المحبة ابن الفارض - رضي الله عنه - ونفعني به في الدنيا والآخرة:

ولا تك ممن طيشته دروسه بحيث استقلت عقله فاستقرت
فثم وراء العقل علم يدق عن مدارك غايات العقول السليمة
أي: ثم أمور معلومة عند العارفين بالله لا تدرك بالعقول السليمة لكونها وراء
العقل بل إنما تدرك بالأنوار الصمدية التي خص الله بها أوليائه دون غيرهم.
ولما دخل الإمام العلامة كمال الدين بن الهمام مكة المشرفة اجتمع بالشيخ
عبد الكريم الحضرمي اليمني، وسأله أن يجمعه على القطب، فوعده لوقت معين،
فلما جاء الوقت قال له - في الحرم بإزاء المطاف - ارفع رأسك.
فرفع رأسه، فوجد شيخاً جالساً على كرسي بين السماء والأرض، فتأمله فإذا
هو الشيخ أبو العباس الحنفي السرسبي.

فعند ذلك حصل له دهش عظيم، واستمر يقول في دهشته بأعلى صوته:
هذا صاحبنا ولم نعرف مقامه، فحجب عنه في الحال.
وهذا أيضاً من عالم المثال، ثم لما رجع الشيخ كمال الدين إلى الديار
المصرية، فبادر بالسلام على الشيخ أبي العباس، فلما اجتمع به قبل قدميه، والشيخ
يقول: يا شيخ كمال الدين، تكتم ما رأيته من أحوالنا.
وهذا السيد عبد القادر الكيلاني كان قطباً ببغداد، ومثاله بمكة.
هذا شأن القطب في كل عصر يكون جسده في بلده ومثاله بمكة؛ لأن التشكل
واقع للأبدال فضلاً عن الأقطاب.

فإن قلت: هل المثال الكائن للولي أو غيره من الأنبياء والملائكة عينه وإلا غيره؟
قلت: هو عينه بلا شك، ولهذا حكم على مثال جبريل الكائن في صورة دحية
بأنه جبريل، فكان ﷺ يقول: جاءني جبريل، وأخبرني جبريل، ونزل عليّ جبريل،
وفي بعض الأحاديث: ذاك جبريل أتاني في صورة دحية.
وفي حديث الإسلام والإيمان «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»⁽¹⁾.

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، حديث رقم (8) [36/1]
وفي رواية البيهقي ورد عبارة [ذاك جبريل] بدل [فإنه جبريل] سنن البيهقي، كتاب الحج،
حديث رقم (8392) [324/4].

وفي بعض طرقه: «ما أتاني في صورة إلا عرفته، إلا هذه المرة»⁽¹⁾.
 وفي حديث بدء الوحي: «وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني، فأعي ما يقول»⁽²⁾.

فهذا كله حكم على الشيخ المثالي بأنه عين جبريل لا غيره.
 وهذه الأحاديث صريحة في الاستدلال على قول سلطان أهل المحبة شرف الدين ابن الفارض رضي الله عنه.

وها دحية وافى الأمين نبينا بصورته في بدء وحي النبوة
 أجبريل قال لي كان دحية إذ بدا لمهدي الهدى في صورة بشرية
 وفي علمه من حاضريه مزنة بماهية المرئي من غير مربة
 يرى ملكاً يوحى إليه وغيره يرى رجلاً يدعى لديه بضحة

قال الشيخ عبد الغفار القوسي في كتاب «الوحيد في علم التوحيد»:
 وكثيراً ما تتشكل المعاني، فأخبرني فقير عنم كانت به سعلة فسأل الله أن يريه
 تلك السعلة، قال: فكنت أراها مثل الجراداة تأتي إليّ وتغوص بين كتفي، وأنا أنظر
 إليها حتى تنتهي إلى الرئة فأسعل عند ذلك، فإذا خرجت أنظر إليها حتى تخرج
 وتطير، فيسكن عني السعال.

قال: وأخبرني الشيخ عبد العزيز عن قبره، لما كان الغلاء كنت لا أشبع فسأله
 الله تعالى الكشف عن ذلك، فرأيت في معدتي شيئاً كالسرطان، فلما نزلت لقمة فتح
 فاه والتقمها، وأنا أنظر إليه.

قال: وأخبرني فقير أنه كان يرى النوم عندما لا يأتيه كأنه سحاب أو دخان
 فعندما يأتيه يغشاه المنام.

قال: وأعرف فقيراً شهد الرحمة تنزل على قوم يذكرون الله، وهي كيباض
 القطن منتشرة، وفي اللطافة ألطف منه.

قال: وجنود الله المعنوية لا تدخل تحت العبارة، ولا يشهد صورها إلا

(1) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء، ترجمة عبد العزيز بن أبي رواد [202/8].
 (2) رواه البخاري في صحيحه، باب بدء الوحي، حديث رقم (2) [4/1] ورواه ابن حبان في
 الصحيح، ذكر وصف نزول الوحي على رسول الله ﷺ، حديث رقم (38) [225/1] ورواه
 غيرهما.

المحققون، وسالكو طريق الله بحسب ما أعطاهم من ذلك.

قال: وكل ما يقع لأولياء الله مما هو خرق عادة هنا، فإنه عادة في عالم البرزخ وعالم الآخرة، فلما كان للأولياء نصيب محقق من تلك الدار ظهرت عليهم آثارها في هذه الدار، وإن كان هنا خرق للعوائد فهو في تلك الدار عادة لهم في جميع أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم؛ لأن خرق العادة من أحوال أهل الجنة لأنها عادتهم في مآكلهم، ومشاربهم، ومناكحهم، وشهواتهم.

حتى إن الشخص يخطر له الخطرة في الشهوات، فحين يخطر لي ذلك يجده عنده من غير كلفة.

وكذلك سمعهم وبصرهم، إذ يشهد كل واحد منهم جميع المستحسنتات على اختلاف أنواعها وأجسادها بحسب ما أعطاه الله من الرتبة في تلك الدار وكذلك الشم كل ما انتشق برائحته، ورد عليه رائحة أطيب منها، فالأولى باقية، والثانية واردة، والثالثة باقية والرابعة واردة، وهذا إلى ما لا نهاية له.

وكذلك لذة السماع كلما تنعم بسماع صوت، ورد عليه ما هو أطيب منه، واللذة الأولى باقية.

وكذلك لذة النكاح وجميع الحواس الظاهرة والباطنة وكذلك أحوال أهل النار كلما تألم واحد من عذاب، ورد عليه ما هو أشد منه، والأول باقية.

قال: وأهل هذا الشأن قوم اختصهم الله لما يريد، وصرفهم فيما يريد، وأطلعهم على ما يشاء من حكمته في ملكه وملكوته، وجعلهم لهذه المملكة الظاهرة كالروح للجسد، فالملوك والحكام يتصرفون في الظاهر كتصرف الجسد على الروح، وأرباب الأمر من الغوث والقطب والأقطاب والأوتاد والأبدال لهم التصرف الباطن عن شهود الحكمة وتخصيص الإرادة وقيام الحكم وفي وقائع الوجود التي لا تدخل تحت القياس ولا يدركها العقل والحواس.

فمنها: أن الخليفة والإمام في الظاهر في كل زمان إذا بُوع له، ولم يكن فيه شروط ذلك مد صاحب الوقت يده للمبايعة حتى تنعقد البيعة بالصحة، ويبقى ظاهر الحكم بالشوكة، وهذا وأمثاله تعرفه أهل هذه الطريق.

بعض من خوارق العادات:

وقال اليافعي في «كفاية المعتقد ونكاية الممتقد».

إنما سمي الأبدال أبدالاً؛ لأنهم إذا غابوا تبدل في مكانهم صور روحانية تخلفهم قال: وينبني على ذلك ما حكى عن الشيخ مفرج الدماميلي أنه رآه بعض أصحابه يوم عرفة بعرفة، ورآه آخر في مكانه من زاويته بدمامل لم يفارقه في جميع ذلك اليوم.

فلما رجع الحاج ذكر كل واحد منهما لصاحبه وتنازعا في ذلك، وحلف كل بالطلاق، فاختصما إليه، فأقرهما، وأبقى كلا منهما على الزوجية.

قال الشيخ الجليل الشهير صفي الدين بن أبي المنصور - رحمة الله عليه -: فسألت الشيخ مفرج المذكور - رضي الله عنه - عن حكمه في هذه القضية بعدم حنث الاثنین، مع كون صدق أحدهما يوجب حنث الآخر.

وكان معنا في وقت سؤالي له رجال معتبرون لهم معرفة بالعلم. فقال لنا الشيخ قولوا: يعني تكلموا في هذه المسألة.

وكان ذلك إذناً لنا منه بأن نتكلم في شرح هذه المسألة، والحكم فيها فتحدث كل منهم بوجه غير كافٍ، وكانت المسألة قد اتضحت لي.

وأشار الشيخ إليّ بإيضاحها. فقلت: الولي إذا تحقق في ولايته مكن من التصور في صور عديدة، وتظهر على روحانيته في وقت واحد في جهات متعددة، فهو يعطى التطور في الأطوار والتلبس في الصور على حكم إرادته.

فالصورة التي ظهرت لمن رآها بعرفة حق، والصورة التي رآها الآخر في مكانه في ذلك الوقت حق، وكل منهما صادق في يمينه.

فقال الشيخ ما مر بي هذا هو الصحيح يشير إلى صحة ما أوضحته في صورة ما حكم بين المتنازعين قلت ووقعت هذه المسألة أيضاً بعينها في زمن شيخ الإسلام شرف الدين البازري فأفتى فيها بعدم الطلاق على كل منهما. ولقد أخبرني شيخنا العلامة أحد أعيان الشافعية شمس الدين بن قاسم قد وقف على صورة ما أفتى به البازري في ذلك بعد أن وقعت أيضاً في زماننا وجهل الحل فيها بعض الأغبياء الجاهلين فإن قلت: خارقا العادة لا يعول عليها في الشرع لما في شرح المهذب في حديث الصلاة على النجاشي.

وقول الحنفية إنه يحتمل أنه دفع إلى النبي ﷺ خرق العادة حتى صلى عليه قال النووي في جواب ذلك لو أخذ بهذا لم يوثق بشيء من الأحكام فدل على أن خرق

العادة لا يعول عليه في الشرع قلت هذا جفاء محض فالله أكبر، ما بقي له من فهم يدرك به مقاصد العلماء.

فرحم الله شيخ شيوخنا العلامة أستاذ الوجود محيي الدين الكافحي كان إذا سمع من بعض من على رأسه عمامة شيئاً من هذه العبارات يقول لو أن لي حكماً ربطته في الساقية أو الطاحون.

أصل القضية: أن الشافعية جوزوا الصلاة على الغائب تمسكاً بصلاته ﷺ على النجاشي وهو غائب.

والحنفية: يمتنعون ذلك ويجيبون على الحديث باحتمال: أنه رفع إلى النبي ﷺ معجزة له حتى صلى عليه فكانت صلاته على حاضر لا على غائب.

فأجاب النووي عن ذلك بأن هذا الذي ذكروه احتمال لم يثبت نقله في الآثار الواردة والمعجزات توقيفية لا يُقال فيها بالإمكان العقلي ولو علمنا بكل أمر محتمل لم يوثق بشيء من الأحكام لأنه ما من حديث دل على حكم إلا ولا يخلو من احتمال ممكن فألقينا ذلك حتى يثبت فإذا ثبت النقل عمل به ولم يرد.

وإلا فسائر الخوارق الثابتة يعول عليها في الشرع بإجماع المحققين لأن قول النووي، «لو أخذ بهذا لم يوثق بشيء من الأحكام» أي لو أخذ بهذا الاحتمال العقلي للزم الدور والتسلسل لأنه ما من احتمال عقلي إلا ويحتمل نقضه باحتمال آخر، فعلى هذا لم تستقر الأحكام على شيء بطريق اللزوم.

فالإشارة حينئذٍ بهذا الاحتمال العقلي لا بخرق العادة فافهم وتدبر، ونظير مسألتنا هذه أن يحلف حالف بالطلاق أن النبي ﷺ حصل له الخارق الفلاني وكان ذلك مما ورد به خبر ولو ضعيفاً فإنه لا يقع عليه الطلاق قطعاً مثاله من حلف أن النبي ﷺ رفع إليه وهو في غزوة تبوك معاوية الليثي ويقال المزني حتى صلى عليه معجزة له للاعتماد على الحديث الذي أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب والبيهقي في الدلائل وغيرهما.

فهل يقول قائل: بأن هذا الحالف يحنث إن قال نعم فقد غشها وكفر وإن قال لا قلنا: كيف عولت على الخارق ولم يحنث به وهل هذا إلا نظير من حلف أن الولي الفلاني حصلت له الكرامة الفلانية فلا سبيل إلى حنثه حيث كانت تلك الكرامة ممكنة عقلاً وإن كانت خارقة للعادة ولو كانت من المحال من ينص عليها القانوني والبارزي وأضرابهما والله أعلم.

قال الإمام الياضي فإن قلت لا سبيل إلى أن يسلم الفقيه ذلك ولا يسوغ في عقله أبداً ولا يصح الحكم عنده بعدم حث الاثنين أبداً إذ وجود شخص في مكانين في وقت واحد محال في العقل .

فالجواب عن هذا هو ما أجاب الشيخ صفي الدين المذكور وليس ذلك محالاً لأنه إثبات تعدد الصور الروحانية وليس ذلك بصورة واحدة حتى يلزم منه المحال . قال الياضي فإن قيل: فالإشكال باقي في تعدد الصور في شخص واحد فالجواب أن ذلك قد وقع وشوهد ولا يمكن جرده وأن يحير فيه العقل . من ذلك ما اشتهر عند كثير من الفقهاء وغيرهم أن الكعبة المعظمة شوهدت تطوف بجماعة من الأولياء في أوقات في غير مكانها ومعلوم أنها في مكانها لم تفارقه في تلك الأوقات فعلم من هذا أن من وراء العقل طوراً آخر انتهى كلام الياضي بحروفه .

فإن قلت هذا أمر لا يسعه عقلي ولا أسلم ذلك إلا بدليل شرعي قلت تدمغ رأسك دماغاً بحديث صحيح لا تستطيع أن تكذب به ومتى كذبت به كفرت . وهو ما أخرجه الإمام أحمد وابن أبي شيبة والنسائي والبخاري والطبراني وأبو نعيم بسند صحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لما أسري بي فأصبحت بمكة قطعت وعرفت أن الناس مكذبي فذكر الحديث إلى أن قال: قالوا وتستطيع أن تتعت المسجد وفي القوم من قد سافر إليه .

قال رسول الله ﷺ: «فذهبت أنعت فما زلت أنعت حتى التبس علي بعض النعت فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل بن أبي طالب وأنا أنظر إليه»⁽¹⁾ فهذا حديث صحيح مصرح بنقل بيت المقدس إلى المسجد الحرام في تلك الساعة بنص رسول الله ﷺ .

ومعلوم أن أهل بيت المقدس لم يفقدوه تلك الساعة في بلدهم ولو فقدوه لنقل ذلك وشاع فعلم أنه نقل إلى المسجد الحرام مع بقائه في مكانه فكذلك ما يدعى من الأولياء لأن معجزات الأنبياء كرامات الأولياء .

فإن قلت أرني ما ذكرت بصيرة بالنقل عن جماعة من علماء المنقول والمعقول

(1) رواه أحمد في المسند، عن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، حديث رقم (2820) [1]

[309] ورواه ابن أبي شيبة في المصنف، حديث المعراج . . ، حديث رقم (36572) [7]

[334] ورواه غيرهما .

فإن عقلي لا يقبل ذلك وقد لا يوافق أئمة المعقول على ذلك أو يظن بعض الناس أن هذا أمر خارق عن قوانين العقل قلت هذا الإمام العلامة علاء الدين القونوي شارح الحاوي وكان أحد أئمة الدين في المنقول وأحد الجبال الراسخين في المعقول نص على ما ذكرناه بعينه فقال في كتابه «شرح التعرف» ما نصه: من سافر من القوم عن موضع وترك جسداً على صورته حتى لا يعرف أحد أنه فقد ذلك البدن «هذا لفظه بحروفه أفتظن بالقونوي أنه كان عارياً عن قواعد المعقول حتى قرر هذا المحال أو أقره.

وذكر مثل هذا من أئمة العلم والتحقيق الإمام أبو الفضل محمد بن إبراهيم التلمساني المالكي أحد مشايخ كمال الدين الشمسي في كتابه «مصابيح الرحمة ومفاتيح الحكمة».

وقال القاشاني في كتابه الاصطلاحيات: البداء رجال يسافر أحدهم إلى موضع ويترك فيه جسداً على صورته بحيث لا يعرف أحد أنه فقد في ذلك ومعنى البدن لا غيره، فنرى هؤلاء الأئمة كلهم فسدت عقولهم حتى قرروا الخرافات والمحالات معاذ الله ثم معاذ الله بل المنكر لذلك كل ذهنه ووقف فهمه.

قال الياضي: ومما ورد مسنداً بالأسانيد المتعددة عن جماعة من الشيوخ أن الشيخ عبد القادر الكيلاني حضر في مجلسه أبو المعالي أحمد بن محمد البغدادي المتأخر فأخذته حقنة شديدة منعه من الحركة وبلغت منه الجهد فنظر إلى الشيخ عبد القادر نظر المستغيث فنزل الشيخ من الكرسي الذي يتكلم عليه مرقاة فظهر على تلك المرقاة رأس كراس ابن آدم.

ثم نزل أخرى فظهر كتفان وصدر وما زال ينزل مرقاة مرقاة حتى تكملت صورة كصورته «تتكلم» على الناس بصوت مثل صوته، وكلام مثل كلامه ولا يرى ذلك إلا هو، ومن شاء الله من الأولياء الحاضرين.

وحاشر الناس حتى وقف عليه وغطى رأسه بكفه (فإذا هو في الصحراء ببقعة فيها نهر عنده شجرة، فعلق مفاتيح كانت في كفه) وأزال حقنته وتوضأ من ذلك النهر وصلى ركعتين، فلما سلم الشيخ زال الغطاء عنه فإذا هو في المجلس، وأعضاؤه مبلولة بالماء، والشيخ على الكرسي يتكلم عليه لم ينزل منه وتفقد مفاتيحه فلم يجدها معه.

ثم بعد مدة خرجت قافلة من بغداد إلى بلاد العجم وساروا من بغداد أربعة عشر

يوماً، فنزلوا منزلاً في برية فيها صحراء، فذهب ذلك الرجل فيها ليزيل حقتته، فقال: ما أشبه هذه الصحراء بتلك الصحراء، وذكر شأنه في ذلك اليوم، فإذا هو بذلك النهر والشجرة، ويرى مفاتيحه معلقة. وقال: يا أبا المعالي، لا تذكر هذا لأحد وأنا حي، فلازم خدمته إلى أن مات - رضي الله عنه - .

وقال الشيخ كمال الدين الدميري شارح المنهاج في «حياة الحيوان الكبرى»: وعن سهل بن عبد الله التستري قال: توضحت يوم الجمعة، ومضيت إلى الجامع، وذلك في أيام البداية، فوجدته قد امتلأ بالناس، وقد هم الخطيب أن يرقى المنبر، فأسأت الأدب ولم أزل أتخطى رقاب الناس حتى وصلت إلى الصف الأول، فجلست وإذا عن يميني شاب حسن المنظر، طيب الرائحة، عليه نسمة التصوف، فلما نظر إليّ قال: كيف حالك؟ قلت: بخير أصلحك الله. وبقيت متفكراً في معرفته لي، وأنا لم أعرفه.

فبينما أنا كذلك إذ أخذني حرقان بول فأكرمني، فبقيت على وجل خوفاً أن أتخطى رقاب الناس، وإن جلست لم تكن لي صلاة، فالتفت إليّ وقال: يا سهل، أخذك حرقان بول؟ قلت: أجل، فنزع إحرامه عن منكبيه، فغشاني به. ثم قال: اقض حاجتك وأسرع لتلحق الصلاة.

قال: فغمي عليّ، فلما فتحت عياني، وإذا بباب مفتوح فسمعت قائلاً يقول: ليج الباب يرحمك الله، فإذا بقصر مشيد، غالي البنيان، شامخ الأركان، وإذا بنخلة قائمة وإلى جانبها مطهرة ومنشفة «معلقة وسواك فحللت لباسي وأرقت الماء، ثم اغتسلت وتنشفت بالمنشفة»، فسمعته ينادي: يا سهل، إن كنت قضيت أربك، فقل: نعم.

فقلت: نعم. فنزع الإحرام عني، فإذا أنا جالس ولم يشعر بي أحد، فبقيت مفكراً في نفسي، وأنا مكذب نفسي فيما جرى، فقامت الصلاة، فصليت ولم يكن لي شغل إلا الفتى لأعرفه، فلما فرغ تبعت أثره، فإذا به قد دخل إلى درب، فالتفت إليّ وقال: يا سهل، كأنك ما أيقنت بما رأيت؟ قلت: كلا. قال: فلج الباب يرحمك الله، فنظرت الباب في الحال بعينه.

فولجت القصر، فنظرت النخلة والمطهرة والحال بعينه، فمسحت عيني وفتحتها فلم أجد الفتى ولا القصر.

قال الدميري: وإنما ذكرت هذه الحكاية لأنها من جملة العجائب عند غير هذه الطائفة، ولا يكاد يؤمن بها كثير من الناس، ولها احتمالات منها: أنه «يحتمل» أنه نقل من مكانه لما أغمي عليه إلى حيث ما شاء الله من غير شعور منه، ثم أعيد إلى مكانه لطفاً من الله، وكرامة لأوليائه. قاله شيخنا اليافعي رحمه الله، أيضاً:

وروينا عن بعض الأكابر أنه قال: ما الشأن في الطيران، إنما الشأن في اثنين أحدهما بالمشرق، والآخر بالمغرب يشتاق كل واحد منهما إلى زيارة الآخر، فيجتمعان ويتحدثان ويعود وكل واحد منهما في مكانه لم يبرح عنه.

فإن قيل: من هم أهل هذا المقام الذي أشار به هذا القائل؟ قلت: هم الذين زوي لهم البحر، كما روي مسنداً في مناقب الشيخ عبد القادر الكيلاني «قدس الله سرّه» عن الشيخ محمد بن الأزهر - رحمه الله - قال: مكثت مدة أسأل الله تعالى أن يريني أحداً من رجال الغيب، فرأيت في المنام فاستيقظت من النوم ورجوت أن أراه في اليقظة.

فأتيت قبر الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في وقتي، فرأيت الرجل الذي رأيت في المنام بعينه، فخرج قدامي، فتعجلت في الزيارة وتبعته حتى وصل إلى دجلة، فالتقي له طرفاها حتى صارت بقدر خطوة، فعبرها إلى الجانب الآخر، فأقسمت عليه أن يقف ليكلمني.

فوقف. فقلت له: ما مذهبك؟ فقال: حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين. فوقع عندي أنه حنفي المذهب وانصرف.

فقلت في نفسي: آتي الشيخ عبد القادر وأذكر ما رأيت، فأتيت مدرسته ووقفت على بابه، فناداني من داخل داره: يا محمد، ما في الأرض من المشرق إلى المغرب ولي الله حنفي سواه.

هذا آخر كلام اليافعي بحروفه.

قلت: وممن زوي له البحر أيضاً من المتأخرين القطب الرباني سيدي علي بن وفا الشاذلي، وذلك أنه لما وصل إلى روضة مصر، وقف على شاطئ بحرهما، فالتقى له الطرفان بحيث صار البحر قدر خطوة، فأمسك نفسه ولم يعبر إلى الجانب الآخر. فقال له بعض من كشف له عن ذلك من الأولياء الحاضرين: إن الله أكرمك

بكرامة فلم لا تقبلها؟ فقال: قصدت أن أدخرها عند الله لوقت المرور على الصراط .
ومن الخوارق أيضاً: ما حكاه الشيخ عبد الغفار القوسي في كتاب «الوحيد»
قال: أخبرني الشيخ أبو الطاهر إسماعيل بن عبد المحسن أحد أصحاب الشيخ أبي
يحيى، وقد صحبته سنيناً كثيرة: أنه دخل مرة في موضع يفصدني الفاصد. قال:
ووصلت إلى قلبك فوجدته قلباً صغيراً نورانياً.

فقل لي: ما تريد؟ فقلت: أريد أعرف ما فيه؟ فقل: لا سبيل إلى ذلك، ولكن
انظر ما على جنبه قال: فنظرت فوجدت مكتوباً عليه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ
وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَّهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة الأنعام،
الآيتان: 162، 163].

قلت: إن كان أحد من أهل العصر لا يصدق بدخول الولي إلى باطن الإنسان
من موضع الفصادة، قطعنا رأس جهله بسيف النبوة، وهو قوله ﷺ:
«إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»⁽¹⁾:

فإذا أعطي الشيطان قوة الدخول بجسمه في العروق والمسالك الضيقة، فلا
يبعد أن يعطى الولي ذلك كرامة.

وأخرج «اللالكائي» في السنّة من طريق الأوزاعي عن القاسم قال: كان لأبي
قلاية الجرمي ابن أخ يركب المحارم، فاحتضر، فجاء طيران أبيضان يشبهان النسر
فجلسا في كوة البيت، فقال أحد الطائرین لصاحبه: انزل ففتشه. فغرق منقاره في
جوفه، وذلك بعين أبي قلاية.

فقال الطائر لصاحبه: الله أكبر! انزل فقد وجدت في جوفه تكبيرة كبرها في
سبيل الله على سور أنطاكية، فأخرج الطائر خرقة بيضاء، فلغا روحه في الخرقة، ثم
احتملها، ثم قال: يا أبا قلاية، قم إلى ابن أخيك فادفنه فإنه من أهل الجنة. وكان
أبو قلاية عند الناس ديناً صالحاً، فخرج إلى الناس فأخبرهم بالذي رآه، فما رأيت
جنازة أكثر أهلاً منها.

وأخرج اللالكائي أيضاً عن ميمون المرادي قال: كان عندنا رجل من أهل

(1) رواه إسحاق بن راهويه في المسند، ما يروى عن صفية وجويرية وزينب . . . حديث رقم
(10 - 2084) [259/4] ورواه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق، ذكر من اسمه عثمان،
حديث رقم (4621) [10/40] ورواه غيرهما.

المعاصي، فمات، فتحاماه الناس، فرموا به على الطريق.
فجلست أفكر فيه وفي تجنب الناس له إذا خفقت برأسي فإذا أنا بطائرين
أبيضين. فقال أحدهما لصاحبه: ادخل فانظر، هل ترى خيراً؟
فدخل من يافوخه، فخرج من دبره، وهو يقول: ما رأيت خيراً!
قال: فلا تعجل. فدخل الثاني من يافوخه فخرج من خمصان قدميه، وهو
يقول: الله أكبر، كلمة الشهادة لاصقة بطحاله فقلت للناس هلموا.

تنبيه:

إذا تقرر ذلك فلا بأس باستطراد شيء مناسب للمقام، وهو رؤية الملائكة
عليهم السلام في اليقظة:

رؤية الملائكة يقظة:

قال الأنطاكي: في رسالته إلى القاضي أبي نصر وقفت عليها ما نصه:
كنت جالساً بمكة وحولي جماعة من الصالحين، وفينا رجل هاشمي فغشي
عليه. فلما أفاق قال: أما رأيتم ما رأيتم؟! قلنا: ما رأينا شيئاً.
قال: رأيت الملائكة محرمين يطوفون حول الكعبة في الهواء، فقلت لهم؛ من
أنتم؟ فقالوا: ملائكة. فقلت: كيف حبكم الله تعالى:
قالوا: نحن حبنا جواني وحبكم براني. انتهى.
قلت: قد تعرض لهذه الحكاية جمع من الأئمة كالشيخ عفيف الدين اليافعي
وأحزابه، والله أعلم.

وقال الأنطاكي أيضاً: دخلت قبة بيت المقدس بالليل فبت فيها، فبينما أنا قائم
أصلي إذ انشقت القبة نصفين، فبقيت مشقوقة حتى أبصرت السماء، فنزل منها خلق
لا يحصي عددهم إلا الله تعالى، وهم يقولون: سبحانه هو هو! سبحان من ليس إلا
هو.

فلم يزالوا يقولون هذا، فلما كان آخر الليل، قال لي واحد منهم كان في
جنبي: ما قصتك؟ قلت: أحببت أن أصلي في هذا الموضع بالليل. من أنتم؟ فقال:
نحن الملائكة دخلنا أمس البيت المعمور ولا نعود إليه إلى يوم القيامة، وذلك أنه
يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة لا تجيء نوبتهم إلى يوم القيامة.

فإذا دخلوا في يومهم ساروا في تلك الليلة إلى بيت المقدس إلى الصخرة ثم يمشون إلى بيت الله الحرام، فيطوفون به أسبوعاً، ويصلون خلف المقام ركعتين ويمضون إلى المدينة فيسلمون على محمد ﷺ قال: ثم يرجعون إلى مصافهم. فلما صعّدوا انضمت القبة، وأصبحتُ.

وقال اليافعي: حكى عن سهل بن عبد الله التستري - رضي الله عنه - أنه قال: مخالطة الولي للناس ذل، وتفرده عز، قال: ما رأيت ولياً لله إلا منفرداً. وحكى أن عبد الله بن صالح كان رجلاً له سابقة وموهبة جزيلة، وكان يفرّ من الناس من بلد إلى بلد حتى أتى مكة، فطال مقامه بها. فقلت له: لقد طال مقامك بها. فقال لي: لما لا أقيم بها، ولم أرَ بلداً تنزل فيه البركة والرحمة أكثر من هذا البلد، والملائكة تغدو فيه وتروح.

إنني أرى فيه أعاجيب، وأرى الملائكة يطوفون بالبيت على صور شتى لا يقطعون ذلك ولو قلت كل ما رأيت لصغرت عنه عقول قوم ليسوا بمؤمنين.

فقلت له: أسألك بالله إلا ما أخبرني بشيء من ذلك!

فقال: ما من وليّ لله عزّ وجلّ صحّت ولايته إلا وهو يحضر هذا البلد في كل ليلة جمعة لا يتأخر عنه، فمقامي هاهنا لأجل من أراه منهم.

ولقد رأيت رجلاً يقال له مالك بن القاسم الحنبلي، وقد جاء ويده غمرة. فقلت له: إنك قريب عهد بالأكل. فقال: أستغفر الله فإنني منذ أسبوع لم آكل شيئاً، ولكن أطعمت والدي، وأسرعت لألحق صلاة الفجر، وبينه وبين الموضع الذي جاء منه تسع مائة فرسخ. فهل أنت مؤمن بذلك؟ قلت: نعم. قال: الحمد لله الذي أراني مؤمناً.

قلت: وقد تسع مائة فرسخ مائة وسبعة عشر مرحلة، وذلك مسيرة ثلاثة أشهر وسبعة وعشرين يوماً في مجرد سير النهار دون الليل والليل دون النهار. انتهى كلام اليافعي.

وقال الإمام العارف لسان الحقيقة وشيخ الطريقة صفي الدين حسين بن أبي المنصور الأزدي: في رسالته حاكياً عن شيخه الأستاذ الرباني أبي العباس أحمد الخراز قال: مرضت مرة في بلدي إشبيلية بغرب الأندلس، فكنت مضجعاً على ظهري، وإذا أنا أشهد طيوراً كباراً ملونة بالأخضر والأبيض والأحمر، يرفعون

أجنتهم رفعة واحدة، ويضعونها وضعاً واحداً، وأشخاصاً على أيديهم أطباق مغطاة فيها تحف، فوقع لي أنها تحفة الموت، فاستقبلتها وتشاهدت .
فقال لي واحد منهم: أنت ما جاء وقتك، هذه تحفة مؤمن غيرك قد جاء وقته، ولم أزل أنظر إليه إلى أن غابوا.

وقال الشيخ عبد الغفار القوصي في كتاب: «الوحيد في علم الوحيد»: أخبرني الشيخ ناصر الدين بن عبد القوي قال: قلت للشيخ تاج الدين بن شعبان: يا سيدي: أنت تحتد. قال: وكان في الشيخ حدة. فقال لي: اعذرني فهذه الحدة ما اكتسبتها إلا من كثرة صحبتي لجبريل - عليه السلام.

قال الشيخ عبد الغفار: وقول الشيخ «قال لي جبريل، وقلت لجبريل» غير مستحيل، ولا ممتنع: وإنما يصير ذلك مستحيلاً على من لا يعرفه، ولا ألف قلبه عالم الملكوت. ومخاطبات الملائكة وملاءمتهم أكثر من ملاءمة غيرهم من الناس؛ لأن أرواحهم وأرواح الملائكة مجتمععة في عالم الملكوت، وأسرارهم سارية فيما وراء ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [سورة يونس، آية: 64].

ففي هاتين الآيتين وغيرهما من الآي إشارة وكفاية مع عدم استحالة ذلك ووجود جوازه ولا يكون ذلك عارضاً في ختم النبوة، وقول النبي ﷺ «لا نبي بعدي»⁽¹⁾.

فليس هذا نبوة ولا وحياً ولا إرسالاً.

وقال اليافعي: في «روض الرياحين» عن الشيخ أبي عمران الواسطي رضي الله عنه قال: خرجت من الحرم فأصابني عطش شديد حتى أيست من نفسي، فجلست تحت شجرة أم غيلان.

إذ أقبل فارس على فرس أخضر وسرجه ولجامه وآلته خضر، وفي يده قدح أخضر فيه شراب أخضر، فدفعه إليّ وقال لي: اشرب. فشربت ثلاث مرات ولم

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، حديث رقم (3268) [1273/3] ورواه مسلم في صحيحه، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، حديث رقم (1842) [1471/3] ورواه غيرهما.

ينقص مما في القدح، ثم قال لي: أين تريد؟ فقلت: المدينة لأسلم على النبي ﷺ وأسلم على صاحبيه رضي الله عنهما.
فقال: إذا وصلت وسلمت على النبي ﷺ فقل لهم: رضوان يقرئكم السلام.
انتهى.

قلت: هذه حكاية شريفة لا إنكار فيها شرعاً؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [سورة يونس، آية: 64].
وممن تعرض لهذه الحكاية من الأئمة المعترين الأعلام: الشيخ كمال الدين الدميري في «حياة الحيوان الكبرى».

بل كانت رؤية الملائكة معهودة في الصدر الأول بين الصحابة والتابعين، واشتهر وقوع ذلك بين أرباب الولايات، وصار عندهم كالشمس في الظهيرة.
وهذا نوع من الكشوفات التي خصّ الله تعالى بها أولياءه، وأكرمهم بها دون سائر خلقه، كما صرح بذلك حجة الإسلام الغزالي - رحمه الله تعالى - في كتابه «المنقذ من الضلال».

ولا ينكر ذلك إلا من ألبسه الله ثياب العناد، وطوقه بطوق الانتقاد، فهو لم يزل يتعثر في أذيال المقت والإبعاد، ولا سيما جماعة من أهل زماننا، فإنهم لا يؤمنون بذلك ولا بغيره من الخوارق، بل إذا سمعوا أشياء من ذلك أنكروه أشد إنكاراً؛ لجهلهم ولعدم اطلاعهم على آثار السلف.

ولقد بلغني من طرق عديدة: أن الشيخ الفقيه «عبادة» أحد أعيان المالكية كان يقول: لقد شاهدت الملائكة جهرة تنزل عليّ في خلوتي، وذلك بمسجد الشيخ الإمام العارف بالله مدين أحد أصحاب الشيخ العارف أحمد الزاهد.

وقال الأنطاكي في رسالته: رأيت الغوث - رحمه الله وهو القطب، واسمه أحمد بن عبد الله البخلي بمكة سنة خمس عشرة وثلاثمائة على عجلةٍ من ذهب.
والملائكة عليهم السلام - يجرون العجلة بسلاسل من ذهب. فقلت: إلى أين تمضي؟ فقال: إلى أخ من إخواني اشتقت إليه. فقلت: لو سألت الله أن يسوقه إليك. فقال: وأين ثواب الزيارة؟

قال الياضي: قد سبق فهم بعض الناس إلى إنكار هذا، وليس ذكره بمنكر لأنه لم يفعل ذلك بنفسه، بل فعله الحق سبحانه وتعالى وزفه في عالم الملكوت، لا في العالم الذي هو محل التكليف.

فلو أن الله تعالى أذن لبعض عباده أن يلبس ثوباً حريراً مثلاً، وعلم العبد ذلك الإذن يقيناً، فلبسه لم يكن منتهكاً للشرع. فإن قيل: من أين يحصل له علم اليقين؟ قلت: من حيث حصل للخضر رضي الله عنه حين قتل الغلام، وهو وليّ لا نبّي على الصحيح عند أهل العلم.

دليل رؤية الملائكة من السنّة:

فإن قلت: ما الدليل على رؤية الملائكة من السنّة؟

قلت: دليل ذلك ما أخرجه أبو موسى المدني في المعرفة عن تميم بن سلمة قال: «بينما أنا عند النبي ﷺ إذ انصرف من عنده رجل، فنظرت إليه مولياً معتمماً بعمامة قد أرسلها من ورائه. قلت: يا رسول الله ﷺ من هذا؟ قال: هذا جبريل»⁽¹⁾.

وأخرج الإمام أحمد بن حنبل، والطبراني، والبيهقي بسند صحيح، عن حارثة بن النعمان قال: مررت على رسول الله ﷺ ومعه جبريل، فسلمت عليه ومررت، فلما رجعت وانصرف النبي ﷺ قال: هل رأيت الذي كان معي؟

قلت: نعم. قال: فإنه جبريل عليه السلام، وقد ردّ عليك السلام»⁽²⁾.

وأخرج ابن شاهين عن القاسم أن حارثة أتى النبي ﷺ وهو يناجي رجلاً فجلس ولم يسلم. فقال جبريل: أما إنه لو سلم رددنا عليه»⁽³⁾.

وأخرج ابن سعد عن حارثة قال: رأيت جبريل من الدهر مرتين»⁽⁴⁾.

وأخرج الإمام أحمد والبيهقي عن ابن عباس قال: كنت مع أبي عند رسول الله ﷺ وعنده رجل يناجيه، فكان كالمعرض عن أبي، فخرجنا فقال لي أبي: يا بني ألم تر إلى ابن عمك كالمعرض عني؟

(1) أورده ابن حجر العسقلاني في الإصابة في تمييز الصحابة، برقم (847) تميم بن سلمة [1/371].

(2) رواه أحمد في المسند، عن حارثة بن النعمان رضي الله عنه، حديث رقم (23727) [5/433] ورواه الطبراني في الكبير عن حارثة بن النعمان، حديث رقم (3226) [3/228] ورواه غيرهما.

(3) رواه الذهبي في سير أعلام النبلاء، فصل في بقية كبراء الصحابة [2/370].

(4) أورده السيوطي في الخصائص الكبرى، ذكر المعجزات في رؤية أصحابه الملائكة . . . [2/155] وعزاه إلى ابن سعد في الطبقات.

قلت: يا أبت إنه كان عنده رجل يناجيه، فرجع فقال: يا رسول الله قلت لعبد الله كذا وكذا، فقال: إنه كان عندك رجل يناجيك.. فهل كان عندك أحد؟ قال: وهل رأيت يا عبد الله؟ قلت: نعم. قال: ذاك جبريل هو الذي كان يشغلني⁽¹⁾. وأخرج ابن سعد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: رأيت جبريل مرتين، ودعا لي رسول الله ﷺ مرتين⁽²⁾.

وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال: عاد رسول الله ﷺ رجلاً من الأنصار، فلما دنا من منزله سمعته يتكلم في الداخل.

فلما دخل لم نر أحداً. فقال رسول الله ﷺ: مَنْ كُنْتَ تُكَلِّمُ؟ قال: يا رسول الله دخل عليّ داخل ما رأيت رجلاً قط بعدك أكرم مجلساً، ولا أحسن حديثاً منه، قال: ذاك جبريل، وإن منكم لرجالاً لو أن أحدهم أقسم على الله لأبره⁽³⁾.

وأخرج الطبراني عن محمد بن سلمة قال: مررت على رسول الله ﷺ واضعاً خده على خد رجل فلم أسلم، ثم رجعت فقال لي: ما منعك أن تسلم؟ قلت: يا رسول الله رأيتك فعلت بهذا الرجل شيئاً ما فعلته بأحد من الناس فكرهت أن أقطع عليك حديثك. فمن كان يا رسول الله؟ قال: جبريل⁽⁴⁾.

وأخرج الحاكم عن عائشة رضي الله عنها قالت: رأيت جبريل واقفاً في حجرتي هذه ورسول الله ﷺ يناجيه. فقلت: يا رسول الله من هذا؟ قال: بمن شبهته؟ قلت: بدحية.

قال: لقد رأيت جبريل. قالت: فما لبثت إلا يسيراً حتى قال: يا عائشة هذا جبريل يُقرئك السلام. قلت: وعليه السلام جزاه الله من دخيل خيراً⁽⁵⁾.

(1) أورده السيوطي في الخصائص الكبرى، ذكر المعجزات في رؤية أصحابه الملائكة..، [2/155] وعزاه إلى أحمد والبيهقي [2/155].

(2) هذا الحديث سبق تخريجه.

(3) رواه البيهقي في شعب الإيمان، فصل في أي الناس أشد بلاءاً، حديث رقم (9925) [7/181] ورواه الطبراني في الأوسط باب من اسمه إبراهيم برقم (2717) [3/135] ورواه في الكبير برقم (12321) [12/11].

(4) رواه الطبراني في الكبير، حديث رقم (522) [1/234] ورواه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق، حرف الميم في أسماء آباء المحمدين، [55/258] ورواه غيرهما.

(5) رواه الحاكم في المستدرک على الصحيحين، ذكر الصحابييات أزواج النبي ﷺ.

وأخرج البيهقي عن حذيفة بن اليمان قال: صَلَّى بنا رسول الله ﷺ ثم خرج فتنبعته، فإذا عارض قد عرض له فقال لي: يا حذيفة: هل رأيت العارض الذي عرض لي(*)؟

قلت: نعم. قال: ذاك ملك من الملائكة لم يهبط إلى الأرض قبل ذلك، استأذن ربه فسلم عليّ وبشرني بالحسن والحسين أنهما سيذا شباب أهل الجنة، وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة⁽¹⁾.

وأخرج مسلم عن عمران بن حصين قال: إن الملائكة كانت تسلّم عليّ، فلما اكتويت انقطع عني، فلما تركت عاد إليّ⁽²⁾.

وأخرج الترمذي في التاريخ، والبيهقي في التاريخ، وأبو نعيم: عن عزالة قالت: كان عمران بن حصين يأمرنا أن نكنس الدار فنسمع «السلام عليكم، السلام عليكم» ولا نرى أحداً. قال الترمذي: هذا تسليم الملائكة⁽³⁾.

وأخرج أبو نعيم عن يحيى بن سعد القطان قال: ما قدم علينا البصرة من الصحابة أفضل من عمران بن حصين أتت عليه ثلاثون سنة تسلم عليه الملائكة من جوانب البيت⁽⁴⁾.

وأخرج ابن أبي الدنيا، والطبراني، وابن عساكر من طريق ابن رويم عن العرياض بن سارية، وكان شخصاً من أصحاب النبي وكان يُحب أن يُقبض فكان يدعو «اللهم كبرُ سني، ووهن عظمي، فاقبضني إليك».

قال: فبينما أنا يوماً في مسجد دمشق، وأنا أصلي وأدعو أن اقبض إذ أنا بفتي شاب من أجمل الرجال وعليه ديباج أخضر، فقال: ما هذا الذي تدعو به؟ فقلت: وكيف أدعو «يا ابن أخي»؟

(1) رواه أحمد في المسند عن حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ، حديث رقم (23377) [5/391].

(2) ورواه أحمد في المسند، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه برقم (19846) [4/427] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر وصف الاستماع...، حديث رقم (3938) [9/245] ورواه غيرهما.

(3) رواه البيهقي في دلائل النبوة، باب ما جاء في رؤية عمران بن حصين الملائكة...، [7/81].

(4) أورده السيوطي في الخصائص الكبرى، وعزاه إلى أبي نعيم عن يحيى بن سعيد القطان، ذكر المعجزات في رؤية أصحابه ﷺ الملائكة...، [157/2].

قال: اللهم حسن العمل، وبلغ الأجل.

قلت: من أنت يرحمك الله؟

قال: أنا رناييل^(*) الذي يسئل الحزن من صدور المؤمنين.

ثم التفت فلم أر أحداً⁽¹⁾.

«عود إلى تشكّل الأرواح»:

«فصل»:

لما تقررت هذه الأدلة الشرعية المطابقة للمدعي، وآمنت بكرامة رؤية الملائكة من حيث الدليل، فنعود حينئذٍ إلى تنمة الكلام على تشكّل الأرواح، وغير ذلك من أنواع الكرامات.

قال الشيخ الإمام العارف بالله صفي الدين ابن أبي المنصور الأزدي في رسالته: «كان بديار مصر رجل كبير الشأن يقال له الشيخ أبو الحسن بن الدقاق من مراكش صحب بالشام رجلاً أعجمياً يقال له: محمد الأزهر، ما سمع بأعظم من كراماته. وكان الشيخ أبو الحسن يعتقد في شيخنا ويتردد إليه، فكان مما حكى للشيخ، وأنا حاضر: أن الشيخ محمد العجمي قال له يوماً: يا علي متى كنت بمصر احرص على الصلاة وراء الشيخ أبي العباس الخراز فإنها بسبعين صلاة.

وإذا أردت تعرف مقدار ما أوصيتك صلّ غداً الصبح خلفه، فقممت في السحر وجئت لمسجد الشيخ أبي العباس، فلما طلع الفجر ركع، وأقيمت الصلاة دخل المحراب فكبّر، فكبّرت وراءه مع الناس، فلما كبّرت أخذتُ وغاب المسجد والشيخ والناس عن نظره.

وإذا بصورة روحانية نورانية قامت مقام الشيخ وانتشرت عنها أشعة أنواع وانتهت إلى أطراف إقليم مصر، وضمن تلك الصورة النورانية صورة صغيرة في باطنها.

(*) وورد هذا الاسم بلفظ [رقيبايل] كما في التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة [257/2] للسخاوي. وورد بلفظ [رتبايل] كما في تاريخ الإسلام للذهبي [484/5] ولفظ [رتايل] كما في الخصائص الكبرى للسيوطي [160/2].

(1) رواه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق، ذكر من اسمه عراك [182/40] وأورده السيوطي في الخصائص الكبرى وعزاه إلى ابن أبي الدنيا والطبراني وابن عساكر [159/2].

فبينما أنا أشاهد هذا الأمر، وإذا بالموذن يحركني ويوقظني ويقول: أنت صرعت! صلى الشيخ والناس وانصرفوا، وأنت كأنك مصروع، اخرج لأغلق المسجد، فخرجت وجئت فأجد الشيخ محمد العجمي فقال لي: ما رأيت؟ فأخبرته. فقال لي: هذه روحانية الباطنة العلوية، ومنتهى أشعتها منتهى حكمها، فسألته عن الصورة الصغيرة المصورة في باطن تلك الصورة فقال: هذه صورة شاب من أعيان مصر يصحبه في آخر زمانه يرث مقامه يقال له: الصفي بن أبي المنصور: قال الشيخ أبو الحسن: ثم سافرت إلى الشيخ محمد العجمي فكننا بدمشق في الجامع في الخط الشامي، وإذا بالشيخ العجمي فقال لي: يا علي، انظر هذا الشاب! فنظرت وإذا بشاب جميل الصورة، عليه فروة ملونة بالأحمر والأصفر والأسود، مطيلس بعرضي من شرب يمشي في الجامع وبجواره فقير يسمى «هاشماً» فقال لي: هذا الشاب هو الذي رأيته مصوراً في صورة أبي العباس الذي يصحبه في آخر زمانه. قال الأستاذ صفي الدين رضي الله عنه: وكنت أنا على الهيئة الموصوفة قد جئت من خراز بعد وزارة والدي بها للملك الأشرف، وكان سنِّي في ذلك الوقت خمس عشرة سنة وساعة.

فدخلت دمشق وكان بها الشيخ علي الكردي، فحين دخلت الجامع وكنت في حشكلة⁽¹⁾ من الأهل والغلمان جالسين في الحيط الشمالي عند مقصورة الغزالي، وإذا بشخص عظيم الصورة، كبير الرأس، عليه لباد مقطع، جاء من صوب باب جيرون يشق الجامع إلى أن جاء إليّ ومد يده إليّ مملوءة تفاحاً وقال لي: خُذ. ففرغت منه واستندت إلى مكان بجواري ممن معي، فتأخر عني ثم رمى لهم تفاحة تفاحة إلى أن فرغ ما كان في يده ومضى لباب جيرون.

وإذا بالشيخ أبي القاسم الصقلي كان من أعيان المشايخ، مقيماً بدمشق، والفقير نجم الدين ابن اللهيبي كان مدرّساً جاء إلى عندنا، وأخبرهما لجماعته بما جرى من ذلك الشخص، فتعجبا من ذلك عجباً عظيماً، وهنئاني هنا كثيراً، وقال لي: هذا قطب الشام، جاءك بالضيافة عزيزاً أن يعمل هذا مع أحد، فقمتم لحقته عند باب جيرون فسلمت عليه وقبّلت يده، فضحك.

وأما حكاية الشيخ محمد شيخ محمد العجمي، فإن الشيخ شافهني بمعناها مني

(1) هكذا وردت في الأصل.

إليه، قال لي: أنت وارثي، وكل ما نلته من الحق لا بد لك أن تبلغه، وكان ولده طفلاً صغيراً يمشي بين يديه «قال لي»: كما أن هذا ولدي من الظاهر، أنت ولدي في الباطن، وقال لي: أشهدت عالم النسب.

وكان ظهوره لي صورة لطيفة نورانية ظهرت لي دفعة واحدة مثل ظهور الشرار إذا خرج الكور بنفخ النافخ، فكانت كل صورة نورانيتها في ظهورها كمثل الشرارة النارية في ظهورها، فحنيت إلى واحد منها، وحتت إليّ، وهو الصفي لمن حدثه، وسمعتة أنا منه أيضاً.

فروق في خرق العوائد عن ابن عربي

وقال بحر الحقائق حامل لواء العلم بالله محيي الدين بن عربي الحاتمي الطائي - رضي الله عنه - في كتابه: «مواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار والعلوم». «اعلم يا بني - أشهد الله ذاته في دار القدس - أن الإنسان إذا زكت أحواله وطابت أفعاله، وحتت أفعاله، وكان هذا حاله حتى قبضه الله إليه، فذلك الموفق السعيد.

فإذا تحقق العبد في مراعاة ما توجه عليه من التكليف في بصره ووقف به عند ما حدّ له الشارع وصرفه في بعض ما أباحه، وإن استطاع أن يصرفه في واجب أو مندوب فلا يقصر.

فذلك عندنا صاحب بصر على الحقيقة، وأن الله تعالى إذا حصل العبد في هذا الباب ولم يتعد الحدّ المشروع له في بصره إذا شاء يكرمه بكرامات تختص بهذا المقام، وينزله أيضاً منازل مختصة به لا ينالها أبداً إلا صاحب بصر؛ مئة منه - سبحانه وتعالى.

فالمنازل قطعاً لا تحصل إلا لأهل الوصول المحققين أهل العناية.

وأما الكرامات، فمن حيث هي كرامات هي لهم، ومن حيث هي خرق عوائد قد ينالها المملول المستدرج، فإذا وقت لك يا بني خرق عادة، فلا تحجبك عن نظرك في نفسك، كيف هي مع الحد المشروع لك.

فإن كنت من الأهل الأتباع وقام الوزن بين نفسك وما كلفت، وجريت مع الشارع بالأدب والامثال حيث سلك، فخذها كرامة واشكر الله عليها، وادعه وأسأله أن لا يجعله حظ عملك، ولا يكون من العاملين لها.

وإذا رأيت نفسك حائدة عن السنن متعددة للحدود الظاهرة في الشرع، فلا تنظرها كرامة وانظرها منبهة لك إن لزمتم بعدها الاستقامة: كإبراهيم بن أدهم حين نودي من قربوس سرجه وهو غير مستقيم في الحال، ثم استقام فكانت له منبهة. وكصاحب السكرجيتين وغيرهما، وإن لم يعقبها الاستقامة، فانظرها مكرراً واستدرجاً فاسأل الإقالة والرجوع إلى الجادة والصرط المستقيم، فإن نبهك الله لهذا فانظر فهذه الكرامة التي يقال لها كرامة، وكل خرق عادة في ظاهر الكون فأعراض زائلة.

فمن الكرامات: رؤية الزائر له قبل قدومه على مسافة بعيدة، أو خلف حجاب كثيف، ورؤية الكعبة عند الصلاة حين يتوجه إليه، وما أشبه هذا.

ومنها: مشاهدته العالم الملكوتي الروحاني والترابي.

والمراد بهذه الكرامات للعبد أن يشهده الله من عجائبه، ويُرِيه من آياته ما يزيد به رغبة في مقامه، ومدّه فيما هو بسبيله كما قال الله تعالى:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [سورة الإسراء، آية: 1].

فذكر العلة، فإنه إذا صح ورت النبي الصادق ﷺ في أفعاله بحسن الاتباع والافتداء ليس ببعيد أن يتحف الله عبده الولي بمثل هذه الكرامات التي كانت لنبيه ﷺ في أفعاله.

بل هي من تميم شرفه وكرامة من اتبعه وأحبه وأما قولنا: «العالم الملكوتي الروحاني والترابي»: فالروحاني الملكوتي كالملائكة والروحاني الجبروتي كالجن عند بعض أصحابنا، والروحاني الطبيعي أو الترابي كالأبدال.

فالملائكة والملا الأعلى الذين قال الله فيهم: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [سورة الأنبياء، آية: 20]، ﴿وَسَتَعْرُفُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [سورة غافر، آية: 7]، و﴿لَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة الشورى، آية: 5]، فما ظنك يا بُنَيَّ بحالة شخص جليس لهؤلاء السادات الأعلام المعصومين من فترات الغفلات.

هل يكون أبداً إلا ذاكراً ناظراً نفسه بعين التقصير فيما يأتي به من فنون الطاعات لما يعاينه من علو المقام، ويشاهد من الجلال، فجلس المفلح يفلح ضرورة. وأما الروحاني الترابي، فأعني به كل عبد اتصف بأوصاف الملائكة من

الحضور مع الحق سبحانه وتعالى في ميدان الجد والاجتهاد والاتصاف بأوصاف الكمال «الخضر» ومن أشبهه من الأبدال والأوتاد:

ألا ترى الخواص حين اجتمع، كيف جعل اجتماعه به كرامة وقال له: بماذا رأيتك؟ فقال له الخضر: ببرك لأمك.

فلو لم يكن رؤية هذا الصنف كرامة ما سأله الخواص، فبمثل هؤلاء السادات النجباء، وبصحبتهم فليفرح، وليتحقق أن ذلك من اعتناء الله سبحانه حيث جمعه بأهل طاعته وحببهم إليه.

فأولئك هم الذين انتقلوا عن معادنهم الطينية، وخرجوا عن رعونة البشرية، وطبختهم شمس العناية بأرضهم الطيبة المباركة المعتدلة المزاج، اللطيفة الأمشاج حتى أخرجتهم من مراكزهم وألحقهم بالعالم الأعلى.

فانخرقت العوائد في الأجسام، وضرب بسور القدرة القديمة في وجه الطبيعة الذميمة لما تلطفت الجوهرة وصفت طلبت العلو فهفت مع تعلقها بتدبير الجسم الذي به كلفت، سلطت عليه القوة القهرية متى شاءت فحجبت عن أعين الناظرين، فلحق بالعالم الأعلى في صفائهم، لأنه إذا خرج عن أرضه والتحق بهؤلاء السادات أعني الملائكة اكتسب منهم صفة لم يكن عليه حكم فيها الغائب على الشاهد.

فخرج عن العادة البشرية بالتصفية اللطيفة الملكوتية، والتسخير الذي حصل له من تلك المشاهدات حتى خفي عن الأبصار. وهذه كرامة أصل وجودها ما ذكرناه، وسبب الاحتجاج مانع يقوم بإدراك الرائي حتى يهتف بك وأنت لا تراه، ويمشي على الماء وفي الهواء، ويصير كالهيولي قابلاً للتشكيل والصور كالعالم الروحاني مثل جبريل الذي كان ينزل تارة على صورة «دحية».

وقد تجلى له ﷺ وهو قد سدّ الأفق، له ستمائة جناح. وتشكل الروحانيين غير منكور عندنا، وهكذا رجع الخضر يتشكل على أي صورة أحب أن يرى فيها هي على قدر مقامك، فالمملكة التي أعطى إنما هو فعل تشخصه لك ذاتك وهو على صورته التي خلقه الله عليها، ويغلط في هذا المقام جماعة من المتطفلين على الطريقة». (انتهى كلام بحر الحقائق ابن عربي).

وقال أيضاً في كتابه (حلية الأبدال وما يظهر عنها من المعارف والأحوال). «فإذا اعتزل الإنسان عن الخلق وعن نفسه، فصمت عن ذكره بذكر ربه إياه وأعرض عن الغذاء الجسماني، وسهر عن موافقة نوم النائمين، واجتمعت فيه هذه

الأربعة، بدلت بشريته ملكاً وعبوديته سيادة، وعقله حساً، وعينه شهادة، وباطنه ظاهراً.

وإذا رحل عن موضع ترك بدله فيه حقيقة روحانية، يجمع فيها أرواح ذلك الموضع الذي حل عنه هذا الولي، فإن ظهر شوق من أتى إلى ذلك الموطن لهذا الشخص تجسدت لهم تلك الحقيقة الروحانية التي تركها بدله، فكلمها وكلمته وهو يتخيل أنه مطلوب وهو غائب عنه حتى يقضي حاجته منه.

وقد تتحد هذه الروحانية إن كان من صاحبها شوق، أو تعلق همّة بذلك الموطن. وقد يكون هذا من غير البدل:

والفرق بينهما أن البدل يدخل ويعلم أنه ترك بدله، وغير البدل لا يعرف ذلك وإن تركه، لأنه لم يحكم هذه الأربعة الأركان وهي: «الصمت، والعزلة، والجوع، والسهر». ثم قال: وفي ذلك الوقت:

يا مَنْ يريد منازل الأبدال من غير قصدٍ منه للأعمال
لا تطمعنّ بها فلست من أهلها إن لم تزاحمهم على الأحوال
اصمت بقلبك واعتزل عن كل من يدنيك من غير الحبيب الوالي
وإذا سهرت وُجعت نلت مقامهم وصحبتهم في الحل والترحال
بيت الولاية قُسمت أركانه ساداتنا فيه من الأبدال
ما بين صمت واعتزال دائم والجوع والسهر النزيه الغالي

قال شيخ الإسلام سراج الدين ابن الملقن في «طبقات الأولياء» ما نصه في ترجمة الشيخ قضيبة البان الموصلية: ذو الأحوال الباهرة والكرامات المتكاثرة، سكن الموصل واستوطنها إلى أن مات بها قريباً من سنة سبعين وخمسمائة.

وكان يتردد في الرسائل بين الشيخ عبد القادر الكيلاني، وعدي بن مسافر، وذكره عند الكمال بن يونس فوقع فيه موافقة لمن عنده، فبينما هم كذلك إذا دخل عليهم، فبهتوا.

وقالوا: يا ابن يونس أنت تعلم كل ما يعلمه الله؟ قال: لا. قال: فإن كنت أنا من العلم الذي لا تعلمه أنت: فلم يدر ابن يونس ما يقول، وكان قاضي الموصل سيئ الظن به على كثرة ما يبلغه من كراماته ومكاشفاته، وعزم أن يقول للسلطان في إخراجه من الموصل ولم يطلع عليه في ذلك سوى الله، فبينما هو في أزقة الموصل

إذ رآه على هيئته، فقال في نفسه: لو كان معي أحد أمسكته، فمشى خطوة فتغيرت صورته بكرديّ، ثم بيدويّ، ثم بفقيه .
وقال له: يا قاضي، هذه أربع صور رأيتهم، فمن هو قضيب البان منهن حتى تقول للسلطان في إخراجه، فأكبّ على يديه فقبلهما. واستغفر وسئل عنه الشيخ عبد القادر الكيلاني فقال: هو وليّ مقرب ذو حال مع الله. انتهى.

شبهة وجواب:

فإن قلت: الروح هي المدبرة للبدن، فإذا فارقت في مثال وتركت الجسد مات، فكيف يتصور أن تفارقه وتتركه حيّاً؟
قلت: سبحان الله! هل قرأت في علم المعقول أن ملازمة الحياة للروح أمر عادي، لا عقلي، وأنه يجوز أن يكون الجسد حيّاً بلا روح فيه، وجوز ذلك في الموتى، وخرج عليه قوله تعالى في الشهداء: ﴿أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [سورة آل عمران، آية: 169].

فقال: يجوز أن يكونوا أحياء بأبدانهم والروح حيث شاء الله، لا في البدن. هكذا حققه السبكي.

وحينئذ فأي مانع في أن يكون من كرامات الولي أن روحه تخرج من بدنه وتسير حيث شاء الله، وتترك جسده في موضعه حيّاً بصفة الحياة مع كونه لا روح فيه. وذلك مما انخرقت فيه العادة، وهو ممكن عقلاً، والإنسان كما يطلق على الجسد يطلق على الروح:

ومما يشهد لذلك قصة المعراج إذا قلنا: إنه كان بالروح الشريفة، لا بالجسد كما هو أحد قولي العلماء، فإن الروح فارقت البدن، وعرج بها إلى السماوات ورأت من آيات الله ما رأت، وسمعت الخطاب، وردت الخطاب، وردت الجواب والجسد الشريف حيّاً لم يوصف بموت أصلاً في تلك الساعة، وقد كان العروج للأرواح معروفاً في الصدر الأول بين الصحابة والتابعين، وما جهله إلا أهل هذا الزمان، لعدم اطلاعهم على آثار السلف.

أخرج الحافظ أبو القاسم بن عساكر في «تاريخ دمشق» من طُرُق عن ابن خالد قال: عرج بروح امرأة من أهلها أياماً سبعة لا يمنعهم من دفنها إلا عرق يتحرك في

وريدها ثم إنها تكلمت فقالت: ما فعل بجعفر بن الزبير، وكان جعفر قد مات في تلك الأيام التي لا تُعقل فيها.

فقلنا: مات. قالت: والله، لقد رأيته في السماء السابعة، والملائكة يتباشرون به، وهم يقولون: قد جاء المحسن، قد جاء المحسن».

وأخرج ابن عساكر عن الماجشون قال: عند عروج روح ابن الماجشون فوضعه على سرير الغسل، فدخل غاسل إليه فرأى عرقاً يتحرك من أسفل قدميه فأخرناه، فلما كان بعد ثلاث استوى جالساً، فقلنا له: خبرنا بما رأيت!

قال: نعم. إنه عرج بروحي فصعد بي الملك حتى أتى السماء الدنيا، فاستفتح ففتح له، ثم هكذا في السماوات حتى انتهى إلى السماء السابعة، فقبل له: من معك؟ قال: ابن الماجشون. فقبل له: بقي من عمره كذا وكذا.

ثم هبط فرأيت النبي ﷺ ورأيت أبا بكر عن يمينه، وعمر عن يساره، ورأيت عمر بن عبد العزيز بين يديه فقلت للذي معي: من هذا؟ قال: أو ما تعرفه؟ قلت: إني أحببت أن أستثبت. قال: هذا عمر بن عبد العزيز.

قلت: إنه لقريب المقعد من رسول الله ﷺ.

قال: إنه عمل بالحق في زمن الجور، وإنهما عملا بالحق في زمن الحق. والأخبار المتواترة في ذلك كثيرة جداً؛ ولهذا بنى عليها حجة الإسلام الغزالي فقال في بعض كتبه: «من أولياء الله» من يكون جسده بالفرش وروحه عند العرش. وقال الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله في «لطائف المنن»: قال الشيخ أبو العباس المرسي: جلست في ملكوت الله تعالى، فرأيت أبا مدين متعلقاً بساق العرش، وهو رجل أشقر، أزرق العينين، فقلت له: ما علومك؟ وما مقامك؟ فقال: أما علمي فأحد وسبعون علماً، وأما مقامي فأرأس السبعة الأبدال.

قلت: فما تقول في شيعي أبي الحسن الشاذلي؟

قال: زاد عليّ بأربعين علماً، هو البحر الذي لا يُحاط به.

وفي «لطائف المنن»: أيضاً قال: سمعت شيخنا أبا العباس يقول: قال لي عبد القادر النقاد - وكان من أولياء الله - اطلعت على مقام أبي الحسن الشاذلي فقلت: وأين مقام الشيخ؟ فقال: عند العرش. فقلت له: ذاك مقامك تنزل لك الشيخ فيه حتى رأيته. فهذا كله من عروج الأرواح.

وفي «لطائف المنن» أيضاً قال الشيخ أبو العباس المرسي: إن الله ملكاً يملأ ثلث الكون، وإن الله ملكاً يملأ ثلثي الكون، وإن الله ملكاً لو وضع قدمه في الأرض لم يجد أن يضع الثانية، ثم قال الشيخ أبو العباس يقول القائل: إذا كان ملك يملأ الكون كله، فأين الذي يملأ ثلث الكون؟ وأين الذي يملأ ثلثي الكون؟ قال: والجواب عن ذلك أن اللطائف لا تتزاحم كمثل سراج أدخلته بيتاً، فملأ البيت نوره، ولو أتيت بعد ذلك بألف سراج وسع ذلك البيت أنوارها. انتهى.

وهذا أيضاً من الأجسام الملكوتية التي لم يعهد الناس في عالم الملك مثلها، فإن المعهود في عالم الملك إذ ملأ مكاناً لم يسع معه جسماً آخر.

وأجسام الملائكة جاءت على خلاف المعهود في أجسام عالم الملك من أنها إذا شغلت مكاناً تكون في غيره أيضاً.

فروق بين الروح والجسد:

قال العلامة ابن القيم في كتاب «الروح» ما نصه:

«للروح شأن آخر غير شأن البدن، فتكون في الرفيق الأعلى وهي متصلة بالبدن بحيث إذا سلم المسلم على صاحبها ردّ عليه السلام، وهي في مكانها هناك.

وهذا جبريل رآه النبي ﷺ وله ستمائة جناح، منها جناحان سدّا الأفق، وكان يدنو من النبي ﷺ حتى يضع ركبتيه على ركبتيه، ويديه على فخذه، وقلوب المخلصين تتسع للإيمان بأن من الممكن أنه كان يدنو هذا الدنو، وهو في مستقره من السموات.

وفي الحديث في رؤية جبريل: «فرفعت رأسي فإذا جبريل صافّ قدميه بين السماء والأرض، يقول: يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل.

فجعلت لا أصرف بصري إلى ناحية إلا رأيتَه كذلك».

وإنما يأتي الغلط هنا من قياس الغائب على الشاهد، فيعتقد أن الروح من جنس ما يعهد من الأجسام التي إذا شغلت مكاناً لم يمكن أن تكون في غيره.

وهذا غلط محض وقد رأى النبي ﷺ ليلة الإسراء موسى قائماً يصلي في قبره، رآه في السماء السادسة، فالروح كانت هناك في مثال البدن، ولها اتصال بالبدن بحيث يصلي في قبره، ويرد على من يُسلم عليه وهو في الرفيق الأعلى.

ولا تنافي بين الأمرين، فإن شأن الروح غير شأن الأبدان، وكذلك رؤية النبي ﷺ الأنبياء في السموات، الصحيح أنه رأى فيها الأرواح في مثال الأجساد، مع ورود أنهم أحياء في قبورهم يصلون.

وقد قال ﷺ: «من صَلَّى عليّ عند قبوري سمعته، ومن صَلَّى عليّ نائياً بلغته»⁽¹⁾ هذا مع القطع بأن روحه في أعلى عليين مع أرواح الأنبياء، وهو في الرفيق الأعلى فثبت بهذا أنه لا منافاة بين كون الروح في عليين أو الجنة أو السماء. وأن لها بالبدن اتصالاً بحيث تدرك وتصلي وتقرأ، وإنما يستغرب هذا لكون الشاهد الدنيوي ليس فيها ما يشابه هذا، وأمور البرزخ والآخرة على نمط غير المألوف في الدنيا. هذا كلام ابن القيم بحروفه.

قطوف من الكرامات:

وقال الشيخ الإمام برهان الدين بن موسى الإيناسي الشافعي أحد مشايخ الشيخ وليّ الدين العراقي في الفقه، وغيره في مصنف لخصه من «الكوكب المنير في مناقب الشيخ أبي العباس البصير»: أنه حج فجاء أمير الركب يذكر أنه ضاع له مملوك عزيز عنده فقال الشيخ لخدمه عبد الله الغماري: انظر حال هذا الرجل؟ فأطرق الغماري ملياً، ثم رفع رأسه، وقال: وعزة الربوبية، لقد طفت المشرق والمغرب فما وجدته. فقال الشيخ: كما أنت، فأطرق ثم رفع رأسه وقال: هو بيطن مرّ عند قوم من العرب.

فأرسل الأمير في طلبه، فأحضر. قال: ومن كراماته: لما قدم مكة اجتمع بالشيخ أبي الحجاج الأقصري، فجلسا في الحرم يتذاكران أحوال القوم ومناقبهم، فقال الشيخ أبو الحجاج: هل لك في طواف أسبوع في هذا الوقت؟! فقال الشيخ أبو العباس: إن لله رجلاً يطوف بيته بهم كما أن له رجلاً يطوفون بيته فنظر الشيخ أبو الحجاج وإذا بالكعبة طائفة بهما.

قال الشيخ برهان الدين الإيناسي: ولا تنكر يا أخي ذلك فقد تظافرت أخبار الصالحين على نظير هذه الحكاية. ثم قال: ويحكى عن الشيخ وفقرائه مرآئي لا

(1) أوردته السيوطي في الدر المنثور وعزاه إلى البيهقي في الشعب والخطيب وابن عساكر عن أبي هريرة [سورة الأحزاب: آية 56 ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ...﴾] [654/6].

يسعني ذكرها في هذا الكتاب خوفاً من أن يطلع عليها فقيه أو منكر سفيه .
قال الشيخ خليل بن إسحاق أحد أئمة المالكية صاحب المختصر المشهور،
شرح ابن الحاجب، وغيرهما في كتابه الذي ألفه في مناقب سيدي الشيخ عبد الله
المنوفي ما نصه:

«الباب السادس في طي الأرض له مع عدم تحركه وهي الطي الأصغر عند أهل
هذه الطريقة .

حدثني به الشيخ الصالح العلم سليمان المقري قال: قال بعض الفقهاء
الصالحين: رأيت سيدي الشيخ بمنوف في جنازة الشيخ إبراهيم ولد الشيخ سليمان
ولكن لم يره أهل منوف لكوني لم أرَ أحداً منهم يُسلم عليه والشيخ لم يزل بالقاهرة
بين الطلبة ذلك اليوم .

ومن ذلك: ما سمعته عن بعض الخيِّرين قال: جاء من الحجاز شخص
للمدرسة وسأل عن الشيخ، وذكر أنه رآه واقفاً بعرفة . فقال له الناس: لم يزل في
مكانه! فحلف على ذلك فطلع للشيخ، فلما رآه سلم عليه وأراد أن يتكلم فأشار إليه
الشيخ بالسكوت .

ثم قال الشيخ خليل: فإن قلت: كيف يمكن وجود الشخص الواحد بمكانين؟
قلت: الولي إذا تحقق في ولايته يمكن التصور في روحانيته، ويُعطى من
القدرة التصور في صور عديدة، وذلك ليس بمحال، لأن التعدد هو الصورة
الروحانية .

وقد اشتهر ذلك عند العارفين بالله تعالى، كما حكى عن الشيخ قضيب البان لما
أنكر عليه بعض الفقهاء عدم الصلاة في جماعة، ثم اجتمع ذلك الفقيه به، فصلَّى
بحضرته ثمان ركعات في أربع صور. ثم قال: أي صورة لم نصل معكم؟
فقبل يد الشيخ، وتاب .

وكما حكى عن الشيخ أبي العباس المرسي: أنه طلبه إنسان لأمر عنده يوم
الجمعة بعد الصلاة، ثم جاء له أربعة كل منهم طلب مثل ذلك، فأُنعِم للجميع ثم
صلَّى الشيخ مع الجماعة وجاء فقعد بين الفقهاء ولم يذهب لأحد منهم، وإذا بكل
من الخمسة يشكر الشيخ على حضوره عنده .

وقد حكى جماعة أن الكعبة تطوف ببعض الأولياء .

هذا كلام الشيخ خليل، وهو إمام يحتج به لكونه جامعاً بين الشريعة والحقيقة. وقال بعض أهل الحقائق: إنما سمي الأبدال أبدالاً لأن الواحد منهم لو لم يكن الباقون لناب منابهم، وقام بما يقوم به جميعهم، فكل واحد منهم في عين الجميع، وما على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد.

قلت: هذا حاصل ما تقدم في تعريفه، وفي هذا كفاية لمن اختاره الله الإيمان بكرامات أوليائه، فانتبه يا أخي ليقظة التوفيق، وإياك والعناد! وإلا تحرم من لحظهم، بل تمتق ليوم التناد. فهنيئاً لمن وفقه الله لتسليم أحوالهم، وصار عبداً خادماً لخدام نعالهم، فهم الملوك.

لا بل الملوك تحت أقدامهم، وفي تصاريف أحوالهم وأقوالهم، وهم الذين إذا اصطلمت الحرب برز الإيمان إلى أعلامهم، وهم القوم كل القوم إذا افتخر كل قبيل بأقوامهم، بل هم قوام الإسلام وقوامه. وبهم اتلافه ونظامه، هم في الحقيقة ورثة الأنبياء، وبهم يستضاء في الدهماء، ويستغاث في الشدة والرخاء، ويهتدي بهم الحائر كنجوم السماء.

وإليهم المفزع في الآخرة والدنيا، والمرجع في تصريف الكون في الممات والمحيا ولهم المقام المرتفع على الزهرة العليا.

الرد على الإسفراييني في إنكاره الكرامات:

فإن قلت: كرامات الأولياء قد أنكرها الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني وهو إمام يحتج بقوله. قلت: هذا مما يستدل به على قصر اطلاعك على نقول الأئمة؛ لأن هذا قول مردود على قائله على تقدير ثبوته لكونه مخالفاً لإجماع أهل السنة والجماعة، وخرق الإجماع لا يجوز للمجتهد.

فضلاً أن يحتج به؛ ولهذا عابوا على الشيخ تقي الدين بن تيمية حين خرق الإجماع في اجتهاد في مسائل كثيرة، كمسألة الزيارة والطلاق، وغيرها. قال العلامة تاج الدين السبكي في الطبقات الكبرى.

«وإني لأعجب أشد العجب من منكر الكرامات، وأخشى عليه مقت الله، ويزداد تعجبي عند نسبة إنكارها إلى الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني، وهو من أساطين أهل السنة والجماعة على أن نسبة إنكارها إليه على الإطلاق كذب عليه، والذي ذكره الرجل في مصنفاته أن الكرامات لا تبلغ مبلغ خرق العادة.

قال: فكل ما جاز تقديره معجزة لنبي لا يجوز ظهور مثله كرامة لولي. قال: وإنما مبلغ الكرامات إجابة دعوة، أو موافاة ماء في بادية في غير توقع المياه أو ما يضاهي ذلك مما ينحط على خرق العادة.

ثم مع هذا قال إمام الحرمين وغيره من أئمتنا: هذا المذهب متروك. قال الزركشي في شرح «جمع الجوامع»، وجمع بعض أصحابنا إلى أن كل ما وقع معجزة لنبي لا يصح أن يقع كرامة لولي: كإحياء الموتى، وقلب العصا حية وفتق البحر، ونحوه.

وهذا هو مذهب الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني.

وبه يظهر غلط الإمام فخر الدين الرازي، وغيره ممن ينقل عنه إنكارها على الإطلاق كالمعتزلة، والذي رأيته في كتبه التصريح بإثباتها إلا أنها لا تبلغ مبلغ المعجزات الخارقة تفرقة بينها وبين المعجزة، كما نقله عنه ابن السبكي تبعاً لإمام الحرمين، وكذا نقله الأمدى في «أبكار الأفكار».

قلت: قد نقل السيد في شرح المواقف الإطلاق عن الأستاذ أبي إسحاق، والظاهر أنه تقليد للإمام فخر الدين فيما نقله؛ ولهذا لم ينبه على غلظه. والله أعلم. قال الزركشي: هو الذي جنح إليه وهو الأستاذ أبو إسحاق هو عين ما نقله ابن السبكي عن أبي القاسم القشيري من إنكاره حصول إنسان لا من أبوين، وأمثال ذلك مما ينحط عن خرق العادات.

وقال ابن السبكي أيضاً في الطبقات الوسطى ما نصه:

ومن غرائب الإسفراييني أنه كان ينكر كرامات الأولياء. قال ابن الصلاح: وهي زلة كبيرة، وقال إمام الحرمين في مختصر التقريب والإرشاد: والظن أنه لا يصح عنه ذلك. انتهى.

وهذا هو الحق في مثل هذا الإمام لبعد هذه القويلة عن الحق المحض إلى الطرف الأقصى.

حكم منكر كرامة الأولياء:

فقد قال الشيخ أبو تراب النخشي المترجم في طبقات السبكي، وهو أحد الأولياء المترجمين في رسالة القشيري: «من لا يؤمن بكرامات الأولياء فقد كفر». قال ابن السبكي: وقول أبي تراب من لا يؤمن بها فقد كفر بالغ في الحط على

من ينكرها ويحمل على أنه لم يعن الكفر المخرج من الإسلام، «ولكنه كفر دون كفر».

قلت: هذا مستبعد لا يستقيم، والظاهر إنما أراد الكفر المخرج من الإسلام لأن الكرامات راجعة في الحقيقة إلى معجزات الأنبياء فمن أنكرها فقد أنكر المعجزات.

ومن أنكر المعجزات فقد كذب الأنبياء، ومن كذبهم فقد كفر قطعاً، فحينئذ كرامات الأولياء هي عين معجزات الأنبياء على التحقيق، لأن الخارق للعادة له وصفان باعتبار المتعلق: فإن كان الخارق صادراً من نبي فهو في حقه معجزة، وإلا فهو في حق الولي كرامة.

ومما يشهد لهذا التقرير ما قاله الأستاذ أبو القاسم القشيري في رسالته ما نصه: «فكل نبي ظهرت كرامته على واحد من أمته فهي معدودة من جملة معجزاته، إذ لو لم يكن ذلك الرسول صادقاً لم يظهر على من تابعه المعجزة».

وقال الزركشي: لعل أبا تراب النخشي يرى تكفير المبتدعة.

وقال العارف بالله الشيخ شهاب الدين السهروردي رحمه الله:

«وكرامات الأولياء من تنمة معجزات الأنبياء وكل رسول كان له أتباع ظهرت لهم كرامات ومخرقات للعادات». هذا بعض كلامه.

وقال القاضي عياض في «الشفاء»:

ومنها ما أبرزه من خلقه على أتم وجوه الكمال والجلال وتخصيصه بالمحاسن الجليلة، والأخلاق الحميدة، والمذاهب الكريمة، والفضائل العديدة، وتأييده بالمعجزات الباهرة، والبراهين الواضحة، والكرامات البينة التي شاهدها من عاصره ورآها من أدركه وعلمها علم يقين من جاء بعده حتى انتهى علم الحقيقة ذلك إلينا، وفاضت أنوارها علينا - ﷺ - كثيراً.

فهذا صريح بأن كرامات الأولياء الآن إنما هي من فيض بحر النبوة، ولا شك أن كل قطرة مأخوذة من البحر منسوبة إليه لكونها كالجزم منه، ولو انتقلت من طرفها إلى طرف آخر.

ألا ترى لو فتح البحر مثلاً على قناة، وجرى الماء فيها، فإن ماء القناة حينئذ يوصف بوصفين: فمن قال: هذا ماء القناة فبالنظر إلى الطرف، ومن قال: «هذا ماء البحر» فبالنظر إلى الأصل الذي انتقل منه.

فكذلك يقال في الخارق للعادة: «هذا كرامة» بالنظر إلى كون الذي جرى الخارق على يديه ولياً، ويقال أيضاً عليه: «هذا معجزة؛ لكون الولي اغترفه من بحر معجزات نبيه.

والعجب من ابن السبكي حيث أول كلام أبي تراب، ولم يأخذه على ظاهره، وقد صرح في الطبقات بما يقتضي الأخذ بظاهر كلامه من غير تأويل، فإنه قال: اعلم أن كل كرامة ظهرت على يد صاحبي أو ولي أو تظهر إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين، فإنها معجزة للنبي ﷺ؛ لأن صاحبها إنما نالها بالافتداء به ﷺ، وهو المعترف له بأنه المقدم خليفة الله وصفوته وسيد البشر الذي من بحره يستخرج الدرر، ومن غيئه يستخرج المطر.

وهذا المعنى يصلح أن يكون سبباً إجمالياً عاماً في الإظهار لا سيما في عصر الصحابة رضوان الله عليهم، فإن الكفار إذا رأوا ما يظهر على يديه الخوارق آمنوا بنبيهم ﷺ وعلموا أنهم على الحق. هذا آخر كلامه.

وإذا تدبرته بتأمل رأيت مقتضاه هو ظاهر كلام أبي تراب بلا شك. والله أعلم. قال الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله في لطائف المنن: «قال أبو تراب النخشي لأبي العباس الرقي رحمه الله: ما يقول أصحابك في هذه الأمور التي يكرم الله بها عباده؟

قال: ما رأيت أحداً إلا وهو يؤمن بها. فقال: من لم يؤمن بها فقد كفر. إنما سألتك من جميع الأحوال، فقال: ما أعرف لهم قولاً؟

فقال: بلى، قد زعم أصحابك أنها ليست كرامات، وإنما هي خدع من الحق يخدع بها أهل الإرادة ليقفوا على حدودهم، وحتى لا يلحقوا مقاماً ليس لهم. وليس الأمر كذلك، بل إنما الخدع في حال السكون إليها، فمن لا يفرح بها ولم يساكنها، فتلك مرتبة الربانيين، وكان هذا من أبي تراب بعد أن عطش أصحابه فضرب بيده الأرض، فنبع الماء، فقال فتى هناك أريد أن أشربه في قدح! فضرب بيده إلى الأرض فناوله قدحاً من زجاج أبيض فشرب وسقانا. قال أبو العباس الرقي: وما زال القدح معنا إلى مكة.

الكرامة والاستقامة:

والقول الفصل في ذلك إنه لا ينبغي أن تُطلب أدياً مع الله تعالى ومن أظهرت

عليه عظم؛ لأنها شاهدة له بالاستقامة مع الله .
 لكن قال⁽¹⁾ أيضاً في كتابه «الحكم»: ربما رزق الكرامة من لم تكمل له
 الاستقامة» قال شارحه ابن عباد [النفري]: الكرامة الكاملة عند أهل الحقائق إنما هي
 حصول الاستقامة والوصول إلى كمالها، ومرجعها إلى أمرين: صحة الإيمان بالله
 تعالى واتباع ما جاء به رسول الله ﷺ ظاهراً وباطناً.
 فالواجب على العبد أن لا يحرص إلا عليها، ولا تكون له همة إلا في الوصول
 إليها.

وأما الكرامة بمعنى خرق العادة، فلا عبرة بها عند المحققين؛ إذ قد يرزق ذلك
 من لم تكمل له الاستقامة.

قال الأستاذ حامل لواء الشريعة والحقيقة أبو الحسن الشاذلي قدس الله روحه:
 «إنما كرامتان جامعتان محيطتان: كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود
 العيان، وكرامة العمل بالافتداء والمتابعة ومجانبة الدعاوي والمخادعة، فمن
 أعطيهما ثم جعل يشتاق إلى غيرهما فهو عبد مُغتر كذاب، أو ذو خطأ في العلم
 والعمل بالصواب.

كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا، فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب
 وخلق الرضا، وكل كرامة لا يصحبها الرضا عن الله فصاحبها مستدرج مغرور، أو
 ناقص، أو هالك مثبور» انتهى.

وقال وارثه وخليفته قطب الدائرة المحمدية سيدي أبو العباس المرسي «رضي
 الله عنهما، ورضي عنا بهما» «ليس الشأن من تطوى له الأرض فإذا هو بمكة وغيرها
 من البلدان، إنما الشأن من تطوى عنه أوصاف نفسه فإذا هو عند الله».

وقيل لأبي محمد المرتعش رحمه الله: «إن فلاناً يمشي على الماء».
 «فقال: عندي من مكنه الله تعالى من مخالفة هواه، فهو أعظم من المشي على
 الماء وفي الهواء».

وقيل لأبي يزيد البسطامي: إن فلاناً يمرُّ في كل ليلة إلى مكة!
 فقال: الشيطان يمر في لحظة من المشرق إلى المغرب، وهو في لعنة الله.

(1) الشيخ العارف بالله تعالى أحمد بن عطاء الله السكندري .

وقيل له أيضاً: إن فلاناً يمشي على الماء! فقال: الحيتان في الماء، والطير في الهواء أعجب من ذلك.

وقيل لأبي بكر الشبلي رحمه الله: إن أبا تراب جاع في البادية، فرأى البادية كلها طعاماً! فقال: عبدٌ وقف به، ولو بلغ إلى محل التحقيق، لكان كمن قال: «إني أظُلُّ عند ربي يطعمني ويسقيني»⁽¹⁾.

لماذا أكثرت الكرامات في العصر الأخير:

قال ابن عطاء الله في لطائف المنن: اعلم: أن الكرامة تارة تظهر للولي في نفسه، فالمراد تعريفه بقدرة الله، وفرديته، وأحدثته، وأن قدرته لا تتوقف على الأسباب، وأن العوائد هو حاكم عليها ليست هي حاكمة عليه، وإنما جعل العوائد بالوسائط والأسباب حجب قدرته وسحب شمس أحدثته، فواقف عندها مخذول، ونافر منها إليها هو بالعناية موصول.

وقال الأستاذ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: فائدة الكرامة تعريف اليقين من الله تعالى بالعلم والقدرة والإرادة والصفات الأزلية، ولأجل أنها تثبت لمن أظهرت له ربما وجدها أهل البدايات في بداياتهم، وفقدوا أرباب النهايات في نهاياتهم.

إذ ما عليه أهل النهايات من الرسوخ في اليقين والقوة والتمكين لا يحتاجون معه إلى تثبت، وهكذا كان السلف - رضي الله عنهم - لم يحوجهم الحق سبحانه وتعالى إلى وجود الكرامة الحسية لما أعطاهم الله من المعارف الغيبية، والعلوم الإلهادية، ولا يحتاج الجبل إلى مرساة، فالكرامة رافعة لزلزلة الشك في إدامته، وشاهدة له بالاستقامة عن الله تعالى «في إقامته».

ثم قال: والقول الفصل في ذلك إنه لا ينبغي أن تطلب مع الله تعالى، ومن أظهرت عليه عظم؛ لأنها شاهدة بالاستقامة مع الله تعالى، كما تقدم.

القسم الثاني: وهو أن تظهر الكرامة في الولي لغيره، فالمراد بذلك تعريف ذلك العبد الذي شهدها بصحة طريق هذا الولي الذي أظهرت عليه هذه الكرامة.

(1) يشير إلى قوله ﷺ: «إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني» رواه اسحاق بن راهوية، حديث رقم (1035) [2/463].

إما أن يكون جاحداً فيرجع إلى الاعتراف، أو كافراً فيعود إلى الإيمان، أو شاكاً في خصوصية هذا العبد فأظهرت عليه ليعرفك الله بما فيه من ودائع الإحسان انتهى .
وقال أبو نصر السراج: سألت أبا الحسن بن سالم فقلت له: ما معنى الكرامات، وهم قد أكرموا حتى تركوا الدنيا اختياراً؟ وكيف أكرموا بأن يجعل لهم الحجارة ذهباً. فما وجه ذلك؟

فقال: لا يعطيهم ذلك لقدرها، ولكن يعطيهم ذلك حتى يحتجوا به، على نفوسهم عند اضطرابها وجزعها من فوت الرزق الذي قسمه الله لهم، فيقولون: الذي يقدر على أن يُصَيِّرَ تلك الحجارة ذهباً كما تنظر إليه الآن، أليس بقادر أن يسوق إليك رزقك من حيث لا تحتسب؟! .

فيحتجون بذلك على ضجيج نفوسهم عند فوت الرزق، ويعطون بذلك حجج نفوسهم فيكون ذلك سبباً لرياضة نفوسهم، وتأديباً لها .

قال أبو نصر: وقد حكى لنا ابن سالم في معنى ذلك حكاية عن سهل بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: كان رجل بالبصرة يقال له إسحاق بن أحمد، وكان من أبناء الدنيا .

فخرج من الدنيا أعني: من جميع ما له وتاب، وصحب سهلاً، فقال يوماً لسهل: يا أبا محمد: إن نفسي هذه لم تترك الضجيج من خوف فوت القوم والقوام!! فقال له سهل: خذ ذلك الحجر واسأل ربك أن يُصَيِّرَهُ لك طعاماً تأكله! فقال: ومن إمامي في ذلك حتى أفعل؟! فقال سهل: إمامك إبراهيم رضي الله عنه حيث قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لَّا يَظُنُّونَ قَلْبِي﴾ [سورة البقرة، آية: 260] المعنى في ذلك أن النفس لا تطمئن إلا برؤية العين . قال: فكذلك الأولياء يظهر الله لهم الكرامات تأديباً لنفوسهم، وتهذيباً لها .

وقال بعض العلماء: ما رأيت هذه الكرامات إلا على أيدي البله من الصادقين . وكان رجل يصحب سهل بن عبد الله - رضي الله عنه - فقال له يوماً: ربما أتوضأ للصلاة فيسيل الماء من بين يدي قضبان ذهب، وقضبان فضة! فقال سهل: أما علمت أن الصبيان إذا بكوا أعطوا خشخاشة ليشتغلوا بها .

وقال سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه: جاءني أبو حفص النيسابوري مرة ومعه جماعة، وكان فيهم رجل قليل الكلام . فقال لأبي حفص: قد كان فيما مضى لهم الآيات الظاهرة، يعني به الكرامات وليس لك شيء من ذلك!

فقال له أبو حفص رضي الله عنه: تعال! فجاء به إلى سوق الحدادين إلى كير عظيم فحمى فيه حديدة عظيمة، فأدخل يده في الكير، فأخذ الحديدة المحماة، فبردت في يده.

فسأل بعضهم عن معنى إظهار ذلك من نفسه! فقال: كان الرجل مشرفاً على حاله، فخشي على حاله أن يتغير عليه إن لم يظهر له ذلك، فخصه بذلك شفقة عليه وصيانة لحاله، وزيادة لإيمانه، بل ربما يفرّ عنها العارفون ويخاف منها المحققون. قال بعض السلف: أطف ما يخادع به الأولياء الكرامات والمعونات.

الكرامة ليست علامة على الأفضلية:

وقال أبو يزيد البسطامي: كنت في بدايتي يريني الحق تعالى الآيات والكرامات فلا ألتفت إليها، فلما رأني كذلك جعل لي إلى معرفته سبيلاً.

وقال الإمام الياضي رحمه الله تعالى في «نشر المحاسن»: لا يلزم أن يكون كل من له كرامة من الأولياء أفضل من كل من ليس له كرامة منهم، بل قد يكون بعض من ليس له كرامة منهم أفضل من بعض من له كرامة؛ لأن الكرامة قد تكون لتقوية يقين صاحبها، ودليلاً على صدقه، وعلى فضله، لا على أفضليته وإنما الأفضلية تكون بقوة اليقين، وكمال المعرفة بالله، فكل من كان أقوى يقيناً، وأكمل معرفة كان أفضل.

ولهذا قال قطب العلوم وتاج العارفين سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد:

«قد مشي رجال باليقين على الماء، ومات بالعطش أفضل منهم يقيناً».

وقال أيضاً: «اليقين ارتفاع الريب في مشهد الغيب».

وقال الأستاذ سيد علماء الطريقة وإمام أهل الحقيقة أبو الحسن الشالي:

«اليقين اسم لدرك الحقائق بلا ريب ولا حجاب، والمعرفة كشف العلوم مع

الحجاب، فإذا رفع الحجاب سميناه يقيناً».

وقال قطب مقامات اليقين، وحجة الله على العارفين أبو محمد سهل بن عبد الله

التستري رحمه الله في فضل اليقين:

«ابتداء اليقين المكاشفة؛ ولذلك قال بعض السلف: لو كشف الغطاء ما ازددت

يقيناً. ثم المعاينة والمشاهدة».

وقال أيضاً: حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين، وفيه سكون إلى غير الله

تعالى.

قال اليافعي: قلت: ولأن الكرامة قد تقع لكثير من المحبين والزهاد، ولا تقع لكثير من العارفين، والمعرفة أفضل من المحبة عند الأكثرين، وأفضل من الزهد عند الكل؟ لأن الزهد من أوائل المقامات، والمحبة أول الأحوال التي هي بعد مجاوزة المقامات.

وفي فضل المعرفة على الزهد قال قطب الأحوال أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه:

العارف طيار، والزاهد سيّار.

وزاد غيره: وأنى يلحق السيّار بالطيار؟!.

وقال معدن المعارف ولسان الحكمة صاحب الكرامات الجمة ذو النون المصري رضي الله عنه: الزهاد ملوك الآخرة، وهم فقراء العارفين.

وقال: ركضت أرواح الأنبياء في ميدان المعرفة فسبقت روح نبينا ﷺ أرواح الأنبياء عليهم السلام إلى رياض الوصال.

وقال الشيخ الكبير العارف، أبو تراب النخشي رضي الله عنه: العارف لا يكدره شيء، ويصفونه بكل شيء (*).

وقال الأستاذ أبو القاسم الجنيد رحمه الله: العارف من نطق الحق عن سرّه وهو ساكت.

وقيل: المعرفة توجب الحياء والتعظيم، كما أن التوحيد يوجب الرضا والتسليم.

وقال بعضهم: المعرفة اطلاع العبد على الأسرار بمواصلة الأنوار.

وقال الشيخ الكبير أبو بكر الشبلي رحمه الله: العارف لا يكون لغيره لاحظاً ولا لكلام غيره لافظاً، ولا يرى لنفسه غير الله حافظاً.

وقال الشيخ العارف الكبير العارف بالله تعالى أبو العباس أحمد أبي الخير اليميني المعروف بالصياد رضي الله عنه: المعرفة وجود تعظيم في القلب يمنع الشخص عن الانقياد لغير معروفه.

وكان العارف بالله الشهير سمنون المحب رضي الله عنه يقدم المحبة على

(*) وفي قول [ويصفو به كل شيء].

المعرفة، خلافاً للجمهور منهم. وكان يقول: ذهب المحبون بشرف الدنيا والآخرة؛ لقوله ﷺ:

«المرء مع من أحب»⁽¹⁾.

قلت: وليس العارف بالله تعالى يخلو عن المحبة الخاصة، ولعلمهم أرادوا التفريق بين المعرفة والمحبة في التفضيل بينهما: إن بعضهم يغلب عليه سكرًا لمحبة ولشدة الهيمان والولء بمحبوبه، وبعضهم لا يغلب عليه ذلك، بل يغلب عليه المشاهدات، وظهور الأسرار والمعارف، وكثرة التجليات مع اعتدال حاله في المحبة في غالب الحالات. فيكون أكثر معارف من الأول، والأول أشد ولهاً وسُكرًا؛ ولهذا قال بعضهم الحب لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه. وهذا آخر كلام اليافعي رحمه الله.

قلت: قد شاهدت من شيخنا وإمامنا سيدي محمد المغربي الجمع بين المحبة والمعرفة، لكن الغالب العلم بالله، بدليل ما يظهر من المعارف والأسرار الربانية، والعلوم الجليلة الوهية، بل هو بحر لا ساحل له، فرضي الله عنه ونفعنا به في الدنيا والآخرة.

«تنبه»:

من كرامات الصحابة والتابعين:

قد وقع من بعض الصحابة والتابعين خوارق لا يمكن إنكارها، كجريان النيل بكتاب عمر، ورؤيته وهو على المنبر بالمدينة جيشه بنهاوند في أرض فارس حتى قال لأمير الجيش: «يا سارية الجبل الجبل».

كما روى البيهقي في الدلائل، واللالكائي في السُّنة، وابن الأعرابي في كرامات الأولياء بسند حسن عن نافع عن ابن عمر قال:

«وجه عمر جيشاً، وأمر عليهم رجلاً يُدعى سارية وجهه إلى بلاد فارس، فاشتد على عسكره الحال على باب نهاوند هو يحاصرها، وكثر جموع الأعداء،

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب علامة حب في الله عز وجل...، حديث رقم (5816) [5/

2283] ورواه مسلم في صحيحه، باب المرء مع من أحب، حديث رقم (2640) [4/

. [2034]

وكاد المسلمون ينهزمون، فصعد عمر رضي الله عنه المنبر، ثم خطب وجعل ينادي بأعلى صوته في أثناء خطبته: «يا سارية الجبل!»
فأسمع الله عزَّ وجلَّ سارية وجيوشه أجمعين وهم على باب نهاوند صوته، وقالوا: هذا صوت أمير المؤمنين، فأسندوا ظهورهم إلى الجبل، فهزم الله العدو، وانتصروا عليهم وفتحوا».

قال الإمام الياضي: فكان في ذلك كرامتان بيّتان: إحداهما ما كشف له عن حال سارية وأصحابه المسلمين، وحال العدو.
وثانيهما: بلوغ صوته إلى سارية في بلاد بعيدة.

وقال الشيخ تاج الدين السبكي في «الطبقات الكبرى»: وسمعت الشيخ الإمام الوالد رحمه الله يزيد في القصة: أن علياً رضي الله عنه كان حاضراً، فقبل له: ما هذا الذي يقول أمير المؤمنين، وأين سارية منا الآن؟! .
فقال عليّ كرم الله وجهه: دعوه، فما دخل في أمر إلا وخرج منه، ثم تبين الحال بالآخرة.

قلت: عمر رضي الله عنه لم يقصد إظهار هذه الكرامة، وإنما كشف له ورأى القوم عياناً، وكان كمن هو بين أظهرهم، أو طويت له الأرض وصار بين أظهرهم حقيقة، وغاب عن مجلسه بالمدينة، واشتغلت حواسه بما دهم المسلمين بنهاوند، مخاطب أميرهم فخطاب من هو حقيقة.

واعلم أنما يجري الله تعالى على لسان أوليائه من هذه الأمور يحتمل أن يعرفوا بها، ويحتمل أن لا يعرفوا بها، هي كرامة على كلا الحالتين. انتهى.

وقال ابن السبكي أيضاً: ومنها قصة الزلزلة. «قال إمام الحرمين - رضي الله عنه - في كتاب «الشامل»: إن الأرض زلزلت في زمن عمر رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه والأرض ترتجف وترتج، ثم ضربها بالدرة وقال: أقري ألم أعدل عليك؟ فاستقرت من وقتها.

قلت: كان عمر رضي الله عنه أمير المؤمنين على الحقيقة في الظاهر والباطن، وخليفة الله في أرضه وفي ساكني أرضه، فهو يُعزَّر الأرض ويؤدبها بما يصدر منها كما يعزَّر ساكنيها على خطيئتهم.

فإن قلت: أوجب على الأرض تعزير وهي غير مكلفة؟

قلت: هذا الآن جهل وقصور على ظواهر الفقه، اعلم أن أمر الله وقضاءه متصرف في جميع مخلوقاته، ثم منه ظاهر وباطن، فالظاهر ما بحث عنه الفقهاء من أحكام المكلفين، والباطن ما استأثر الله بعلمه، وقد يطلع بعض أصفیائه، منهم الفاروق سقى الله عهدته، فإذا ارتجت الأرض بين يدي من استوى عنه الظاهر والباطن عزرها.

وقوله: «ألم أعدل عليك» والمعنى - والله أعلم - أنها إذا وقع عليها جور الولاية جديرة بأن ترتج غير ملومة على التزلزل بما على ظهرها، وأما إذا لم يكن جور بل كان الحكم بالقسط قائماً، ولم يأت الوقت المعلوم فما لها أن ترتج إلا في وقتين: أحدهما: الوقت المعلوم المشار إليه في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ إذا وكذلك إذا قال الإنسان مالها، حدثت هي بأخبارها، وذكرت أن الله أوحى لها على ما قال الله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿١﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٢﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٣﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٤﴾ [سورة الزلزلة، الآيات: 1-5].

والثاني: وقت وقوع الجور عليها من الولاية فإنها تُعزَّر إذ ذاك.

ثم قال ابن السبكي أيضاً في قصة النيل: فانظر إلى عمر كيف يخاطب الماء ويكاتبه، ويكلم الأرض ويؤدبها، وإذا قال لك المغرور: أين أصل ذلك السُّنة؟ قل: أيها المتعثر في أذيال الجهالات، أيها المطالب الفاروق بأصل، وإن شئت أصلاً بل أصولاً لا أصلاً واحداً:

أليس قد حنّ الجذع إلى المصطفى ﷺ حتى ضمه إليه؟ أليس شكى إليه البعير ما به؟ أليس في قصة الطيبة حجة؟ والأصول في هذا النوع لا تنحصر. انتهى كلامه والله أعلم.

هل يشترط التكليف في وقوع الكرامة؟

قال الأستاذ أبو القاسم القشيري: ظهور الكرامات على الأولياء جائز، والدليل على جوازه أنه أمر موهوم حدوثه في العقل، وحدوثه لا يؤدي حصوله إلى رفع أصل من الأصول، فواجب وصفه سبحانه وتعالى بالقدرة على إيجاده.

وإذا وجب كونه مقدوراً لله سبحانه فلا شيء يمنع جواز حصول وظهور الكرامات علامة صدق من ظهر عليه في أحواله، فمن لم يكن صادقاً فظهور مثله

عليه لا يجوز، والذي يدل على أن تعريف القديم - سبحانه - إيانا حتى يفرق بين من كان صادقاً في أحواله، وبين من هو مبطل من طريق الاستدلال أمر موهوم. ولا يكون ذلك إلا باختصاص الولي بما لا يوجد مع المفتري في دعواه وذلك الأمر هي الكرامة التي أشرنا إليها ولا بد من أن تكون فعلاً ناقضاً للعادة في أيام التكليف ظاهراً على موصوف بالولاية في معنى تصديقه في حاله. قلت: تصريحه بأيام التكليف فيه نظر؛ لأن ظاهر كلامه يشعر أن الكرامات لا تقع إلا في وقت التكليف، وليس الأمر كذلك فقد صرح اليافعي رحمه الله في «روض الرياحين» بوقوع الكرامات من الصبيان الذين لم يبلغوا سنّ التمييز، فضلاً عن التكليف.

ثم قال في آخر كلامه: ومنهم الكبار والصغار والعبيد، وأحسن ما يجاب به عن القشيري هو إما أن يكون تصريحه بذلك جرياً على الغالب أو اختياراً لنفسه؛ لأن له بعض اختيارات تخالف مذهب الجمهور كاختياره بعدم حصول إنسان لا من أبوين، وقلب جماد بهيمة والله أعلم.

وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في «لطائف المنن»: اعلم أن الكرامات تنحصر في طرفين: الطرف الأول الجواز.

والثاني: الوقوع، أما الجواز فلا خفاء أن ظهور الكرامة من الأولياء من الممكنات؛ لأنه إن لم يكن من الممكنات فيما أن يكون من الواجبات. وإما أن يكون المستحيلات، فإن المستحيل هو الذي لو قدر وجوده لزم منه محال عقلي، ولا يلزم من تقدير وجود الكرامات محال عقلي، وباطل أن يكون جريان الكرامات على الأولياء وجوباً؛ إذ الطائفة مجمعة على أنه قد يكون الولي ولياً، وإن لم تخرق له العادة.

فتعين أن يكون من الجائزات، وكل شيء كان من الجائزات فلا يحيله العقل، «وكل ما لا يحيله العقل ولم يرد بعدم وقوعه نقل فجائز أن يكرم الله تعالى به أولياءه». ثم إن هذه الكرامة قد تكون طيباً للأرض، ومشياً على الماء، وطيراناً في الهواء، واطلاعاً على كوائن كانت وكائن بعد لم تكن من غير طريق العادة.

ثم قال: وهذه كلها كرامات ظاهرة حسية، وكرامات هي عند أهل الله أفضل منها وأجل، وهي كلها الكرامات المعنوية كالمعرفة بالله والخشية له ودوام المراقبة

ودوام المتابعة والاستماع من الله والفهم عنه ودوام الثقة به وصدق التوكل عليه، إلى غير ذلك. انتهى.

«تنبيه»:

شُبه القدرية وجوابها:

في شُبه القدرية في منع الكرامات وذكر فسادهما قالوا تجوز الكرامة يفضي إلى السفسطة؛ لأنه يقتضي تجوز انقلاب الجبل ذهباً، والبحر دماً عبيطاً.

قال ابن السبكي: والجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

أحدها: أنا لا نسلم بلوغ الكرامة إلى هذا المبلغ كما اقتضاه كلام الفشيري.

والثاني: وهو ما اقتضاه كلام أئمتنا إنما يجوز بلوغها هذا المبلغ، ولكن لا يقتضي ذلك سفسطة؛ لأن ما ذكرتم بعينه وارد عليكم في زمان النبوة، فإنه يجوز ظهور المعجزة بذلك ولا يؤدي إلى سفسطة.

والثالث: أن التجويزات العقلية لا تقدح في الأمور العادية وجواز تغييرها بسبب

الكرامة تجوز عقلي، ولا تقدح الشبه فيها.

الشبهة الثانية: التباس الكرامة بالمعجزة:

الشبهة الثانية: قالوا: لو جازت الكرامة لاشتبهت بالمعجزة، فلا يبقى للمعجزة

دلالة على ثبوت النبوة.

والجواب: منع الاشتباه؛ لأن المعجزة مقرونة بدعوى النبوة، ولا كذلك

الكرامة بل الكرامة مقرونة بالانقياد للنبي وتصديقه، والسير على طريقه.

قال شيخنا العارف بالله قطب الدائرة سيدي أحمد المغربي: ومما يستدل به

شرعاً لإثبات الكرامات قوله عليه الصلاة والسلام «إني لأجد نفس الرحمن من قبل

اليمن»⁽¹⁾، فينسّم من هذه النفس رائحة ففيه إثبات أصل الكرامات لأويس القرني

رضي الله عنه، وإذا ثبت ذلك لواحد من القوم في زمنه ﷺ كما ثبتت في غير زمنه

للخضر رضي الله عنه بدليل النص، وبعده للسيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه

بطريقة الاستقراء والتتبع.

(1) رواه الطبراني في مسند الشاميين، من طريق حريز عن شبيب أبي روح، حديث رقم (1083)

فإذا كان هذا الأمر واقعاً لغير الأنبياء في زمنه ﷺ وقيل زمنه وبعده ثابتاً بهذه الأدلة تبين إثبات الكرامات للأولياء ووقوعها لهم في كل زمان لأنها أثار المحبة الواردة في آية حقيقة الاتباع والصحبة، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبُّكُمْ اللَّهُ﴾ [سورة آل عمران، آية: 31].

أي: يكرمكم الله بأنواع المعارف واللطائف والتوفيق والتأييد.
وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [سورة الأنفال، آية: 17]، وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [سورة الزمر، آية: 36]؛ لشدة الاعتناء به والتسديد. انتهى.

وقولهم: إنما دلت المعجزة على تصديق النبي من حيث انخراق العادة، فكذلك الكرامة. قال ابن السبكي: هذا كلام ساقط، فإن مجرد خرق العادة ليس المقتضى للنبوة.

ولو دلّ خرق العادة على النبوة بمجردة لوجب أن يدلّ أشراف الساعة وما سيظهر منها على ثبوت نبوة؛ إذ العوائد تنخرق بها، ولكن قال شيخنا العارف بالله تعالى المغربي ما نصه:

«ولقائل أن يقول: نزول آية طلوع الشمس من مغربها، وهي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا﴾ [سورة الأنعام، آية: 158] قائم مقام طلوعها في عصره ﷺ وإن تأخر طلوعها بعد زمانه، وكذلك سائر الأخبار منه ﷺ وإن تأخر زمن وقوعها عنه؛ لأنه لا ينطق عن الهوى، فهي معتبرة من جزئيات المعجزات الدالة على ثبوت النبوة، فحيث لا يصح الاستدلال بمثل هذا للقدرية». انتهى.

ثم قال ابن السبكي أيضاً في الرد عليهم: ومن أعظم البدائع فطرة السماوات والنشأة الأولى، فإنها لم تخترع لثبوت نبوة.

قلت: إنما اخترعها الله - تعالى - بمحاسن حكمته الأزلية الداخلة في عموم قدرته ليستدل العقلاء بوجودها على تفرد وجود إلهية الحق - تعالى - ودوام بقائه لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيَاتِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ [سورة الغاشية، آية: 17، 18]، ولقوله تعالى [في الحديث]: «كنت كنزاً لا أعرف فأحببت أن أعرف»⁽¹⁾.

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2016) [173/2] وأورده الهروي في المصنوع، [231/1].

واعلم أن حكمة الله تعالى التي ظهرت بوجود هذا العالم بعد العدم لا يمكن من حيث الحكمة وجود عالم آخر أبدع منه، إذ لو كان كذلك للزم نقض الحكمة بأحكم منها «وحكم الله لا يمكن نقضها بأحكم منها».

بيان لطيف في المراد من الحكمة:

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَن تَقْوِيرٍ﴾ [سورة التين، آية: 4]. فلم يمكن بعد هذا الأحسن وجود أحسن منه حكمة لا قدرة؛ لأن الحكمة لا تكون حكمة إلا إذا امتنع إمكان أحكم منها، ومن هنا ظهر لي عموم وخصوص مطلق بين: الحكمة والقدرة، وهو أن كل حكمة إلهية قدرة ولا عكس؛ لأن القدرة صادقة بالحكمة وبغيرها، وكثير من الناس لا يعرف الفرق بينهما؛ ولهذا غلط بعض من أدركناه من العلماء في ذلك لما اعترض على حجة الإسلام الغزالي - رضي الله عنه - في مسألة ليس في الإمكان أبدع مما كان.

وحاصل اعتراضه: أنه زعم أن الحجة - رحمه الله - قد وافق المعتزلة في وجوب الأصلح، وليس الأمر كما زعم. أنشدني شاعر العصر شمس الدين القادري لنفسه:

لقد كان خلق الله في صدق وعده قديماً على أسنى الكمال وحده
فلم يك في الإمكان عند ذوي النهى بأبداع مما كان صدقاً لوعده

الشبهة الثالثة: اللبس عند الدعوى:

«الشبهة الثالثة»: قالوا: لو ظهر لولي كرامة لجاز الحكم له بمجرد دعواه أن هذا يملك حبة من الحنطة، وفلساً واحداً من غير بيّنة لظهور درجته عند الله تعالى المانعة من كذبه، لا سيما في هذا القدر اليسير. وهذا باطل لإجماع المسلمين المؤيد لقول رسول رب العالمين - ﷺ: «البيّنة على المدعي، واليمين على المدعي، واليمين على من أنكر»⁽¹⁾.

والجواب: أن الكرامة لا توجب عصمة الولي ولا صدقه في كل الأمور، وقد

(1) رواه البيهقي في السنن الكبرى، باب لا يحيل حكم القاضي على المقضي له...، حديث رقم (20324) [150/10] ورواه الدارقطني في السنن، كتاب الحدود والديات...، حديث رقم (98) [110/3] ورواه غيرهما.

سُئل شيخ الطريقة أبو القاسم الجنيد رحمه الله: «أيزني الولي؟ فقال: وكان أمر الله قدراً مقدوراً».

وهب أن الظن حاصل بصدقه فيما ادعاه إلا أن الشارع جعل لثبوت الدعوى طريقاً مخصوصاً، ورابطاً معروفاً لا يجوز تعديه، ولا العدول عنه، ألا ترى أن كثيراً من الظنون لا يجوز الحكم بها؛ لخروجها عن الضوابط الشرعية.

«تنبيه»:

حفظ الولي والفرق بين الحفظ والعصمة:

اعلم: أن الولي الذي جذبه الحق تعالى إلى جنبه، وأطلعته على معارفه محفوظ كما أن النبي معصوم. قال بحر الحقائق محيي الدين بن عربي - قدس الله روحه - في كتاب «العظمة»:

والفرق بين العصمة والحفظ: أن العصمة تعم الذات كلها، والحفظ يتعلق بالجوارح مطلقاً، ولا يشترط استصحابه في السر، فقد تخطر للولي خواطر لا يقتضيها طريق الحفظ، لكن لا يظهر لها حكم على الجوارح البتة. وقال أيضاً - رضي الله عنه - في كتابه «مفاتيح الغيب».

والفرق بين العصمة والحفظ: أن النبي لا يكون أبداً محلاً للإلقاء الشيطان في القلب وإن عرفه وقلب عين ما أتى به، لكن قد يأتي في الصورة الجسدية الظاهرة، فيخطبه ويكلمه كما يكلم الكفار وأمثالهم، فهذا هو المعصوم.

والمحفوظ: هو الذي ينزل عليه الروحانيات العلى بما شاء الحق - سبحانه وتعالى - من العلوم والأسرار، إلا الحقيقة الجبرائيلية فإنها مخصوصة بالرسول على القلوب لا يشاركون فيها من ليس من جنسهم، وما عدا جبريل فإنه ينزل على قلوب العباد.

وتنزلهم بضربين: الضرب الواحد بالأسرار والعلوم، وهو مخصوص بالأولياء والضرب الآخر نزل بالإلهام لفعل الخير، وهو التي عبر عنها المشرع بلمة الملك. وهذا عموم بالناس كافة من جميع خلق الله.

ثم إن هذا الصنف العالي من الأولياء لم يعصموا من تنزلات الشياطين على قلوبهم مثل عصمة الأنبياء، لكن عصموا رضي الله عنهم عن أن يكون الشيطان حكم

عليهم كحكم ما ألقى عليه بتأثير فيهم بحسب ما أَرَادَهُ الشيطان، فأعطاهم الله تعالى التمييز بين ما يرد به المَلَك، وبين ما يرد به الشيطان، وإن كان خيراً. وغرض الشيطان منه أن يلبس عليه بأن ذلك من الله على طريق الملك، فإذا اتصف بهذا الجهل سُرَّ الشيطان بذلك لعلمه أن الجهل أشد العذاب، فإنه الذي أوقعه في الخسران المبين حيث لم يعقل عن ربه ما أَرَادَهُ في أمره بالسجود، وقد صير الله ذوات هؤلاء الأولياء كالإكسير الذي يقرب النحاس والرصاص ذهباً إبريزاً، ويقرب الحديد والقلعي فضة بيضاء، فيأخذ به هذا الشيطان. فإن كان شراً عرفوه وأعدوه لموطنه الذي يليق به، وإن كان خيراً أخذوه من حيث إن الحق أرسله إليهم على يد عدوهم، فقد سخر لهم عدوهم في أن يلقي إليهم ما في سعادتهم من حيث لا يعلم كما فعلت الأنبياء بما ألقى إليهم في الصورة الظاهرة؛ لأن قلوبهم ليس له إليها سبيل، فخيّل لسليمان جنة من أحسن ما يكون من الجنان ليفتنه وما علم قلب الأعيان.

فعندما أبصرها سليمان عليه الصلاة والسلام - عرف أنها جاءت من الله تعالى له جنة معجلة ونعيماً على يدي عدو لا يعرف ما أتى به، فألقى عليها من إكسير الحضور الإلهي وزن ذرة، فخرجت من عالم الخيال إلى عالم الحس، وكان في بعض بساطينه وجنانه، فخرجت عن سلطان الشيطان؛ لأن سلطانه في عالم الخيال والتمثيل ليس له حضرة غيرها فخرج خاسراً مدحوراً ذليلاً لما أصابه من تصيير ما أتى به بعبداً قربةً إلى الله وزلفى، وهديه من الله عظمى، فهذا هو الفرق بين المعصوم والمحفوظ.

الفرق بين إلهام الملك وإلقاء الشيطان:

وقال العلامة شمس الدين ابن القيم: والفرق بين إلهام المَلَك، وإلقاء الشيطان من وجوه:

منها: أن ما كان لله موافقاً لمرضاته وما جاء به رسوله فهو من المَلَك، وما كان لغيره غير موافق لمرضاته فهو من إلقاء الشيطان.
ومنها: أن ما كان أتم إقبالاً على الله وإنابة إليه وذكره له وهمة صاعدة إليه فهو المَلَك، وما أورت ضد ذلك فهو من الشيطان.
ومنها: أن ما أورت أنساً ونوراً في القلب وانشراحاً في الصدر فهو من المَلَك، وما أورت ضد ذلك فهو من الشيطان.

ومنها: أن ما أورث سكينته وطمأنينة فهو من الملك، وما أورث قلقاً وانزعاجاً فهو من الشيطان.

فالإلهام الملكي يكثر في القلوب الطاهرة النقية قد استنارت بنور الله تعالى فللملك بها اتصال، وبينه وبينها مناسبة، فإنه طيب طاهر لا يجاور إلا قلباً يناسبه، فتكون لمة الملك بهذا القلب أكثر من لمة الشيطان.

وأما القلب المظلم الذي قد اسود بدخان الشهوات والشبهات فإلقاء الشيطان ولتمته به أكثر من لمة الملك.

الشبهة الرابعة: الأنس بالكرامة حتى تصير عادة:

«الشبهة الرابعة»: قالوا إذا تكرر ما يخرق العوائد على الأولياء أفضى ذلك إلى التحاق خوارق العادات في حقوقهم بالمعتادات، وصارت عاداتهم على خلاف العادات فلو ظهر شيء في زمنهم كانت عوائدهم في انخراق العوائد. ثم أخرجوا الشبهة على وجه آخر فقالوا: لو جاز إظهارها على صالح لجاز إظهارها على صالح آخر إكراماً له وهكذا إلى عدد كثير إذ ليس اختصاص عدد منهم لذلك أولى من عدد آخر، وحينئذ تصير عادة فلا يبقى ظهورها دليلاً على النبوة ويطوى بساط النبوة رأساً.

قال ابن السبكي: وجميع ما ذكره في هذه الشبهة تمويه لا حاصل تحته، وقعقة لا طائل فيها، ولأئمتنا في ردها وجهان:

فمن أئمتنا من منع توالي الكرامات واستمرارها حتى تصير في حكم العوائد. بل منع بعض المحققين من تصور توالي المعجزات على الرسل المتعاقبين إذا كان يؤدي إلى تصيير المعجزات معتادة، فهذه طريقة في الرد على هذه الشبهة حاصلها إنما يجوز ظهور الكرامات على وجه لا تصير به عادة.

ومن أئمتنا - وهم المعظم - من جوز توالي الكرامات على وجه الاختفاء بحيث لا يظهر ولا يشيع ولا يلتحق بالمعتاد؛ لئلا تخرج عن كونها كرامة عند عامة الخلق؛ ولهذا لو تواترت الكرامات على الولي حتى ألفها واعتادها لا يخرج ذلك عن طريق الرشاد ووجه السداد.

والمعجزة تتميز عن تكررت عليه الكرامة بالإظهار والإشاعة، وتحدي النبوة، فإذا تميزت الكرامة عن المعجزة لم ينسد باب الطريق إلى معرفة النبي.

ومن تمام الكلام في ذلك أن أهل القبلة متفقون على أن الكرامة لا تظهر على الفسقة الفجرة، وإنما تظهر على المتمسكين بطاعة الله عز وجل. وبهذا لاح أن الطريق إلى معرفة الأنبياء لا يُسد، فإن الولي بتوفيق الله تعالى ينقاد للنبي إذا ظهرت المعجزة على يديه، ويقول: معاشر الناس، هذا نبي الله فأطيعوه، ويكون أول منقاد له، ومؤمن به.

والحاصل: أن ما يظهر على يد الرهبان ليس من الكرامات بل هو مكر واستدراج كما هو ظاهر كلام إمام الحرمين، ولا يرد على هذا قصة أهل الكهف لكونهم كانوا عبدة أصنام، فإن الكرامات التي وقعت لهم إنما كانت إرشاداً وتبصرة من الله تعالى وسبباً لكشف الغطاء عن قلوبهم والله أعلم.

«فصل»:

حاصل الفرق بين المعجزة والكرامة:

قال الإمام النجيب ابن النجيب أبو المعالي إمام الحرمين في كتابه الإرشاد: «ما صار إليه أهل الحق انخراق العادات في حق الأولياء، وأطبقت المعتزلة على منع ذلك. والأستاذ أبو إسحاق - رضي الله عنه يميل إلى قريب من مذاهبهم.

ثم مجوزو الكرامات تحزبوا أحزاباً: فمن صائرين إلى أن شرط الكرامة الخارقة للعادة أن تجري من غير اختيار من الولي، وصار هؤلاء إلى أن الكرامة تفارق المعجزة من هذا الوجه. وهذا غير صحيح لما سنذكره.

وصار صائرون إلى تجويز وقوع الكرامة على حكم الاختيار، ولكنهم منعوا وقوعها على قضية الدعوى، وقالوا: لو ادعى الولي الولاية، واعتضد في إثبات دعواه بما خرق العادة، فإن ذلك ممنوع.

وهؤلاء يعدون ذلك مميزاً بين الكرامة والمعجزة.

وهذه الطريقة غير مرضية أيضاً، ولا يمتنع عندنا ظهور خوارق العوائد مع الدعوى المفروضة، وصار بعض أصحابنا إلى أن ما وقع معجزة لنبي لا يجوز تقدير وقوعه كرامة لولي، فيمتنع عند هؤلاء أن ينفلق البحر وتنقلب العصا ثعباناً، وتحيا الموتى كرامة لولي، إلى غير ذلك من آيات الأنبياء.

وهذه الطريقة غير سديدة أيضاً والمرضي عندنا تجويز جملة خوارق العوائد في معارض الكرامات. هذا نصه بحروفه.

وهذا الذي ذهب إليه من تجويز جميع خوارق العادات في الكرامات كالمعجزات، وكونهما لا يفترقان إلا في تحدي النبوة هو الذي ذهب إليه أئمة الأصول المحققون المعتمدون المشهورون.

قال الإمام أوحده وقته في فقه القاضي أبو بكر الباقلاني - رضي الله عنه - فيما صنف مما روى عنه العلماء رضي الله عنه ورويناه عنهم:

إن المعجزات تختص بالأنبياء، والكرامات تكون للأولياء، ولا يكون للأولياء معجزة؛ لأن من شرط المعجزة اقتران دعوى النبوة بها، والولي لا يدعي النبوة، فالذي يظهر عليه لا يكون معجزة.

وقال الإمام أبو بكر بن فورك رضي الله عنه فيما رواه العلماء عنه، ورويناه عنهم:

المعجزات دلالات الصدق، ثم إن ادعى صاحبها النبوة، فالمعجزة تدل على صدقه في مقالته، وإن أشار صاحبها إلى الولاية دلت المعجزة على صدقه في حالته فتسمى «كرامة»، ولا تسمى معجزة، وإن كانت من جنس المعجزات.

وكذلك شرط الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي - رضي الله عنه - في الرسالة القدسية في الفعل الخارق للعادة في كونه معجزة: أن يكون مقروناً بتحدي النبي مشيراً باشتراط التحدي المذكور إلى أنه الفارق بين الكرامة والمعجزة.

وكذلك في كتابه «الاقتصاد في الاعتقاد» لما ذكر خرق العادة في الكرامات قال: وذلك مما لا يستحيل في نفسه؛ لأنه ممكن، ولا يؤدي إلى بطلان المعجزة؛ لأن الكرامة عبارة عما يظهره من غير اقتران التحدي، وإن كان مع التحدي فإنما نسميه معجزة.

وقال الإمام فخر الدين الرازي - رضي الله عنه - في كتابه «المحصّل»:

«ثم تتميز الكرامة من المعجزة بعدم التحدي».

وقال الإمام ناصر الدين البيضاوي - رضي الله عنه - في كتابه «المصباح»:
«الكرامات جائزة، خلافاً للمعزلة والأستاذ وتتميز عن المعجزة بعدم التحدي».
وقال الإمام محمد بن عبد الملك السلمي الطبري في كتابه «المعين على مقتضى الدين»: «والكرامات من جنس المعجزات؛ لأن كليهما دلالات الصدق، وإنما يختلفان من حيث التسمية، فمن ادعى النبوة دلت المعجزة على صدقه «في حالته».

وتسمى حينئذٍ معجزة؛ لأنها دالة على صدق مدعي النبوة في مقالته، ومن أشار إلى الولاية دلت من جنس المعجزة على صدقه في حالته، وتسمى كرامة، ولا تسمى معجزة».

وقال الإمام نصر الدين الطوسي - رضي الله عنه - في كتابه «قواعد العقائد»: «والفعل الخارق الذي يظهر على أحد من غير تحدٍ يُسمى كرامة، وتختص بها الأولياء».

وقال الإمام حافظ الدين النسفي - رضي الله عنه - في عقيدته: «كرامات الأولياء جائزة خلافاً للمعتزلة؛ للمشهور من الأخبار، والمستفيض من حكايات الأخيار. ولا يقال: لو جاز ذلك لانسدّ طريق الوصول إلى معرفة النبي رضي الله عنه؛ لأن المعجزة تفارق دعوى النبوة، ولو ادعاها الولي لكفر من ساعته».

وقال الإمام أبو القاسم القشيري - رضي الله عنه - في رسالته: وظهور الكرامات علامة صدق من ظهرت عليه في أحواله. ثم قال بعد هذا: فشرائط المعجزات كلها أو أكثرها توجد في الكرامة، إلا دعوى النبوة.

قلت: فهؤلاء عشرة أئمة ممن لهم تصنيف محقق، وكلام معتبر في العقائد من أهل السُّنة، اقتصر عليهم ولا حاجة إلى كثرة التعداد، فبعض هؤلاء المذكورين فيه الكفاية، لا سيما الستة الأولين.

وقد اتفقوا على أن الفارق بين الكرامة والمعجزة هو تحدي النبوة فقط، ولم يشترط أحد منهم كون الكرامة دون المعجزة في جنسها وعظمتها، فدل ذلك على جواز استوائهما فيما عدا التحدي المذكور، كما صرح به إمام الحرمين المشهور. فيجوز اجتماع الكرامة والمعجزة سوى التحدي في إحياء الموتى وغيره من سائر الخوارق، وهو المطلوب.

ومما يشهد لصحة هذا قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «لو أقسم على الله لأبره»⁽¹⁾ فإن الإبرار المذكور عام في كل مقسم فيه من إحياء الموتى وغيره.

(1) «إن من عباد الله تعالى من لو أقسم على الله لأبره». رواه البخاري في صحيحه، باب الصلح في الدية، حديث رقم (2556) [961/2] ورواه مسلم في صحيحه، باب إثبات القصاص في الأسنان. . . ، حديث رقم (1675) [1302/3] ورواه غيرهما.

أنواع الكرامات :

وقال الياضي في «نشر المحاسن»: وأما وقوع ذلك من كثير من الأولياء، أعني عظام الكرامات فذلك خارج عن الحصر، وها أنا أقتصر على التنبيه على ذلك بذكر عشرة أنواع:

النوع الأول: إحياء الموتى، من ذلك ما روينا عن الأستاذ الإمام أبي القاسم القشيري رضي الله عنه في رسالته المشهورة بإسناده فيها: «أن أبا عبيد البشري - رضي الله عنه غزا سنة من السنين، فخرج في البرية، فمات المهر الذي كان تحته وهو في البرية، فقال: يا رب أعرنا حتى نرجع إلى «بشر».

يعني إلى قريته، وإذا المهر قائم، فلما غزا ورجع إلى «بشر» قال لابنه: يا بني خذ السرج عن المهر. قال ابنه: فقلت له: إنه عرق، فإن أخذت السرج داخله الريح. فقال: يا بني إنه عارية. قال: فلما أخذت السرج وقع المهر ميتاً.

قلت: وأبو عبيد هذا أحد شيوخ الرسالة الكبار - رضي الله عنهم -.

ورويانا عن الأستاذ المذكور أيضاً في رسالته بإسناده فيها:

«أنه انطلق رجل من اليمن، فلما كان في بعض الطرق نهق حمارة فمات، فقام فتوضأ وصلّى ركعتين، ثم قال: اللهم إني جئت مجاهداً في سبيلك ابتغاء مرضاتك، وإني أشهد أنك تُحيي الموتى، وتبعث من في القبور، لا تجعل لأحدٍ عليّ مئة اليوم، أطلب تبعث حماري، فقام الحمار ينفض أذنيه».

قلت: وقد نقل بعض أهل العلم في بعض التصانيف هذا عن الإمام الشعبي - رضي الله عنه وقال فيه: أقبل قوم من اليمن متطوعون في سبيل الله، فهلك حمار رجل منهم، ثم ذكر ذلك.

ورويانا أيضاً عنه في رسالته بإسناده فيها: أن محمد بن سعيد البصري قال: بينما أنا أمشي في بعض طريق البصرة إذ رأيت أعرابياً يسوق جملًا، فالتفت فإذا الجمال وقع ميتاً، ووقع الرجل والقتب، فمشيت ثم التفت فإذا الأعرابي يقول: يا مسبب كل سبب، ويا مأمول من طلب، رُدّ عليّ ما ذهب بجمال الرجل والقتب، وإذا الجمال قائم والرجل والقتب فوقه.

ورويانا عنه أيضاً في رسالته بإسناده فيها إلى الشيخ الكبير حجة الله على العارفين

قطب المقامات، وصاحب الكرامات سهل بن عبد الله - رضي الله عنه - أنه قال:
الذاكر لله على الحقيقة لو هم أن يُحيي الموتى لفعل، يعني بإذن الله «ومسح
يده على عليل بين يديه فبرأ وقام».
قال الشيخ الجليل العارف صفي الدين بن أبي المنصور - رضي الله عنه - في
رسالته:

كان الشيخ مفرج الدماميلي - رضي الله عنه - ولياً عظيم الشأن، وكان عبداً
حشياً، اصطفاه الله، فلما تكاثرت كراماته أحضرت عنده فراخ مشوية، فقال لها:
طيري فطارت، إحياءً بإذن الله تعالى.

قلت: وأخبرني بعض الصالحين من أهل اليمن: أن هرة كانت تأتي الشيخ
الكبير العارف بالله المعروف بالأهدل - بالدال المهملة - شيخ أبي الغيث - رضي الله
عنهما - فيطعمها من عشائه، وكان اسمها «لؤلؤة»، فضربها خادم الشيخ «ذات ليلة
فماتت، فرمى بها الخادم في مكان، أو قال في خرابة ليلاً؛ لئلا يعلم الشيخ» بذلك،
فلما جاء الشيخ «سكت عليه ليلتين أو ثلاثاً، ثم قال له: أين لؤلؤة؟ فقال: ما أدري.
فقال الشيخ: ما تدري! ثم ناداها الشيخ: لؤلؤة، فجاءت إليه تجري، فأطعهما.
وأخبرني بعض أهل العلم والصلاح ممن اعتقده من بلاد المغرب بإسناده: أنه
توفي بعض أصحاب الشيخ الكبير العارف بالله أبي يوسف الدهماني رضي الله عنه،
فجزع أهله، فلما رأى الشيخ المذكور شدة جزعهم جاء إلى الميت، وقال له قم
بإذن الله تعالى، فقام وعاش بعد ذلك ما شاء الله من الزمان.

وسمعت من غير واحد وقوع مثل هذه القضية من شيخين من شيوخ اليمن في
اثنين من الناس ماتا، ثم عاشا بإذن الله القادر على كل شيء سبحانه.

قلت: ومن المشهور ما روي مسنداً من خمس طرق عن جماعة من الشيوخ
الأجلاء أولي الفضائل والمفاخر في كتاب مناقب الشيخ الإمام قطب العارفين قدوة
السالكين الذي خضعت لقدمه رقاب الأولياء الأكابر، أستاذ الطريقة علم الشريعة.
والحقيقة الذي تواترت كراماته، أو قربت من التواتر، وخرجت عن حصر الحاصر،
سلالة الشرف الحسين النسيب محيي الدين عبد القادر - قدس الله روحه، ونور
ضريحه -: قالوا: جاءت إليه، امرأة بولدها، وقالت له: إني رأيت قلب ابني هذا
شديد التعلق بك، وقد خرجت عن حقي فيه لله عز وجل ولك فقبله الشيخ، وأمره

بالمجاهدة وسلوك الطريق، فدخلت عليه أمه يوماً، فوجدته نحيلاً مصفراً من آثار الجوع والسهر، ووجدته يأكل قرصاً من شعير، فدخلت على الشيخ فوجدت بين يديه إناء فيه عظام دجاجة مسلوقة قد أكلها، فقالت له يا سيدي تأكل لحم الدجاج ويأكل ابني خبز الشعير، فوضع يده على تلك العظام وقال: قومي بإذن الله الذي يحيي العظام وهي رميم فقامت دجاجة سوية، وصاحت! فقال الشيخ: إذا صار ابنك هكذا، فليأكل ما شاء».

قالوا: ومرت على مجلسه حداً طائراً في يوم شديد الحر، فصاحت، فشوشت على الحاضرين فقال: يا ريح خذ رأس هذه الحدأة فوقعت لوقتها في ناحية، ورأسها في ناحية، فنزل الشيخ من الكرسي، وأخذها في يده، وأمر بيده الأخرى عليها وقال: «بسم الله الرحمن الرحيم» فحييت، وطارت والناس يشاهدون ذلك.

كلام الموتى:

والنوع الثاني: كلام الموتى من ذلك: ما أخبرنا الفقيه العالم السيد الجليل القاضي نجم الدين الطبري المكي، عن جده الفقيه الإمام العلامة «محب الدين الطبري: أنه كان في مقبرة «زيد من بلاد اليمن مع الفقيه الإمام العلامة» الولي الكبير العارف بالله تعالى إسماعيل الحضرمي رضي الله عنهم أجمعين: «أن رجلاً كان يمشي معه بجانة، وكان اسمه محب الدين»، فقال: يا محب الدين. تؤمن بكلام الموتى؟! «قلت» له: نعم يا سيدي «منك».

فقال: إن صاحب هذا القبر يقول لي: أنا فلان ابن فلان من حشو الجنة. قلت: قوله (منك) أي: إذا كان الإخبار بذلك صادرة منك آمنت. ومفهوم ذلك منك أو ممن هو مثلك في جلاله القدر وعظم الكرامات. وأخبرني بعض الشيوخ الصالحين من أهل اليمن عن الفقيه إسماعيل المذكور أيضاً: أنه مرّ يوماً على مقبرة، ومعه ناس كثيرون فبكى بكاءً شديداً، ثم ضحك في الحال!!.

فسئل عن ذلك، فقال: رأيت أهل هذه المقبرة يعذبون، فحزنت لذلك ثم سألت الله أن يشفعني فيهم فشفعني. فقالت صاحبة هذا القبر - وأشار إلى قبر قريب العهد بالحفر -: وأنا معهم يا فقيه إسماعيل! أنا فلانة المغنية! فضحكت وقلت: وأنت معهم. قال: ثم أرسل «إلى» الحفار وقال له: هذا قبر من؟ فقال: «قبر فلانة المغنية».

قلت: وهذه القضية فيها لهذا السيد المذكور أربع كرامات .
إحداها: ما كشف له . عن حال الموتى ، والثانية: كلام الموتى له أعني قالت
له المغنية المذكورة ، والثالثة: قبول شفاعته فيهم ، والرابعة: علمه بقبول شفاعته
وناهيك بهذه الأربع كرامات في قضية واحدة ، وخصوصاً الثالثة ، وهي قبول شفاعته
في الجَمِّ الغفير ورفع العذاب عنهم ببركته .

وروينا في رسالة الإمام أبي القاسم القشيري: أن الشيخ الكبير العارف بالله أبا
سعيد الخراز - رضي الله عنه - قال: كنت مجاوراً بمكة - حرسها الله تعالى - ،
فخرجت يوماً بباب بني شيبية ، فرأيت شاباً حسن الوجه ميتاً ، فنظرت في وجهه ،
فتبسّم في وجهي .

وقال لي: يا أبا سعيد: أما علمت أن الأحياء أحياء وإن ماتوا، وإنما ينقلون من
دار إلى دار . وأخبرني بعض الأولياء من شيوخ اليمن أنه كلمه السيد الجليل الولي
الكبير الشيخ العارف بالله تعالى محمد بن أبي بكر الحكمي قدّس الله روحه ، بعد أن
انشق قبره وخرج منه وهو مشدود!

قال: فقلت له: يا سيدي أراك مشدود الوسط! فقال: نحن بعد في الطلب، من
زعم أنه قد وصل فقد كذب لأنه لا يصل إلا إلى محدود، والله تعالى عن النهايات
والحدود .

بصيرة في إثبات الوصول ونفيه .

قلت: قول هذا السيد: «من زعم أنه قد وصل فقد كذب» صحيح، وقول غيره
من الشيوخ: «فلان قد وصل، وذكرهم الوصال، والوصل، والوصول صحيح .
والجمع بين ذلك: أن مراد الشيخ المذكور من توهم أنه قد وصل إلى مقام ليس
فوقه مقام، أو إلى نهاية ليس فوقها مطلب، فقد كذب؛ لأن فضل الله ليس له نهاية،
فما من مقام إلا فوقه مقام يمكن أن يصل إليه العبد بفضل الله تعالى .

ومراد من أطلق من الشيوخ لفظ الوصول وما في معناه من الألفاظ المذكور:
الوصول إلى مقام معلوم عندهم يصل الولي فيه إلى أشياء من المشاهدات للصفات،
والاطلاع على عالم الملكوت والمعارف والأسرار وغير ذلك مما لا يطلع عليه
غيرهم مع اعتقادهم أن فوق ذلك مقامات ليس لها نهاية .

وهذا كما تقول في جماعة من الأئمة إنهم بلغوا رتبة الاجتهاد، مع علمنا أن ذلك

ليس هو نهاية العلم، فمن بلغ تلك الرتبة، يقال له: مجتهد، ومن تعداها يقال له أيضاً مجتهد، مع التفاوت، وعدم البلوغ إلى نهاية لا يستفيد منها المجتهد بعدها علماً. وهذا الذي ذكرته في الوصول مما ظهر لي، ولما كتبتّه وجدت بحمد الله ما يؤيده من كلام السيد الكبير العارف بالله الإمام السالك المحقق شيخ الإسلام شهاب الدين السهرودي - قدس الله روحه - قال فيما روينا عنه في كتاب «العوارف»: «وكل من وصل إلى صنف اليقين بطريق الذوق والوجدان فهو في رتبة من الوصول، ثم يتفاوتون: فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال وهو رتبة في التجلي، فينفي فعله وفعله غيره لوقوفه مع فعل الله، ويخرج في هذه الحالة من التدبير والاختيار وهذه رتبة في الوصول.

ومنه من يوقف في مقام الهيبة والأنس بما يكشف قلبه من مطالعة الجلال والجمال وهذا تجلي بطريق الصفات، وهو رتبة في الوصول. ومنهم من يرقى إلى مقام الفناء مشتملاً على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة، مغيباً في شهوده عن وجوده، وهذا ضرب من تجلي الذات لخواص المقربين وهذا المقام رتبة في الوصول.

وفوق هذا حق اليقين، ويكون من ذلك في الدنيا للخواص لمح، وهو سريان نور المشاهدة في كلية العبد حتى تحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قلبه، وهذا من أعلى رتب الوصول.

وإذا تحققت الحقائق يعلم العبد مع هذه الأحوال الشريفة أنه بعد في أول المنازل وأين الوصول هيئات منازل طريق الوصول لا تنقطع أبد الآباد في عمر الآخرة الأبدي، فكيف في العمر القصير الدنياوي.

انتهى كلامه وهو نصه بحروفه، وهو كلام عزيز نفيس من إمام عارف محقق، أحببت نقله في هذا المكان ليقف عليه كل من وقف على هذا الكتاب ممن يعرف الوصل ويجهله، ويصدق به ويكذبه من معتقد ومنتقد، وكلام الشيوخ في ذلك كثير من ذلك قول الشيخ الكبير السيد الجليل أبي الحسن النووي - رضي الله عنه -: الاتصال مكاشفات القلوب، ومشاهدات الأسرار).

وقول بعضهم: هو وصول السر إلى مقام الذهول.

قلت: ومن المشهور ما روي مسنداً من ثلاث طرق عن جماعة من الشيوخ الأكابر في مناقب قطب الأولياء الشيخ عبد القادر - رضي الله عنه - قالوا:

زار شيخنا محيي الدين عبد القادر الكيلاني - قدس الله روحه - تربة الشونيزي يوم الأربعاء السابع والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وخمسمائة، ومعه جمع كثير من الفقهاء والفقراء، ووقف عند قبر الشيخ حماد الدباس - رضي الله عنه - زمناً طويلاً.

حتى اشتد الحر، والناس واقفون خلفه، ثم انصرف والسرور بين في وجهه. فسئل عن طول قيامه. فقال: كنت خرجت من بغداد في يوم الجمعة منتصف شعبان سنة تسع وتسعين وأربعمائة مع جماعة من أصحاب الشيخ حماد - رضي الله عنه - لنصلي الجمعة في جامع الرصافة، والشيخ معنا، فلما كنا عند قنطرة النهر، دفعني فرماني في الماء، وكان في شدة البرد في كوانين.

فقلت: بسم الله غسل الجمعة، وكان عليّ جبة صوف، وفي كمي أجزاء، فرفعت يدي لثلاث تبل، وتركوني وانصرفوا، فخرجت من الماء وعصرت الجبة وتركتهم، وقد تأذيت بالبرد أذى كبيراً، فطمع في أصحابه فنهروهم وقال: إنما أؤذيه لأمتحنه فأراه رجلاً لا يتحرك، وإني رأيت اليوم في قبره وعليه حلة من جوهر، وعلى رأسه تاج من ياقوت، وفي يده أساور من ذهب، ويده اليمنى . . لا تطيعه.

فقلت: ما هذا؟ قال: هذه اليد التي رميتك بها، فهل أنت غافر «لي ذلك»؟ قلت: نعم، قال: فاسأل الله تعالى أن يردها عليّ!! فوقفت أسأل الله تعالى في ذلك، فقام خمسة آلاف من أولياء الله تعالى في قبورهم يسألون الله عزّ وجلّ أن يقبل مسألتني فيه، ويشفعون عندي في تمام المسألة. فما زلت أسأل الله عزّ وجلّ في مقامي ذلك حتى رد الله تعالى يده وصافحني بها، وقد تم سروره.

قالوا: فلما اشتهر هذا القول ببغداد اجتمع المشايخ والصوفية من أهل بغداد من أصحاب الشيخ حماد ليطالبوا الشيخ عبد القادر بتحقيق ما قال في الشيخ حماد، وتبعهم خلق كثير من الفقراء، وأتوا إلى المدرسة فلم يتكلم منهم أحد إجلالاً للشيخ، فبدأهم بمراده وقال لهم: اختاروا رجلين من المشايخ نبين لكم ما ذكرته على لسانهما.

فأجمعوا على الشيخ أبي يعقوب يوسف بن أيوب الهمداني كان يومئذ قد ورد إلى بغداد، والشيخ أبي محمد عبد الرحمن بن شعيب الكردي، وكان مقيماً ببغداد، وكانا رضي الله عنهما من ذوي الكشف الخارق والأحوال الفاخرة، وقالوا له:

أمهلناك في بيان ذلك على لسانهما . فقال لهم : بل تقومون من مقام هذا حتى يتحقق لكم هذا الأمر ، فأطرق وأطرقوا ، فصاح الفقراء من خارج المدرسة .
 «وإذا الشيخ يوسف قد جاء حافياً يشد في عدوه حتى دخل المدرسة» ، وقال :
 أشهدني الله عز وجل الساعة الشيخ حماد ، وقال لي : يا يوسف ، أسرع إلى مدرسة الشيخ عبد القادر وقل للمشايخ الذين فيها : صدق الشيخ عبد القادر فيما أخبر به عني . فلم يتم كلام الشيخ يوسف حتى جاء الشيخ عبد الرحمن وقال مثل قول الشيخ يوسف ، فقام المشايخ كلهم يستغفرون للشيخ عبد القادر رضي الله عنهم أجمعين .
 قلت : وأخبرني بعض الأخيار عن بعض الصالحين أنه يأتي قبر والده في بعض الأوقات ، ويتحدث معه .

وروينا أن السيد الجليل الشيخ العارف بالله نجم الدين الأصبهاني - رضي الله عنه - طلع مع جنازة بعض الصالحين ، فلما جلس بعض الناس من أهل العلم يلقن الميت ، ضحك الشيخ نجم الدين ، ولم يكن الضحك عادته! فسئل عن ذلك؟
 فقال : سمعت صاحب القبر يقول : ألا تعجبون من ميت يُلقن حياً .
 وغير ذلك مما يطول ذكره من كلام الموتى للأولياء رضي الله عنهم .

والنوع الثالث : انفلاق البحر وجفافه :

من ذلك ما روي في بعض التصانيف : أنه مات بعض الفقراء في سفينة ، قال الراوي : فأردنا إلقاءه في البحر ، فرأيت البحر قد انشق نصفين ، ونزلت السفينة إلى الأرض ، فخرجنا وحفرنا له قبراً ، ودفناه ، فلما فرغنا استوى الماء وارتفعت السفينة ، وسرنا .
 وروينا عن الأستاذ أبي القاسم القشيري - رضي الله عنه - في رسالته عن بعضهم قال :

كنا في مركب ، فمات رجل عليه كان معنا ، فأخذنا في جهازه ، وأردنا أن نلقيه في البحر ، فصار البحر جافاً ، ونزلت السفينة ، فخرجنا وحفرنا له قبراً ودفناه فلما فرغنا استوى الماء وارتفع المركب وسرنا .

والنوع الرابع : انقلاب الأعيان :

اعلم أن هذا النوع مما كثر وقوعه لهم واشتهر عنهم كانقلاب الحصى جواهر وذهباً لكثير منهم ، وانقلاب ماء البحر عذباً ، ولبعضهم سمناً ، ولبعضهم مع الرمل

سويقاً وسكراً، ولبعضهم الأسطوانة ذهباً وفضة، ولبعضهم حب الباذنجان ذهباً، ولبعضهم نشارة الخشب دقيقاً ولبعضهم الحطب ذهباً وغير ذلك مما يتعذر حصوله. وهذه الأشياء مشهورة مذكورة في الكتب المشتملة على بعض كرامات الأولياء كالرسالة، وغيرها.

وأعجب من ذلك كله انقلاب الخمر سمناً، كما اشتهر ذلك ورواه الكبار من الشيوخ وغيرهم عن الشيخ الكبير العارف بالله عيسى المعروف بالهتار - بالتاء المثناة من فوق، والراء في آخره، وكسر الهاء مخففاً - اليمني قدس الله روحه في حكاية عجيبة ذكرها الإمام الياضي في كتاب «روض الرياحين» وكتاب «الإرشاد».

ومختصرها: «أن الشيخ المذكور مرّ على امرأة بغيّ. فقال لها: بعد العشاء آتيك. . ففرحت بذلك، وتزينت. فلما كان بعد العشاء دخل عليها البيت، فصلّى ركعتين ثم خرج فقالت: أراك خرجت؟ فقال: حصل المقصود، فهو رد عليها وأراد إزعاجها عما كانت عليه، وخرجت بعد الشيخ وتابت على يديه، فزوجها من بعض الفقراء. وقال: اعملوا الوليمة عسيده ولا تشتروا لها إداماً.

ففعّلوا ذلك، وأحضروه، فحضر الفقراء والشيخ معهم كالمنتظر لشيء يؤتى به، فوصل الخبر لأمير كان رفيقاً لتلك المرأة، فأخرج قارورتين مملوءتين خمراً وأرسل بهما إلى الشيخ وأراد أن يستهزئ بالفقراء ويفضحهم. وقال للرسول: قل للشيخ قد سرّني ما سمعت، وبلغني أن ما عندكم إدام فخذوا هذا فتأدموا به!

فلما أقبل الرسول قال له الشيخ: أبطأت. ثم تناول إحداهما فخضها ثم حبّها ثم كذلك الأخرى، ثم قال للرسول: اجلس فكل، فأكل.

فطعم سمناً لم ير مثله طعماً وريحاً ولوناً، فرجع وأخبر الأمير بذلك، فجاء الأمير فأكل وتحير مما رأى، فتاب أيضاً على يد الشيخ.

والحمد لله الذي جعل هؤلاء السادة سبباً للسعادة.

وأحسن ما اتفق من قلب الأعيان، وأفضل ما اشتهر عن كثير منهم أنهم شهدوا يأكلون طعاماً طيباً لم يتغير عن حاله المعهود من سماعات شوهدت كلها دماً عبيطاً ما عدا الذي يأكلون منه.

وهذه الكرامات من أتم الكرامات، وأعظم من ذلك كله وأعزّ وقوعاً ما رويناها عن جماعة من الصالحين رووا عن بعض الأولياء الكبار أنه طلب بعض الناس أن

يدعو له الله تعالى أن يرزقه ولداً ذكراً فقال له: إن أحببت ذلك فسلم للفقراء مائة دينار، فسلم إليه ذلك.

ثم جاءه بعد ذلك بمدة فقال له الشيخ: الدنانير التي سلمتها ناقصة. قال: يا سيدي ما ناقصة إلا شيئاً يسيراً فإن أحببت أن يوفى لك فأوف لي، فأوف لنا. فقال: نعم يا سيدي.

ثم ذهب وعاد إليه بتوفية ذلك النقصان. فقال له الشيخ: اذهب فقد أوفيناك كما أوفيت. فرجع إلى منزله، فوجد الولد غلاماً بقدرة الله تعالى، وكرامة لأوليائه بقدرة الله تعالى.

قلت: ومن انقلاب الأعيان: ما روي مسنداً في كتاب «مناقب الشيخ عبد القادر الكيلاني» المتقدم ذكره في النوع الأول والثاني: أنه رضي الله عنه - خرج يوماً إلى صلاة الجمعة، فمرّ به في الطريق ثلاثة أحمال خمر للسلطان قد فاحت رائحتها واشتدت، ومعها صاحب الشرطة وأعوان الديوان، فقال لهم الشيخ: قفوا. فلم يفعلوا، وأسرعوا في سوق الدواب. فقال الشيخ للدواب: قفي. فوقف مكانها كأنها جمادات فضربوها ضرباً عنيفاً فلم تتحرك من مواضعها.

وأخذهم كلهم القولنج، وجعلوا يتقلبون على الأرض يميناً وشمالاً من شدة ما دهمهم، وضجوا بالشيخ وأعلنوا بالتوبة والاستغفار، فزال عنهم وانقلبت رائحة الخمر ففتحو الأواني فإذا هي خلّ، ومشت الدواب، فعلت أصوات الناس بالضجيج، وذهب الشيخ إلى الجامع، وانتهى الخبر إلى السلطان، فبكى رعباً وارتدع عن فعل كثير من المحرمات وجاء إلى الشيخ زائراً، وكان بعد ذلك يجلس بين يديه متواضعاً متصاعراً.

وروي عن بعضهم قال: بينما أنا أسير في فلاة من الأرض، وإذ برجل يدور بشجرة شوك ويأكل منها رطباً، فسلمت عليه فقال: وعليك السلام تقدم وكُل. فتقدمت إلى الشجرة، فكلما أخذت منها رطباً عاد شوكاً، فتبسم الرجل وقال: هيهات، لو أطعته في الخلوات أطعمك الرطب في الفلوات هذا آخر كلام الياضي رحمه الله - بحروفه.

وإنما لم أذكر بقية الأنواع العشرة، لأن الشيخ تاج الدين ابن السبكي ذكرها في الطبقات الكبرى بتمامها، وزاد عليها أنواعاً تزيد على قدرها، وسيأتي ذلك إن شاء الله تعالى.

(تنبيه):

الاستدلال على أن كرامات الأولياء عين معجزات الأنبياء:

ذكر الشيخ الإمام العارف بالله تعالى شرف الدين ابن الفارض - قدس الله روحه - في التائية أشياء من معجزات الأنبياء، استشهد عليها شيخنا المحقق الرباني العارف بالله تعالى سيدي محمد المغربي بآيات من القرآن العظيم.

وإنما ذكر الشيخ ذلك في نظم السلوك، ليكون ذلك الباطن بدليل واقعة السيد موسى مع الخضر عليهما السلام ولهذا أتى بآيات من الكرامات بعد ذلك؛ لأنها مغترفة من بحر النبوة، ولأن التابع لا يتقدم على المتبوع، فها أنا أذكر الآية أولاً ثم أنزل عليها كلامه - رضي الله تعالى عنه: فقال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ جَرِّبَهَا ومُرْسَهَا﴾ [سورة هود، آية: 41] إلى قوله: ﴿وَأَسْوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [سورة هود، آية: 44] قال ابن الفارض رضي الله عنه:

بذاك علا الطوفان نوحٌ وقد نجا به من نجا من قومه في السفينة
وغاض له ما غاض منه استجابة وجد إلى الجودي بها واستقرت
وقال تعالى: ﴿فَسَحَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [سورة ص، آية: 36].

قال ابن الفارض رضي الله عنه:

وسارَ وامتَنُ الرِّيحِ تحتَ بساطِهِ سليمانُ بالجيشينِ فوقَ البسيطةِ
وقال الله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [سورة النمل، آية: 40].

قال ابن الفارض رضي الله عنه:

وقبل ارتداد الطرف أحضر من سبأ له عرش بلقيس بغير مشقة
وقال تعالى: ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [سورة الأنبياء، آية: 69].

قال ابن الفارض رضي الله عنه:

وأحمد إبراهيم نارَ عدوه ومن نوره عادت له روض جنة
قال تعالى: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ

جُزءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعِيًّا ﴿ [سورة البقرة، آية: 260].

قال ابن الفارض رضي الله عنه:

ولمّا دعا الأطيّارَ من كلّ شاهقٍ وقد ذُبَحَتْ جاءته غيرَ عصيّةٍ
وقال تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ
السَّاحِرُ حَيْثُ أَقْبَ﴾ [سورة طه، آية: 69].

قال ابن الفارض رحمه الله:

ومن يده موسى عصاه تَلَقَّفَتْ من السّحرِ أهوالاً على النفسِ شقّتِ
وقال تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ
مِنْهُ أُنثَىٰ عَشْرَةٌ عَيْنًا﴾ [سورة البقرة، آية: 60].

قال ابن الفارض رضي الله عنه:

ومن حجرٍ أجرى عيوناً بضربةٍ بها ديماً أسقت وللبحر شقّتِ
وقال تعالى: ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [سورة يوسف، آية:
84].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [سورة
يوسف، آية: 96].

قال ابن الفارض رحمه الله:

ويوسفُ إذ ألقى البشيرُ قميصه على وجه يعقوبٍ إليه بأوبةٍ
رأه بعينٍ قبلَ مقدّمه بكى عليه بها شوقاً إليه فكفّت
وقال تعالى: ﴿قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [سورة
المائدة، آية: 114].

قال ابن الفارض رضي الله عنه:

وفي آلِ إسرائيلَ مائدةٌ من السّما ء لعيسى أنزلت ثمّ مدّتِ
وقال تعالى: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ
الطَّيْرِ فَانْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [سورة آل عمران، آية: 49].

قال ابن الفارض رضي الله عنه:

ومن أكمه أبرا ومن وضح غدا شفا وأعاد الطينَ طيراً بنفخةٍ

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْتُمَ اللَّهُ إِلَا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِلَاذِنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [سورة الشورى، آية: 51].

قال ابن الفارض رضي الله عنه:

وسرُّ انفعالاتِ الظواهرِ باطناً عن الأذن ما أَلقت بأذُنك صيغتي

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [سورة الأحزاب، آية: 40].

قال ابن الفارض رضي الله عنه ونفعنا به:

وجاء بأسرارِ الجميعِ مفيضُها علينا لهم ختماً على حينِ فترة

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾ [سورة الصف، آية: 6].

قال ابن الفارض رضي الله عنه:

وما منهمُ إلا وقد كانَ داعياً به قومُهُ للحقِّ عن تَبعيةِ

وقال أيضاً مشيراً إلى قوله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»⁽¹⁾.

فقال:

فعالمننا منهم نبي ومن دعا إلى الحق منا قام بالرسالية

أي: إن العالم منا الوارث لهم كالنبي، والداعي إلى الحق منا كالرسول،
والعارف بالله منا كأولى العزم. ولهذا قال:

وعارفتنا في وقتنا الأحمدي من أولي العزم منهم آخذ بالعزيمة

[تنبيه]: بيان أن كرامات الأولياء من أسرار الأنبياء:

تقدم أن مذهب أهل الحق ما كان معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي، بشرط
عدم التحدي.

قال شيخنا العارف بالله محمد المغربي: إنما صارت المعجزة كرامة لولي لربط

(1) رواه ابن حبان في الصحيح، ذكر وصف العلماء الذين لهم الفضل...، حديث رقم (88) [289/1] ورواه أبو داود في السنن، باب الحث على طلب العلم، حديث رقم (2641) [3/317] ورواه غيرهما.

سر الولاية الجامع بين النبي والولي، وإن اختلفت رتبتهما؛ لاختلاف مراتب أهلها
قال ابن الفارض رضي الله عنه:

وما كان منهم معجزاً صار بعده كرامة صديق له أو خليفة
بعترته استغنت عن الرسل الوري وأصحابه والتابعين الأئمة

أي: بعتره النبي ﷺ العباس وأصحابه والتابعين، وتابعي التابعين من الأولياء
والأصفياء في كل عصر إلى يوم القيامة استغنت بهم الخلق عن الرسل؛ لأن
أسرارهم ومعجزاتهم انتقلت بالإرث إليهم بطريق الكرامات؛ لكون الأمم الماضين
عجزت عن حمل أسرار أنبيائهم، فادخر الله تعالى ذلك لخواص الأمة المحمدية،
ولهذا صار منهم النوحيون، والإبراهيميون واليوسفيون، والموسويون،
والعيسويون، بحسب ما وزع الله عليهم من أسرار الأنبياء والرسل، فهم
متفاوتون في المعارف والحقائق بحسب مقامات مورثهم، وإلى هذا أشار بقوله:
كراماتهم من بعض ما خصهم به بما خصهم من إرث كل فضيلة
فإن قلت: قد قضيت بأن الولاية المحمدية جنس شامل لهذه الأنواع التي

ذكرتها «فهل يعلم» التمييز بين أحد الأنواع من الآخر؟

قلت: يعلم ذلك ويظهر بأمرين (أحدهما): أن الكرامات التي أكرمهم الله تعالى
بها ترشدنا إلى معرفة تورثهم، فإن وقع فلق البحر لأحد من الأولياء كرامة - كما
تقدم ذلك عن بعض الصالحين - علم أنه موسوي، وإن أكرم بالدخول في النار
والخروج منها سالماً من غير ضرر - . كما سيأتي ذلك في كلام ابن السبكي - علم أنه
إبراهيمي، وإن أكرم بإحياء الموتى أو بكلامهم علم أنه عيسوي، وإن أكرم بجميع
هذه المذكورة علم أنه وارث الأنبياء الذين كانت لهم هذه الكرامات معجزات؛ إذ
ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد، وإن أكرم بنبع الماء أو بإحلاته بعد
أن كان مالحاً علم أنه محمدي.

كما روي من طرق صحيحة عن سيد علماء الطريقة، وإمام أهل الطريقة القطب
الوحيد، والغوث الفريد أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه أنه لما وصل إلى
حميثري جمع أصحابه في الليلة التي مات فيها وأوصاهم بأشياء وخلا بسيدي أبي
العباس المرسي وحده، وأوصاه بأشياء واختصه بما خصه الله به من البركات، فقال
لهم: إذا أنا مت فعليكم بأبي العباس المرسي، فإنه الخليفة من بعدي، وسيكون له

بينكم مقام عظيم، وهو باب من أبواب الله سبحانه وتعالى، ثم قال لولده سيدي شرف الدين: يا محمد، إملأ لي إناء من هذا البئر؟ فقال مأؤها مالح عازق، والماء عندنا عذب! فقال ائتني منها، فإن مرادي غير ما تظن، فأتي إليه بإناء من الماء، فشرب منه ومضمض فاه، ومج في الإناء، ثم قال له: رده إلى البئر. فرجع وردّه إليها، فحلا مأؤها وعذب وكثر بإذن الله تعالى، ثم لما مات رضي الله عنه وغسل تكثر ماء الغسل حتى صار يكفي الركب إذ نزلت عليه.

ولقد ذكر هذه الكرامة الموروثة من المقام المحمدي جماعة من أكابر العلماء كالشيخ تاج الدين ابن عطاء الله في «لطائف المنن» وابن الصباغ في كتاب مناقبه المسمى بـ«درة الأسرار وتحفة الأبرار» والشيخ الإمام العارف بالله شهاب الدين ابن الميلى في ديوان المراسلات، وقاضي القضاة بدر الدين ابن جماعة فإنه كان كثيراً يذكر هذه الكرامة، ويتبجح ويفتنخ بصحبته وحضور جنازته بحميشرى والصلاة عليه، وسيأتي الكلام على ذلك أيضاً في كرامات وفاته إن شاء الله تعالى.

الأمر الثاني:

من جملة ما يعلم به مورث الولي: أن يكثر من ذكره عند الموت، قال بحر الحقائق محيي الدين بن عربي رضي الله عنه: اعلم أن الأولياء من أمة محمد ﷺ قد يرث الواحد منهم موسى عليه السلام، ولكن من النور المحمدي لا من النور الموسوي، فيكون حاله من محمد ﷺ حال موسى عليه السلام، منه ﷺ.

وربما يظهر من وليّ عند موته ملاحظة موسى أو عيسى فيخيل العاصي ومن لا معرفة له أنه قد تهود أو تنصر لكونه يذكر هؤلاء الأنبياء عند موته، وإنما ذلك من قوة المعرفة بمقامه. انتهى.

قلت: هذا تحقيق لملح الإشارة من قوله عليه الصلاة والسلام «العلماء ورثة الأنبياء»⁽¹⁾ لأن الإشارة هنا إلى العلماء بالله أرباب المعارف، وإن كانت العبارة للعلماء بأحكام الله أرباب الظاهر.

لأن الوراثة من النبوة على قسمين: إما أن تكون ظاهرة، وإما أن تكون باطنة

(1) رواه ابن حبان في الصحيح، ذكر وصف العلماء...، حديث رقم (88) [289/1]. ورواه أبو داود في السنن، باب الحث على طلب العلم، حديث رقم (3641) [317/3] ورواه غيرهما.

فأهل الشريعة ورثوا العلوم الكسبية الظاهرية وأهل الحقيقة ورثوا العلوم الوهيبية الباطنة «فالشريعة منبع العبارات الظاهرة والحقيقة منبع الإشارات الباطنة» فكل عبارة شرعية تحتها من حيث الإشارات حكم ومعارف وحقائق أطلع الله عليه الأصفياء والصدقيين، فالإشارة إنما أتت من باطن العبارة لا من ظاهرها.

وما أحسن قول السهرودي في «عوارف المعارف» في قوله رضي الله عنه «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»⁽¹⁾.

والإشارة في هذا العلم ليس إلى علم البيع والشراء والطلاق والعتاق، وإنما الإشارة إلى العلم بالله تعالى، وقوة اليقين.

فانظر كيف قال: «والإشارة» ولم يقل: «والعبارة»؛ لأن الإشارة هنا كما قال لأهل العلم بالله، والعبارة هنا أيضاً لأهل العلم بأحكام الله.

ولهذا تجد علماء الظاهر يستدلون بهذا الحديث على فضل العلم الشرعي ويذكرونه في كتبهم تمسكاً بظاهر العبارة وأما حديث: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل» باطل لا أصل له باتفاق الحفاظ. والله أعلم.

* * *

(1) رواه الترمذي في السنن، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، حديث رقم (2685) [5/50] ورواه الدارمي في السنن، باب من قال: العلم خشية، حديث رقم (289) [100/1] ورواه غيرهما.

(فصل)

استئناس على خرق العادة

ومما يستأنس به على خرق العادة ما ذكره الإمام الثعالبي، وغيره «أن النبي ﷺ سأل الله - تعالى - أن يريه أهل الكهف فقال عز وجل: إنك لن تراهم في الدنيا، ولكن ابعث إليهم أربعة من خيار أصحابك ليبلغوا رسالتك فقال النبي ﷺ: كيف أبعث إليهم؟

فقال له جبريل عليه الصلاة والسلام: ابسط كساءك، وأجلس على طرف من أطرافه أبا بكر رضي الله عنه، وعلى الطرف الآخر عمر رضي الله عنه وعلى الثالث عثمان رضي الله عنه، وعلى الرابع علياً رضي الله عنه، ثم ادع الريح المسخرة لسليمان رضي الله عنه فإن الله تعالى يأمرها أن تطيعك ففعل ﷺ، فحملتهم الريح إلى باب الكهف فقلعوا منه حجراً، فلما رأهم الكلب حرك رأسه، وبصص إليهم، فأوماً برأسه أن ادخلوا، فدخلوا الكهف.

فقالوا: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد الله تعالى على الفتية أرواحهم، فقاموا بأجمعهم، وقالوا: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

فقالوا: معشر الفتية، إن محمد بن عبد الله يقرأ عليكم السلام. فقالوا: وعلى محمد السلام ما دامت السماوات والأرض، وعليكم بما بلغتكم. وقبلوا دينه. ثم قالوا: أقرئوا رسول الله منا السلام، وأخذوا مضاجعهم وصاروا إلى رقدتهم إلى آخر الزمان عند خروج الدجال. فيقال: إن المهدي يسلم عليهم، فيحييهم الله تعالى ويردون عليه، ثم يرجعون إلى رقدتهم فلا يقومون حتى تقوم الساعة، ثم ردتهم الريح.

فقال لهم النبي ﷺ: كيف وجدتموهم؟ فأخبروه الخبر، فقال النبي ﷺ: اللهم لا تفرق بيني وبين أصحابي وأنصاري، واغفر لمن أحبني وأحب أهل بيتي وخاصتي» انتهى⁽¹⁾.

(1) وردت هذه القصة في تفسير القرطبي وساق هذا الحديث، تفسير سورة الكهف، آية ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ...﴾ [سورة الكهف، آية: 18] [389/10].

تنبيه في بعض الكرامات:

قال الحافظ أبو نعيم في «الحلية»: كان شيبان الراعي إذ أجنب وليس عنده ماء، دعا ربه فتجيء سحابة، فتظله فيغتسل منها، ثم تذهب وكان إذا ذهب للجمعة خط حول غنمه خطأً، فإذا جاء وجدها على حالها لم تتحرك.

وقيل: حج سفيان الثوري مع شيبان الراعي - رضي الله عنهما - فعرض لهما سبع، فقال سفيان لشيبان: ما ترى هذا السبع؟ قال: لا تخف. ثم أخذ شيبان أذنه فحركها فبصبص وحرك ذنبه. ثم قال لسفيان: لولا مخافة الشهرة لوضعت زادي على ظهره حتى آتي مكة.

وذكر أبو الفرج بن الجوزي وغيره: أن الإمام أحمد والشافعي - رضي الله عنهما - مرًا يومًا بشيبان الراعي، فقال الإمام أحمد: لأسألن هذا الراعي وأنظر جوابه. فقال له الشافعي: لا تتعرض له! فقال: لا بد من ذلك.

فقال له: يا شيبان: ما تقول فيمن صلى أربع ركعات، فسها في أربع سجعات ماذا يلزمه؟

قال: على مذهبننا أم على مذهبكم؟

قال: وهما مذهبان؟ قال: نعم، أما عندكم فيلزمه أن يصلي ركعتين ويسجد للسهو. وأما عندنا فالعبد لا يملك شيئاً مع سيده.

فغشي على أحمد، فلما أفاق انصرفا. انتهى.

وقال الشيخ كمال الدين الدميري: ورأيت في بعض المجاميع أن الإمام الشافعي رضي الله عنه كان يجلس إلى شيبان الراعي، ويسأله عن مسائل. فقيل له: مثلك يسأل هذا البدوي؟ فيقول لهم: هذا وفق لما علمناه.

وكان شيبان رضي الله عنه أمياً، فإذا كان هذا محل الأمي منهم من العلم هكذا، فما الظن بأئمتهم.

وقد كان المجتهدون كالشافعي وغيره رضوان الله عليهم يعرفون فضل علماء الباطن على علماء الظاهر.

قلت: قد أنكر الشيخ تقي الدين بن تيمية - رحمه الله - اجتماع الشافعي بشيبان الراعي، وقال: إنه لم يكن في عصره فضلاً عن الاجتماع، وليس الأمر كما قال فقد

نص على اجتماعهما أئمة الإسلام كالقشيري، وابن الجوزي، وأضرابهما وهذه صفاتهم ناطقة شرقاً وغرباً. والله أعلم.

ومن المحكي عن سهل بن عبد الله التستري رضي الله عنه أن أمير خراسان يعقوب بن الليث أصابته علة أعيت الأطباء. فقيل له: في ولايتك رجل صالح يقال له: سهل بن عبد الله: ولو استحضرتَه ليدعوك رجونا كل العافية، فأحضره وسأله الدعاء فقال: كيف يستجاب دعائي لك وأنت مقيم على الظلم؟

فنوى يعقوب التوبة والرجوع عن المظالم وحسن السيرة في الرعية، وأطلق من في سجنه من المظلومين، فقال سهل: «اللهم كما أريته ذل المعصية، فأره عز الطاعة، وفرج عنه»، فنهض كأنماط نشط من عقال، وعوفي من ساعته فعرض على سهل مالاً جزيلاً! فأبى قبوله.

فلما رجع إلى تستر قيل له بأثناء الطريق: لو قبلت المال الذي عرض عليك، وفرقتَه على الفقراء؟!.

فنظر إلى الحجارة، فإذا هي جواهر. فقال: خذوا ما أردتم ثم قال: «من أعطي مثل هذا محتاج إلى مال يعقوب بن الليث».

قال الشيخ كمال الدين الدميري: هذا من قلب الأعيان، ثم قال بعد أن ساق شيئاً من ذلك:

ويشبه هذا ما حكى عن بعضهم أنه قال: بينما أنا أسير في فلاة من الأرض إذ رأيت رجلاً يدور بشجرة شوك ويأكل منها رطباً جنيماً، فسلمت عليه، فرد عليّ السلام.

وقال: تقدم فكل. قال: فتقدمت إلى الشجرة، فكلما أخذت منها رطباً، عاد شوكاً، فتبسم الرجل، وقال: هيهات! لو أطعته في الخلوات، أطعمك الرطب في الفلوات. كما تقدم ذلك في كلام الياضي.

وحكى عن الشيخ أبي الغيث اليميني رضي الله عنه أنه خرج يوماً يحتطب فبينما هو يجمع الحطب، إذ افترس السبع حماره فقال له: وعزة الربوبية، ما أحمل حطبي إلا على ظهرك، فخضع له السبع، فحمل الحطب على ظهره، وساقه إلى البلد، ثم حط عنه وخلّاه.

ونقل أن بعض الصالحات رزقت ولداً، فَرَبَّتُهُ فلما كبر ونشأ قال لها: يا أمّاه،

سألتك بالله إلا ما وهبني الله! فقالت: يا بني، إنه لا يصلح أن يهدي للملوك إلا أهل الأدب والتقى، وأنت يا ولدي غرّ لا تعرف ما يراد بك. قال: ولم يأن لك... فأمسك عنها.

فلما كان ذات يوم خرج إلى الجبل ليحطب ومعه دابة، فنزل عنها وربطها وذهب، فجمع الحطب ورجع، فوجد السبع قد افترسها، فجعل يده في رقبة السبع وقال: يا كلب الله، تأكل دابتي، وحق سيدي لأحملنك الحطب كما تعديت على دابتي، فحمل على ظهره الحطب وهو طائع لأمره حتى وصل إلى دار أمه، ففرغ عليها الباب ففتحت له، وقالت لما رأت ذلك: يا بُني: أما الآن فقد صلحت لخدمة الملك اذهب لله عزّ وجلّ، فودّعها وذهب.

ومن الخوارق أيضاً: ما رواه صاحب «مناقب الأبرار» عن شاه الكرمانى: أنه خرج إلى الصيد، وهو ملك كِرمَان، فأمعن في الطلب حتى وقع في بركة مغلقة وحده، فإذا بشاب راكباً على سبع وحوله سبع كثيرة، فلما رآته ابتدرت نحوه، فزجرها الشاب عنه.

فبينما هو كذلك إذ أقبلت عجوز بيدها شربة ماء فناولتها للشاب فشرب، ودفع باقيه إلى شاه، فشرب، وقال: ما شربت شيئاً أذم منه ولا أعذب، ثم غابت العجوز، فقال الشاب: هذه الدنيا وكلها الله بخدمتي، فما احتجت إلى شيء إلا أحضرته إذا خطر ببالي. فعجب شاه من ذلك، فقال له: أما بلغك أن الله تعالى لما خلق الدنيا قال لها: «يا دنيا من خدمني فاخدميه، ومن خدمك فاستخدميه». ثم وعظه وعظاً حسناً، فكان ذلك سبب توبته.

وحكى حجة الإسلام الغزالي في الإحياء في «عجائب القلب» عن إبراهيم الرقي قال: قصدت أبا الخير الديلمي مسلماً عليه، فصلى صلاة المغرب ولم يحسن من قراءة الفاتحة، فقلت في نفسي ضاعت سفرتي، فلما أصبح الصباح خرجت إلى الطهارة فقصدني السبع فعدت إليه، فقلت: إن الأسد قد قصدني، فخرج وصاح عليّ فتنحى الأسد، وتطهرت. فلما رأني رجعت، قال: أنتم اشتغلتم بتقويم الظاهر فخفتم، وصاح على الأسد، وقال: ألم أقل لك لا تتعرض لأضيافي، فتحنى الأسد، ونحن اشتغلنا بتقويم الباطن فخافنا الأسد» قال الشيخ كمال الدين الدميري في «حياة الحيوان الكبرى»: أنشدني الإمام العلامة عفيف الدين الياضي لنفسه:

هم الأسد ما الأسد الأسود تهابهم وما النمر ما أظفار فهدٍ ونابُه

وما الرمي بالنشاب ما الطعن بالقنأ وما الضرب بالماضي الكمي ما ذبابه
 لهم همَمَ للقاطعات قواطع لهم قلب أعيان المراد انقلابه
 لهم كل شيء طائع ومُسَخَّرُ فلا قط يعصيهم بل الطوع ذابه
 من الله خافوا لا سواه فخافهم سواه جمادات الورى ودوابه
 لقد شَمَرُوا في نَيْل كل عزيزة ومكرمة مما يطول حسابه
 إلى أن جَنَوْا ثمر الهوى بعدما جَنَى عليهم وصار الحب عذباً عذابه
 فإن قلت: لا أسلم تشكّل الدنيا إلا بدليل شرعي .

قلت: الدليل على ذلك قصة الإسراء التي أظن فيها الإمام الثعلبي في تفسيره .
 فمنها قول النبي ﷺ: «بينما أنا في سيري إذ سمعت نداء عن يميني فقال: يا
 محمد، على رسلك أسألك! يقولها ثلاثاً فلم ألو عليه . فجاوزته، ثم أتاني نداء عن
 يساري فقال: يا محمد على رسلك أسألك! يقولها ثلاثاً فلم ألو عليه .

ثم مضيت حتى جاوزته فإذا أنا بامرأة عجوز رفعت لي، عليها من كل زينة
 وبهجة تقول يا محمد التفت إليّ، فلم ألتفت إليها، فلما جاوزتها، قلت: يا جبريل
 من الذي ناداني عن يميني؟ قال: داعية اليهود، والذي نفسي بيده لو أحبته لتهودت
 أمتك من بعدك .

قلت: فالذي ناداني عن يساري؟ قال: داعية النصارى، لو أحبته لتنصرت
 أمتك من بعدك .

فأما التي رفعت لك بهجتها وزينتها، فهي الدنيا . لو لويت عليها لاختارت
 أمتك الدنيا على الآخرة، وقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي رحمه الله في كتاب
 «دم الدنيا» من رُبِع المهلكات، نقلاً عن زيد بن أرقم قال:

«كنا مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه فدعا بشراب، فأتي بماء وعسل، فلما
 أدناه من فيه بكى، وأبكى أصحابه، فسكتوا وما سكت، ثم عاد وبكى حتى ظنوا
 أنهم لم يقدروا على مسألته، قال: ثم مسح عينيه فقالوا: يا خليفة رسول الله: ما
 أبكاك؟

فقال: كنت مع رسول الله ﷺ فرأيتُه يدفع عن نفسه شيئاً، ولم أرَ معه أحداً .
 فقلت: يا رسول الله ما الذي تدفع عن نفسك؟ فقال: هذه الدنيا مُثِلت لي، فقلت
 لها: إليك عني! ثم رجعت وهي تقول: إنك إن أفلت مني لم يُفَلت مني من بعدك؟

قال الحافظ عبد الرحيم العراقي في تخريجه: هذا الحديث أخرجه البزار بسند ضعيف بنحوه، والحاكم وصحح إسناده، وابن أبي الدنيا، والبيهقي من طرق بلفظه. انتهى.

ولقد عقد الإمام الياضي فصلاً في إثبات كرامات الأولياء، فقال ما نصه: «وظهور الكرامات على الأولياء جائز عقلاً وواقع نقلاً».

أما جوازه عقلاً، فليس بمستحيل في قدرة الله تعالى، بل هو من قبيل الممكنات كظهور معجزات الأنبياء، هذا مذهب أهل السنة من المشايخ العارفين، والنظار الأصوليين، والفقهاء رضي الله عنهم أجمعين، وتصانيفهم ناطقة بذلك شرقاً وغرباً ثم أقول: الصحيح المختار عن جمهور الأئمة المحققين من أهل السنة إنما كل ماجاز للأنبياء من المعجزات، جاز للأولياء مثله من الكرامات بشرط عدم التحدي.

وقال أيضاً في نشر المحاسن:

قولهم تحدي النبوة: فيه احتراز «من تحدي الولاية» فإنه لو اقترن الخارق بدعوى الولاية، جاز على الصحيح عند المحققين. خلافاً لبعضهم فمن ذلك: ما اشتهر ورويناه أنه لما كثر أهل الإنكار في باب الكرامات ركب الشيخ الكبير العارف بالله جابر الحربي أسداً، ودخل الرحبة وقال: أين الذين يكذبون أولياء الله؟ فكفوا بعد ذلك. انتهى.

ولا يصح قول من يقول: إن ذلك يؤدي إلى الالتباس بين الكرامات والمعجزات؛ لأن المعجزة تجب على النبي أن يتحدى النبوة بها ويظهرها، والكرامة يجب على الولي أن يخفيها ويسترها، إلا عند ضرورة، أو إذن أو حال غالب لا يكون لهف فيها اختيار، أو لتقوية يقين بعض المريدين كما فعل بعضهم، عرف عسلاً من الجو ووضعها في فم مريده، وآخر أرى غيره الكعبة تطوف به، وقد سمعنا سماعاً محققاً أن جماعة منهم شوهدت الكعبة تطوف بهم طوافاً محققاً حقيقة» ورأيت بعض من شاهد ذلك في الثقات الأتقياء بل من السادات العلماء وغير ذلك مما يطول ذكره.

وما ذهب إليه الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني رحمه الله في إثبات بعض الكرامات دون بعض فهو مخالف لمذهب الجمهور الصحيح المشهور. وأما وقوع ذلك نقلاً أي ظهور الكرامات فقد جاء في القرآن ما أخبر الله تعالى عن مريم عليها السلام بقوله تعالى: ﴿كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ

هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿ [سورة آل عمران، آية: 37] وقوله سبحانه وتعالى لمريم: ﴿وَهَزَيْتِ إِلَيْكَ يَجْنَعُ التَّخْلَةَ تَسْقُطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِينًا﴾ [سورة مريم، آية: 25]. وكان في غير أوان الرطب. كما جاء في التفسير ومن ذلك: ما أخبر الله تعالى من العجايب على يد الخضر - رضوان الله عليه - مع موسى عليه السلام. وكذلك قصة ذي القرنين وتمكين الله سبحانه وتعالى له ما لم يمكنه لغيره، وكذلك قصة أصحاب الكهف، والأعاجيب التي ظهرت عليهم في كلام الكلب معهم، وغير ذلك. وكذلك قصة آصف بن برخيا - رضي الله عنه - مع سليمان عليه السلام في عرش بلقيس في قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [سورة النمل، آية: 40]. وكل هؤلاء المذكورين ليسوا بأنبياء. ومن ذلك: حديث أصحاب الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة، وهو حديث صحيح متفق على صحته مذكور في الصحيحين، وفي آخره: فانفجرت الصخرة وخرجوا يمضون.

ومن ذلك حديث البقرة التي حمل عليها صاحبها أو ركبها على اختلاف الروايات فالتفتت إليه فكلمته، فقالت: إني لم أخلق لهذا ولكني خلقت للحرث، فقال: سبحان الله - تعجباً - البقرة تتكلم، فقال رسول الله ﷺ فإني أؤمن بذلك أنا وأبو بكر وعمر⁽¹⁾ وهذا أيضاً حديث حسن صحيح مشهور مذكور في الصحيحين وغيرهما متفق على صحته أعني، اتفقوا على تكلم البقرة المذكورة وإن اختلفوا في بعض ألفاظ الحديث.

ومن ذلك الحديث المتفق على صحته المذكور في الصحيحين في أبي بكر الصديق رضي الله عنه مع ضيفه الذي قال فيه: وأيم الله ما كنا نأخذ في لقمة إلا رباً من أسفلها أكثر منها حتى شبعوا، وصارت أكثر مما كانت قبل ذلك فنظر إليها أبو بكر فقال لامرأته: ما هذا؟

قالت: لا وقره عيني، لهي الآن أكثر منها قبل ذلك بثلاث مرات⁽²⁾، ومن ذلك

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب من فضائل أبي بكر الصديق، حديث رقم (2388) [4/1857]

ورواه الطبراني في مسند الشاميين، حديث رقم (3043) [4/176] ورواه غيرهما.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب السمر مع الضيف والأهل، حديث رقم (577) [1/216]

ورواه مسلم في صحيحه، باب إكرام الضيف وفضل إثارة، حديث رقم (2057) [3/1627]

ورواه غيرهما.

الحديث المتفق على صحته المخرج في الصحيحين، قال رسول الله ﷺ: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون فإن يك في أمي أحد فإنه عمر»⁽¹⁾.

ومن ذلك الحديث المتفق على صحته أيضاً في سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه الذي قال فيه للتي ادعت عليه أخذ شيئاً من أرضها: اللهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها. وبينما هي تمشي في أرضها إذ وقعت في حفيرة فماتت أخرجها أيضاً في الصحيحين⁽²⁾ ومن ذلك الحديث الصحيح، حديث الرجل الذي سمع صوتاً في السحاب، يقول: اسق حديقة فلان وما جاء أن ابن عمر رضي الله عنهما قال للأسد الذي منع الناس الطريق: تنح، فبصبص بذنبه وذهب الناس وقال ابن عمر: صدق رسول الله ﷺ من خاف الله خَوْفَ اللَّهِ منه كل شيء ومن ذلك ما جاء أن رسول الله ﷺ بعث العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه في غزاة، فحال بينهم وبين الموضع قطعة من البحر فدعا الله باسمه الأعظم ومشى على الماء.

وما جاء أنه كان بين سليمان وأبي الدرداء قصعة فسبحت حتى سمعا التسبيح، وما جاء أن عمران بن الحصين رضي الله عنه كان يسمع تسليم الملائكة عليه حتى اكتوى فاحتبس ذلك عنه سنة، ثم أعاده الله. ومن ذلك: الحديث الصحيح، حديث مسلم: «رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره»⁽³⁾.

سبب قلة الكرامات في عهد الصحابة وكثرتها فيمن بعدهم:

«قال الإمام الياقيني فإن قيل: ما بال الصحابة رضي الله عنهم لم يشتهر عنهم الكرامات الكثيرة، مثل ما اشتهر عن الأولياء بعدهم فالجواب ما أجاب به الإمام أحمد بن حنبل - رضي الله عنه - لما قيل له: يا أبا عبد الله، إن الصحابة لم يرو عنهم من الكرامات مثل ما روي عن الأولياء والصالحين، كيف هذا؟

- (1) رواه البخاري في صحيحه، حديث الغار، حديث رقم (3282) [1279/3] ورواه مسلم في صحيحه، باب من فضائل عمر بن الخطاب، حديث رقم (2398) [1864/4] ورواه غيرهما.
- (2) رواه مسلم في صحيحه، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، حديث رقم (1610) [1230] ورواه أبو يعلى في المسند، حديث رقم (951) [249/2] ورواه غيرهما.
- (3) رواه البخاري في صحيحه، باب الصلح في الدية، حديث رقم (2556) [961/2] ورواه مسلم في صحيحه، باب إثبات القصاص، حديث رقم (1675) [1302/3] ورواه غيرهما.

فقال: أولئك كان إيمانهم قوياً فما احتاجوا إلى زيادة يقوون بها، وغيرهم كان إيمانهم ضعيفاً لم يبلغوا إيمان ذلك ففقوا بإظهار كرامات.

قلت: وفي هذا المعنى قال بعض الشيوخ الكبار في الكرامات مريم بنت عمران: إنه كان في بدايتها يعرف لها خرق العادات بغير سبب لقوتها وتكميلاً ليقينها، فكانت كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً فلما قوي إيمانها وكمل يقينها ردت إلى السبب وقيل لها: ﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ جِدْعَ النَّخْلَةِ سَقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾ [سورة مريم، آية: 25]، قال الياضي: فإن قال قائل تشبه الكرامات بالسحر.

فالجواب: ما أجاب به المشايخ العارفون والعلماء المحققون في الفرق بينهما إن السحر يظهر على يد الفساق والزنادقة والكفار الذين هم على غير الالتزام للأحكام الشرعية ومتابعة السنّة وأما الأولياء فهم الذين يبلغون في متابعة السنّة وأحكام الشريعة وآدابها الدرجة العليا فافترقا. وقال الشيخ كمال الدين في حياة الحيوان الكبرى: فإن قيل إذا جوزت الأشعرية خرق العادة على يد الساحر فبماذا يتميز عن النبي؟

فالجواب: إن العادة تخترق على يد النبي والولي والساحر، لكن النبي يتحدى الخلق بها ويستعجزهم عن الإتيان بمثلها ويخبر عن الله تعالى بخرق الله العادة بتصديقه، فلو كان كاذباً لم تنخرق على يديه، ولو خرقتها الله على يد كاذب لخرقتها على يد المعارضين للأنبياء.

الفرق بين الكرامة والسحر:

وأما الفرق بين الولي والساحر فمن وجهين: أحدهما وهو المشهور، إجماع المسلمين على أن السحر لا يظهر إلا على فاسق، والكرامة لا تظهر إلا على ولي ولا تظهر على فاسق، وبهذا جزم إمام الحرمين وأبو سعيد المتولي وغيرهما. والثاني أن السحر يكون ناشئاً بفعل وعلاج. والكرامة لا تفتقر إلى ذلك في كثير من الأوقات يقع ذلك اتفاقاً من غير أن يستدعيه أو يشعر به. والله أعلم.

عموم الكرامات وخصوصها:

وقال الديلمي في أسرار المعارف والفرق بين المعجزة والكرامة هو أن المعجزة ما يعجز الولي وغيره عنها كقلب العصى حية أي وقت شاء وكإحياء الموتى وكإنزال

القرآن، لأن هذا يعجز عنه سائر الخلق والكرامة هي المشي على الماء وطى الأرض والمشى في الهواء وإجابة الدعوات وما شاكلها فللأنبياء المعجزات. والكرامات دون المعجزات. واعلم أن الكرامات مشتركة والمعجزات غير مشتركة والكرامات يظهرها الله تعالى إذا شاء.

قلت: أما كون قلب العصا وإحياء الموتى لا يجوز وقوعها كرامة لولي كما هو مذهب الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني فالراجح عند الجمهور خلافه كما تقدم ويرده القرآن على عموم مذهب الجمهور.

لأن من لازمه وجود تحدي النبوة والولي لا يتحدى النبوة وأما كون الكرامات مشتركة والمعجزات غير مشتركة فهذا ليس بجيد، والتحقيق في ذلك أن المعجزة والكرامة مترادفان معنى، متغايران لفظاً لأن الجامع بينهما خرق العادة، وإنما أطلقوه كرامة بالنظر إلى وقوعه من الولي؛ مراعاة للأدب مع النبوة التي لا يغترف إلا من بحرهما وأما كون المعجزة يأتي بها النبي أي وقت شاء ولا كذلك الكرامة فهذا مبني على القول بأن كرامات الأولياء لا تقع باختياره.

والصحيح عند أصحابنا المتكلمين أنها تقع بطلبه واختياره كالمعجزة كذا نقله النووي رحمه الله وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى وقيل: إن المعجزة ليست لنفسها إنما هي معجزة يتحدى النبي بها، ألا ترى أن مثلها يظهر من غير ولي فتكون تلك على صاحبها فتنة، كجري النيل لفرعون، وإحياء الموتى للدجال وغيره، فالمعجزة تعلقها بدعوى النبي لها وبها دلالة على صدقه، والله أعلم.

هل للسحر حقيقة؟ وما قدره:

تذنيب: للسحر حقيقة، وقيل لا والصحيح أو الصواب الأول دل عليه ظاهر القرآن والسنة، قال الماوردي: اختلف العلماء في القدر الذي يقع به السحر ولهم فيه اضطراب فقال بعضهم: لا يزيد تأثيره على قدر التفريق بين المرء وزوجه لأن الله تعالى إنما ذكر ذلك تعظيماً لما يكون عنده وتهويلاً له في حقنا فلو وقع به أعظم منه لذكره.

لأن المثل لا يضرب عند المبالغة إلا بأعلى أحواله المذكورة، ومذهب الأشعرية أنه يجوز أن يقع به أكثر من ذلك، قال: وهذا هو الأصح لأنه لا فاعل إلا الله وما يقع من ذلك فهو عادة أجراها الله تعالى، ولا تفترق الأفعال في ذلك.

وليس بعضها أولى من بعض ولو ورد الشرع بقصوره عن مرتبة لوجب المصير إليه ولكن لا يوجد شرع قاطع بوجوب الاقتصار على ما قاله القائل الأول وذكر التفرقة بين الزوجين في الآية ليس بنص في منع الزيادة وإنما النظر في أنه ظاهر أم لا .

فرع في ذكر ما يتعلق بهذه المسألة من فروع الفقه :

حكم تعلم السحر :

اعلم أن تعلم السحر وتعليمه حرام على الصحيح عند جمهور علمائنا مطلقاً لكن قال القاضي حسين وإبراهيم المروزي إن كان في تعلمه ترك طاعة الله عز وجل لا يجوز وإن لم يكن فإن قصد بتعلمه دفع السحر الناس عن نفسه جاز، وإن قصد تعلمه ليسحر الناس لم يجز . انتهى .

آراء الفقهاء في الساحر :

ومحل الخلاف إذا لم يتوقف سحره على اعتقاد وكفر ومباشرة محظور كترك صلاة وغيرها فإن ذلك حرام بالإجماع والسحر من الكبائر ومذهب مالك وأبي حنيفة وأحمد أن الساحر يكفر لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ ﴾ [سورة البقرة، آية : 102] الآية .

لأنهم إنما نسبوا سليمان رضي الله عنه إلى السحر لا إلى الكفر، وقوله تعالى عن الملكين : ﴿ إِنَّمَا مَخَّنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ [سورة البقرة، آية : 102] ومذهب الشافعي رضي الله عنه أنه لا يكفر فيه قول أو فعل يقتضي الكفر . قال الشافعي رحمه الله : ومن اعتقد إباحته فهو كافر .

وقال ابن الصباغ : إن اعتقد التقرب إلى الكواكب السبعة وأنها تجيب إلى ما يقترح منها فهو كافر وعن القفال أنه لو قال : أفعل السحر بقدرتي دون الله تعالى فهو كافر .

حكم توبة الساحر :

فلو تاب قبلت توبته عند الشافعي وقال مالك رحمه الله - السحر زندقة فإن قال : أنا أحسن السحر قتل ولا تقبل توبته كما لا تقبل توبة الزنديق وعن أبي حنيفة رضي الله عنه مثله وعن الإمام أحمد رحمه الله روايتان كالمذهبيين .

وقال أبو حنيفة رحمه الله : إن المرأة تحبس ولا تقتل وأما الساحر الذمي فلا

يقتل إلا أن يضر بالمسلمين فيقتل لتقضه العهد. وقال أبو حنيفة رحمه الله يقتل مطلقاً. والله أعلم.

الاستقامة شرط لتحقيق الكرامة :

تنبيه :

ذكر الإمام أبو العباس أحمد بن خلكان في تاريخه عن أبي يزيد البسطامي - بفتح الباء الموحدة وسكون السين المهملة وفتح الطاء - قدس الله روحه - أنه قال : لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى تربع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عن الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة انتهى .
وقال السري السقطي رحمه الله لو أن رجلاً دخل إلى بستان فيه أشجار كثيرة على كل شجرة طائر يقول بلسان فصيح السلام عليكم فلو لم يخف أنه مكر فهو ممكور به .

وقال الشيخ شهاب الدين السهروردي رحمه الله في الكلام على الكرامات ومن ظهر على يده شيء من الخوارق وهو على غير التزام الأحكام الشرعية فهو زنديق والذي يظهر له مكر واستدراج .

قال بعضهم وقد يكون من لم يكشف له أفضل ممن كوشف وهذه غريبة وسر ذلك أن الذي يكشف بشيء في القدرة وخرق العادة إنما يكشف به ليقوي إيمانه ويثبت جنانه .

فوق هؤلاء أقوام ارتفعت الحجب عن قلوبهم وباشروا بواطنهم روح اليقين وضوء المعرفة فلا حاجة لهم إلى مدد في الحوادث ولهذا المعنى لم تكثر الكرامات في الصحابة ككثرتها فيمن بعدهم : ببركة مجالستهم لرسول الله ومشاهدتهم نزول الوحي والملائكة ، في مهابط الكرامات تنورت بواطنهم وعانوا الآخرة وزهدوا في الدنيا وزكت نفوسهم وانخلعت عاداتهم وانصقلت مرآئ قلوبهم فاستغنوا بما أعطوا عن ذلك .

قال علي رضي الله عنه : لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً . قلت : هذا عين ما أجاب به الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - لأنك إذا تأملته تجده مأخوذاً من كلامه

أما قوله لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً فهذا هو المشهور من كلام السيد علي كرم الله وجهه خلافاً لمن ساقه حديثاً كما وقع في الفتاوى الوصلية لسليمان العلماء العز بن عبد السلام وهو ما معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً» أي لو قامت القيامة وأحضرت الجنة والنار ما ازددت يقيناً بالإيمان بها وإن كان إذا رآها أبصر في التفاصيل والهيئات ما لم يحط قبل ذلك وكذلك إبراهيم لما رأى كيفية الإحياء على ما لم يقف عليه مع الإيمان به .

كمن رأى بناءً عجيباً فإنه يعلم أن له صانعاً وإذا لم يفهم كيفية البناء والصنع فطلب أن ينظر كيفية البناء فإنه لا يزداد يقيناً بأن البناء صدر عن صانع قادر ولم يرد بقوله ولكن ليطمئن قلبي بأنك قادر على ذلك وإنما ولكن ليسكن قلبي من شدة تطلبه لرؤية الكيفية وقيل إنه لما بشر بالخلة طلب أن يخرق له العادة في إرائه كيفية الإحياء حتى يسكن قلبه إلى اتخاذه خليلاً إلى حد يخرق العادة فيه بدعائه، هذا آخر جوابه رحمه الله تعالى .

مع عدم تنبيهه لكونه حديثاً، بل عدم تعرضه للكلام يشعر بأنه يراه حديثاً لكونه أقر السائل على ما سأله ونظير ذلك «نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه»⁽¹⁾ فإن بعض العلماء ساقه حديثاً وبعضهم ساقه أثراً عن السيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو الذي عليه جمهور العلماء كالسهروردي في عوارف المعارف لكنه بلفظ رحم الله صهيياً .

قال الشيخ بهاء الدين بن السبكي في «عروس الأفراح قد نسبه الخطيب إلى النبي ﷺ ونسبه ابن مالك في شرح الكفاية وغيره إلى عمر رضي الله عنه ونقل عنه البدر بن الدماميني في شرح المغني والشيخ جلال الدين المحلي في شرح جمع الجوامع وقال الحافظ ولي الدين العراقي لا أعلم لهذا اللفظ إسناداً .

لكن ورد حديث بمعناه وهو ما رواه أبو نعيم في الحلية أن النبي ﷺ قال في سالم مولى أبي حذيفة «إنه شديد الحب لله لو كان لا يخاف الله ما عصاه» وقال الشيخ بهاء الدين بن السبكي - كغيره من المحدثين : إنه لم يجده في شيء من كتب الحديث بعد الفحص الشديد . ثم اعلم أن العلماء لهم في تفسير معناه عبارات متحدة المعنى مختلفة اللفظ قال الزركشي في شرح جمع الجوامع ما معنى قول

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2831) [428/2].

السيد عمر في صهيب لو لم يخف الله لم يعصه؟
 أي فعدم المعصية محكوم بثبوته لأنه إذا كان ثابتاً على تقدير عدم الخوف
 فالحكم بثبوته مع تقدير ثبوت الخوف أولى . وقال الشيخ عبد السلام المقدسي في
 كتابه حل الرموز: هذا في لفظه إشكال وتفسير ذلك وتحقيقه: هذه أثنى عليه بقوله
 نعم العبد، فلو كان عصى ما استحق المدح وقد علق عدم وجود المعصية على عدم
 وجود الخوف .

فتركة المعصية لم تكن خوفاً من عقوبته بل رعاية لمحبتته ووجه آخر في تفسيره
 وهو أن الهاء في يعصه ضمير عائذ على صهيب فمعناه لو لم يخف الله لم يعصه أي
 لو كتب له كتاب الأمان من النار حمله صرف المعصية بعظيم أمر الله على القيام
 بواجب حق العبودية أداء لما عرف في حق العظمة . انتهى واعلم أن الناس في إنكار
 الكرامات مختلفون فمنهم من ينكر كرامات الأولياء مطلقاً وهؤلاء على مذهب
 المعتزلة المخالفين لأهل السنة والجماعة .

ومنهم من ينكر كرامات أولياء زمانه ويصدق بكرامات الأولياء المتقدمين
 كالجنيد ومعروف، والسري، وابن أدهم وأشباههم فهؤلاء قال فيهم سيد علماء
 الطريقة وإمام أهل الحقيقة أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: والله ما هي إلا
 إسرائيلية صدقوا بموسى وكذبوا محمداً ﷺ لأنهم أدركوا زمنه ومنهم من يصدق أن
 لله أولياء لهم كرامات ولكن لا يصدق بأحد معين في أهل زمانه فهؤلاء محرومون
 أيضاً لأن من لا يسلم لواحد معين لم ينتفع بأحد فنسأل الله تعالى التوفيق بالإيمان
 بكرامات أوليائه وحسن الخاتمة بمنه وكرمه .

«عود إلى الفرق بين المعجزة والكرامة»:

تفريع:

نقل الأستاذ أبو القاسم القشيري عن القاضي أبي بكر الأشعري في الفرق بين
 المعجزة والكرامة ما معناه أن من شرط المعجزة اقتران دعوى النبوة بها وأن تجرى
 على أوصاف كثيرة .

وقال القشيري وهذا الذي نعتمده وندين به فشرائط المعجزة كلها أو أكثرها
 توجد في الكرامة إلا هذا الشرط الواحد يعني دعوى النبوة والولي لا يدعي النبوة
 والذي يظهر عليه لا يكون معجزة . قال: ويظهر على عبد تخصيصاً له وتفضيلاً .

«وقد يحصل» باختياره ودعائه، وقد لا يحصل. ومنهم من قال: لا تقع باختيارهم وطلبهم، والراجح: أن كرامات الأولياء تقع باختيارهم وطلبهم قال النووي هذا هو الصحيح عند أصحابنا.

موقف العلماء من رأي القشيري في تخصيص الكرامات:

واعلم أن الكرامات تكون بخوارق العادات على جميع أنواعها وقيل تختص بمثل إجابة دعاء ونحوه وهذا غلط من قائله وإنكار للحس بل الصواب جريانها بقلب الأعيان وإحضار الشيء من العدم ونحوه وقال القشيري لا تنتهي الكرامات إلى حصول ولد من غير والد وقلب جماد بهيمة أو حيواناً آخر وأمثال ذلك.

قال في منع الموانع وهذا حق يخص قولهم: ما جاز أن يكون معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي، لا فرق بينهما إلا التحدي وقال الزركشي وهذا الذي قاله القشيري حتى ولده أبو نصر في كتابه المرشد فقال: قال بعض الأئمة ما وقع معجزة لنبي لا يجوز تقدير قاله القشيري مذهب ضعيف والجمهور على خلافه، وقد أنكروه على القشيري وقوعه كرامة لولي كقلب العصا ثعباناً وإحياء الموتى وفتح البحر، ونحو ذلك، لكن قال العلامة بدر الدين الأهدل:

قلت يظهر أن الاعتراض غير متجه وأن القشيري إنما أراد أن ينبه على قسم المستحيلات التي لا توصف قدرة الله تعالى بالقدرة عليها لكن قصرت عبارته إذ الموجب لإثبات الكرامات إنما هو كونها من مقدورات الله تعالى فما لا تصلح له القدرة لا تصلح للكرامات انتهى قلت اعتراض الأئمة على القشيري في غاية الاتجاه إلى الطرف الأقصى.

وما قاله ابن الأهدل لا يصح أن يكون رداً للاعتراض لأن حصول ولد من غير والد ففي جملة مقدورات الله تعالى وما كان في المقدورات لا يوصف بالاستحالة ولأن ليس من كسب الوالد ولا من مقدوراته بل إنما هو من مقدور الله قد أجراه على يديه بعد أن قدره في الأزل أن حصوله لا يكون إلا بسبب الوالد غالباً وقد يكون بغيره بأن أجرى الله تعالى حصوله. معجزة لنبي أو كرامة لولي ليكون هذا برهاناً ليصدق الأنبياء والأولياء فيما جاؤوا به لتنبية العقلاء لتمييز خرق العادات من العبادات قال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في «لطائف المنن» اعلم أن قدرة الله التي لا يكبر عليها شيء هي التي أظهرت الكرامة في هذا الولي فلا تنظر إلى ضعف العبد

ولكن انظر إلى قدرة السيد فجحد الكرامة في الولي جحد لقدرة القدير سبحانه وتعالى .

وربما كان سبب إنكاره الكرامة استكثارها على ذلك العبد الذي أضيفت إليه، وذلك العبد إنما ظهرت عليه الكرامة وهي شاهدة بصدق طريق متبوعه فهي بالنسبة إلى من ظهرت عليه وهو ذلك الولي كرامة ببركات متبوعة معجزة، فكذلك قالوا كل كرامة لولي فهي معجزة لذلك النبي الذي هذا الولي متبع له فلا تنظر إلى التابع ولكن انظر إلى عظيم قدر المتبوع وبالجملة فالمتخلص في هذا الكلام هو أن جميع خوارق العادات من المعجزات جائر وقوع مثلها كرامات للأولياء مطلقاً لأنها ناشئة عن الله تعالى بفعله وإرادته كما قال سلطان أهل المحبة ابن الفارض رضي الله عنه :

وَسِرُّ انْفِعَالَاتِ الظَّوَاهِرِ بَاطِنًا عَنِ الْإِذْنِ مَا أَلْقَتْ بِأُذُنِكَ صَيْغَتِي
أَي وَحَقِيقَةُ انْفِعَالَاتِ الْمَعْجَزَاتِ وَالكَرَامَاتِ الظَّاهِرَةِ إِنَّمَا هِيَ نَاشِئَةٌ عَنِ الْإِذْنِ
الْبَاطِنِ فِي حَضْرَةِ الْحَقِّ تَعَالَى لِحِكْمَتِهِ وَتَأْيِيدِ أَوْلِيَائِهِ وَأَمَّا قَلْبُ الْجَمَادِ بِهَيْمَةٍ فَهَذَا مِنْ
قَلْبِ الْأَعْيَانِ وَقَدْ شُوهِدَ وَقُوعُهُ لَجَمَاعَةٍ مِنْ أَكْبَرِ الْأَوْلِيَاءِ، وَهُوَ أَشْهَرُ شَيْءٍ عِنْدَ
الْقَوْمِ .

وقد صرح بهذا النوع جماعة من العلماء في كتبهم كابن السبكي في الطبقات الكبرى وسيأتي كلامه في ذلك إن شاء الله تعالى .

وقال القرافي في شرح جمع الجوامع والصحيح عند الجمهور جواز جملة خوارق العادات كرامة للأولياء صرح بذلك إمام الحرمين في ذلك، وتابعه شراحه . فإذا تقرر ذلك فقال الأستاذ أبو القاسم القشيري وليس للولي أن يسكن إلى الكرامة التي تظهر عليه وربما يكون لهم في ظهور جنسها قوة يقين وزيادة بصيرة لتحققهم أن ذلك فعل الله تعالى فيستدلون بها على صحة ما هم عليه من العقائد انتهى .

هل يشترط العلم بالولاية :

قال الأستاذ أبو علي الدقاق يجوز للولي : أن يعلم أنه ولي قال القشيري وهو الذي نقول به وليس ذلك بواجب في جميع الأولياء بل يجوز أن يعلم بعضهم ذلك كما يجوز أن لا يعلم بعضهم فإذا علم بعضهم أنه ولي كانت معرفته تلك كرامة له

انفرد بها ولو لم يكن للولي كرامة ظاهرة عليه في الدنيا لم يقدح عدمها في كونه ولياً بخلاف الأنبياء عليهم السلام فإنه يجب أن يكون لهم معجزات .

لأن بالناس حاجة لمعرفة صدقهم ولا يعلم ذلك إلا بالمعجزات وليس كذلك الولي ، لأنه ليس بواجب على الخلق ولا على الولي العلم بأنه ولي .

وقال الشيخ عبد السلام المقدسي في حل الرموز وليس من شروط الولي أن تكون له كرامة ولا يؤمر بذلك في ولايته ولا كذلك النبي ﷺ لأنه يجب أن تكون له معجزة لأن الرسل والأنبياء بعثوا حجة على الناس بدعوتهم إلى الله فلا بد لهم من المعجزة لإقامة البرهان وقد سئل أبو يزيد رحمه الله عن هذه المسألة .

فقال : مثل ما حصل للأنبياء عليهم السلام كمثل زق فيه عسل يترشح منه قطرة فتلك القطرة مثل ما حصل لسائر الأولياء وما في الزق مثل ما حل لبنينا محمد ﷺ ، ثم الخلائق مفتقرون لظهور معجزة النبي ﷺ لأنه مبعوث إليهم ليصدقوه .

وأما الولي فلا يفتقر إلى ذلك ولا يبالي صدقوه أو كذبوه ، وقد اختلف أهل العلم في الولي هل من شرطه أن يعلم أنه ولي أم لا ، فكان أبو بكر بن فورك يقول لا يجوز أن يعلم أنه ولي ؛ لأن ذلك يسلبه الخوف ويوجب له الأمن ، وأما الذي تؤثره أهل الحقيقة وهو الحق أنه يجوز وليس بواجب .

لأن الولي لا يعلم نفسه أنه ولي إلا بالكرامة بل يجوز شرعاً أن يعلم بعضهم ويجوز أن لا يعلم بعضهم فمن علم ، هذه ولي كانت معرفته كرامة في حقه إذ أطلعه الله تعالى على ما أوهبه وكشف له ما كان حجبته قلت هذا هو الراجح عندي وعليه جماهير العلماء وممن اختاره من الأئمة الأستاذ أبو القاسم القشيري تبعاً للشيخ أبي علي الدقاق وقد تقدم كلامهما في ذلك .

وأما من قال إن ذلك يسلبه الخوف فهذا مذهب ضعيف ساقط لا عبرة به ، لأن من كان بالله أعرف كان من الله أخوف ، فمن عرفه نفسه اشتدت مهابته وتعظيمه لله تعالى ، وتلك الهيبة تزيد على أضعاف من خوف الخائفين لأن من عرف نفسه عرف ربه وعرف ما يراد منه فأشغل نفسه واستعملها فيما خلقت له فأوقفها في مواقف العبودية والقيام بحقوق الربوبية ، قال المقدسي : فمن فتح الله عين يقظته وأشهدته خفايا سريرته علم أنه لم يكن في الكونين ولا في العالمين من مفتقرات ذراته شيء إلا وهو مندرج في طوايا ذاته مندرج في خفايا صفاته .

وهذا سر قوله: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»⁽¹⁾ وقد ظهر لي في سر هذا الحديث ما يجب كشفه ويستحسن وصفه وهو أن الله سبحانه وتعالى وضع هذا الروح الروحانية في هذه الجثة الجسمانية لطيفة لاهوتية مودعة في كثيفة ناسوتية دالة على وحدانيته وربانيته.

وجه الاستدلال على وحدانيته بالحديث: «من عرف نفسه عرف ربه»:

ووجه الاستدلال بذلك من عشرة أوجه: الأول: أن هذا الهيكل الإنساني لما كان مفتقراً إلى مدير ومؤثر ومحرك وهذا الروح تدبره وتحركه علمنا أن هذا العالم لا بد له من محرك له ومدبر.

الوجه الثاني: لما كان مدبر الجسد واحداً وهو الروح علمنا أن مدبر هذا العالم واحد لا شريك له في ملكه قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [سورة الأنبياء، آية: 22] وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْنَعُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ (٤٢) ﴿سُبْحٰنُهُ وَتَعٰلٰى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيْرًا﴾ [سورة الإسراء، الآيتان: 42، 43] وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [سورة المؤمنون، آية: 91].

الوجه الثالث: لما كان هذا الجسد لا يتحرك إلا بإرادة الروح وشعورها به لا يخفى على الروح من حركات الجسد وسكناته شيء حتى علمنا أنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

الوجه الخامس: لما كان هذا الجسد لم يكن فيه شيء أقرب إلى الروح من شيء بل هو أقرب إلى كل شيء في الجسد علمنا أنه قريب إلى كل شيء ليس شيء أقرب إليه من شيء لا شيء أبعد إليه من شيء لا بمعنى قرب المسافة لأنه منزه عن ذلك.

الوجه السادس: لما كان الروح موجوداً قبل وجود الجسد ويكون موجوداً بعد عدم الجسد علمنا أنه سبحانه وتعالى موجود قبل خلقه يكون موجوداً بعد خلقه ما زال ولا يزال وتقدس عن الزوال.

الوجه السابع: لما كان الروح في الجسد لا يعرف له كيفية علمنا أنه تعالى

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

مقدس عن الكيفية ولا يوصف بأين ولا كيف بل الروح موجود في سائر الجسد ما خلا منه شيء من الجسد كذلك الحق سبحانه وتعالى موجود في كل مكان ما خلا منه مكان وتنزه عن المكان والزمان.

الوجه الثامن: لما كان الروح في الجسد لا يعلم له أبنية علمنا أنه تعالى تقديس عن الأينية والكيفية.

الوجه التاسع: لما كان الروح في الجسد لا يُحس ولا يُمس ولا يُحسب علمنا أنه تعالى منزّه عن الجس والمس والحس.

الوجه العاشر: لما كان الروح في الجسد لا يدرك بالبصر ولا يمثل بالصور علمنا أنه تعالى لا تدركه الأبصار ولا يمثل بالصور والآثار ولا يشبه بالشموس والأقمار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى، آية: 11].
ذا معنى قول من عرف نفسه فقد عرف ربه فطوبى لمن عرف وبدنّه اعترف.
وفي الحديث تفسير آخر. وهو أنك تعرف أن صفات نفسك على الضد من صفات ربك فمن عرف نفسه بالعبودية عرف ربه بالربوبية ومن عرف نفسه بالجفاء والخطأ عرف ربه بالوفاء والعطاء.

ومن عرف نفسه كما هي عرف ربه كما هو، واعلم أنه لا سبيل لك إلى معرفة إياك كما إياك فكيف لك سبيل إلى معرفة إياه كما إياه، فكأنما في قوله من عرف نفسه عرف ربه. علق مستحيلاً على مستحيل لأنه يستحيل أن تعرف نفسك وكيفيتها فإنك إذا كنت لا تطيق أن تصف نفسك التي هي بين جنبيك بكيفية أو أينية ولا سجية ولا هيكلية ولا هي مرئية.

فكيف يليق لعبوديتك أن تصف الربوبية بكيف وأين وهو مقدس عن الكيف والأين؟ ولهذا أنشد بعضهم:

قل لمن يفهم عني ما أقول قصر القول فذا شرح يطول
ثم سر غامض من دونه ضربت والله أعناق الفحول
أنت لا تعرف إياك ولا تدر من أنت ولا كيف الوصول
لا ولا ندري صفات ركبت فيك حارت في خفاياها العقول
أين منك الروح في جوهرها هل تراها فتري كيف تجول
وكذا الأنفاس هل تحصرها لا ولا تدري متى عنك تزول

أين منك العقل والفهم إذا غلب النوم فقل لي يا جهول
 أنت أكل الخبز هل تعرفه كيف يجري منك أم كيف تبول (*)
 فإذا كانت طواياك التي بين جنبيك كذا فيها ضلول
 كيف تدري من على العرش استوى لا تقل كيف استوى كيف النزول
 كيف يحكي الرب أم كيف ترى فلعمري ليس ذا إلا فضول
 فهو لا أين ولا كيف له وهو رب الكيف والكيف يحول
 هو فوق الفوق لا فوق له وهو في كل النواحي لا يزول
 جل ذاتاً وصفاتٍ وسما فتعالى قدره عما أقول⁽¹⁾

فصل :

قال الشيخ تاج الدين السبكي في الطبقات الكبرى: الدليل على ثبوت الكرامات وجوه أحصرها وهو أوحدها: ما شاع وذاع بحيث لا ينكره إلا جاهل معاند في أنواع الكرامات للعلماء والصالحين الجاري على مجرى شجاعة علي وسخاء حاتم، بل إنكار الكرامات أعظم مباهته فإنه أشهر وأظهر ولا يعاند فيه إلا من طمس قلبه والعياذ بالله.

ثم قال: فإن قلت قد أكثرتم القول في الكرامات وما أفصحتكم بالمختار عندكم في الأقوال المنقولات. قلت: هذا مقام معضل خطر والاحتجار على مواهب الله لأوليائه عظيم عسر والاتساع في التجويز آيل إلى فتح باب على المعجزات مسدود.

مذهب السبكي فيما يمنع من الكرامات وما يقع :

والذي يترجح عندي القول بتجويز الكرامات على الإطلاق إذا لم تخترق عادة وتجويز بعض خوارق العوائد دون بعض فلا أمنع من الخوارق وأمنع كثيراً. ولي في ذلك قدوة وهو الأستاذ أبو القاسم القشيري - رحمه الله - .

فإن قلت عرفني ما تمنعه وما لا تمنعه ليتبين مذهبك قلت أمنع ولداً من غير أبوين، وقلب جماد بهيمة ونحو ذلك وسيوضح ذلك عند ذكر الأنواع التي أبدىها

(*) وفي نسخة [يؤول] بدل [تبول].

(1) هذا الأبيات هي لمحمد سالم الحضرمي وردت في سفينة النجا [412/2]

على الأثر إن شاء الله تعالى . أما جمهور أئمتنا فعمموا التجويز وأطلقوا القول إطلاقاً انتهى .

ترجيح المؤلف لمذهب الجمهور :

قلت هذا هو المختار عندي وعليه الجم الغفير من المحققين قديماً وحديثاً وممن رجحه من الأئمة تبعاً للجمهور حجة الإسلام الغزالي والإمام الرازي والبيضاوي والنسفي وإمام الحرمين وابن الصلاح وأبو نصر القشيري وأبو زرعة العراقي والإمام اليافعي وأضرابهم ممن يطول استقصاؤهم وأما ما اختاره ابن السبكي تبعاً للقشيري فهو مذهب ضعيف والجمهور على خلافه .

وقد أنكروه على القشيري حتى ولده أبو نصر كذا صرح به الزركشي رحمه الله في شرح جمع الجوامع وقد تقدم ذلك والله أعلم . ثم قال وأخذ بعض المتأخرين بعدد أنواع الواقعات من الكرامات فجعلها عشرة وهي أكثر من ذلك وأنا أذكر ما عندي فيها :

أنواع الكرامات :

النوع الأول : إحياء الموتى واستشهد بذلك بقصة أبي عبيد البشري فقد صح أنه غزا ومعه دابة فماتت فسأل الله أن يحييها حتى يرجع إلى بشر ، فقامت الدابة تنفض أذنيها فلما فرغ من الغزوة ووصل إلى بشر أمر خادمه أن يأخذ السرج عن الدابة فلما أخذه سقطت ميتة .

والحكايات في هذا الباب كثيرة من أواخرها أن مفرجاً الدماميلي وكان من أولياء الله من أهل الصعيد ذكر أنه أحضرت عنده فراخ مشوية فقال لها طيري فطارت أحياء بإذن الله تعالى .

وأن الشيخ الأهدل كانت له هرة فضربها خادمه فماتت فرمى بها في خرابة فسأل عنها الشيخ بعد ليلتين أو ثلاث فقال الخادم لا أدري فقال الشيخ أما تدري؟ ثم نادها فجاءت إليه تجري ، وحكاية الشيخ عبد القادر الكيلاني رضي الله عنه ووضع يده على عظام دجاجة كان قد أكلها وقوله لها قومي بإذن الله الذي يحيي العظام وهي رميم فقامت دجاجة سوية حكاية مشهورة ، وذكروا أن الشيخ أبا يوسف الدهماني مات له صاحب فجزع عليه أهله فلما رأى الشيخ شدة جزعهم جاء إلى الميت وقال له قم بإذن الله فقام وعاش بعد ذلك زمناً طويلاً .

وحكاية الشيخ زين الدين الفارقي الشافعي مدرّس الشامية شهيرة، قال ابن السبكي وقد سمعتها من لفظ ولده ولي الله الشيخ فتح الدين يحيى فحكى لنا ما حاصله أنه وقع في داره طفل صغير من سطح فمات فدعا الله فأحياه .

ولا سبيل إلى استقصاء ما يحكى في هذا النوع لكثرتة وأنا أو من به غير أني أقول لم يثبت عندي أن ولياً أحيا له ميت مات من أزمان كثيرة بعد ما صار عظماً رميمًا، ثم هذا القدر لم يبلغنا ولا أعتقده وقع لأحد من الأولياء ولا شك في وقوع مثله للأنبياء عليهم السلام، فمثل هذا يكون معجزة ولا تنتهي إليه الكرامة .

فيجوز أن يحيى نبي قبل اختتام النبوة من مات من «دهر طويل ثم يعيش ويستمر في قيد الحياة زماناً ولا أعتقده الآن أن ولياً يحيى لنا الشافعي وأبا حنيفة حياة يقيان معها زماناً طويلاً كما قبل الوفاة بل ولا زماناً قصيراً يخالطان فيه الأحياء كما خالطاهما قبل الوفاة .

النوع الثاني : كلام الموتى وهو أكثر من النوع الذي قبله وروت مثله عن أبي سعيد الخراز رضي الله عنه ثم عن الشيخ عبد القادر رضي الله عنه جماعة من آخرهم بعض مشايخ الشيخ الإمام الوالد رحمه الله ولست أسميه .

النوع الثالث : انفلاق البحر وجفافه والمشي على الماء وكل ذلك كثير وقد اتفق مثله لشيخ الإسلام وسيد المتأخرين تقي الدين بن دقيق العيد .

النوع الرابع : انقلاب الأعيان كما حكى أن الشيخ عيسى اليماني أرسل إليه شخص مستهزأً به إنايين ممتلئين خمراً فصب أحدهما في الآخر وقال بسم الله كلوا فأكلوا فإذا هو سمن لم ير مثله في لونه وريحه . وقد أكثروا في ذكر نظير هذه الحكاية .

النوع الخامس : إنزواء الأرض لهم بحيث حكوا أن بعض الأولياء كان في جامع طرسوس فاشتاق إلى زيارة الحرم فأدخل رأسه في جيبه ثم أخرجه وهو في الحرم، والقدر المشترك من الحكايات في هذا النوع بالغ مبلغ التواتر لا ينكره إلا مباحة .

النوع السادس : كلام الجمادات والحيوانات ولا شك فيه وفي كثرته، ومنه ما حكى أن إبراهيم بن أدهم جلس في طريق بيت المقدس تحت شجر رمان فقالت له : يا أبا إسحاق أكرمني بأن تأكل مني شيئاً، قالت ذلك ثلاثاً وكانت شجرة قصيرة ورماتها حامض فأكل منها رمانة فطالت وحلا رمانها وحملت في العام مرتين وسميت رمانة العابدين .

وقال الشبلي عقدت ألا أكل إلا من حلال فكنت أدور في البراري فرأيت شجرتين فمددت يدي لآكل منها فنادتني الشجرة؛ احفظ عليك عقدك ولا تأكل مني فإني ليهودي .

النوع السابع: إبراء العلل كما روي عن السري في حكاية الرجل الذي لقيه ببعض الجبال يبرئ الزمنى والعميان والمرضى، وكما حكى عن الشيخ عبد القادر أنه قال لصبي مقعد مفلوج أعمى قم بإذن الله تعالى فقام لا عاهة به .

النوع الثامن: طاعة الحيوان لهم كما في حكاية الأسد مع أبي سعيد بن أبي الخير وقبله إبراهيم الخواص، بل وطاعة الجمادات كما في حكاية سلطان العلماء شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام وقوله في واقعة الفرنج يا ربح خذهم فأخذتهم .

النوع التاسع: طي الزمان .

النوع العاشر: نشر الزمان .

وفي تقرير هذين القسمين عسر على الأفهام وتسليمه لأهله أولى بذي الإيمان والحكايات فيهما كثيرة .

الحادي عشر: استجابة الدعاء وهو كثير جداً وشاهدناه من جماعة .

الثاني عشر: إمساك اللسان وانطلاقه .

الثالث عشر: جذب بعض القلوب بعد كونها في غاية النفرة .

الرابع عشر: الإخبار ببعض المغيبات والكشف وهو درجات تخرج عن حد الحصر .

الخامس عشر: الصبر على عدم الطعام والشراب المدة الطويلة .

السادس عشر: مقام التصريف فقد حكى عن جماعة هذا الشيء وذكر أن بعضهم كان يبيع المطر وكان من المتأخرين الشيخ أبو العباس الشاطر يبيع الإسعاد بالدراهم والحكايات لا تحصر .

السابع عشر: القدرة على تناول الكثير من الغذاء .

الثامن عشر: الحفظ عن أكل الحرام كما حكى عن الحارث المحاسبي أنه كان يرتفع إلى أنفه زفورة من المأكل الحرام فلا يأكله، وقيل كان يتحرك له عرق، وحكى نظيره عن الشيخ أبي العباس المرسي .

وقيل: إن بعض الناس امتحنه وأحضر له مأكلاً حراماً فبمجرد ما وضعه قال إن كان المحاسبي يتحرك له عرق فأنا يتحرك مني عند حضور الحرام سبعون عرقاً ونهض في ساعته وانصرف.

التاسع عشر: رؤية المكان البعيد من وراء الحجب كما قيل إن الشيخ أبا إسحاق الشيرازي: كان يشاهد الكعبة وهو ببغداد.

العشرون: الهية التي لبعضهم بحيث مات من شاهده بمجرد رؤيته أو بحيث أفحم بين يديه أو اعترف بما لعله كتبه عنه أو غير ذلك وهو كثير.

الحادي والعشرون: كفاية الله إياهم شر من يريدهم سوءاً وانقلابه خيراً كما اتفق للشافعي رضي الله عنه مع هارون الرشيد رحمه الله.

الثاني والعشرون: التطوير بأطوار مختلفة وهو الذي تسميه الصوفية بعالم المثال ويكون عالماً متوسطاً بين عالم الأجسام والأرواح وسموه عالم المثال وقالوا: هو أطف من عالم الأجسام وأخف من عالم الأرواح وبنوا عليه تجسد الأرواح وظهورها في صور مختلفة في عالم المثال واستأنسوا له بقوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [سورة مريم، آية: 17].

ومنه ما حكى عن قضيب البان الموصلي وكان من الأبدال أنه اتهمه بعض ما لم يره يصل بتركه الصلاة وشدد النكير عليه فتمثل له على الفور في صور مختلفة وقال: في أي هذه الصور رأيتني ما أصلي؟

ولهم في هذا النوع حكايات.. ومما اتفق لبعض المتأخرين أنه وجد فقيراً شيخاً كبيراً يتوضأ في القاهرة بالمدرسة الشريفة من غير ترتيب فقال له يا شيخ تتوضأ بلا ترتيب فقال: ما توضأت إلا مرتباً ولكن أنت ما تبصر لو أبصرت لأبصرت هكذا وأخذ بيده وأراه الكعبة، ثم مر به إلى مكة فوجد نفسه في مكة وأقام بها سنين في حكاية يطول شرحها.

الثالث والعشرون: إطلاع الله إياهم على ذخائر الأرض كما في حكاية أبي تراب لما ضرب برجله الأرض فإذا عين ماء كالزلال، وعن بعضهم أنه عطش في طريق الحج فلم يجد ماء عند أحد فوجد فقيراً قد ركن عكازه في موضع والماء ينبع من تحت عكازه فملاً قربته ودل الحجيج عليه فجاؤوا فملاًوا أوانيهم من ذلك الماء.

الرابع والعشرون: ما سهل لكثير من العلماء من التصانيف في الزمان اليسير

بحيث وزع زمان تصنيفهم على زمان اشتغالهم بالعلم إلى أن ماتوا فوجدوه لا يفي نسخاً فضلاً عن التصنيف .

وهذا قسم من نشر الزمان الذي قدمناه وقد اتفق النقلة على أن عمر الشافعي لا يفي بعشر ما أبرزه من التصانيف مع ما يثبت عنه في تلاوة القرآن كل يوم ختمتين وفي رمضان كل يوم ختمتين كذلك ، واشتغاله بالدرس والفتاوى والذكر والأمراض التي كانت تعتريه بحيث لم يخل رضي الله عنه من علة أو علتين أو ربما أكثر وربما اجتمع فيه ثلاثون مرضاً .

وكذلك إمام الحرمين أبو المعالي الجويني رحمه الله تعالى حسب ما صنفه مع ما كان يلقبه على الطلبة فوجد لا يفي به - وهذا الإمام الرباني الشيخ محيي الدين النووي - رحمه الله وزع عمره على تصانيفه فوجد أنه لو كان ينسخها فقط لما كفاها ذلك العمر فضلاً عن ما كونه يصنفها مع ما كان عليه من أنواع العبادات .

وهذا الإمام الشيخ الوالد رحمه الله تعالى إذا حسب ما كتبه من التصانيف مع ما كان يواظبه من العبادات، ويمليه من الفوائد، ويذكره في الدروس من العلوم، ويكتبه على الفتاوى ويتلوه من القرآن ويشغل به من المحاكمات عرف أن عمره قطعاً لا يفي بثلاث ذلك فسبحان من يبارك لهم ويطوى لهم وينشر .

قلت: ومن نشر الزمان ما وقع لابن عمنا علامة الوجود المحقق الحجة ابن العباس أحمد الزاوي الشافعي يسقي الله ثراه من المنح الإلهيات والتبحر في سائر العلوم النقلية والعقليات التي لا يسعها صغر سنه لكونه من أرباب الولايات .

الخامس والعشرون: عدم تأثير السمومات وأنواع المتلفات فيهم كما اتفق ذلك الشيخ الذي قال له بعض الملوك الكفار لما استطال على بلاد المسلمين إما أن تظهر لي آية وإلا قتلت الفقراء وكان بقربه بعر جمال قال: انظر فإذا هو ذهب، وعنده كوز ليس فيه ماء فأخذه ورمى به في الهواء فأخذه ورده ممتلئاً ماء، وهو منكسر لم يخرج منه قطرة، فقال الملك هذا سحر، وأوقد ناراً عظيمة ثم أمرهم بالسماع فلما دار فيهم الوجد دخل الشيخ والفقراء في النار ثم خرج فخطف ابناً صغيراً للملك فدخل به وغاب ساعة بحيث كاد الملك يحترق على ولده، ثم خرج به وفي إحدى يدي الصبي تفاحة وفي الأخرى رمانة فقال له أبواه أين كنت .

قال: في بستان فقال جلساء الملك هذه الصنعة لا حقيقة لها فقال له الملك: إن شربت هذا القدح من السم صدقتك فشربه ولم يؤثر فيه السم ضرراً. قال السبكي

وأظن أنواع كراماتهم تربو على المائة وفيما أوردته دلالة على ما أهملته ومقنع وبلاغ لمن زالت عنه غفلته، وما من نوع من هذه الأنواع إلا وقد كثرت فيه الأقايص والروايات وشاعت فيه الأخبار والحكايات، وماذا بعد الحق إلا الضلال ولا بعد بيان الهدى إلا المحال، وليس للموفق غير التسليم وسؤال ربه أن يلحقه بهؤلاء الصالحين فإنهم على صراط مستقيم. انتهى.

قال الإمام الياضي والعجب كل العجب فيمن ينكر الكرامات وقد جاءت في الآيات الكريمات والأحاديث الصحيحة والآثار المشهورات والحكايات المستفيضات الصادرات عن العيان والمشاهدات من السلف والخلف وبلغت في الكثرة والشهرة في جميع البلاد مبلغاً يخرج عن الحصر والتعداد ثم إن كثيراً من المنكرين لو رأوا الأولياء والصالحين يطبِّرون في الهواء لقالوا هذا سحر وقالوا هؤلاء شياطين، ولا شك أن من حرم التوفيق كذب بالحق بغياً وحسداً كما قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِيْنَ كَفَرُوا إِنَّا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة الأنعام، آية: 7].

صفات الأولياء:

فوا عجباً كيف نسب السحر وفعل الشياطين إلى الأولياء المقربين والأبرار الصالحين الزاهدين العابدين الصابرين الشاكرين الخائفين الراجين المتقين الورعين المتوكلين الراضين المحبين العارفين المطهرين من الصفات المذمومات، المتحلين بمحاسن الصفات المحمودات، المتخلقين للمولى المشمرين في طاعة الله تعالى، المتأدبين بأداب الشريعة الشريفة والسنة العزراء، المرتفعين عن حضيض الرخص إلى معالي عزائم ذروة العلاء، المقبلين على المولى، المعرضين عن الدنيا وعن الأخرى.

الذين كنست نفوسهم المزابل لما أماتوها لتحيا فأحيها الحي القيوم، وجمال جلاله لقلوبهم تجلى لما جاهدوا في سبيل الله حق جهاده أجزلهم ما وعدهم بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [سورة العنكبوت، آية: 69] فيا ليت شعري من أولى بالرجولية الذين قال الله تعالى في حقهم: ﴿رِجَالٌ لَا نُلهِمُهُمْ نَجْرَةً وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [سورة النور، آية: 37] أم الذين قال الله في حقهم: ﴿أَلَهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [سورة التكاثر، آية: 1].

وأيهما أولى بفساد الدين أهل الحرص والطمع أم أهل الزهد والورع، وأما عباد الله المذكورون في سورة الفرقان ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [سورة الفرقان، آية: 64] أم الذين قال فيهم عزّ من قائل: ﴿أَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ [سورة المجادلة، آية: 19]، أم الذين قال فيهم الملك المنان: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَأَنسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ﴾ [سورة الإسراء، آية: 65].

الفرق بين عباد الرحمن وعبيد الشيطان:

وأيهما عبيد الدنيا والشيطان اللعين الذين قال فيهم النبي ﷺ: «تعس عبد الدينار والدرهم»⁽¹⁾.

وأيهما أولى باتباع السُنَّة واقتداء الشريعة؟ أهل الزهد والجد والأخذ بالعزائم الرفيعة أم أهل الرخص والتواني وحب الدنيا الوضيعة الذين يحسبون أن السُنَّة في متابعة الحظوظ النفسية ولا يدرون أن أشرف الاتباع رفض الدنيا والاتصاف بالصفات السُنِّيَّة. فكم من زاعم أنه مقتدٍ بالسُنَّة ومتبعها وهو تارك لفروض ومضيعها. كما قال السيد الجليل العارف بالله بشر بن الحارث رضي الله عنه لما قيل له: الناس يقولون إنك تارك السُنَّة يعنون ترك التزوج فقال لهم: أنا مشغول بالفروض عن السُنَّة. رحمه الله ورضي عنه وهل الفرض المتعين إزالة الصفات المذمومات من القلب من الحقد والحسد والرياء والعجب والكبر والأمل والغيبة والنميمة والكذب والتصنع والسمعة والخيلاء والشح والنفاق.

وغير ذلك من رذائل الأخلاق أم الفروض المذكورة معرفة البيوع والطلاق والخلع والظهار التي قدمها الجهال الأحماق؟ وهل يشرق النور في مرآة القلب المصقولة بالزهد والهدى والورع أم المرآة المظلمة بالذنوب والعيوب والصدى والبخل والطمع؟ ولهذا قال بعضهم إذا أراد الله بالمرید خيراً أوقعه إلى الصوفية ومنعه صحبة الفقهاء لأن الصوفية يأمرونه بإصلاح قلبه والفقهاء يأمرونه بإصلاح لسانه وشتان بين المقامين.

وانظر إلى حجة الإسلام أبي حامد الغزالي رحمه الله لما دخل في طريق القوم

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله تعالى، حديث رقم (2729) [1057/3] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر الزجر عن أن يكون المرء عبد الدينار والدرهم، حديث رقم (3218) [12/8] ورواه غيرهما.

ترك التصنيف والتدريس والإفتاء وخرج متقشفاً إلى البادية فجاءه رجل يستفتيه فلما قدم إليه السؤال قال له: إليك عنى فقد ذكرتني بأيام البطالة لو جئتني في تلك الأيام أفنتك. قال القاضي الإمام أبو بكر بن العربي في بعض كتبه رأيت الإمام أبا حامد الغزالي في البرية وعلي مرقعة ويده ركوة وعكاز.

وقد كان قبل ذلك يحضر في مجلسه في بغداد مائة عمامة من أبناء الأمراء. وقال غيره كان يدرس لثلاث مائة ويحضر مجلسه العلماء الفضلاء والطلبة النجباء قال ابن العربي فقلت له يا إمام أليس تدرّس العلم ببغداد خير من هذا فنظر إليّ شذراً وقال: لما بزغ بدر العادة في سماء الإرادة وجنحت شمس الأصول إلى مغارب الوصول:

تركتُ هوى ليلى وسُعدى بمعزلٍ وصرت إلى مصحوب أول منزل
ونادتني الأشواق مهلاً فهذه منازل من تهوى رويدك فانزل
غزلت لهم غزلاً رقيقاً فلم أجد لغزلي نساجاً فكسرت مغزلي

* * *

«فصل»

كيفية الكشف عند القوم

وأما كشوفات القوم عن ضمائر القلوب والخواطر النفسانية فقد ذكر الإمام الياضي في كفاية المعتقد ونكاية المنتقد قال سئل بعضهم عن الفراسة قال: أرواح تتقلب في الملكوت فتشرف على معاني الغيوب فتنتطق على أسرار الخلق نطق ظن وحسبان .

الفرق بين الفراسة والظن :

قال العلامة شمس الدين بن القيم والفرق بين الفراسة والظن أن الظن يخطيء ويصيب ويكون مع ظلمة القلب ونوره وطهارته ونجاسته، ولهذا أمر الله باجتناح كثير منه وأخبر أن بعضه إثم . وأما الفراسة فأثني على أهلها ومدحهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الحجر، آية : 5]، قال ابن عباس وغيره للمتفرسين .

وقال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنْ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ [سورة البقرة، آية : 273]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتُمُوهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [سورة محمد، آية : 30].

فالفراسة الصادقة «للقلب» قد تطهر وتنزه من الأدناس وقرب من الله فهو ينظر بنور الله الذي جعله في قلبه . وفي الترمذي وغيره من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»⁽¹⁾ وهذه الفراسة نشأت له من قرب من الله فإن القلب إذا قرب من الله انقطعت عنه معارضات السوء المانعة من معرفة الحق وإدراكه وكان تلقيه من مشكاة قلبه من الله بحسب قربه منه وأضاء له من

(1) رواه الترمذي في السنن، باب ومن سورة الحجر، حديث رقم (3127) [5/ 298] ورواه الطبراني في الأوسط من اسمه بكر، حديث رقم (3254) [3/ 312] ورواه غيرهما .

النور بقدر قربه فرأى في ذلك النور اللائح من الغيوب ما لم يره البعيد المحجوب .
كما يثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما
يروى عن ربه عز وجل أنه قال : «ما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه ولا
يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به
وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها فبي يسمع وبني يبصر
وبي يبطش وبني يمشي»⁽¹⁾ .

فأخبر سبحانه وتعالى أن تقرب عبده منه يفيد محبته له ، فإذا أحبه قرب من سمعه
وبصره ويده ورجله ، فسمع به ، وأبصر به . . إلخ وبطش به ، فصار قلبه كالمرآة
الصفية تبدو فيها صورة الحقائق على ما هي عليه فلا يكاد تخطيء له فراسة فإن العبد
إذا أبصر بالله أبصر الأمر على ما هو عليه وإذا سمع بالله سمعه على ما هو عليه ، وليس
هذا من علم الغيب بل علام الغيوب كذف الحق في قلب قريب منه مستنير بنوره غير
مشغول بنفوس الأباطيل والخيالات والوساوس التي تمنعه من حصول صور الحقائق
فيه . وإذا غلب على القلب النور فاض على الأركان وبادر من القلب إلى العين .

فانكشف له الأمر بعين بصره بحسب ذلك النور . وقد كان رسول الله ﷺ يرى
أصحابه في الصلاة وهم خلفه كما يراهم من أمامه ، ورأى بيت المقدس عياناً وهو
بمكة ، ورأى قصر الشام وأبواب صنعاء ومدائن كسرى وهو بالمدينة يحفر الخندق ،
ورأى أمراء بمؤته وقد أصيبوا وهو بالمدينة ، ورأى النجاشي بالحبشة لما مات وهو
بالمدينة فخرج إلى المصلى وصلى عليه ، ورأى عمر سارية بنهاوند من أرض فارس
وهو وعساكره المسلمون وهم يقاتلون عدوهم فناداهم وهو بالمدينة يا سارية الجبل
الجبل ، قلت أما كون فراسة الصديق ليست من علم الغيب كما ادعاه فليس بجيد
والصواب أن فراسة الصديق من بعض غيوب الله التي أتحف بها أصفياه وأولياءه .
كما صرح به حجة الإسلام الغزالي رحمه الله في كتابه الإملاء على مشكل

(1) هذا الحديث هو عبارة عن حديثين الأول إلى قوله «ورجله التي يمشي بها وتتمته وإن سألتني
لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره
الموت وأنا أكره مساءته» . رواه البخاري في صحيحه ، باب التواضع ، حديث رقم (6137)
[2384 / 5] ورواه ابن حبان في الصحيح ، ذكر الإخبار ما يجب على المرء . . ، حديث رقم
(347) [58 / 2] وأما الحديث الثاني فأورده ابن كثير في التفسير آخر تفسير سورة الحجر [2 /
580] وأورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، في بيان عدد الأبدال وصفاتهم ، [1 / 265] .

الإحياء وكذا الشيخ تاج الدين بن عطا الله في لطائف المنن وسيأتي كلامهما في ذلك مبسوطاً إن شاء الله تعالى - وأما ما ادعاه ثانياً من رؤية النبي ﷺ النجاشي بالحبشة لما مات فعمل مذهب أئمة الحنابلة في ذلك كمذهب الحنفية لأنه كان رحمه الله حنبلياً. وقد ساق هذه المسألة معجزة في مقام الاستدلال على هذه الكرامة وقد تقدم الكلام على ذلك والله أعلم.

أمثلة من الفراسة الصادقة:

حكى أن الإمام الشافعي ومحمد بن الحسن رضي الله عنهما جلسا في المسجد الحرام فدخل رجل فقال محمد: أتفرس أنه نجار فقال الشافعي أتفرس أنه حداد فسألاه فقال: كنت حداداً وأنا اليوم أنجر.

ودخل أبو الحسن البوسنجي والحسن الحداد على أبي القاسم المناوي يعودانه فاشتريا في طريقهما بنصف درهم تفاحاً يشمه فلما دخلا عليه قال ممّ هذه الظلمة فخرجا وقال لعل هذا من قبل ثمن التفاح فأعطيا الثمن ثم عادا ووقع بصره عليهما فقال يمكن الإنسان أن يخرج من الظلمة بهذه السرعة أخبراني عن شأنكما فأخبراه بالقصة فقال نعم كان كل واحد منكما يعتمد على صاحبه في إعطاء الثمن والرجل مستح منكما في التقاضي.

وكان بين أبي زكريا النخشي^(*) وبين امرأة سبب قبول توبته فكان يوماً واقفاً على رأس أبي عثمان الحيري فتفكر في شأنها فدفع أبو عثمان إليه رأسه وقال ألا تستحي. وكان شاه المكرماني جيد الفراسة لا تخطيء فراسته وكان يقول من غض بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمّر باطنه بدوام المراقبة وظاهره باتباع السنّة، وتعود أكل الحلال لم تخطيء له فراسة. وكان شاب يصحب الجنيد يتكلم على الخواطر فذكر للجنيد فقال له: إيش هذا الذي ذكر لي عنك فقال له: اعتقد شيئاً فقال له الجنيد: اعتقد فقال الشاب: اعتقدت كذا وكذا فقال الجنيد: لا قال فاعتقد ثانياً قال: اعتقد قال الشاب: هو كذا وكذا قال الجنيد لا. قال: اعتقد ثالثاً: قال: اعتقدت قال الشاب: هو كذا وكذا قال لا. قال الشاب: هذا عجب أنت صدوق وأنا أعرف قلبي.

(*) وورد في كتاب الروح للزرعي [زكريا النخشي] بدل [أبي زكريا النخشي] فصل والفرق بين الفراسة والظن، [239/1].

فقال الجنيّد: صدقت في الأولى والثانية والثالثة لأنّي أردت أن أمتحنك هل يتغير قلبك . وقال أبو سعيد الخراز: دخلت المسجد الحرام فدخل فقير عليه خرقتان ليسأل شيئاً فقلت في نفسي: مثل هذا يسأل الناس فنظر إليّ وقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [سورة البقرة، آية: 235] فاستغفرت في سري فناداني فقال: ﴿هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [سورة التوبة، آية: 104] وقال إبراهيم الخواص: كنت في الجامع فأقبل شاب طيب الرائحة حسن الوجه، حسن الحرمة .

فقلت: لأصحابنا يقع لي أنه يهودي: فكلهم كره ذلك فخرج الشيخ وخرج الشاب ثم رجع إليهم فقال: إيش قال الشيخ فيّ فاحتشموه فألحّ عليهم، فقالوا قال: إنك يهودي فجاء فأكبّ على يدي الشيخ فأسلم فقلت ما السبب فقال نجد في كتابنا أن الصديق لا تخطيء له فإسأله فقلت امتحن المسلمين، فتأمنهم فقلت إن كان فيهم صديق ففي هذه الطائفة فلبست عليكم .

فلما اطلع هذا الشيخ عليّ وتفرسني علمت أنه صديق . وهذا عثمان بن عفان دخل عليه رجل من الصحابة وقد رأى امرأة في الطريق فتأمل في محاسنها فقال له عثمان: يدخل عليّ أحدكم وأثر الزنا ظاهر في عينيه . فقلت: أوحى بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: لا، ولكن تبصّر وبرهان وفراصة صادقة . فهذا شأن الفراسة .

حقيقة الفراسة:

وهي نور يقذفه الله فالقلب فيخطر له الشيء فيكون كما خطر له وينفذ إلى العين فيرى ما لا يراه غيره .

عودة إلى أمثلة الفراسة:

وقال الرازي في شرح الأسماء الحسنی ما نصه، حكى عن حذيفة المرعشي رحمه الله قال: كنت مع إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه في سفر فدخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد خراب .

فقال لي يا حذيفة أرى بوجهك أثر الجوع . فقلت: ما يرى الشيخ أن أفعل؟ فقال: اتني بدواة وقرطاس فأتيته بها، فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم أنت المقصود بكل حال والمشار إليه بكل معنى:

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر أنا جائع أنا ضائع أنا عاري

هي ستة وأنا الضمين لنصفها فكُن الضمين لنصفها يا باري
مدحي لغيرك لهب نار خضتها فأجر عبيدك من دخول النار
ثم دفع الرقعة إليّ وقال: اخرج وادفعها إلى أول من تلقاه فخرجت فرأيت شاباً
حسن الوجه نظيف الثياب راكباً على بغلة فناولته الرقعة، فقرأها وبكى ثم قال: أين
كاتبها؟

قلت: في المسجد الفلاني، فناولني صرة بها ستمائة دينار. وقال: احملها إليه
فسألت إنساناً، من هذا؟ فقال: رجل نصراني فتعجبت من ذلك وحملت الصرة إلى
إبراهيم رضي الله عنه فقال: ضعها فإن النصراني يجيء الساعة، فما لبثنا أن جاء
الرجل وقبّل الشيخ، وقال: نعم ما أرشدتني إليه، ثم أسلم على يديه وحسن إسلامه.
وقال بعضهم: صحبت إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه في طريق مكة وتشارطنا
ألا ننظر إلى أحد إلا الله فكنا يوماً في الطواف وفي الطائفين غلام قد فتن الناس
بحسن وجهه، فأطال إبراهيم النظر إليه باكياً.

فقلت له: أليس قد تشارطنا ألا ننظر إلى أحد إلا الله؟ فقال: نعم إنه ابني فقلت
فهلا تعرفه نفسك، فقال: شيء تركته لله لا أرجع فيه، اذهب أنت فسلم عليه ولا
تخبره بشأني، ولا تدله عليّ.

قال: فذهبت وسلمت عليه وقلت له من أنت؟ فقال: أنا ابن إبراهيم بن أدهم،
قيل لي إن أباك يحج كل سنة فجئت لعلي أراه فرجعت إلى إبراهيم فسمعتة ينشد
وهو يبكي:

هجرت الخلق طراً في هواك وأيتمت الوليد لكي أراك
فلو قطعني في الحب إرباً لما حن الفؤاد إلى سواك
قال بحر الحقائق حامل لواء العلم بالله محيي الدين بن عربي قدّس الله روحه
في كتاب التجليات للأرواح الإنسانية: إذا صفت وزكت النفس وارتفعت في معارج
العالم العلوي المفارق وغير المفارق فتتنظر مناظر الروحانيات المفارقة.

فترى مواقع نظرهم في أرواح الأفلاك ودورانها بها فتنزل مع حكم الأدوار
وترسل طرفها في رقائق التنزيلات حتى ترى ما سقط بخوفها في قلوب العباد فتعرف
ما تحويه صدورهم، وما تنطوي عليه ضمائرهم، وما تدل عليه حركاتهم فطرق علم
الغيب كثيرة والله أعلم.

وقال الإمام الياضي في نشر المحاسن: وقد أخبرني بعض الأولياء الكبار من أهل اليمن أنه أول ما فتح عليه كشف له عن عالم الملكوت فشهد من جملة من أشهد قناديل معلقة بالعرش.

ثم اعلم أن تلك القناديل أرواح الأولياء وقال بعضهم: والله إني لأعرف الجنة قصرًا قصرًا، وأعرف النار حانوتًا حانوتًا، وأعرف أصحابها في الدنيا واحدًا واحدًا. وقال بعضهم لا يكون الشيخ شيخًا حتى يمحو خطيئة تلميذه في اللوح المحفوظ. وقال آخر منهم - منكرًا لهذا القول المذكور - لو كان شيخًا ما غفل حتى وقع تلميذه في الخطيئة. ولهذا قال العارف بالله القرشي: العالم من نطق عن شرك واطلع على عواقب أمرك، وقال أيضًا: الولي يرى الأشياء من وراء حجاب الشرع، وما أحسن قول ابن الفارض رضي الله عنه في ذلك:

ولولا حجاب الكون قلت وإنما قيامي بأحكام المظاهر مُسكّتي

وقال السيد الشريف القطب أبو الحسن الشاذلي: أطلعني الله على اللوح المحفوظ ولولا التأدب مع جدي رسول الله ﷺ لقلت هذا سعيد وهذا شقي. وقال أيضًا: إن الله مكنتني من ناصية كل ولي لله إلى يوم القيامة. واخترت أتباعي من اللوح المحفوظ.

وسياتي الكلام على ذلك في ترجمته مع ثناء الأئمة الأعلام على طريقته إن شاء الله. قال الياضي أيضًا: الصواب أنه لا يستعجل بتكفير من قال المؤمن يعلم الغيب حتى يسأل ماذا أراد الله بالمؤمن وبالعلم بالغييب فإن أراد بالمؤمن الخاص وهو الولي دون المؤمن العام، وبالعلم أنه يعلم بإعلام الله تعالى له لا يعلمه بنفسه استقلالاً وبالغييب بعض الغيوب لا جميعها فإنه يكفر بذلك، لأنه جائز في كرامات الأولياء، بل واقع وقد دل على جوازه العقل وشهد بوقوعه النقل.

أما العقل فلأن ذلك ليس بمستحيل في قدرة الله تعالى بل هو من قبيل الممكنات ولا قادح في معجزات الأنبياء لما قدمناه من الفرق بين الكرامات والمعجزات وأما النقل فهو خارج عن الحصر إذ لا يمكن تعداد ما نقل عن الأولياء في الكشف في كل عصر ومصر أعني ما كشفه الله تعالى لهم بعد أن كان عنهم مستورًا وأشهدهم إياه بعد أن كان غائبًا عن مشاهدتهم فأصبح طي علمه لهم منشورًا.

فبعضهم أعلم وقوعه بخطاب وبعضهم كشف له ما حال دونه من حجاب، وبعضهم أشهده في اللوح المحفوظ سطوراً فأضحى علمه المجهول معروفاً فيما بينهم مشهوراً وفي بعض القصائد قلت في فضلهم الذي ما زال عند الأخير مشكوراً:

رجال لهم علم بما جهل الورى لهم صار مكشوفاً سريعاً حجابيه
فأسرار غيب عندهم علم كشفها من الله فيها فضله وثوابه
وقرب وأنس واجتلاء معارف ووارد تكليم لذيد خطابه
بترك الهوى أمسوا يطرون في الهوا ويمشون فوق الماء طوعاً جنابه
ملوك على التحقيق ليس لغيرهم من الملك إلا إثمه وعقابه

قلت: ولو أمكن جمع ما وقع لهم من المكاشفات في جميع الأشياء في كل زمان ومكان لاحتيج في ذلك إلى كتب يطول عددها أو يتعذر حصرها. ويكفي في ذلك ما أخبر الله تعالى به عن الخضر رضي الله عنه مع موسى عليه السلام مع كون الخضر لا نبياً عند جمهور العلماء وعند جميع العارفين بالله تعالى.

ثم قال اليافعي: فمما رويناه بالإسناد عن الشيخ أبي يعقوب السوسي قال جاءني مرید بمكة فقال يا أستاذ أنا غداً أموت وقت الظهر فخذ هذا الدينار فاحفر لي بنصفه وكفني بنصفه الآخر ثم لما كان الغد جاء وقت الظهر وطاف.

ثم تباعد ومات، فغسلته، ووضعته في اللحد ففتح عينيه فقلت أحياة بعد موت: فقال: أنا حي، وكلُّ محب لله حي. قلت: وفي هذا كرامتان لهذا المرید المذكور: اطلاعه على وقت موته، وكلامه بعد الموت وقال خير النساج رحمه الله تعالى: كنت جالساً في بيتي فوق لي أن الجنيد بالباب فنفيت عن قلبي، فوقع ثانياً، وثالثاً، فخرجت فإذا أنا بالجنيد فقال: لم لم تخرج مع الخاطر الأول؟

ومما رويناه عن الشيخ أبي عبد الله القرشي رضي الله عنه قال: هجم أهل الشرك ببلاد الأندلس على قرية من قراها فدخلوا وسبوا أهلها وأخذوا في طريقهم أسارى عديدة.

فانزعج أهل الأندلس لذلك وبلغ الخبر أن الأسارى يرمى لهم الحشيش مع الخيل وهم مكتفون فيأكلون بأفواههم كما يرعى البهائم، قال: فبت في بعض تلك الليالي عند الشيخ أبي إسحاق بن طريف رضي الله عنه فوضع الطعام بيننا ثم تنفس

بعد أن قال بسم الله قال يا محمد أما بلغنك ما طرأ على المسلمين فقلت: نعم فجعل يقص الخبر ويبكي حتى علا بكأؤه.

ثم قال والله لا أكلت طعاماً ولا شربت شراباً حتى يفرج الله عن المسلمين ثم اعتزل عن الطعام ثم جلس ساعة فسمعته يقول: الحمد لله الحمد لله ثم دنا من الطعام وقال: كل فجاء إلي وأكلت معه وعجبت منه كيف يتركه ثم عاد إليه بعد قسمه في ساعة، ثم إن الخبر وصل إلينا بعد ذلك أن الوقت الذي تكلم فيه الشيخ صادف أن النصارى سمعوا زعقة عظيمة اعتقدوا أن عسكر المسلمين دهمهم فركبوا خيولهم ونجوا بأنفسهم وتركوا الغنيمة والأسارى فخلص الله المسلمين، انتهى وفي هذا كرامتان:

إحداهما: إبرار قسمه وناهيك بها كرامة تخلص بها أسارى المسلمين من الشدة العظيمة في أيدي المشركين.

والثانية: إطلاع الشيخ المذكور على ذلك مع وقوع الكرامتين في الحال معاً وروينا عنه أيضاً قال: سألتني الشيخ أبو الربيع عن بعض ما كنت أرى فأخفيت عنه شيئاً فقال: أعليّ تستر؟

والله لقد رأيتك في ظهر أبيك قبل ظهورك وروي مسنداً في ثلاث طرق عن جماعة من الشيوخ في كتاب مناقب الشيخ عبد القادر الكيلاني رضي الله عنه: أنه أرسل إليه بعض الشيوخ جماعة من أصحابه.

وقال لهم اذهبوا إلى بغداد وقولوا للشيخ عبد القادر يسلم عليك عبد الرحمن ويقول لك: إن له أربعين سنة في درجات باب القدرة فما رآك ثم لا داخلاً ولا خارجاً. فقال الشيخ عبد القادر في ذلك الوقت لجماعة من أصحابه اذهبوا إلى الشيخ عبد الرحمن وستجدون في طريقكم جماعة من أصحابه بعثهم إلي بكذا وكذا.

فإذا التقيتموهم فردوهم معكم فإذا أتيتموه فقولوا له يسلم عليك عبد القادر ويقول لك أنت في الدرجات ومن هو في الدرجات لا يرى من هو في الحضرة ومن هو في الحضرة لا يرى من هو في المخدع، وأنا في المخدع أدخل وأخرج من باب السر من حيث لا تراني بأمانة أن خرجت لك الخلعة الفلانية في الوقت الفلاني على يدي، خرجت لك وهي خلعة الرضا وبأمانة أن خلع عليك في الدرجات بمحضر

اثنى عشر ألف ولي لله خلعة الولاية وهي خضر أطرازها سورة الإخلاص على يدي خرجت لك .

فانتهوا إلى نصف الطريق فوجدوا أصحاب الشيخ عبد الرحمن فردوهم وأتوا إليه وبلغوه رسالة الشيخ عبد القادر، فقال: صدق الشيخ عبد القادر سلطان الوقت وصاحب التصريف فيه .

وكذلك قد اشتهر عن الشيخ أبي الغيث اليميني - رحمه الله - أنه قال له الفقراء ذات يوم: نشتهي اللحم فقال: اصبروا إلى اليوم الغلاني وكان يوم سوق يأتيه القوافل فلما جاء ذلك اليوم جاء الخبر أن قطاع الطريق أخذوا القافلة ثم جاء بعض القطاع الحرامية بحب .

وجاء آخر منهم بثور فقال الشيخ للفقراء تصرفوا فيه وخلوا رأس الثور على حاله، الفقهاء ما يأكلون الحرام . فلما فرغوا من الأكل جاء إنسان إلى الشيخ وقال يا سيدي نذرت للفقراء كذا وكذا من الحب فأخذه الحرامية وجاء آخر إليه أيضاً وقال نذرت للفقراء ثوراً فنهب فقال لهما الشيخ قد وصل إلى الفقراء متاعهم وقال لصاحب الثور تعرف ثورك إذا رأيت رأسه قال: نعم . فأمر الفقراء بإحضار الرأس فلما أن جاء به الفقراء قال الرجل: هذا رأس ثوري بعينه فبقي الفقهاء يضربون يداً على يد ندماً على ترك موافقة الفقراء هذا آخر كلام الياضي رحمه الله .

وأخبرني بعض الثقات من الفضلاء قال: سمعت شيخنا شيخ الإسلام شرف الدين يحيى المناوي رحمه الله، هذه قال امتحن بعض الصالحين بأن دعي إلى سماط حرام فلما شاهده قال لمريديه لا تأكلوا من هذا شيئاً فليس لكم قدرة على دفعه .

ثم تقدم الشيخ وحده فأكل السماط جميعه وذهب بعد ذلك مع جماعة فمروا على شجرة عظيمة خضراء فاستقبلها الشيخ ونفخ فيها، فخرج من فمه شرر ونار عظيمة فأحرق جميع ورقها ثم التفت إلى جماعته وقال إنكم كنتم لا تستطيعون حمل هذه النار . وقلت وفي هذه الواقعة كرامات:

إحداها: أنه كشف له عن كون الطعام حراماً .

ثانيها: أنه أكل السماط بانفراده والحال أنه يكفي جماعة كثيرين .

ثالثها: أن الطعام قد استحال في جوفه ناراً ولم يضره .

رابعها: أنه تمكن من إخراجها في جوفه .

خامسها: أنه لما استقبل الشجرة بالنفخ كساها ناراً مع عظمها وارتفاعها .

انتهى .

أنواع الغيب باعتبار إطلاقه وقيدته:

تنبيه:

اعلم أن الغيب المشترك بين الأنبياء والأولياء غيبان غيب مقيد وغيب مطلق فأما المقيد فهو الكشف عن الشيء الموجود الآن الذي كان موجوداً في الزمن الماضي كل من منحه الله تعالى بهذا الغيب لم يكشف له إلا في هذين الزمانين فقط، لأن كشفه مقيد بهما . وأما الغيب المطلق فهو الترقي عن القيد إلى شهود ما سيوجد في الزمن المستقبل وصاحب هذا المقام ليس كشفه قاصراً على الزمن والمستقبل بل يقع له الكشف عن غيوب الأزمنة الثلاثة .

لأن من لازم وجود الأعم وجود الأخص ولا عكس وهذان الغيبان قد جمع بينهما أكابر الأولياء فممن جمع بين الحقيقة الشرعية كإمامنا الشافعي رضي الله عنه فإنه لما كان في بداية طريق القوم وهو الكشف المقيد اجتمع مع محمد بن الحسن بالمسجد الحرام كما تقدم ذلك .

فكشف له عن صنعة الرجل في الزمن الماضي ولم يقتصر على موافقة كشف ابن الحسن عن صنعته الآن إلا أن ذلك يشعر بأن الكشف عن المعدوم الذي كان أعلى وأقرب إلى محض الغيب من كشف الموجود الآن ولما ترقى رحمه الله إلى مقام الغيب المطلق الذي هو من بعض مقامات النهاية كشف له عن أمور مغيبة ستوجد في الزمن المستقبل .

فمنها قوله للبيهقي: يا أبا يعقوب تموت في قيودك وكان الأمر كذلك بعد موت الإمام بمدة وبسبب المحنة بالقول بخلق القرآن وذلك على أيام الواثق بالله حين أمر بحمله لبغداد مع جماعة من العلماء فحمل إليها على بغل مغلولاً مقيداً مسلسلاً في أربعين رطل من حديد وأريد منه القول بذلك .

فامتنع فحبس ببغداد على تلك الحالة إلى أن مات سنة إحدى وثلاثين في رجب وبه جزم النووي في شرح المهذب وكان ذلك في يوم الجمعة قبل الصلاة وكان في كل جمعة يغسل ثيابه ويتنظف ويغتسل ويتطيب ثم يمشي إذا سمع النداء إلى باب السجن

فيقول له السجنان إلى أين فيقول أجيب داعي الله فيقول السجنان ارجع رحمك الله .
 فيقول البويطي اللهم إني أجبت داعيك فمنعوني ومنها أنه قال للمزني : سيكون
 لك بعدي سوق فعظم شأنه بعده عند الملوك فمن دونها . ومنها أن هذه قال لابن
 عبد الحكم تنتقل إلى مذهب أبيك وكان بها أمر كذلك . ومنها أنه قال للربيع : أنت
 راوية كتبي فعاش بعده نحو سبعين سنة حتى صارت الرواحل تشد إليه من أقطار
 الأرض لسماع كتب الشافعي رضي الله عنه .

وانظر إلى السيد عبد القادر الكيلاني لما اجتمع ببعض الأولياء في أيام البداية
 قال له يا عبد القادر كأنني بك وقد جلست على كرسي ببغداد وأنت تقول قدمي هذه
 على رقبة كل وليّ الله وكان الأمر كذلك . قال الشيخ تاج الدين السبكي من أولياء الله
 الكبار قال دخل علي الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه فتوضأ عندي ثم أخذ
 قوساً لي فجرها ثلاث مرات فقلت يا سيدي من هو الخليفة بعدك .

فقال من يأتيك إلى هاهنا ويتوضأ نحو وضوئي هذا ويجر هذا القوس ثلاث
 مرات فهو الخليفة من بعدي قال فدخل علي أصحاب الشيخ أجمعهم وأنا أترصد
 هل يفعل ذلك أحد فلم يتفق ذلك حتى دخل علي الشيخ أبو العباس المرسي ورفع
 بصره فرأى القوس معلقاً .

فقال ناولني تلك القوس فناولته إياها فجرها ثلاث مرات ثم قال : يا خليل
 جاءك وعد الشيخ وقال العارف بالله الشيخ زكي الدين الأواني :

قال لي الشيخ أبو الحسن الشاذلي : يا زكي عليك بأبي العباس المرسي : فوالله
 إنه ليأتيه البدوي يبول على ساقه فلا يمسي عليه المساء إلا وقد وصله إلى الله يا
 زكي : أبو العباس هو الرجل الكامل . وقال أبو العباس نفسه كنت إذا أوذيت من
 بعض أصحاب شيخنا أبي الحسن الشاذلي يقول : يا أبا العباس اصبر فوالله ما هي إلا
 لك أي ما الورثة إلا لك .

وقال ابن عطاء الله وخرجت يوماً عند الفقيه مكين الدين الأسمر رحمه الله
 تعالى وخرج معي أبو الحسن الحريري وكان في أصحاب الأستاذ أبي الحسن
 الشاذلي رضي الله عنه فسلمت عليه فسلم عليّ ببشاشة وإقبال وقال له : من أين
 تعرفني؟

قال : وكيف لا أعرفك كنت يوماً جالساً عند الشيخ أبي العباس المرسي وكنت

أنت عنده فلما نزلت قلت يا سيدي إنه ليعجبني هذا الشاب انقطع فلان وفلان عن الملازمة وهذا الشاب ملازم.

قال: فقال الشيخ يا أبا الحسن: لن يموت هذا الشاب حتى يكون داعياً يدعو الخلق إلى الله.

قال ابن عطاء فكان ما قاله الشيخ والحمد لله على ما أنعم به علينا. وقال أيضاً وكنت قد قلت لبعض أصحاب شيخنا أبي العباس أريد لو نظر إليّ الشيخ بعنايته وجعلني في خاطره فلما دخلت على الشيخ قال رضي الله عنه لا تطالبوا الشيخ بأن تكونوا في خاطره ولكن طالبوا أنفسكم بأن يكون الشيخ في خاطركم فعلى مقدار ما يكون عندكم تكونون عنده ثم قال أي شيء تريد أن تكون والله ليكون لك شأن عظيم والله ليكون كذا والله ليكون كذا فكان من فضل الله سبحانه ما لا نكره.

وقال له الشيخ أبو العباس أيضاً في أول اجتماعه به: الزم فوالله لئن لزمنا لتكون مفتياً في الشريعة والحقيقة وقال عنه أيضاً في غيبته: والله لأجعلنه عيناً من عيون الله يقتدى به في علم الظاهر والباطن. وكان الأمر كذلك.

وقال أيضاً سافرت إلى قوص ومعني خمسة أنفس الحاج سليمان وأحمد بن الزيني وأبو الربيع وأبو الحسن المرسي وفلان فقال لي إنسان ما الذي تقصد بسفرك يا سيدي؟ فقلت له: أدفن هؤلاء بقوص وأجيب فدفنت الخمسة بها أما الحاج سليمان فما مات حتى شرب من نهر الكوثر.

وبالجملة فهذا الشيخ أبو العباس المرسي هو ممن أطلعه الله على حقائق الغيوب المطلقة والمقيدة فصار يغترف من فيض البحر الإلهي والمداد الرباني.

بل أخبر عنه شيخه الأستاذ أبو الحسن الشاذلي أنه من حين وصل إلى الله تعالى لم يحجب، ولو طلب الحجاب لم يجده وقال ابن عطاء الله أيضاً وأخبرني بعض أهل البهنسا قال قدم علينا الشيخ أبو العباس فقال: لي الآن خمسة وعشرون سنة ما حجبت فيها عن الله طرفة عين قال ثم غاب عنا خمسة عشرة سنة، ثم قدم علينا فقال: لي الآن أربعون سنة ما حجبت فيها عن الله طرفة عين، وكان رضي الله عنه من مذهبه أنه لا يلزم أن يكون القطب شريفاً حسينياً بل يكون من غير هذا القبيل وتكلم يوماً في القطب وأوصافه ثم قال وما القطبانية ببعيدة من بعض الأولياء وأشار إلى نفسه.

وقال بعض أصحابه رأيت وأنا بالمغرب دائرة من الرجال ورجل في وسطها وكل

من في تلك الدائرة متوجه إليه فقلت في نفسي هذا هو القطب وعرفت ذلك الرجل بصفته وبقيت كلما ذكر لي عن رجل آتي إليه وأقول عسى أن يكون ذلك الرجل حتى قيل لي عن الشيخ أبي العباس المرسي فأتيت إليه فإذا هو ذلك الرجل الذي رأيته في وسط الدائرة فأخبرته فقال: نعم أنا القطب، أما الذين يقابلون بطني لهم المدد من باطن حقيقتي. وأما الذين يقابلون جنبي لهم المدد من العلوم التي بين جنبي. وله أيضاً كرامات كثيرة وإسراءات ومعارج ليس هذا محل ذكرها وسأبسط الكلام على ترجمته في كتابنا «طبقات الشاذلية» إن شاء الله تعالى.

تحقيق القول في القطب الغوث ومدة مكثه:

تذنيب:

قال الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور في كتابه «العطايا الوهية في المراتب القطبية» موضوعه الرد على من زعم أن القطب الغوث لا يمكث في المرتبة القطبية إلا عشرة أيام ما نصه: ولم يسمع أحد من القوم تضييق مدة القطبية ولا حصرها في زمن معين ولا في نسبة معينة كما ذهب إليه بعض الأكابر، إلا أنها لا تكون إلا في أهل البيت.

وكان صاحب هذا القول شريفاً من أهل البيت. وهذا القول ما عليه اتفاق والواقع عند من أدركته خلاف ذلك نسأل الله ببركاتهم أن ينفعنا بهم ويحشرنا في زميرتهم.

مراتب الأولياء:

واعلم أن الأولياء المعدودين لهم مراتب معلومة بحسب مقاماتهم لأن منهم نقباء ونجباء وأبدالاً وعمدأ وغوثنأ، فالنقباء ثلاثمائة، والنجباء سبعون، والأبدال أربعون والأخيار سبعة، والعمدأ أربعة، والغوث واحد، فمسكن النقباء المغرب والنجباء مصر والأبدال الشام، والأخيار سياحون في الأرض والعمدأ في زوايا الأرض والغوث بمكة فإذا عرضت الحاجة من أمر العامة ابتهل فيها النقباء ثم النجباء ثم الأبدال ثم الأخيار ثم العمدأ فإن أجيئوا وإلا ابتهل الغوث فلا يتم مسألته حتى تجاب دعوته كذا صرح بها ابن الملقن في «طبقات الأولياء» تبعاً لجماهير العلماء وكذا البونوي في «شرح الأسماء الحسنی» وغير واحد من الأئمة الأعلام، كالتاج السبكي، والجمال الأسنوي فإن السبكي أخبر عن قضيب البان أنه كان بدلاً،

والأسنوي أخبر عن الشافعي أنه تقطب قبل موته .

وقال أبو عبد الله الأنطاكي في رسالته حدثنا أبو الحسن علي بن عبد الحميد بحلب بإسناد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن هذه قال : إن البدلاء بالشام والنجباء بمصر والعصائب بالعراق والنقباء بخراسان والأوتاد بسائر الأرض والخضر سيد القوم .

وحدثنا أبو يعقوب السجستاني بإسناده عن سفيان بن عيينة قال إن في هذه الأمة خلفاً لسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين يسلكون طرقهم إلى يوم القيامة ثم تلا : ﴿ فَيُهْدِيهِمْ لِقَابِهِمْ ﴾ [سورة الأنعام، آية : 90] وبه سمعت الفضيل بن عياض يقول ما من نبي إلا وله نظير في أمته ثم قال الأنطاكي : وحدثنا محمد بن سعيد الأعرابي قال حدثنا الحسن بن محمد الزعفراني عن يزيد بن هارون الواسطي عن سعيد بن جبير عن الحسن البصري قال : لولا البدلاء لخسفت الأرض ومن عليها ولولا الصالحون لفسدت الأرض ومن عليها، ولولا العلماء لصار الناس كالبهائم ولولا السلطان لأكل الناس بعضهم بعضاً، ولولا الرياح لأنتت الدنيا ولولا الحمقاء لخربت الدنيا .

وقال بعض المتقدمين من أهل الحديث والفقهاء والتصوف في ترجمة أبي يزيد البسطامي كانت الإشارة إليه في التصوف في الشرق والغرب قيل : إنه كان من أوتاد الأرض ومن السبعة، وقال أيضاً في ترجمة أبي العباس أحمد بن محمد بن مسروق : كان من كبار مشايخ التصوف كتب الحديث الكثير وكان من أهل العلم بمحل عظيم وكان له أحوال وكرامات وصح عند القوم أنه كان من الأبدال .

قلت : وكذا صرح حجة الإسلام الغزالي في أول المهلكات بذكر الأبدال ولم تزل علماء الشريعة والحقيقة قديماً وحديثاً يترجمون بالقبطية والبدلية الأولياء المعدودين أرباب الوظائف والمقامات في كتبهم ولا التفات إلى قول من زعم أن ذلك ليس له أصل في السنة لأن من خصائص النبي ﷺ في أمته أن منهم أقطاباً وأوتاداً نجباء وأبدالاً دون غيرهم من الأمم السابقة لقوله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون »⁽¹⁾ أخرجه الشيخان في

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب قول النبي ﷺ لا تزال طائفة من أمتي . . . حديث رقم (6881) [2667/6] ورواه مسلم في صحيحه، باب قوله ﷺ لا تزال طائفة من أمتي . . . حديث رقم (1920) [1523/3] ورواه غيرهما .

صحيحيهما عن المغيرة بن شعبة .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : «لكل قرن من أمتي سابقون»⁽¹⁾ وأخرج أبو نعيم أيضاً عن ابن مسعود قال رسول الله ﷺ «إن لله في الخلق ثلاثمائة قلوبهم على قلب آدم، والله في الخلق أربعون قلوبهم على قلب موسى، والله في الخلق سبعة قلوبهم على قلب إبراهيم، والله في الخلق خمسة قلوبهم على قلب إسرئيل، بهم يحيى ويميت ويمطر وينبت ويرفع البلاء»⁽²⁾ .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «لن تخلو الأرض من أربعين رجلاً مثل خليل الرحمن فبهم تسقون وبهم تنصرون ما مات منهم أحد إلا أبدل الله مكانه آخر»⁽³⁾ وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن عبادة بن الصامت أن النبي ﷺ قال :

«الأبدال في هذه الأمة ثلاثون مثل إبراهيم خليل الرحمن كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً»⁽⁴⁾ .

قال أبو الزناد : لما ذهبت النبوة وكانوا أوتاد الأرض أخلف الله مكانهم أربعين رجلاً من أمة محمد ﷺ يقال لهم الأبدال لا يموت الرجل منهم حتى ينشئ الله مكانه آخره يخلفه وهم أوتاد الأرض انتهى .

قال الإمام البيهقي في روض الرياحين : والواحد المذكور في هذا الحديث يعني الحديث الثاني هو القطب الغوث ومكانه من الأولياء كالنقطة من الدائرة هي مركزها به يقع صلاح العالم . فإن قلت : لم يذكر النبي ﷺ لقلبه أشباهاً وهو أفضل القلوب؟ قلت إنما لم يذكر النبي ﷺ قلبه في جملة الأنبياء والملائكة والأولياء إذ لم يخلق الله في عالمي الخلق والأمر أعزم وألطف وأشرف من قلبه ﷺ .

فقلوب الملائكة والأنبياء والأولياء بالإضافة إلى قلبه كإضافة سائر الكواكب إلى

(1) حلية الأولياء، أبو بكر الصديق [298/2] .

(2) حلية الأولياء، أبو بكر الصديق [9/1] وعزاه المتقي الهندي في كنز العمال إلى ابن عساكر عن ابن مسعود، حديث رقم (34629) [88/12] .

(3) ورواه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق، [298/1] باب ما جاء أن بالشام يكون الأبدال . . . [298/1] .

(4) مسند الإمام أحمد، حديث رقم (22803) [5/322] ورواه الشاشي في المسند برقم (1314) [215/3] .

كمال الشمس لأن أنوارهم مقتبسة من نوره ﷺ كذا قاله بعض المحققين .
وقال أبو الحسن الديلمي في أسرار المعارف اعلم أن هذه القلوب المذكورة
جلت بمعاني مشتركة من الحق تعالى فجاز الاشتراك فيها بخلاف قلب النبي ﷺ
فإنه خص بمعنى لا يتقسم ولا يشاركه فيه في دار الدنيا وهو الرؤية .
وقال الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور في العطايا الوهية في المراتب القطبية
والنبي ﷺ قد قرن خصوصيات الولايات بخصوصيات النبوءات فقال ﷺ «من أمتي
من قلبه على قلب موسى ومن قلبه على قلب عيسى ومن قلبه على قلب إبراهيم» .
وتعيينه لهؤلاء الرسل بهذا المعنى شامل لكل لرفعة هؤلاء على سائر الأنبياء
واستغنى ﷺ لإحاطته المحيطة ودائرته المشتملة على سائر دوائر الأنبياء أن يقول
ومن قلبه على قلبي . والله أعلم .

تنبيه :

حكاية في مراتب الأولياء :

حكى الياضي في روض الرياحين والبوني في شرح الأسماء الحسنی عن بعض
الصالحين أنه قال : كنت جالساً في بيت المقدس عند بئر سليمان رضي الله عنه يوم
الجمعة بعد العصر فإذا أنا برجلين يشبه أحدهما خلقتنا والآخر طويل عظيم الخلق
كان عرض جبهته أكثر من ذراع وكان فيها ضربة قد خبطت فجلس الذي يشبهنا
عندي وسلم عليّ وجلس الآخر بعيداً عنا فقلت له : من أنت يرحمك الله؟! قال : أنا
الخضر . قلت : ومن ذاك الرجل؟ قال : أخي إلياس فداخني ما يداخل مثلي من
الهيبة والرعب .

فقال لي : لا بأس عليك ؛ نحن نحبك ثم قال من صلى العصر يوم الجمعة ثم
استقبل القبلة فقال يا الله يا رحمن إلى أن تغيب الشمس ثم يسأل الله عز وجل شيئاً
أعطاه .

قلت له : أنستني أنسك الله بقربه هل تعرف كل ولي لله في الأرض؟ قال :
المعدودين قلت : وما معنى المعدودين؟ قال : اعلم أن النبي ﷺ لما قبض شكت
الأرض إلى ربها سبحانه وتعالى فقالت : يا رب بقيت لا يمشي على ظهري نبيّ إلى
يوم القيامة فأوحى الله سبحانه وتعالى إليها : إني سأجعل في هذه الأمة رجلاً مثل
الأنبياء قلوبهم على قلوب الأنبياء عليهم السلام .

قال: فقلت له: كم هم؟ قال: ثلاثمائة وهم الأولياء، وسبعون وهم النجباء، وأربعون وهم أوتاد الأرض، وعشرة وهم النقباء، وسبعة وهم العرفاء، وثلاثة وهم المختارون، وواحد وهو الغوث، فإذا مات الغوث اختير من الثلاثة واحد فجعل في مرتبته واختير من السبعة واحد فجعل في الثلاثة واختير من العشرة واحدة فضم إلى السبعة ومن الأربعين إلى العشرة ومن السبعين إلى الأربعين ومن الثلاثمائة إلى السبعين واختير من الدنيا واحد إلى الثلاثمائة إلى يوم ينفخ في الصور، منهم من قلبه مثل نوح وإبراهيم عليهما السلام فقلت له: مثل قلب إبراهيم تعظيماً له؟ قال: نعم ومثل قلب جبريل وداود وسليمان عليهما السلام، أما سمعت قول الله: ﴿فِيهِدْنَهُمْ أَقْتَدَهُ﴾ فما مات نبي إلا وعلى طريقته رجل يسلكها إلى يوم القيامة، فلو أن الأربعين اطلعوا على قلوب العشرة لرأوا قتلهم ودماءهم حلالاً وكذلك السبعون لو اطلعوا على قلوب الأربعين لرأوا دماءهم حلالاً، أما ترى ما كان في قصة موسى؟

ثم قال الراوي: فقلت له: عرفني أسماء هؤلاء الذين سميتهم فأخرج دركاً من كفه فيه أسماء القوم كلهم قد كتبهم، ثم قام فقامت معه، قال لي: إلى أين؟ فقلت: أمشي معك قال: لا سبيل لك إلى ذلك. فقلت: إلى أين تقصد. فقال: وما تريد من ذلك؟ قلت أصلي فيه أتبرك به. قال: إني أصلي الغداة بمكة ثم أجلس في الحجر عند الركن الشامي إلى أن تطلع الشمس، ثم أطوف بالبيت سبعاً، ثم أصلي خلف المقام ركعتين، ثم أصلي الظهر بالمدينة والعصر ببيت المقدس والمغرب بطور سيناء والعشاء على سد ذي القرنين، ثم لا أزال أحرس إلى الغداة.

وقال الشيخ الإمام العارف بالله شهاب الدين أحمد الحضرمي الشاذلي تلميذ الأستاذ وحامل لواء السادة الشاذلية بأرض اليمن إلى الحسن علي القرشي: اعلم أن ذات الأولياء واحدة وإن تفارقوا وحرمتهم ثابتة وإن تفاضلوا، فالأولياء لا ينحصرون ورجال العدد منهم لا ينقصون إذ لو نقص واحد منهم لما أمطرت السماء ولا أنبتت الأرض، تشریفاً من الله وتكريماً، وهذه حكمة الله ورحمته.

واختلف المحققون في عددهم فمنهم من عد العشرة وهم خواص الأقطاب، ومنهم من عد الأربعين والأربعون هم خزائن الأسرار ومنهم من عد الثلاثمائة وستين. والثلاثمائة وستون هم مظاهر الأنوار وكلهم على بصيرة من الله وبينه، أعني العابدين.

ومفهوم كلام الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه أن أنوار الأولياء دائمة الوجود ثابتة البقاء مشرقة الضياء ما دامت الدنيا لدوام أنوار الأنبياء عليهم السلام. إذ هم عمارها على التحقيق، فإن لكل رسول وارثاً ولكل نبي وارث فإن الأمم السابقة قد عجزت عن حمل أسرار أنبيائهم فادخرها الله سبحانه وتعالى لأمة محمد ﷺ إذ هو معدن المدد الحقيقي، وعنصر البيان التشريعي.

فمداد الأنبياء أولاً كان في مشكاة نبوته ورسالته، وحكموا بما ظهر لهم في هدايته بقوله ﷺ: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين»⁽¹⁾ فإنه ﷺ قال: كنت نبياً، والنبي هو المبلغ أمره ونهيه ومراده في عباده قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [سورة آل عمران، آية: 81].

فما بعث الله نبياً إلا وأخذ عليه الميثاق أن يؤمن لمحمد ﷺ وينصره إن أدركه ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لو كان موسى حياً ما وسعه إلا أن يتبعني»⁽²⁾. وقد ورد أن عيسى عليه السلام يظهر خاتماً للولاية المحمدية حاكماً بشريعة محمد ﷺ ومقرراً لها.

قال النبي ﷺ: «كيف بكم إذا ظهر فيكم ابن مريم وإمامكم منكم»⁽³⁾ فرجال العدد وهم الذين لا ينقصون على تقدير ما قدره الأستاذ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً والله أعلم بخلقه وأستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه عبودية من لم يقم بحقه وغيرهم من الأولياء فلا ينحصرون: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة المدثر، آية: 31].

علة ستر الله لأوليائه عن تقدم الزمان:

وإنما سموا رجال العدد، لأنهم إذا مات منهم واحد أبدل الله عوضه مثله أو

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2017) [2/173].

(2) رواه ابن أبي شيبة في المصنف، حديث رقم (26421) [5/312].

(3) رواه عبد الرزاق في المصنف، باب نزول عيسى بن مريم عليه السلام، حديث رقم (20841) [11/400] ورواه ابن منده في الإيمان، حديث رقم (415) [1/516] ورواه

غيرهما.

خيراً منه فلا يخطر ببالك عدم الأولياء في زماننا لكثرة ما ترى من الجهل والظلم فتحير تحيراً واسعاً وإنما أخفاهم الله وسترهم، غيرة عليهم، ورحمة لخلقه، لغفلتهم عن مواهب الله سبحانه وتعالى فقد كثّر أنوارهم وأجل مقدارهم وأقامهم على مراده لا يدبرون ولا يختارون ولا يقدمون ولا يؤخرون ولا يقفون مع شيء دون الله تعالى، إذ لا يوجد لغيره فعل، فهم عبيد المؤقت لا عبيد الأوقات.

لا يعرفون السوى، ولا يحل بهم بُعد ولا نوى، قد عافاهم الله من هم الرزق وخوف الخلق، فعليك بالإيمان بأولياء الله ومحبتهم فقد قال سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد: التصديق بعلمنا هذا ولاية، ومن لم يعتقد رجلاً معيناً لم ينتفع أبداً فإنها إمامة ولا تصح الصلاة إلا بموافقة الإمام، ومن أنكر عليهم حرم بركتهم وذلك أقل عقوبة ويخشى عليه سوء الخاتمة.

فنسأل الله العافية والسلامة بفضله وكرمه.

وقال العارف بالله الشيخ أبو المواهب التونسي الشاذلي الوفايي رحمه الله وقد اجتمعت به غير مرة ودعا لي لما سألته الدعاء، وقال لي لما رأيته في بعض المساجد بعد الغروب كلمة لم أفهم إشاراتها إلى الآن لما اشتغلت بعلوم القوم والحمد لله على ذلك، قال في أول كتابه: إخبار الأذكياء بأخبار الأولياء:

أما بعد فإن الأسرار الإلهية والأنوار الربانية جعل الحق تعالى محل ظهورها بالطبيعة الإنسانية فمنها ما هو ظاهر معلوم، ومنها ما هو خفي مكتوم: فالظاهر من هذه المظاهر الرسل المرشعون والأنبياء المقررون، والأخفاء بعض الخلفاء من الأولياء.

وجه الدقة في إثبات الأنبياء على الرسل في الحديث:

لكل قدم من الرسل والأنبياء وارث يقوم فيه بحسب استعداده، فلهذا المعنى اختلفت المقامات وتباينت الحالات وتعددت المسالك، وكأن قدم هذا المرشد غير قدم هذا السالك، فمن رأته مجدداً للأحكام والطريق متكلماً فيها بالمعنى الرقيق فهو من ورثة المرسلين، ومن رأته مقررراً سالكاً لكل مسالك من كان قبله من القوم من غير تجديد فهو من ورثة النبيين، وهؤلاء هم الأكثرون.

ألا ترى أن الرسل أقل عدداً ولكن هم أعظم من الأنبياء مدداً وهاهنا فائدة

وذلك أن قوله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»⁽¹⁾ ولم يقل ورثة الرسل لأن الأنبياء لم يؤذن لهم في التجديد كما أذن لهم في التقرير فلهذا شارك العلماء الأنبياء في هذه الصفة فقط .

والوراثة تطلق بأدنى نصيب (فإن قلت) قد أطلقت على بعض أهل الباطن أنهم ورثة الرسل، وصاحب الشرع إنما جعل الوراثة في النبوة لا الرسالة قلت: إنما أطلقناه يا فهيم لتجديد آداب وحي الإلهام، لا لنسخ وحي شرائع الأحكام. ثم قال رحمه الله اعلم أن الولاية مقولة بالتشكيك فمن آمن بالله ورسوله وما جاء به فهو ولي قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [سورة البقرة، آية: 257] فالإيمان بدايتها والصدقية القصوى غايتها. وبين الغاية والبداية مراتب ومقامات وأحوال تتفاوت فيها أقدام الرجال ثم يلي علماء الظاهر أصحاب الاقتداء بأقوالهم وهم العباد والزهاد وأهل الورع والاجتهاد وترى أحدهم ينقطع في الجبال وينعزل عن النساء والرجال ويسبح في الأرض الطول منها والعرض ليس عنده رائحة من المعرفة .

تفاضل الأولياء :

ومنهم الصوفية وهم أعلى درجة من أولئك؛ لسلوكهم على قوانين المعرفة، وهم يكثرون تارة ويقولون أخرى، ومنهم ثلاثمائة على قلب آدم عليه السلام في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون، ومنهم أربعون على قلب نوح عليه السلام، ومنهم سبعة على قلب الخليل عليه السلام، ومنهم ما يشاء الله على قلب عيسى عليه السلام، ومنهم ثلاثة على قلب ميكائيل عليه السلام، ومنهم واحد على قلب إسماعيل عليه السلام وهو القطب .

ثم قال ومنهم شجاع مقدم كثير الدعوى بحق، يقول حقاً ويحكم عدلاً، وكان صاحب هذا المقام الشيخ الجليل القطب عبد القادر الجيلي كانت له الصولة والاستطالة بحق على الخلق .

ومنهم رجال الماء وهم قوم يعبدون الله تعالى في قعور البحار والأنهار ولا

(1) رواه ابن حبان في الصحيح، ذكر وصف العلماء . . ، حديث رقم (88) [289/1] ورواه أبو داود في السنن، أول كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، حديث رقم (3641) [3/317] ورواه غيرهما .

يعلم بهم كل أحد . . قال أبو السعود ابن الشبلي إمام وقته: في الطريق كنت بشاطيء دجلة ببغداد، فخطر في نفسي هل لله عباد يعبدونه في الماء؟ فما استتممت الخاطر إلا وإذ بالنهر قد انفلق عن رجل فسلم عليّ وقال: نعم يا أبا السعود لله رجال يعبدون الله في الماء وأنا منهم، ثم أخبرني بأمر يحدث بعد أيام فوقع على نحو ما أخبر.

ومنهم الأخلاء وهم لا يكتسبون الولاية إلا بمحبة الله تعالى ومحبوب الحبيب حبيب، ومنهم سبعمائة رجل: قال الأستاذ الكبير أبو مدين شعيب الأشيلي دفين تلمسان: سكناهم بمصر، ومنهم سبعون هائمون في أطوار الجذب بمصر أيضاً، وصاحب الوقت الآن مسكنه بمصر وروحانيته بمكة، ونائب القطب مسكنه مكة، ومنهم الأفراد وهم الرجال الخارجون عن دائرة القطب، ومنهم الإمامان وهما الشخصان اللذان أحدهما عن يمين الغوث ونظره في الملكوت والآخر عن يساره ونظره في الملك وهو أعلى من صاحبه وهو الذي يخلف القطب قلت: قال بحر الحقائق محيي الدين بن العربي في كتاب القطب والإمامين: «فمنزل القطب حضرة الاتحاد الصرف فهو الخليفة ومقامه تنفيذ الأمر وتصريف الحكم وحاله الحالة العامة لا يتقيد بحالة تخصيص فإنه البر العام في الوجود، ويده خزائن الجود، والحق له متجلي على الدوام ولهذا قال الصديق رضي الله عنه:

«ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله» وله من البلاد مكة ولو سكن حيث جسمه فإنما محله مكة ليس إلا، وقال البوني في شرح الأسماء الحسنى: «اعلم أن مركز القطب بمكة وهو مستغرق في أنوار التجلي لا يصحو إلا عند أداء الفرائض والسنن».

تنبيه:

قال بعض أهل الشارات: الأقطاب متفاضلون بالنسبة إلى مقامات مورثيهم قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [سورة البقرة، آية: 253] فأكمل الأقطاب المحمدي وكل من نزل عنه فعلى قدر من ورث، فمنهم عيسويون وموسويون، وإبراهيميون ويوسفيون ونوحيون، وكل قطب ينزل على حد من ورثه في الأنبياء، وكل من مشكاة محمد ﷺ لأنه الجامع لمقامات الأنبياء منهم متفاضلون في المعارف غير متفاضلين في نفس القطبية وتدبير الوجود، وقال سيد علماء

الطريقة وإمام أهل الحقيقة القطب الشريف أبو الحسن الشاذلي:
 «اعلم أن العلوم التي وقع الثناء على أربابها وإن جلت فهي ظلمة في علوم
 ذوي التحقيق وهم الذين غرقوا في بحار تيار الذات وغموض الصفات، فكانوا
 هناك بلا هم، وهم الخاصة العليا الذين شاركوا الأنبياء والرسل في العلوم اللدنية،
 إذ ما من نبي ولا رسول إلا وله من هذه الأمة وارث وكل وارث على قدر إرثه في
 مورثه..»

قال رسول الله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء» ولا يكون وارث إلا وله نصيب
 معلوم من مورثه يقوم مقامه على سبيل إرث العلم والحكمة لا على سبيل التحقيق
 بالمقام والحال؛ فإن مقامات الأنبياء قد جلت أن يلمح حقائقها غيرهم وكل وارث
 في المنزلة بقدر مورثه قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [سورة
 الإسراء، آية: 55] فكما فضل بعضهم على بعض، كذلك فضل بعض الأولياء على
 بعض، لأن الأنبياء أعين الحق، وكل عين مستمد منها على قدرها وكل ولي له مادة
 مخصوصة فانقسم الأولياء على ضربين: ضرب منهم أبدال الأنبياء، وضرب منهم
 أبدال الرسل.

فأبدال الأنبياء الصالحون، وأبدال الرسل الصديقون، وبين الصالحين
 والصديقين في الفضل كما بين الأنبياء والمرسلين، فمنهم طائفة انفردوا بالمادة
 من رسول الله ﷺ يشهدونها عن يقين لكنهم قليلون، وهم في التحقيق كثيرون.
 وكل نبي وولي مادته من رسول الله ﷺ فمن الأولياء من يشهد عينه، ومنهم من
 يخفى عليه عينه ومادته، فيفنى فيما ورد عليه ولا يشتغل بطلب مادته بل هو مستغرق
 بحاله لا يرى غير وقته. والله أعلم.

الفرق بين الفراسة والإلهام:

مذهب ابن القيم:

فصل: قال العلامة شمس الدين بن القيم في شرح منازل السائرين في الكلام
 على الفرق بين الفراسة والإلهام: «اعلم أن الفراسة على الصحيح قد تتعلق بنوع
 كسب وتحصيل وأما الإلهام فموهبة مجردة لا تُنال بكسب البتة».

قلت: هذا يؤخذ من قوله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»⁽¹⁾ لأنه يستنبط منه أن غير المؤمن كالراهب مثلاً قد تكون له فراسة ولكن لا يتحدث إلا بما ألقاه إليه الشيطان إلا بنور الرحمن لكونه محجوباً بظلمة الكفر والنفاق، ولهذا أخرجه بقوله: فإنه ينظر بنور الله».

مذهب الهروي:

وقال الهروي: «الإلهام مقام المحدثين وهو فوق مقام الفراسة: لأن الفراسة ربما وقعت نادرة واستصعبت على صاحبها وقتاً، والإلهام لا يكون إلا في مقام عتيد، قال القاشاني: هو الحاضر المهيأ».

توفيق بين الآراء:

قلت: هذا الفرق إذا تأملته تجده ليس مخالفاً لما فرقه ابن القيم؛ لأن الإلهام إذا كان موهبة مجردة يلزم منه حينئذ أن لا يتخلف عن وقته ومحلّه كما هو شأن المواهب الإلهيات التي لا يمنعها مانع ولا يحجبها حاجب، إذ لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع سبحانه وتعالى وهذا بخلاف الفراسة؛ فإنها لما كانت قد تتعلق بواسطة كسب وتحصيل ناسب طاعتها تارة وعصيانها أخرى، لأن فيها شائبة الاتكال على العمل. والله أعلم.

مذهب الإمام الغزالي:

وقال حجة الإسلام الغزالي في شرح عجائب القلب: والمحدث هو الملهم والملمم هو الذي انكشف له في باطن قلبه من جهة الداخل لا من جهة المحسوسات الخارجة، قال ﷺ: «إن من أمتي محدثين ومتكلمين وإن عمر منهم»⁽²⁾ قال الحافظ زين الدين العراقي في تخريج أحاديث الإحياء في هذا الحديث: أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة: «لقد كان فيمن قبلكم من الأمم محدثون فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر»⁽³⁾ ورواه مسلم في حديث عائشة رضي الله عنها وقرأ ابن عباس: «وما

(1) رواه الترمذي في السنن، باب ومن سورة الحجر، حديث رقم (3127) [5/298] ورواه

الطبراني في الأوسط، من اسمه بكر، حديث رقم (3254) [3/312] ورواه غيرهما.

(2) هذا الحديث سبق تخريجه.

(3) هذا الحديث سبق تخريجه.

أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث» يعني الصديقين .
 وكان أبو يزيد وغيره يقول: «ليس العالم الذي يتحفظ فإذا نسي ما حفظ صار جاهلاً إنما العالم الذي يأخذ علمه من ربه أي وقت شاء بلا تحفظ ولا درس وهذا هو العالم الرباني وإلى مثله الإشارة بقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف، آية: 65] مع أن كل علم من لدنه، ولكن بعضها بواسطة تعليم الخلق فلا يسمى ذلك علماً لدنياً، بل العلم اللدني هو الذي يفتح في سر القلب من غير سبب مألوف من خارج. انتهى التنبيه.

هل يقع الخطأ في الكشف والإلهام؟

قال سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام: أهل المكاشفات والمخاطبات يصيبون تارة ويخطئون أخرى كأهل النظر والاستدلال، فيجب عليهم أن يعتصموا بالكتاب والسنة ولا يكتفوا بمجرد ذلك.

وذكر الأستاذ قطب الدائرة أبو الحسن الشاذلي في رسالته نحوه، وعلله بأن الله تعالى ضمن العصمة في جانب الكتاب والسنة، ولم يضمنها في جانب الكشف والإلهام وقال ابن السبكي في جمع الجوامع: الإلهام إيقاع شيء في القلب يثلج له الصدر يخص الله تعالى به بعض أصفياؤه وليس بحجة لعدم ثقة من ليس معصوماً بخواطره خلافاً لبعض الصوفية.

هل الإلهام حجة؟

قال الزركشي الإلهام ما حرك القلب بعلم يدعوك إلى العمل به من غير استدلال بآية ولا نظر في حجة. . قال أبو يزيد: والذي عليه جمهور العلماء إنه خيال لا يجوز العمل به إلا عند فقد الحجج كلها في باب ما أبيع له عمله بغير علم.

وقال بعض الجبرية إنه حجة بمنزلة الوحي المسموع عن رسول الله ﷺ واحتج بقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (٧) ﴿فَأَلَّهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [سورة الشمس، الآيتان: 7، 8] أي عرفها بالإيقاع في القلب، وبقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [سورة الأنعام، آية: 125] وبقوله عليه السلام: «اتقوا فراسة المؤمن»⁽¹⁾ وقوله: «الإثم ما حاك في صدرك

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

فدعه وإن أفتاك الناس وأفتوك»⁽¹⁾ فقد جعل عليه السلام شهادة قلبه بلا حجة أولى من الفتوى .

حجة من أنكر حجة الإلهام:

قال: فثبت أن الإلهام حق وأنه وحي باطن إلا أن العبد إذا عصى ربه وعمل بهواه حرم هذه الكرامة . وأما حجة أهل السنة فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة البقرة، آية: 111] فالزمهم الكذب لعجزهم عن إظهار الحجة والإلهام حجة باطنة لا يمكن إظهارها وآيات الأمر بالنظر والاعتبار، ولم يأمر بالرجوع إلى القلب، وكذلك حديث معاذ تحكم ولم يذكر إلهام القلب ولأن الإلهام قد يكون من الله ومن الشيطان ومن النفس ولا علامة قطعية على التعيين، وأما قوله تعالى: ﴿فَالْتَمَسْنَا لُجُورَهَا﴾ أي عرفها طريق العلم .

قال ابن السمعاني: وإنكار أصل الإلهام لا يجوز ويجوز أن يفعل الله تعالى ذلك بعبد بلطفه كرامة له وبقوله في التمييز بين الباطل والحق «والحق» في ذلك أن كل ما استقام على شرع النبي ﷺ ولم يكن الكتاب والسنة يردده فهو مقبول . وما لا فمردود يكون في تسويلات النفس، على أننا لا ننكر زيادة نور من الله كرامة للعبد وزيادة نظر، فأما أنه يرجع إلى قلبه في جميع الأمور فقول لا نعرفه .

القول الفصل:

من أثبت الإلهام وحجته:

قلت: وممن أثبته الإمام شهاب الدين السهروردي قال في بعض أماليه هو علوم تحدث في النفس المطمئنة الذكية وفي الحديث: «إن من أمتي محدثين ومكلمين وإن عمر منهم»⁽²⁾ وقال تعالى: ﴿فَالْتَمَسْنَا لُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ وأخبر أن النفوس ملهمة،

(1) ورد بلفظ: «عن وابصة بن معبد الأسدي أن رسول الله ﷺ قال لوابصة جئت تسأل عن البر والإثم قال قلت نعم قال فجمع أصابعه فضرب بها صدره وقال استفتت نفسك استفتت قلبك يا وابصة ثلاثاً، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك» .

(2) هذا الحديث سبق تخريجه .

فالنفس الملهمة العلوم اللدنية هي التي تبدلت صفتها واطمأنت بعد أن كانت أمارة، ثم نبه على أمر حسن يرتفع به الخلاف فقال: وهذا النوع لا تتعلق به المصالح العامة في عالم الملك والشهادة بل يخص فائدته لصاحبه دون غيره، إذا لم تكن ثمرة السراية إلى «العين على طريق العموم، وإن كانت له فائدة تتعلق بالاعتبار على وجه خاص قال: وإن لم يكن له ثمرة السراية» على الغير على طريق العموم في نتائج الملك الذي محله النفس وقربها من الأرض والعالم السفلي بخلاف المرتبة الأولى وهي الوحي الذي قام به المَلَك المَلقي؛ لأن محله القلب المجانس للروح الروحاني العلوي.

وقال في كتاب رشف النصائح الإيمانية: قد غسلت بتوفيق الله كتاب ابن سينا المترجم بالشفاء نحواً من عشرين مجلداً بإذن شريف مقدس نبوي... انتهى، قلت: ومما يشهد لمصداق هذا الإلهام النبوي، ما نقل عن علامة الوجود أنه حكى أن بعضهم رأى النبي ﷺ في النوم فسأله عن الغزالي والفخر الرازي وابن سينا فأثنى على الغزالي خيراً كثيراً وقال في الفخر الرازي: إنه معاتب وقال في ابن سينا: إنه أراد أن يصل إلى الله تعالى بغير واسطتي فانقطع، فنعود بالله من مقتته.

ونسأل الله أن يوفقنا إلى اتباع سُنَّة سيد أنبيائه وخليفته.

سبب انقطاع ابن سينا عن طريق القوم:

وسبب ذلك أن ابن سينا ركب له تصوفاً على طريقة الفلاسفة وترك سُنَّة سيد المرسلين سيدنا محمد ﷺ وعكف على سنن قوم كفار ضلال وبنى قواعده ليصل بها، نعم وصل ولكن إلى شفا جرف هار.

الصلة بين التصوف والكتاب والسُنَّة:

وقال سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر رسول الله ﷺ وقال: من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسُنَّة وقال أيضاً مذهبنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ.

وقال أبو حفص الحداد: من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسُنَّة ولم يتهم خواطره فلا تعده في ديوان الرجال. وقال ابن السبكي في كتابه: «معيد النعم ومبيد النقم» ورأيي فيمن أعرض عن الكتاب والسُنَّة واشتغل بمقالات

ابن سينا ومن نحا نحوه وترك قول المسلمين، وقول: قال أبو بكر، وقال عمر، وقال الشافعي، وقال أبو حنيفة وقال الأشعري، وقال القاضي أبو بكر الباقلاني إلى قوله قال الشيخ الرئيس يعني ابن سينا، وقال خواجه نصير، ونحو ذلك أن يضرب بالسياط ويطاف به في الأسواق وينادى عليه هذا جزء من ترك الكتاب والسنة واشتغل بأباطيل المبتدعين .

أو ما يستحي من يتخذ أقوال ابن سينا وتعظيمه شعاراً من الله تعالى إذا قرأ قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُجَمَعَ عِظَامُهُ﴾ ﴿١٦﴾ بَلْ قَدَرِينَا عَلَى أَنْ نُسَوِيَ بَنَانَهُ﴾ [سورة القيامة، الآيات: 3، 4] ويذكر إنكار ابن سينا لحشر الأجساد وجمع العظام فانظر كيف صرح بابتداعه وخروجه عن مذاهب المسلمين من أهل السنة والجماعة بل صرح الغزالي في المنقذ من الضلال بتكفير الفلاسفة في ذلك .

وإني لأعجب أشد العجب ممن يعتقد ابن سينا الذي قال فيه ابن الصلاح: إنه شيطان من شياطين الإنس، وينتقد بجهله على بحر الحقائق حامل لواء العلم بالله محيي الدين ابن العربي الذي أطبقت على ولايته الصوفية ولم يختلف منهم اثنان في ذلك بقطيته فضلاً عن ولايته جمع كثيرون من الفقهاء الموقنين الجامعين بين الشريعة والحقيقة كالسهروردي وابن أبي المنصور، وابن عطاء الله وابن عباد، والقرطبي والشيخ كمال الدين الزمكاني، والياضي والبساطي أحد أئمة المالكية، وابن الهمام أحد أئمة الحنفية وغيرهم من الأئمة الأعلام لأنه لا يعرف علو مقام هذا الحبر الرباني الذي لم تلد النساء مثله بعده ولا قبله من دهر طويل إلا من منحه الله علمي الظاهر والباطن .

وأما من وقف فهمه وصار جباناً جامداً على ظواهر العلوم الظاهرة بحيث لا يترقى عنها فذلك محجوب عن فهم العلوم الذوقية اللدنية مبعد عن درجات الكمال فهو لم يزل يخبط خبط عشوى حتى برز الله بالمحاربة من غير أن يشعر بنفسه فهو كما قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [سورة فاطر، آية: 8] فقد جعل الله أعماله القبيحة في عينه حسنة لتكون سبباً لهلاكه وكان الأمر كذلك في بعض الناس في زماننا، وما مثال المنتقدين عند خروجهم من الدنيا إلى عالم البرزخ إلا كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، لأنهم في دار الدنيا يعتقدون أنهم على شيء من الحق وهم في محض الباطل فلا يتحققون باطلهم إلا

في عالم البرزخ لأن هناك يتحقق التمييز بين السعداء والأشقياء فيا خسران المنكرين ، ويا فضيحتهم إذا شاهدوا ابن العربي في موكب الأصفياء والصدقيين .

من مناقب ابن عربي :

ويا ليت شعري ماذا يقول القائلون في أستاذ كَمَل لسيد الطائفة الجنيذ طريقه في عالم البرزخ وماذا يقولون أيضاً فيمن أمره الرسول ﷺ بالتصنيف في علوم الحقائق ، وكفى بهذا شرفاً وشتان بين من أمره الرسول عليه الصلاة والسلام بالتصنيف وبين من أمره بغسل تصنيفه وماذا يقولون أيضاً فيمن أكرمه الله تعالى بنشر الزمان بحيث إن مصنفاته زادت على خمسة آلاف في علوم الحقائق والإشارات .

وماذا يقولون فيمن أكرمه الله تعالى بسماع خطاب آنية الطعام كما سيأتي الكلام على ذلك في محله إن شاء الله تعالى ولنمسك حينئذٍ عنان الكلام فإن كراماته كثيرة تخرج عنا لحصر ليس هذا محلاً لذكر تفصيل أنواعها والله أعلم .

باب

في تبرئة القوم من أهل التصوف من الحلول والاتحاد

اعلم أن الأئمة من أهل الفقه والكلام وأكابر أعلام الإسلام ما زالوا يصحبون أهل الطريق ويحضرون مجالس وعظهم ويبالغون في الثناء عليهم وينقلون عباراتهم وإشاراتهم في دروسهم وتصانيفهم فلو رأوا ما يشعر بشيء من ذلك لكانوا أول نافرين، وإلى الإنكار مبادرين. . كان إمام الشافعية أبو العباس أحمد بن سريج من كبار أصحاب الوجوه والمفضل على جميع الأصحاب. حتى قيل إنه أفضل من المزني كذا قاله الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في ترجمته.

وكان يحضر مجلس الجنيد ويسمع كلامه ويقول: أشهد أن لهذا الكلام صولة ليست بصولة مبطل. وقال ابن السبكي في الطبقات: وعن ابن سريج أنه تكلم في العلوم يوماً فتعجب من حسن تقريره بعض الحاضرين فقال ابن سريج لما رأى إعجابه: أتدري من أين هذا؟ هذا من بركة مجالستي لأبي القاسم الجنيد.

وكان أكابر الأئمة من الفقهاء والمحدثين يحضرون مجلس الأستاذ أبي القاسم القشيري صاحب الرسالة، ونقل ابن السبكي أيضاً في طبقاته عن ابن السمعاني: أنه روى بسنده أن أبا القاسم القشيري حج سنة من السنين وقد حج في تلك السنة أربعمئة نفس من قضاة المسلمين وأئمتهم في أقطار البلاد وأقاصي الأرض فأرادوا أن يتكلم واحد منهم في حرم الله فاتفق الكل على الأستاذ أبي القاسم القشيري فتكلم هو باتفاق منهم، وكان ولده أبو نصر عبد الرحيم أيضاً يحضر عنده الأئمة. قال ابن السبكي لزمه الأئمة مثل الإمام أبي إسحاق الشيرازي الذي هو فقيه العراقيين في وقته وأطبقوا على أنه لم ير مثله في تبحره.

ثم قال ابن السبكي: وأعظم ما كان من أمر أبي نصر أن إمام الحرمين، وهو عصريه نقل عنه في كتاب الوصية في النهاية وهذا فخار لا يعدله شيء. . هذا كلام ابن السبكي بحروفه.

وقال اليافعي في روض الرياحين: وهذا حاتم الأصم من شيوخ الصوفية وقد اجتمع به الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه وسمع كلامه، وسأله فأجابه فاستحسن جوابه. ولم تزل العلماء الصالحاء قديماً وحديثاً يعتقدون طائفة الصوفية ويزورونهم ويتبركون بمجالستهم ودعائهم وآثارهم. . من ذلك ما جاء عن الإمام سفيان الثوري في مجالسته لرابعة العدوية وتأدبه معها، وما جاء عن الإمامين المجتهدين الشافعي وأحمد بن حنبل رضي الله عنهما في مجالستهما لشييبان الراعي رضي الله عنه وحكايتهما معه مشهورة.

ومن ذلك ما روي أن فقيهاً من أكابر الفقهاء، كانت حلقتة تحت حلقة الشيخ الكبير العارف بالله أبي بكر الشبلي رحمه الله في جامع المنصور وكان يقال لذلك الفقيه أبو عمران، وكان يتعطل عليه التقدير لأصحابه بكلام الشبلي فسأل أصحاب أبي عمران يوماً الشبلي عن مسألة في الحيض وقصدوا إخجاله فذكر مقالات الناس في تلك المسألة والخلاف، فقام أبو عمران وقبّل رأس الشبلي وقال له يا أبا بكر استفتت في هذه المسألة عشر مقالات لم أسمعها وكان عندي من جملة ما قلت ثلاثة أقاويل.

وقيل لأبي القاسم الجنيد: ممن استفتت في هذه العلوم؟ فقال: من جلوسي بين يدي الله عزّ وجلّ ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة وأشار إلى درجة في داره، وقال رضي الله عنه لو علمت بأن الله علماً تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذي نتكلم فيه مع أصحابنا وإخواننا لسعيت إليه وقصدته. وقال أيضاً: ما أخذنا التصوف عن القال والقال ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات.

وروي أن النجيب ابن النجيب أبا المعالي إمام الحرمين - رحمه الله - كان يدرس يوماً في المسجد بعد صلاة الصبح فمر عليه بعض شيوخ الصوفية ومعه أصحابه من الفقهاء وقد دعوا إلى بعض المواضع فقال إمام الحرمين في نفسه ما شغله إلا الأكل والرقص فلما رجع الشيخ من المكان الذي دعي إليه، مر عليه وقال: يا فقيه ما تقول فيمن يصلي الصبح وهو جنب ويقعد في المسجد ويدرس للناس العلوم ويغتتاب الناس فتذكر إمام الحرمين أنه كان عليه غسل، ثم حسن بعد ذلك اعتقاده في الصوفية.

من أوصاف المتصوفة:

وروي أن الإمام أحمد بن حنبل كان مع جلاله قدره يكثر التردد للصوفية العارفين فقليل له أتتردد لزواية هذا الشيخ؟ فقال عنده رأس الأمور معرفة الله . وقال الشيخ تاج الدين السبكي في كتابه «معيد النعم ومبيد النقم» في المثال السادس والستين .

«الصوفية حياهم الله وبيّاهم وجمعنا في الجنة نحن وإياهم» وقد تشعبت الأقوال فيهم تشعباً ناشئاً عن الجهل بحقيقتهم لكثرة المتلبسين بها بحيث قال الشيخ أبو محمد الجويني: «لا يصح الوقف عليه لأنه لا حد لهم يُعرف، والصحيح صحته وأنهم المعرضون عن الدنيا المشتغلون في أغلب الأوقات بالعبادة .

ومن ثم قال الجنيد: «التصوف: استعمال كل خلق سُني وتترك كل خلق دني، وقال أبو بكر الشبلي: «هو ضبط حواسك ومراعاة أنفاسك، وقال ذو النون المصري الصوفي: من إذا نطق بان نطقه من الحقائق، وإذا سكت نطقت عنه الجوارح، وكان الشيخ الإمام يقول: من لزم الصدق مع الحق والخلق وينشد:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا قديماً وظنوه مشتقاً من الصوف
ولست أنحل هذا الاسم غير فتى صافي فصوفي حتى لُقّب الصوفي
والحاصل أنهم أهل الله سبحانه وتعالى وخاصته الذين ترجى الرحمة بذكرهم
ويستنزل الغيث بدعائهم فرضي الله عنهم وعنا بهم، وللقوم أوصاف وأخبار اشتملت
عليها كتبهم .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري «جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله عليهم، وجعل قلوبهم معدن أسراره، واختصهم من بين الأئمة بطوالع أنواره فهم الغياث للخلق والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق. ومن أوصاف هذه الطائفة الرحمة، والرأفة، والعفو والصفح وعدم المؤاخذه، ومن حقهم تربية المرید إذا لاحت عليه لوائح الخير وإمداده بالخاطر والدعاء .

وقال الشيخ أبو منصور بن أحمد الأصبهاني أحد الأئمة الجامعين بين الحديث وعلوم الحقائق، وأحد من اجتمع بأصحاب أبي بكر الشبلي، وأبي زرعة الطبري، وأبي يعقوب الخراط وأبي العباس أحمد الصفار، وأبي عبد الله محمد بن خفيف،

وأبي الحسن بن المثنى الطبري وأبي علي الإسفراييني، وغيرهم من الأئمة الأعلام في كتابه شواهد التصوف من الكتاب والسنة وأقاويل الأئمة وقعت على نسخة منها وعليها خط الحافظ ابن الصلاح ما نصه:

فأما مذهب أهل التصوف على حقيقته وشروطه فمقبول عند العلماء المتقين والأئمة الصالحين والسلف من المحققين المنصفين وذلك الذي جلس علي شرط التصوف بالصدق فزهد في الدنيا واشتغل بالعبادة والذكر والصلاة والصيام ورعاية الفقر، والاستغناء عن الناس، والرضا بالدون، والقناعة في المطعم والملبوس فكان جلوسه في المسجد، وأكله على الضرورة، ولباسه المرقع والرث، ووقته الذكر والتذكار فالكاتب ناطق بذكره والرسول - ﷺ - شاهد بقبوله ولا ينكره في مذهبه إلا جاهل أو معاند؛ لأن من وفقه الله عز وجل لما ذكرته فأعرض عن الدنيا ورضي عن الله عز وجل في فقره وزهد وعمر أوقاته: ليله ونهاره بذكر الله عز وجل وخدمته فلا يضيعه الله عز وجل إن شاء الله.

من ثناء الفقهاء على المتصوفة:

ولقد أقر بصحة معرفة التصوف الإمام في وقته أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثوري حين قال: ما زلت أراني وأنا لا أعلم حتى لقيت أبا هاشم الصوفي فعلمني ترك الرياء.. قال الأصبهاني: «وأخبرني أبو محمد عبد الله بن محمد قال أخبرنا أبو الفضل نصر الطوسي قال: سمعت أبا عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن المكي قال: سمعت أحمد بن محمد بن سواكن قال: سمعت الربيع بن سليمان المرادي يقول كنا عند أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه فتحاورنا في مسألة إذ مر طائفة من الصوفية في صحن المسجد فرمقناهم بأبصارنا واشتغلت قلوبنا به. فقال الشافعي رضي الله عنه ما شأنكم قلنا هؤلاء قوم اجتازوا نبأ الساعة قد تركوا الصنائع وآثروا الجلوس على الكسب فقال الشافعي رضي الله عنه والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما على وجه الأرض في هذه الساعة أكرم على الله عز وجل منهم قال الربيع فاستعظمتنا ذلك منه، فقال رضي الله عنه أستعظمتم ذلك مني؟ قلنا: نعم أيها الشيخ. فقال: إن الله عز وجل خص الأمة بمائة خلة فركبنا نحن خلة واحدة وركب هؤلاء تسعة وتسعين.

وأخبرنا أبو عبد الله محمد بن خفيف إجازة قال: حضرت عند أبي العباس بن

سريج إمام الدنيا وحضر هناك أئمة الشافعية والمالكية والحنفية وأصحاب الحديث والمشايخ الأجلة مثل أبي علي القشيري وأصحابه فلما فرغ من المجلس قام عبد العزيز الخيراني وقال: أيها القاضي مسألة، قال: قل قال: متى يهش الراعي غنمه عن مراتع الهلكة؟

فأجابه على البديهة وقال إذا علم أن عليه رقيباً ثم قال: يا شيخ هذا علم شريف وله مجلس خاص، فقد كنا نحضر عند أبي القاسم الجنيد، وأبي محمد رويم بن محمد فدخل جماعة يستخبرون الشيخ عن مسائل نفيسة فأجابهم على بديهتهم فأجاب القوم وصار هناك للمتصوفة من المقدار والجاه ما لا يوصف.

قال أبو عبد الله بن خفيف: وحضرت عند الحلبي القاضي وهناك أجلاء الفقهاء مثل أبي حمدان وأبي حسين الكسائي، وابن قيراط فجرى ذكر المتصوفة فقال الحلبي والله ما صرنا من الناس إلا بمجالسة الصوفية وما تعلمنا الأدب إلا منهم وإني لمتأسف على ما فاتني منهم..

وأخبرني أبو بكر بن حيان قال أخبرنا أبو سعيد بن الأعرابي قال سمعت أبا حمزة البغدادي الصوفي يقول: قال لي أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل رحمه الله غير مرة: ما تقول في مسألة كذا وكذا يا صوفي؟ وسمعت عبد الله بن محمد البصري يقول: سمعت أبا الفضل العطار يقول: سمعت أبا زيد هبة الله ابن أحمد البغدادي بأنطاكية يقول سمعت الداري يقول: صلى أبو زرعة الرازي في مسجده عشرين سنة بعد قدومه من السفر، فدخل عليه يوماً قوم من أصحاب الحديث فتذكروا فقالوا: هذا بركة بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل عليك.

فقال أبو زرعة حاشا لله هذا بركة صوفي رأيته فقالوا: فبشر فأحمد فقال أبو زرعة: فبشر وأحمد كان عليهما مفارقة ما هما عليه حتى يصيرا مثل ذلك الصوفي، وحكى أبو الحسن الواعظ عن عبد الله بن أحمد ابن حنبل أنه قال: جاء رجل إلى أبي رحمه الله فقال: يا أبا عبد الله هؤلاء الصوفية قعدوا في المساجد بلا علم. فقال: يا ابن أخي ما أحسن قوماً رضوا من الدنيا بكسرة قال فإنهم يسمعون ويرقصون، قال: يا ابن أخي هؤلاء قوم فرحوا بالله ساعة.

تأويل ما جرى بين الإمام أحمد والحارث المحاسبي:

وذكر أبو عبد الله بن خفيف في كتاب «السماع» قال: دخلت على القاضي

علي بن محمد بن إبان فقال: يا أبا عبد الله هاهنا حكاية لكم تحتاج أن تكتبها بماء الذهب قلت: لا أجد ماء الذهب أكتبها بالحبر؟

فقال: بلغني أنه قيل لأبي عبد الله أحمد بن حنبل: إن هنا رجلاً يقال له الحارث بن أسد المحاسبي يتكلم في علم الصوفية ويحتج علينا بالآي والسنن والأخبار فقال أحمد: أحب أن أراه وأسمع كلامه من حيث لا يعرفني، فقال رجل: أنا أجمعكم معه فاتخذ دعوة ودعا الحارث وأصحابه ودعا أحمد فأجلسه حيث يرى الحارث قال فدخل وصلّى المغرب وأحضر الطعام فجعل يأكل ويتكلم فقال أحمد: هذا من السنّة فلما فرغ جلس الحارث وأصحابه قال: من أراد أن يسأل فليسأل، فسئل عن الإخلاص والرياء ومسائل شتى، قال: فأجاب الحارث واستشهد بالآيات والأخبار والحديث والإمام أحمد يسمع ولا ينكر من ذلك شيئاً.

فلما مضى من الليل الثلث الأول أمر الحارث أن يقرأ القرآن فقرأ بعضهم ثم دعا بدعوات ثم نهض إلى الصلاة فلما أصبحوا قال أحمد بن حنبل قد كان يقال مجالس الذكر فإن كان فهذا من تلك المجالس، (قلت): فإذا كان الأمر كذلك فكيف أنكر الإمام أحمد بن حنبل على الحارث «المحاسبي» وهجره كما هو مشهور عند العلماء من أهل الفقه والحديث؟

قلت: قال الشيخ تاج الدين ابن السبكي في الطبقات الكبرى ما نصه: «ينبغي لك أيها المتصوف المسترشد أن تسلك الأدب مع الأئمة الماضين وأن لا تنظر إلى كلام بعضهم في بعض إلا إذا أتى برهان واضح، ثم إن قدرت على التأويل وتحسين الظن فدونك، وإلا فاضرب صفحاً عما جرى بينهم؛ لأنك لم تخلق لهذا فاشتغل «عما لا يعينك» ولا يزال طالب العلم عندي نبياً حتى يخوض فيما جرى بين السلف الماضين ويقضي لبعضهم على بعض فإياك ثم إياك أن تصغي إلى ما اتفق بين أبي حنيفة وسفيان الثوري أو بين مالك وابن أبي ذؤيب أو بين أحمد بن صالح والنسائي، أو بين أحمد بن حنبل والحارث المحاسبي، وهلم جرا إلى زمان الشيخ عز الدين بن عبد السلام والشيخ تقي الدين بن الصلاح؛ فإنك إذا اشتغلت بذلك خشيت عليك الهلاك، فالقوم أئمة أعلام ولأقوالهم محامل ربما يفهم بعضها فليس لنا إلا الترضي عنهم والسكوت عما جرى بينهم كما يفعل فيما جرى بين الصحابة رضي الله عنهم أجمعين...»

إذا عرفت ذلك فاعلم أن الإمام أحمد رحمه الله كان يشدد النكير على من يتكلم في علم الكلام خوفاً من أن يجر ذلك إلى ما لا ينبغي .
ولا شك أن السكوت عن ما لم تدع إليه الحاجة أولى ، والكلام فيه عند فقد الحاجة بدعة ، وكان الحارث المحاسبي - رحمه الله ورضي عنه - يتكلم في شيء من مسائل الكلام . قال أبو القاسم النصرآبادي : بلغني أن أحمد بن حنبل هجره بهذا السبب قلت والظن بالحارث أنه إنما تكلم حيث دعت الحاجة ولكل مقصد والله يرحمهما .

وذكر الحاكم أبو عبد الله أن أبا بكر أحمد ابن إسحاق الضبعي أخبره قال سمعت إسماعيل بن إسحاق السراج يقول : قال لي أحمد بن حنبل : بلغني أن الحارث هذا يكثر «من القول» عندك فلو «أحضرتني عندك» وأجلستني من حيث لا يراني فأسمع كلامه .

فقصدت الحارث وسألته أن يحضر تلك الليلة وأن يحضر أصحابه فقال فيهم كثرة «ولكن لا» تزدهم على الكسب والتمر ، فأتيت أبا عبد الله فأعلمته «فأحضر إلي ما طلبته» واجتهد في ورده وحضر الحارث وأصحابه فأكلوا ثم صلوا العتمة ولم يصلوا بعدها وقعدوا بين يدي الحارث لا ينطقون إلى قريب نصف الليل ثم ابتداء رجل منهم فسأل عن مسألة فأخذ الحارث في الكلام وهم يستمعون كأن على رؤوسهم الطير فمنهم من يبكي ومنهم من يحن ومنهم من يزعم وهو في كلامه فصعدت الغرفة لأتعرف حال أبي عبد الله فوجدته قد بكى حتى غشي عليه ، فانصرفت عنهم ولم «تزل على ذلك حالتهم» حتى أصبحوا وذهبوا فصعدت إلى أبي عبد الله فقال : لا أعلم أنني رأيت مثل هؤلاء القوم ولا سمعت في علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل ، ومع هذا فلا أرى لك صحبتهم لقصورك عن مقامهم فإنهم في مقام ضيق لا يسلكه أحد فيخاف على سالكه وإذا بأحمد - رحمه الله تعالى - قد بكى وشكر الحارث ولكل رأي واجتهاد حشرنا الله معهم أجمعين في زمرة سيد المرسلين .-

قال ابن الصلاح وذكر الأستاذ أبو منصور الحارث المحاسبي في الطبقة الأولى فيمن صحب الشافعي وقال إمام المسلمين في الفقه والتصوف والحديث والكلام وكتبه في هذه أصول علم يركن إليها ويعمل بها وإليه ينسب أكثر متكلمي الصقالية . وقال الخطيب البغدادي : له كتب كثيرة في الزهد وأصول الديانة والرد على

المعتزلة والرافضة، قال ابن السبكي تبعاً لجمع من الصوفية: إنها بلغت مائتي مجلد.

(تنبيه): قال ابن الصلاح مستبعداً صحبته: لم أرَ واحداً ذكرها سواه، وليس أبو منصور من أهل هذا الفن فيعتمد فيما تفرد به والقرائن شاهدة بانتفائها لكن قال السبكي إن كان أبو منصور صرح بأنه صحب الشافعي فالاعتراض لائح أولاً فقد يكون أراد بالطبقة الأولى أيضاً أبا عامر العبادي وقال كان عاصر الشافعي واختار مذهبه ولم يقل كان ممن صحبه فلعل هذا القول مراد أبي منصور والله أعلم قال الحافظ الأصبهاني في ترجمته: كان - رحمه الله - من العلم بمحل عظيم أظهر علوم الأحوال وعلوم الإخلاص وصفاء التوحيد ومذاهب المتصوفة ببغداد وصنف في التوحيد والمعرفة ومعاني التصوف كتباً كثيرة، وله مع الجنيد بن محمد حكايات، وكان أكبر سناً من الجنيد، تكلم في فنون العلم ورد على المبتدعة بدعهم وله ردود كثيرة، وصنف في توحيد الله عدة من الكتب فلما قرب وقت وفاته رجع إلى حال العامة في العلم العزيز معرفته.

فأخبرني أبو بكر بن حبان قال أخبرني الحسين بن يحيى قال أخبرني جعفر بن محمد قال أخبرني أبو العباس قال دخلت على أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي في وقت وفاته وهو في النزع فقال اشهدوا على أبي أخرج من الدنيا وأنا أعتقد من الدين ما عليه العجوز في بيتها على مغزل لها، قلت هذا مأخوذ من قوله - عليه الصلاة والسلام: - «عليكم بدين العجائز»⁽¹⁾. أخرج الديلمي في حديث ابن عمر بلفظ: «إذا كان آخر الزمان واختلف الأهواء فعليكم بدين البادية والنساء» وسنده واهٍ والله أعلم.

سند التصوف:

فصل: قال الحافظ الأصبهاني في «شواهد التصوف»: ثم إن التابعين أخذوا جملة العلوم عن الصحابة فناً فناً وعلماً علماً، فبثوه في تابعي التابعين وجعلوها شواهد أحوالهم لأنفسهم وعلى غيرهم، فكان الحسن البصري ممن جمع من فنون العلم من علم القرآن والحديث والفقه والتفسير واللغة، ثم علوم الزهد والمعاملة

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (1774) [92/2].

محلها؛ لأن العلم ذو فنون، فأما التابعون من العلماء وتابعو التابعين من الأئمة فقاموا بحق العلم وأدوا ذلك إلى الطالبين من كل فن، ولكل طبقة منهم علم مفرد وحال مفرد فمنهم من الغالب عليه من العلوم علوم القرآن والتفسير والتقوى وحفظ علوم القرآن مثل أبي جعفر يزيد بن القعقاع، وعبد الله بن كثير ثم نافع بن عبد الرحمن، وعاصم، وحمزة بن حبيب، وأبي عمرو بن العلاء وجملة من التابعين وتابعي التابعين فصاروا أئمة في القرآن والقراءات وحفظتها لها.

ومنهم من الغالب عليه علوم التفسير مع حفظه للقرآن، مثل مجاهد، وقتادة، وعطاء، والسدي، والضحاك وجملة من التابعين وتابعي التابعين فصاروا أئمة في التفسير ورواته وحفاظاً له، ومنهم من الغالب عليه الحديث مثل سعيد بن جبير، وأمثاله، والزهري، والأوزاعي، وجملة من التابعين [وتابعي التابعين] فصاروا أئمة في الحديث وحفاظاً له.

ومنهم من كان الغالب عليه من العلوم، علم الفقه مثل سعيد بن المسيب، والشعبي، ثم الثوري، وإبراهيم، ومالك بن أنس، وجملة من التابعين فصاروا أئمة في الفقه وحفاظاً له، ومنهم من كان الغالب عليه من العلوم، «علم» الزهد والمعاملة والاجتهاد والعبادة، مثل مالك بن دينار، وثابت البناني، ومطرف بن عبد الله، وأويس القرني، والربيع بن خيثم، وجملة الزهاد الثمانية ثم من «تابعي» التابعين جملة فصاروا أئمة في الزهد والعبادة وحفاظاً له ولطرق المعاملة.

كيفية تسلسل رجالات التصوف:

فأما الإمام في ذلك من التابعين فالحسن البصري لكن كان الغالب عليه علوم الاختصاص والخصوص والمحبة والمواهب وهو الشاهد على مذهب التصوف بإشارات وعبارات واختصاص علمه من بين العلوم، وإفراد مجلسه بالصيانة عن غير أهله، فأما سائر «الفنون» فكان «يبثها من» جملة العلماء في مجالس العامة.

وأما علوم الباطن والتصوف والنسك فكان له أصحاب، مخصوصون بذلك كانوا له إخواناً مثل عبد الواحد بن زيد، ومالك بن دينار «وغيرهما» فأما الذي نصب نفسه بعد الحسن للكلام في علوم الخصوص والمحبة والوجود وصفاء الأفكار وعلوم الأسرار فعبد الواحد بن زيد وتبعه على ذلك المتصوفة والنسك، مثل عقبة الغلام، ورباح القيسي، وحبان الحريري، وموسى الأشج، وأحمد بن عطاء

الهجيمي، مع جماعة كثيرة ولكل واحد منهم أخبار وحكايات في علوم المحبة والتصوف.

ثم كان بعد عبد الواحد بن زيد أحمد بن عطاء الهجيمي فنصب نفسه للأستاذية وتكلم في الأحوال والتصوف ووقف داراً في بلهجوم للمتعبدين والمريدين والمنقطعين فقام مذهب التصوف بشرائطه وكثر فيه المريدون والطالبون والمحققون فصار مذهباً منفرداً برسومه وأحواله وحقائقه وظاهره وباطنه فبين طرق التصوف والمرسومات ثم تكلم المتصوفة في جميع الهمم، وإفراد التوحيد، والمعاملة والأسرار والحضور والأذكار والشواهد، والوجود، فكثر مذهب التصوف من وقت التابعين وانتحل المريدون فكان بعضهم يزيد على البعض في حقائق التصوف طبقة بعد طبقة في عصر بعد عصر ووقت بعد وقت حتى كثر في الأمصار وكان شاهد التصوف في ذلك الوقت إلى هذا الوقت المحبة والوجود.

ثم كان بعد أحمد بن عطاء الهجيمي أحمد بن غسان فجلس للناس وتبعه المتصوفة النساك وكان أحسن عبادة وأدق معنى من ابن عطاء الهجيمي وكان مجمع الكلام حسن العبارة وكتب الحديث الكثير ونصب نفسه لمذهب التصوف والكلام في أحواله ووقف داراً على المريدين وكان يتكلم عليهم فلما كانت المحنة في أيام المعتصم امتحنوه وطالبوه بأن يقول بخلق القرآن فأبى فحمل إلى بغداد وحبس هناك فاتفق مع أحمد بن حنبل وأبي يعقوب البويطي في الحبس فتكلم أحمد بن غسان في علوم التصوف والأحوال والإخلاص فاستحسنا كلامه وأعجبهما هديه وكان في وقته بالبصرة جماعة مثل «حمويه الحنجري» وأبي بكر الغطيشي وأبي عبد الله الجمال وجماعة كثيرة كانوا يسمون الغسانية نسبوا إلى أحمد بن غسان وكان أبو حاتم العطار بالبصرة في وقتهم فكان علم التصوف منشوراً في وقته وكان أحسن المشايخ عبارة أحسنهم إشارة في التوحيد وكان يقول من ذكر نعم الله وقديم مننه نسي عمله، ومن ذكر الله نسي نفسه. وكان يقول في إشارته يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله، يقال إن أبا حاتم قال لأبي تراب النخشي: ما خابت سياحتك بعد أقطار الأرض.

وأخبرنا أبو بكر بن حبان قال: قال أبو سعيد بن الأعرابي: قال لي أبو جعفر: دخلت البصرة أنا وأبو يوسف الزيّات فسألنا عن دار أبي حاتم العطار فأرشدنا إليها

فوقفنا على الباب فقال: من هذا؟ قلت: رجل يقول الله، ففتح الباب: ووضع خده بالأرض، وقال بقي من يحسن أن يقول الله.

ثم بعد أحمد بن غسان ظهر الحسن المسوحي ببغداد فكان أحسن الناس كلاماً من المتقدمين في التصوف، وأغرب إشارة وكان في وقته السري السقطي، وإسحاق اللبان، والحداد الكبير، وأبو حمزة البغدادي والحارث بن أسد المحاسبي، وأحمد بن مشروط، وأبو الحسين النوري وابن أبي الورد، ونصر بن رجاء، والحسن بن المثنى وأحمد بن عمرو بن أبي عاصم، والشماخي، وابن خيثمة.

وكل هؤلاء كانوا أئمة التصوف وكانوا من العلم بمحل، فغلب عليهم مذهب التصوف فقبلهم الخاصة والعامة؛ لصحة مذهبهم وحقائقهم في التصوف، وكان الجنيد بن محمد في ذلك الوقت من المريدين، بمجلس المسوحي ثم كان بعد المسوحي، أبو حمزة وكان تلميذ الحسن المسوحي وكان يسميه الأستاذ.

حدثني ابن حبان عن الأعرابي يقول: غير واحد يقولون سمعنا أبا حمزة يقول: أستاذنا في هذا المذهب الحسن المسوحي وسمعت الحسين بن يحيى يقول: سمعت جعفر الخلدي يقول: سمعت الجنيد بن محمد يقول: كلمت يوماً الحسن المسوحي في شيء من الأئس فقال: ويحك لو مات من تحت السماء ما استوحشت.

فأما أبو حمزة فكان مقبولاً معروفاً بالتصوف وكان له حلقة في الجامع يجتمع فيها المتصوفة وأهل هذه المذاهب وكان يجالس أبا عبد الله أحمد بن حنبل - رحمهما الله - فكان أبو عبد الله يسميه الصوفي حدثنا بذلك ابن حبان قال: حدثنا ابن الأعرابي فقال: سمعت أبا حمزة غير مرة يقول قال لي أحمد بن حنبل: يا صوفي ما تقول في مسألة كذا وكذا؟

وكان كمال التصوف وإقباله وغرائب علومه ذائعة في وقت بشر بن الحارث ومعروف الكرخي، وسري السقطي، ومحمد بن منصور الطوسي، ومنصور المسوحي، فلما جلس أبو حمزة في الجامع اجتمع في مجلسه الحارث بن أسد المحاسبي وأحمد بن مسروق الجنيد بن محمد وغيرهم فكان التصوف حينئذ في الإقبال. وكان أبو حمزة أبسط في علوم المعرفة والخصوص من أستاذه الحسن المسوحي ثم لما مات أبو حمزة رحمه الله جلس أبو القاسم الجنيد بن محمد في الجامع في إقبال التصوف وأوى إليه بقية المشايخ واجتمع إليه جملة المتصوفة

فأذعنوا له وكان كلامه أجمع وأعرف وأحسن من كلام أستاذه وأستاذ أستاذه فرزق من التصوف «ما فاق» به أقرانه بإمامته في التصوف، فلما وقعت محنة المتصوفة من غلام خليل تفرق المتصوفة ولذلك قصة طويلة فحبس جماعة من - المتصوفة - كان فيهم أبو الحسين النوري ثم أطلق في سنة أربع وستين ومائتين أبو الحسين فسار من وقته لما خرج من السجن إلى الرقة ورجع في سنة ثمان وسبعين ووجرت للمتصوفة محنة عظيمة امتحن فيها من أصحاب بشر بن الحارث ومعروف وسري السقطي وجماعة كثيرة فلما سكنت المحنة جلس الجنيد بن محمد للمذاكرة في هذا المذهب فاجتمع إليه مثل أبي العباس ابن مسروق، وإسماعيل بن أبي بكر السكري، وموسى الجفري، وأبي محمد الحريري، وأبي محمد القلانسي، وأبي جعفر الحايك، وإبراهيم البنا، وأبي جعفر بن وهب، ويعقوب الزيات وأبي العباس ابن عطاء وجماعة كثيرة.

فكان هؤلاء أفصح المشايخ في لسان التصوف وأدق المشايخ إشارة فتكلموا في صفات الأحوال والتوحيد - والمواجيد والمواريد والمشاهدة والحضور فكثرت ذلك في البلدان وانفرد المتصوفة بعزيم المذهب ووضعوا على علومهم إشارات ورموزاً انفردوا بمعرفتها ليصونوا بذلك حقائق التصوف من غير أهلها فكانت الدنيا تزدهو في ذلك الوقت من الأئمة المتصوفة والمشايخ كالكواكب الدرية.

وبرز المريدون بإشارات التصوف ووحدة الإدارة فقطعوا البوادي والمفاوز بالتجريد وإخلاص التوكل بعدما زهدوا أولاً في الدنيا وتجردوا في الوقت واستسلموا في التوكل، وجدوا في الصبر واجتهدوا في الخدمة واحترقوا في المحبة وحنوا في الوجود، فأدوا حق التصوف وقاموا بشرط التجريد.

فلما بدا لهم علم خصوص المعرفة في حقائق التصوف جمعوا زهد الزاهدين وصدق الصادقين، وتوكل المتوكلين وعبادة المجتهدين وصبر الصابرين، وذكر الذاكرين وسائر «أصول العالمين» بإشارات التصوف وتجريد التوحيد فعاملوا الله عز وجل بمعنى انفردوا به عن جملة الموسومين بإقامة الأحوال والقيام بحقها بالخدمة لأنهم وجدوا روح التوحيد فغيبوا عن رؤية الأحوال بمشاهدة محول الأحوال - سبحانه - .

ثم انفردوا في علومهم بإيجاز لسان الحكمة واختصار القول والكلمة ودقيق

الإشارة في التوحيد والمعرفة فما زال يغرب بعضهم على بعض في غرائب علوم التصوف حتى انفردوا في المذهب برموز وإشارات «على» لسان سائر العلوم فكانت علوم المتصوفة في العلوم أدقها وأخفاها وأعزها وأصفاها فصارت مخصوصة لأهلها فتكلموا في الجمع والتفريق، والفرق الأول، والفرق الثاني، والفناء، والبقاء والصحو والسكر والمشاهدة، والحضور والمراقبة، والخفاء والكشف، والمواريد والمواجيد والشواهد، والطوالع وأحوال كثيرة كلها في معاني القلوب وأسباب الغيوب ثم كثر ذلك في البلدان وكثر المشايخ في التصوف وكثرت المكاتبات والرسائل بين العارفين، وزاد بعضهم على بعض في دقائق الإشارات في التصوف بالفصاحة على لسان التوحيد.

فلما كانت أيام الجنيد بن محمد الإمام في التصوف كانت الأرض مشرقة مضيئة في مشايخ التصوف شرقاً وغرباً ممن كانوا قبل الجنيد في وقته وبعده بقريب إلى سنة ثلاثمائة وجرت حقائق التصوف في أهله ثم أدبر وعاد التصوف في الإدبار ومات أكثر مشايخه قبل سنة ثلاثمائة، وبعدها بقليل ثم غرب الإسلام وحقائمه وغرب التصوف بغربته. انتهى.

وقال أبو عبد الله محمد بن أبي الفوارس أحد أئمة التصوف في بعض كتبه: فإن قال قائل اسم الصوفي هو اسم محدث فهو مجاب بما روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ارغبوا في دعاء أهل التصوف أصحاب الجوع والعطش فإن الله ينظر إليهم ويسرع إجابتهم»⁽¹⁾.

ثناء العلماء على طريق أبي الحسن الشاذلي:

وقال سفيان الثوري لولا أبو هاشم الصوفي ما عرف حقائق الرياء، قيل: ولما جاء قطب الزمان أبو الحسن الشاذلي من الغرب الأقصى إلى ديار مصر يدعو الخلق إلى الله تعالى فتصاغر وخضع لدعوته أهل المشرق والمغرب قاطبة - فكان يحضر مجلسه أكابر العلماء من أهل عصره مثل سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام، والشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، والشيخ عبد العزيز المنذري، وابن الصلاح وابن الحاجب، وغيرهم من الأئمة قال يدخلهم على الله.

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

وقال ابن عطاء الله أيضاً: وأخبرني الشيخ العارف مكين الدين رضي الله عنه حضرت بالمنصورة في خيمة فيها الإمام سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام والشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، والشيخ محيي الدين بن سراقه والشيخ مجد الدين الإخميمي، والشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه ورسالة تقرأ عليهم وهم يتكلمون والشيخ أبو الحسن صامت إلى أن فرغ كلامهم فقالوا: يا سيدنا نريد أن نسمع منك، قال: فقال أنتم سادات الوقت وكبرائه وقد تكلمتم. فقالوا: لا بد أن نسمع منك قال فسكت الشيخ ساعة ثم تكلم بالأسرار العجيبة والعلوم الجليلة فقال الشيخ عز الدين وخرج من صدر الخيمة وفارق موضعه: اسمعوا هذا الكلام القريب العهد من الله انتهى .

وسياتي كلام عن ذلك عند الكلام على تحقيق العلم اللدني إن شاء الله تعالى . ولقد كان الشيخ تاج الدين السبكي إمام وقته تفسيراً وحديثاً وفقهاً وكلاماً وأصولاً ومنقولاً ومعقولاً، وقد ذكر في بعض كتبه أخذه عن الشيخ تاج الدين بن عطاء الله وحضور مجلسه ونقل عنه بعض كلامه وقال إنه كان متكلم الصوفية على طريق الشاذلية .

وقال ولده العلامة تاج الدين في الطبقات: أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله الشيخ الإمام العارف تاج الدين أبو الفضل أستاذ أبي - رحمه الله - في طريق التصوف كان ذا قدم راسخة في التصوف وزهد مفرط زائد وله كتاب «التنوير في إسقاط التدبير» وغيره ثم قال ابن السبكي في آخر الترجمة وكان أبي رحمه الله كثير التعظيم والإجلال له . وفي المعجم المخرج للسبكي قراءته ولا تخريجه في معجمه وروايته ولو كان في طريق الشاذلية أدنى عوج لم يثن عليها السبكي ولا ولده ولا أئمة عصره ومن قاربهم .

ولما كانت طريق التصوف دخل فيها الدخيل وكان أصح الطرق القويمة الخالية من البدع الجارية على قوانين الشريعة طريقة الجنيد وأتباعه . قال السبكي في جمع الجوامع: وإن طريق الشيخ الجنيد وصحبه طريق مقوم، وطريق الشاذلية في المتأخرين هي عين طريق الجنيد فإنها كما تعرف من كلام الشاذلي في التعاليق التي دونت عنه وكلام الشيخ تاج الدين في كتبه دائر مع الكتاب والسنة، واقف مع الشرع، زاجر عن الخواطر التي لم توزن بميزان الشريعة .

قال العارف بالله سيدي داود المناخلي صاحب عيون الحقائق وأحد أصحاب

الشيخ تاج الدين بن عطاء الله وأستاذ سيدي محمد وفا في شرح «حزب البحر»: «فليتأمل المنصف أحوال الشاذلية وسداد طريقتهم وقوة يقينهم وكثرة أنوارهم وفتحهم وكشفهم وذكاء عقولهم وقلوبهم مع غرق كثير منهم في الأسباب: وتلبسهم ظاهراً بأحوال «العوالم» فتراهم أبداً محافظين على أعمالهم قد أشرق في قلوبهم أسرار العلوم ولاحت لهم حقائق الحكم والمفهوم فترى أحدهم في صورة العامي يلهج بالحقائق وينطق بالحكمة مما يعز وجوده لأرباب الانقطاع والخلوات وأهل التجلي والمشاهدات وهذا يدل على كثرة الأنوار وحصول الغاية وأنهم في صون وحماية، وأن مشايخ هذه الطريقة لهم من الله نصيب وافر ونور متظافر وقد قال أستاذ هذه الطائفة الشيخ أبو الحسن الشاذلي - رضي الله عنه - «أنا حملت التعب عن أتباعي» وقال خليفته سيدي أبو العباس المرسي - رضي الله عنه - «ليس الرجل من ذلك على نفيه إنما الرجل من ذلك على راحته» وقال سيدي داود بعد ذلك وليتأمل المنصف في أحوال هذه الطائفة وكلام أهلها في السلوك والحقائق والمقامات والأحوال والحكم والمواعظ مما لا تكاد تسمعه في هذه الطائفة بأسلوب خاص ومنهم غريب وآثار في القلب عظيمة فتجد المنزلة الواحدة سلوكاً عظيماً بلفظ قليل ومعنى جليل كل منزلة تحتمل مجلداً شرحاً ولا يفني بمعانيها؛ لأنها تصير أمراً باهراً ودليلاً ظاهراً في طريق الأبرار والمقربين دلالة بالعلم والنور وتربية بالأحوال من الأفعال والأقوال؛ لأنها قد جمعت بين المواعظ والحقائق والمعاني والرقائق.

قال بعض العلماء بالله تعالى «الشاذلية لهم رقيقة من الوحي» قلت: ولهذا امتازت هذه الطائفة بين الصوفية بالمشرب الغريب والمأخذ القريب والفتح العجيب.

وقال بعض العارفين «الشاذلية» أصول لهم أساس من الرسول، وقال بعض «الشاذلية قضاة الطريق»، وقال الشيخ أبوالعباس المرسي رضي الله عنه «إذا أراد الله أن ينزل بلاء سلم منه أمة النبي ﷺ فإن كان عموماً سلم منه الشاذلية كذا وجد بخط شيخ الإسلام قاضي القضاة ناصر الدين المليق رحمة الله عليه.

وقال القطب العارف بالله سيدي ناصر الدين محمد الشاذلي لتلميذه العارف بالله سيدي محمد الشريف «يا محمد إذا أراد الله بعبد سوءاً سلطه على شاذلي» وقال بعض الصالحين من الشاذلية للسيد الكبير «العارف بالله «ماضي» خادم الشيخ أبي الحسن الشاذلي «يا سيدي إن الأمير الفلاني شوش علي فقال له سيدي ماضي

«أذهب إليه وقل له ما بي إلا السادة الشاذلية تشوش عليهم، بعد ثلاثة عشر يوماً تضرب عنقك، فأتى إليه وأخبره كما قال له الشيخ، فما مضت عليه المدة المذكورة حتى ضربت عنقه.

وكان الأستاذ المسلك قطب الدائرة شمس الدين الحنفي يقول: إن أدنى رسل الشاذلية إلى من عاداهم العمى والكساح وخراب الديار، وأنا من الشاذلية لأنه رضي الله عنه جاءه رجل فقال له: يا سيدي إن الأمير الفلاني ظلمني فأرسل إليه رسولاً يطلبه فامتنع الأمير ولم يأت إليه فأرسل إليه ثانياً وقال للرسول: قل له إن لم تأت إلى الشيخ أرسل إليك رسولاً من رسله فإذا قال لك من رسله؟ قل له العمى والكساح وخراب الديار.

فلما أتى الرسول إلى الأمير أخبره بما قاله الشيخ فامتنع أيضاً عن الحضور بين يديه ثم لم يمض إلا ليالٍ قليلة وابتلاه الله بالعمى والكساح إلى أن مات وخربت داره إلى يومئذ.

وأخبرني بعض أصحابنا قال رأيت الشيخ العارف بالله أبا المواهب التونسي رحمه الله في المنام وبعض تلامذته معه أوراق يقرأ عليه فيها وعلى حاشيتها مكتوب الشاذلية «تعلو ولا يعلى عليها» فانظر رحمك الله بعين الأدب إلى هذه الطائفة أرباب المقامات السنية وإلى ما خصهم الله من العلوم الدنية والمنازلات القرية فعليك يا هذا بحبهم فعسى تظفر بقربيهم وتدخل في حمايتهم «وتصير في حزبهم» كما قيل. تمسك بحب الشاذلية تلق ما تروم فحقق ذلك منهم وحصل ولا تعدون عيناك عنهم فإنهم شمس هدى في أعين المتأمل وكن عبدهم وألق السلاح ولا تكن جموحاً فتهوى في الوهاد الأسفل ولا تحتجب عنهم بلبس لباسهم فأنوارهم في السر والجهر تنجلي وجاهد تشاهد كي تراهم حقيقة فما فقدوا كلا ولكن بمعزل على كل «عين» ليس ينحو طريقهم مطيع لشيطان غوى وأندل وما حجبوا إلا على أكمه غدا عمياً عن البدر المنير «المكمل» تراهم إذا جلست مرأتك التي «تعابنها» محجوبة بتغفل هم أهل بيت «للأفاضل» قد حووا فيا حبذا بيت حوى كل أفضل

وخذ عنهم وصف الكمال لعل أن
فهم قادة لله جلّ جلاله
وهم رحمة منشورة وكرامة
وقال آخر:

تمسك بحب الشاذلي ولا ترد
فأصحاب كالشمس زاد ضياؤها
وقال آخر:

تمسك بحب الشاذلي لتلق ما
مريدوه أقطاب الوجود بأسرهم
ولا تبرحن عنهم بقلب وقالب
وقال آخر:

تمسك بحب الشاذلي فإنه
أبو الحسن السامي على أهل عصره
مريد له في عالم الذر مقتف
يفوز بجنات ورؤية ربه
وقال آخر:

تمسك بحب الشاذلي وحققن
فحسبك من شيخ له الله فاطر
وقال آخر:

تمسك بحب الشاذلي لتلق ما
توسل به في كل حال تريده
وقال الإمام البوصيري صاحب البردة المشهورة في قصيدة طويلة:

إنَّ الإمام الشاذلي طريقه
فانقل ولو قدما على آثاره
في الفضل واضحة لعين المهتدي
فإذا فعلت فذاك أخذ باليد

منها قال رحمه الله تعالى :

أفدي علياً بالوجود وكلنا
قطب الزمان وغوثه وإمامه
ساد الرجال فقصرت عن شأوه
فتلق ما يلقي إليك فنطقه
أو ما مررت على مكان ضريحه
ورأيت أرضاً في الفلاة بخضرة
والوحش آمنة لديه كأنها
ووجدت تعظيماً لقلبك لو سرى
فقل السلام عليك يا بحر الندى

وقال الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن الميلى رحمه الله :

ولو قيل من في ذا الرجال مكمل
لقد كان بحرأ في الشرائع راسخاً
ومن منهل الوحيد قد عب وارتوى
وحاز علومأ ليس تحصى لكاتب
فكن شاذلي الذات تحظى بسره
وإني له عبد عبد لعبد
إذا لم أكن عبداً لشيخى وقدوتي
فيا رب بالسر الذي قد وهبته

وما أحسن قول العارف بالله سيدي علي بن عمر القرشي تلميذ العارف بالله

تعالى قاضي القضاة ناصر الدين بن الميلى رحمه الله تعالى حيث قال :

أنا شاذلي ما حييت وإن أمت فمشورتي في الناس أن يتشذلوا

قلت : قد قيل في وصف هذه الطائفة الشاذلية كثير من الشعر يتضمن التنبيه على
عظيم قدرها فإن الشعر سلك تنظم فيه دور الصفات وتنجلي في مرآته محاسن
الهيئات ويهز الطباع الزكية للمعاني العلية «ويسجع جنان الفهوم ويهيء الطبع

الإنساني لقبول ما اندرج في الوزن المنظوم المقصود من ذلك الاختصار دون التوسع والإكثار .

تنبيه: قال قطب الدائرة شمس الدين الحنفي اختصت الشاذلية بثلاثة أشياء لم تكن لأحد قبلهم ولا بعدهم:

الأولى: أنهم مختارون من اللوح المحفوظ .

الثانية: أن المجذوب منهم يرجع إلى الصحو .

الثالثة: إن القطب منهم دائماً أبداً إلى يوم الدين . . .

قال سيدي أبو الحسن الشاذلي سألت الله تعالى أن يكون القطب في بيتي إلى يوم القيامة فسمعت النداء: يا علي قد استجبنا لك . وإلى هذا أشار الأستاذ القطب سيدي علي بن وفا بقوله: تلميذهم أستاذ كل زمان، وقال بعض المتأخرين من أهل الحقائق مضمناً لذلك حيث يقول:

نشروا لواء العز في الأكوان بعناية سبقت من المنان
وسعادة حكمت لهم بجنان أهل الوفا عزوا بعز الشأن
تلميذهم أستاذ كل زمان

إن السعادة عبدهم قد حازها ومراتب التحقيق فضلاً جازها
وطيورهم قد صاد منها بازها وهو المدقق للنهي الفردي

تلميذهم أستاذ كل زمان

من ساوروه بسرهم في سره أو أدخلوه لدورهم في دورهم
نال المرام بأمرهم في أمره يا سعده خصوه بالعرفان

تلميذهم أستاذ كل زمان

هم أدخلوني للحما عناية وكسوا لحالي في الأنام سيادة
عبد أنا تلميذهم يا سادة حالي بهم عالي على الأقران

تلميذهم أستاذ كل زمان

فلكم فؤادي يمنحون مواهباً وكذلك كم فتحوا إليه مطالباً
وبهم ذكرت مشارقاً ومغارباً هم سادتي عزي بلوغ أمانني

تلميذهم أستاذ كل زمان

قلت: ومن المحكي في ذلك ما اشتهر عن بعض الفقراء من السادة الرفاعية أنه كان سائراً ذات يوم في البرية وإذا هو بسبع قد خرج عليه ليفترسه فقال: يا ابن الرفاعي فإذا هو بيد رجل ردت عنه السبع، ثم إنه دخل إلى الإسكندرية وسأل عمن بها من الأولياء فقبل له بها سيدي علي البدوي أحد أصحاب سيدي ياقوت العرشي فأتى إليه واستأذن في الدخول عليه فأذن له فقال: له سيدي علي المذكور: أتذكر غيرنا؟ أما علمت أن الوقت لنا إلى يوم القيامة؟ أين ابن الرفاعي حين ذكرته لما خرج عليك السبع؟

ومن خصائصهم أيضاً ما قاله الأستاذ سيدي علي بن وفا قدس الله سره: ما ثم وهاب؟ يؤمن عنده من سلب نعمته سوى ساداتي يعني الشاذلية وإلى هذا أشار والده سيدي محمد وفا بقوله: عطايا كرام أمنوا الميل في العطا ولم يسلبوا الموهوب ممن له أعطوا

نسب الشاذلي وصفات طريقته:

فصل: قال الشيخ العالم المحقق سيدي داود المناخلي في شرح حزب البحر: القول الأول في شيء من ذكر بعض أوصاف هذا الدعاء وجلالة مقداره وفخامة منزلته وظهور أنواره؛ فإن صاحب النور الذي قسم له نصيب من السعادة إذا وصف له شيء من صفات الأكابر ولو طرفاً من أخبارهم أو لاح له لامع من بوارق أنوارهم هس بقلبه إليها وأقبل بالود عليها وذلك لوجود المجانسة الحقيقية لما جاء في الحديث: «الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»⁽¹⁾.

فأهل السعادة يعرف بعضهم بعضاً بصفاتهم كما قيل في المعنى يعرفه الباحث في جنسه وسائر الناس له منكر وذلك معلوم عند أهله، فهو السيد الأجل الكبير القطب العارف الوارث المحقق الرباني صاحب الإشارات العلية والحقائق القدسية والأنوار المحمدية والأسرار الربانية والمنازلات العرشية الحامل في زمانه لواء العارفين المقيم دولة المحققين كهف قلوب السالكين وقبلة همم المريدين وزمزم

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب الأرواح جنود مجندة، حديث رقم (3158) [1213/3] ورواه مسلم في صحيحه، باب الأرواح جنود مجندة، حديث رقم (2638) ورواه غيرهما.

أسرار الواصلين وجلاء قلوب الغافلين، منشىء معالم الطريقة بعد خفاء آثارها ومبدي علوم الحقيقة بعد ضعف أنوارها ومظهر عوارف المعارف بعد خفائها واستتارها الدال على الله وعلى سبيل جنته والداعي على علم وبصيرة إلى جنبه وحضرته وأحد أهل زمانه علماً وحالاً ومعرفة ومقالاً، الشريف الحسيب النسيب ذو النسبين الطاهرين الجسدية والروحية والسلالتين الطيبتين الغيبية والشاهدية والوارثتين الكريمتين الملكية والملكوية المحمدي الصلوي الحسن الفاطمي الصحيح النسبتين والكريم العنصرين فحل الفحول إمام السالكين على الشاذلي الذي تغنيك سمعته عن مدح أو قول متحل، الأستاذ المربي الكامل أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز، بن حاتم بن قصي بن ابن يوشع، بن ورد، بن بطال، بن أحمد، بن محمد بن عيسى بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه جاء في طريق الله تعالى بالأسلوب العجيب والنهج الغريب والمسلك العزيز القريب جمع في ذلك بين العلم والحال والهممة والمقال.

اشتملت طريقته على السلوك والجذب والمجاهدة والعناية واحتوت على الأدب والقرب والتسليم والرعاية شيدت بالعلمين الظاهر والباطن في سائر أطرافها وقرنت بصفات الكمال شريعة وحقيقة من جميع أكنافها، تيامنت عن سكر يؤدي إلى تعدي الآداب الشرعية وتياسرت عن صحو يفضي إلى الحجاب عن أولى الألباب وتدللت على حقائق التوحيد وأسرار المشاهد وتسامت عن انقباض يوقع في الانكماش وسوء الظن وتحجبت عن روح الرجاء ولذاذة الشوق والطلب وتناءت عن انبساط ينزل بصاحبه عن مقام الاحتشام والحياء ويؤول به إلى سوء الأدب فاستوت بتوفيق الله تعالى في نقطة الاعتدال وظفرت بهداية الله دون كثير من الطرق بوصف التوسط والكمال.

ثم قال أيضاً: وأما جلالة هذا السيد الكبير سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه خصوصاً فهو أمر قد ظهر وانتشر وشاع في البدوة والحضر وهو أستاذ هذه الطائفة ورأس طريقهم وحامل لواء جيشهم وعلى يديه بسقت أغصانها وأينعت ثمارها وبعباية الله تعالى فيه وعظيم منته رسخت أصولها وفاحت أزهارها بما أودع الله فيه وخصه به من النور المحمدي هتفت حمائمها، وانهزم جيش ظلام غوايتها، وطلعت في نار شهودها شمس معارفها وفي دليل رجوعها إلى خدورها بشموسها

وأقمارها... ظهر - رضي الله عنه وعني به أمين - ونشر أشياخه المتقدمين وأسس القواعد لأتباعه المتأخرين.

من أخبار أبي الحسن الشاذلي - رضي الله عنه :

اجتمع على إثبات ولايته وعظيم خصوصيته من كان في زمانه من أولياء الله العارفين، واعترف بعلو منزلته من عاصره من أكابر علماء الدين أما الأولياء العارفون فقد ذكره الشيخ الصفي بن أبي المنصور رحمه الله تعالى في رسالته وأثنى عليه الثناء العظيم على حسب معرفته به وذكره الشيخ ابن النعمان وشهد له بالقطبية، وذكره الشيخ قطب الدين القسطلاني في جملة من لقيه من المشايخ.

وقد ذكر الإمام تاج الدين بن عطاء الله - رضي الله عنه - في كتابه الموسوم «بلطائف المنن في فضائل الشيخ أبي العباس وشيخه أبو الحسن» من ذلك جملة كافية مقنعة تنشرح بمطالعتها الصدور، ويزداد المحبة بأنوارها وبسماعها نوراً على نور. قلت: وممن ترجمه من أكابر الفقهاء المتأخرين شيخ الإسلام ابن الملقن في طبقات الأولياء وغيره من الأئمة ممن عاصره وتأخر بعده وكان رضي الله عنه مُتَّبِعاً في سائر علوم الدين بحيث لم يدخل في طريق الله مثله حتى كان يعد للمناظرة في العلوم الظاهرة.

سلوكه طريق القوم:

قال ابن الصباغ في «درة الأسرار وتحفة الأبرار»: وأما مولده - رضي الله عنه - فبغمارة ثم دخل مدينة تونس صغيراً وتوجه على الديار المصرية - وحج حجج كثيرة ودخل العراق.

قال رضي الله عنه: لما دخلت العراق اجتمعت بالشيخ الصالح ابن أبي الفتح الواسطي فما رأيت بالعراق مثله وكان مطلبي القطب فقال لي بعض الأولياء: أنت تطلب القطب وهو ببلاذك ارجع إلى بلادك تجده، فرجع إلى بلاد الغرب إلى أن اجتمع بأستاذه وهو الأستاذ العارف الشيخ الصديق القطب الغوث أبو محمد بن عبد السلام بن بشيش.

قال رحمه الله: لما قدمت عليه وهو ساكن بمغارة في راقطة في رأس الجبل اغتسلت في عين أسفل ذلك الجبل وصرت على طهارة وخرجت عن علمي وطلعت

إليه فقيراً وإذا به هابط إليّ وعليه مرقعة وعلى رأسه قلنسوة من خوص، فقال لي: مرحباً بعلي بن عبد الله بن عبد الجبار فذكر نسبي إلى رسول الله ﷺ ثم قال لي: يا علي طلعت إلينا فقيراً عن علمك وعملك فأخذت ممناً غنى الدنيا والآخرة...

قال: فأخذني منه الدهش وأقمت عنده أياماً إلى أن فتح علي بصري ورأيت له خرق عادات، فمنها أني كنت جالساً بين يديه وفي حجره ابن له صغير فخطر ببالي أن أسأله عن اسم الله الأعظم فقال: فقام إليّ الولد ورمى بيده في طوقي وهزني وقال: يا أبا الحسن... أنت أردت أن تسأل الشيخ عن اسم الله الأعظم، إنما الشأن أن تكون أنت هو اسم الله الأعظم، يعني أن سر الله مودع في قلبك، قال: فتبسم الشيخ وقال لي: جاوبك فلان عني. وكان إذ ذاك قطب الزمان ثم قال لي: يا علي ارتحل إلى إفريقية واسكن ببلد تسمى شاذلة، فإن الله عزّ وجلّ يسميك الشاذلي وبعد ذلك تنتقل إلى الديار المصرية وبها ترث القطابة.

فقلت له: يا سيدي أوصني، فقال: يا علي الله الله، والناس الناس ترد لسانك عن ذكرهم وقلبك عن التماثيل في قبيلهم وعليك بحفظ الجوارح وأداء الفرائض وقد تمت ولاية الله عندك ولا تذكرهم إلا بواجب حق الله عليك وقد تم ورعك، وقل اللهم ارحمني من ذكرهم ومن العوارض من قبلهم، ونجني من شرهم، وأغني بخيرك من خيرهم وتولني بالخصوصية من بينهم، إنك على كل شيء قدير.

قال ابن الصباغ رحمه الله تعالى -: ولما توجه عن أستاذه إلى إفريقية وأمره بالنقلة إلى شاذلة وصل إلى مدينة تونس إلى جهة مصلى العيد فتلقى بها حطاباً من أهل شاذلة قال فخرجت معه متوجهاً إليها على نحو ما أمر الأستاذ به، فنسي الحطاب حاجة في السوق فرجع قاصداً إليها وترك الحمار عندي، فلما توجه قال في نفسه هذا رجل غريب يهرب لي بالحمار وأبقى في عدمه، فناداه الشيخ فرجع إليه فقال له: يا رجل خذ حمارك معك وانتظر حتى تعود إلي لئلا أهرب لك بالحمار على زعمك وتبقى في عدمه.

فقال الحطاب في نفسه: والله ما اطلع على هذا إلا الله تعالى فبكي وعلم بولايته فجعل يقبل يديه ويسأله الدعاء ثم انصرف لحاجته وعاد إليه فحلف عليه أن يركب الحمار وأردفه خلفه قال: فمشينا قدر الميل، وإذا بالشيخ نزل، وإذا نحن عند الساقية بطرف شاذلة قال: فأخذني الدهش وهجمت عليه وقلت له يا سيدي أنا مبتلى

بالفاقة أحتطب الحطب وأبيعه فما أصل إلى القوت إلا بعد جهد، وكان في طرف ردائي شعير اشتريته برسم قوت العيال وعلف الحمار فقال لي هات ذلك الشعير فحللت طرفي، فأدخل يديه فيه وقال: اجعل ذلك الشعير في قفة وأغلق عليه وأدخل يدك واكلوا منه وما بقيت تشتكي الفاقة أبداً أسأل الله أن يغنيك ويغني ذريتك فلم ير في ذريته فقيراً إلى الآن.

قال: فجعلت أدخل يدي وأخرج وانصرف وحرثت على الحمار وزرعت منه فوجدت إصابة كبيرة وحللت عليه واكلته فوجدته على نحو ما كان فلما دخلت عليه قال لو لم تكله لأكلتم منه ما دام عندكم.

وكان أول من صحبه بشاذلة الشيخ الإمام الولي المكاشف أبو محمد عبد الله بن سلامة الحبيبي من شاذلة كان يدخل مدينة تونس ويحضر مجلس الإمام العارف بالله تعالى أبي جعفر الجاسوس قال: فأخذت بيده يوماً فقلت له: يا سيدي: أتخذك شخي، فقال لي: يا بني ارتقب أستاذك حتى يصل إلى الغرب، حسني من كبار الأولياء هو أستاذك وإليه تنسب.

وكان يرتقبه وكل من الفقراء المغاربة يصحبه حتى قدم الشيخ إلى شاذلة فاجتمع به وصحبه ولازمه، وتوجه إلى جبل زغوان تعبد معه وجاهد معه وقتاً طويلاً ورأى منه كرامات، كثيرة فمنها ما حكى عنه قال: قرأ يوماً على زغوان سورة الأنعام إلى أن بلغ قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تَعَدَّلْ كُلُّ عَدْلٍ لَّا يُؤَخِّدْ مِنْهَا ﴾ [سورة الأنعام، آية: 70]، أصابه حال عظيم، وجعل يكررها ويتحرك فكلما مال إلى جهة مال الجبل نحوها حتى سكن الشيخ فسكن الجبل . . .

قال ابن الصباغ: وحدثنا الشيخ الصالح أبو الحسن على الأبري المعروف بالخطابي قال: قلت: يوماً لسيدي أبي محمد عبد الله الحبيبي: أخبرني عن بعض ما رأيت لسيدنا أبي الحسن الشاذلي قال: رأيت أشياء كثيرة وسأحدثكم بعض ذلك، أقمت معه بجبل زغوان أربعين يوماً أفطر على العشب وورق الدفلا حتى تقرحت أشداقي فقال لي: يا أبا عبد الله كأنك اشتهيت الطعام فقلت: يا سيدي نظري إليك يغنيني عنه، فقال لي: غداً إن شاء الله نهبط إلى شاذلة وتلقى في الطريق كرامة قال: فهبطنا في صبيحة غد فلما هبطنا قال لي في وطاء الأرض حين مشينا: يا عبد الله إذا خرجت عن الطريق فلا تتبعني.

قال: فأصابه حال عظيم وخرج عن الطريق حتى بعد عني فرأيت طيوراً أربعة

على قدر البلّارجة تنزل من السماء وصفت على رأسه ثم جاء إليه كل واحد منهم وحادثه ثم طاروا ومعهم طيور على قدر الخطاطيف وهم أيضاً يحفون به من الأرض إلى عنان السماء ويطوفون حوله ثم غابوا عني ورجع عليّ فقال: يا عبد الله هل رأيت شيئاً؟ فأخبرته بما رأيت فقال لي: أما الطيور الأربعة فمن ملائكة السماء الرابعة أتوا إليّ يسألوني عن علم فأجبتهم عنه وأما الطيور التي على شكل - الخطاطيف فأرواح الأولياء أتوا إليّ يتبركون بقدمنا.

وأقام بجبل زغوان زمناً طويلاً وأنبع الله تعالى له عيناً تجري بالماء العذب، وله هناك مغارة كان يسكنها ويسمع الآن الأذان من أسفل الجبل عن أوقات الصلاة فيصعد إليها فلا يوجد أحد يعمرها غير أصحابه من مؤمني الجن قال - رضي الله عنه -: قيل لي يا علي اهبط إلى الناس تنتفع بك، فقلت يا رب أقلني من الناس فلا طاقة لي بمخاطبتهم فقل لي: انزل فقد صحبتك السلامة ورفعنا عنك الملامة فقلت: يا رب تكلني إلى الناس آكل من ذرياتهم فقل لي: أنفق يا علي فأنا الملىء إن شئت من الجيب، وإن شئت من الغيب.

فدخل إلى تونس وسكن بها داراً بمسجد البلاط وصحبه جماعة من الفضلاء منهم الشيخ أبو الحسن علي بن مخلوف الصقلي وأبو عبد الله الصابوني، والشيخ أبو محمد عبد العزيز الزيتوني، وخدامه أبو سلطان ماضي وأبو عبد الله البخاري الخياط، وأبو عبد الله الخارجي... كلهم أصحاب كرامات ومعارف وأسرار نفعنا الله بجمعهم وأقام - رضي الله عنه - مدة إلى أن اجتمع عليه خلق كثير فسمع به الفقيه أبو القاسم بن البراء وكان إذ ذاك قاضي الجماعة فأصابه منه حسد فوجه إليه فلم يقدر على التمكن منه فقال للسلطان: إن هنا رجلاً من أرض شاذلة سراق الحمير يدعي الشرف وقد اجتمع إليه خلق كثير، ويدعي أنه الفاطمي ويشوش عليك في بلدك.

قال الشيخ رضي الله عنه: يا رب لم سميتني الشاذلي ولست بشاذلي؟ فقل لي: يا علي ما سميتك الشاذلي، إنما الشاذلي بتشديد الذال المعجمة يعني المنفرد لخدمتي ومعرفتي، وكان السلطان الأمير أبو زكريا - رحمه الله - فجمع ابن البراء جماعة من الفقهاء وجلس السلطان خلف حجاب وحضر الشيخ رضي الله عنه وسألوه عن نسبه مراراً والشيخ يجيبهم عليه والسلطان يسمع وتحذثوا معه في كل العلوم فأفاض عليهم بعلوم أسكتهم بها، وما استطاعوا أن يجابوه عليها من العلوم

الموهوبة والشيخ يتكلم معهم في العلوم المكتسبة ويشاركهم فيها .
فقال السلطان لابن البراء: هذا الرجل من أكابر الأولياء وما لك به طاقة . فقالوا
والله لئن خرج في هذه الساعة لتدخلن عليك أهل تونس ويخرجونك من بين
أظهرهم فإنهم مجتمعون على بابك قال: فخرج الفقهاء وأمر الشيخ بالجلوس .
فقال: لعل أن يدخل علي بعض أصحابي، فدخل عليه بعض أصحابه فقال له:
يا سيدي الناس يتحدثون في أمرك ويقولون به كذا وكذا من أنواع الأذى وبكى بين
يديه فتبسم وقال لولا أنني أتأدب مع الشرع لخرجت من هاهنا ومن هاهنا وأشار بيده
فمهما أشار إلى جهة انشق يعني الحائط ثم قال اتنني بإبريق ماء وسجادتي وسلم على
أصحابي وقل لهم: ما يغيب عنكم إلا يوماً واحداً وما يصلي المغرب إلا معكم إن
شاء الله تعالى ثم توضأ الشيخ وتوجه إلى الله .

قال رضي الله عنه: فهمت أن أدعو السلطان فقبل لي: إن الله لا يرضى لك أن
تدعو بالجزع في مخلوق فألهمت أن أقول يا من ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا
يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [سورة البقرة، آية: 255] أسألك الإيمان بحفظك
إيماناً يسكن به قلبي من هم الرزق وخوف الخلق، واقرب مني بقدرتك قرباً تمحق
به عني كل حجاب محقته عن إبراهيم خليلك، فلم يحتج لجبريل رسولك، ولا
لسؤاله منك، وحجبه بذلك عن نار عدوه، وكيف لا يحجب عن مضرة الأعداء من
غيبته عن منفعة الأحياء؟ كلا .

إني أسألك أن تغيبني بقربك مني حتى لا أرى ولا أحس بقرب شيء ولا يبعده
عني إنك على كل شيء قدير . . . وكان عند السلطان جارية من أعز نسائه عليه
أصابها وجع فماتت في حينها فغسلت في بيت سكنها واشتغلوا في دفنها فنسيت
المجمره بالنار في البيت فلهبت النار ولم يشعروا بها حتى احترق كل ما في البيت
من الفرش والثياب وغير ذلك من الذخائر .

فعلم السلطان أنه أصيب من قبل هذا الولي فسمع بذلك أخو الملك أبو عبد الله
اللحياي فأتى مبادراً إليه وكان كثير الاعتقاد والزيارة للشيخ فقال لأخيه: ما هذا الذي
أوقعك فيه ابن البراء؟ أوقعك والله في الهلاك أنت ومن معك، فدخل عليه وجعل
يقول له يا سيدي أخي والله غير عارف بمقدارك وجعل يقبل يده ويسأله الصفح عنه
فقال والله لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً فكيف يملكها
لغيره كان ذلك في الكتاب مسطوراً .

وخرج الشيخ أبو عبد الله اللحياني صحبة الشيخ رضي الله عنه إلى داره فأقام الشيخ أياماً، ثم باع ربه الذي بناه بمسجد بلاط وأمر أصحابه بالنقلة إلى الديار المصرية ووجه إلى ابن البراء وقال له: تراني أوسع عليك مدينة تونس قال خادمه الشيخ أبو العزائم ماضي رحمه الله: لقي الشيخ يوماً ابن البراء فسلم عليه الشيخ فأعرض عنه ولم يرد عليه السلام وإذا بالفقيه أبي عبد الله بن أبي الحسن خادم السلطان فلما رآه ترجل عن بغلته وبادر إلى الشيخ وجعل يقبل يديه ويبيكي ويسأله الدعاء، قال: فدعا له وانصرف فلما دخل الدار قال خوطبت الآن في هذين الاثني فقبل لي: يا علي وُسِمَ عبد بالشقاء علم الحق وتعامى عنه ولو علم ما علم، ووسم عبد بالسعادة علم الحق وأتى عليه ولو عمل ما عمل، قال: وما سمع من الشيخ أنه دعي عليه، ولا ذكره بسوء حتى كنا بعرفات يوم عرفة قال: أمنوا على دعائي فالآن أمرت بالدعاء على ابن البراء فكان من دعائه أنه قال: اللهم طول عمره ولا تنفعه بعلمه وافتنه في ولده واجعله في آخر عمره خادماً للظلمة.

قال ولما توجه رضي الله تعالى عنه سمع السلطان فتغير لخروجه من بلاده فوجه إليه من يرده فقال الشيخ: ما خرجت إلا بنية الحج إن شاء الله تعالى. ولكن إن قضى الله حاجتي أعود إن شاء الله. فلما توجهنا إلى السوق ودخلنا الإسكندرية عمل ابن البراء عقداً بالشهادة أن هذا الواصل إليكم شوش علينا ببلادنا وكذلك يفعل في بلادكم فأمر السلطان أن يعقل بالإسكندرية فأقمنا أياماً.

وكان السلطان رمى رمية على أهل البلد وكان مشايخ البلد يقال لهم القبائل فلما سمعوا بالشيخ أتوا إليه يطلبونه في الدعاء فقال لهم غداً إن شاء الله تعالى نساfer إلى القاهرة ونتحدث مع السلطان فيكم.

فسافرنا وخرجنا من باب السدرة والباب فيه الحيادرة والولى: فلا يخرج أحد ولا يدخل أحد حتى يفتش فما كلمنا أحد ولا علم بنا، فلما وصلنا القاهرة أتينا القلعة: فاستؤذن على السلطان فقال: كيف ونحن أمرنا أن يعقل بالإسكندرية؟ فدخل على السلطان والقضاة والأمراء مجتمعون فجلس معهم ونحن ننظر إليه فقال له الملك: ما تقول أيها الشيخ؟ قال جئت أشفع إليك في القبائل: فقال: اشفع في نفسك، هذا عقد بالشهادة فيك وجهه ابن البراء فيك من تونس بعلامته فيه ثم ناوله إياه فقال له أنا وأنت والقبائل في قبضة الله، وقام الشيخ: فلما مشى قدر العشرين

خطوة حركوا السلطان فلم يتحرك ولم ينطق . فبادروا إلى الشيخ وجعلوا يقبلون يديه ورجليه ويرغبون في الرجوع فرجع وحركه بيده فتحرك ونزل عن كرسیه وجعل يستحله ويرغب منه في الدعاء ثم كتب إلى الوالي بالإسكندرية أن يرفع الطلب عن القبائل ويرد جميع ما أخذه لهم وأقام عندهم في القلعة أياماً واهتزت بنا الديار المصرية إلى أن طلعتنا إلى الحج ورجعنا إلى مدينة تونس .

وسكن الشيخ القلعة بداخل باب الحديد ببطحاء الشعرية - داراً تفتح للجنوب وأقام بها وقتاً إلى أن قدم سيدي الشيخ الكبير أبو العباس المرسي الذي ورث مقامه فقدم من بلاد الأندلس صغيراً وأخوه أبو عبد الله وكان معلماً للصبيان بالإسكندرية . فلما اجتمع الشيخ به ورآه قال : ما ردني إلى تونس إلا هذا الشاب فرباه وسلوكه وسار إلى الديار المصرية .

قال رضي الله عنه : رأيت رسول الله - ﷺ - فقال لي : يا علي انتقل إلى الديار المصرية تربي بها أربعين صديقاً وكان في زمان الصيف وشدة الحر فقلت : أخاف العطش ، فقال : إن السماء تمطركم في كل يوم أمامكم ، قال فوعدني في طريقي سبعين كرامة قال فأمر أصحابه بالحركة وسافر متوجهاً لديار مصر وكان ممن صحبه في سفره الإمام الولي الصالح أبو علي السقاط ، نفع الله ببركتهما في الدنيا والآخرة .

قال ابن الصباغ حدثني والدي - رحمه الله - قال حدثني الشيخ الصالح المعري أبو عبد الله الناسخ قال توجهت صحبتهم في خدمة أبي علي كلما وصلنا إلى مدينة طرابلس قال الشيخ نتوجه على الطريق الوسطى واختار الشيخ أبو علي طريق الساحل ، فرأى الشيخ أبو علي رسول الله ﷺ فقال له : يا أبا علي أنت ولي الله ، وأبو الحسن ولي الله ولن يجعل لولي علي ولي من سبيل أمشي على طريقك التي اخترت وهو على طريقه التي اختارها . قال فافترقنا إلى أن اجتمعنا بمقبرة في الإسكندرية فلما صليت الصبح توجه الشيخ أبو علي إلى خباء الشيخ أبي الحسن ونحن بصحبته : فدخل عليه وجلس بين يديه وتأدب معه أدباً لا اعتقاده فيه وتحدث معه بكلام لا نعرفه ولا فهمنا منه كلمة ، فلما أراد الانصراف قال هات يدك أقبلها فقبل يده وانصرف وهو يبكي فتعجبنا من ذلك .

فلما كان في أثناء الطريق التفت إلى أصحابه وقال : البارحة رأيت رسول الله ﷺ وقال لي : كان أبو الحجاج الأقبصري بالديار المصرية وكان قطب الزمان فمات

البارحة، فأخلفه الله بأبي الحسن الشاذلي. قال: فأتيت إليه وبايعته بيعة القطابة، فلما وصلنا إلى الإسكندرية، وخرج الناس يتلقون الركب رأيت الشيخ أبا علي يضرب بيديه على مقدم الرحل وهو يبكي ويقول يا أهل هذا الإقليم لو علمتم من قدم عليكم لقبلمت أخفاف بعيره، قدمت عليكم البركة.

قال الشيخ أبو الحسن - رضي الله عنه - لما قدمت على الديار المصرية. قيل لي: يا علي ذهبت أيام المحن وأقبلت أيام المنن عشرًا بعشرًا اقتداءً بجدك - ﷺ - سكن رضي الله عنه ببرج من أبراج السور حبسه السلطان عليه وعلى ذريته وأقام أعوامًا يحج عامًا ويقيم عامًا فلما كان في العام الذي يحج فيه تحرك الترك على الديار المصرية واشتغل السلطان بالحركة عليهم فلم يجهز الجيش للركب فأخرج الشيخ خيامه إلى البركة التي ينزل بها الحاج خارج القاهرة واتبعه ناس قال: واجتمع بالفقيه الأجل سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام وسألوه عن السفر على الفور وعزم الجيش، فأخبر بعض الناس الشيخ بذلك فقال اجمعوني به: فاجتمع به في الجامع يوم الجمعة فاجتمع عليهما خلق كثير فقال له: يا فقيه أرأيت أن رجلاً جعلت له الدنيا خطوة واحدة هل يباح له السفر في المخاوف أم لا؟ فقال له: من قام على هذه الحال لله فخارج عن الفتوى وغيرها، فقال أنا أقسم بالله إنني ممن جعلت لي الدنيا خطوة واحدة بسهلها وجبالها وبرها وبحرها فإذا رأيت ما يخيف الناس أتخطى بهم إلى الأمن. ثم سافر رضي الله عنه فظهرت له في الطريق كرامات كثيرة فمنها أن اللصوص كانوا يأتون إلى الركب فيجدون سوراً مبنياً كالمدينة فإذا أصبحوا يأتون إليه ويخبرونه ويتوبون إلى الله تعالى ويسافرون صحبته إلى الحج فلما قضى الحج ورجع ودخل أول المشاة إلى القاهرة وأخبروا بها. رأوا في مواهب الله تعالى له فخرج الشيخ الفقيه عز الدين بن عبد السلام لملاقاته إلى البركة، فلما دخل عليه قال له: يا فقيه لولا تأدبي مع جدي رسول الله ﷺ لأخذت الركب من هاهنا يوم عرفة وتخفيت به إلى عرفات. فقال له الشيخ عز الدين: آمنت بالله، فقال له انظر حقيقة ذلك فنظر كل من حضر إلى البيت العتيق فصاح الناس وحط الشيخ عز الدين رأسه في الأرض يعني نكس رأسه وقال له: أنت شيخني في هذه الساعة فقال الشيخ: أجل.

فصل

تدرج القطبية

قال العارف بالله تعالى شهاب الدين أحمد بن الشيخ فخر الدين بن أبي بكر
اليمني القرشي :

وأول أقطاب الأمة الشريفة الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ثم
واحد بعد واحد إلى أن وصلت إلى الشيخ الإمام القطب الغوث الفرد الجماع سيدي
عبد القادر الكيلاني - رضي الله عنه - فتصرف بأمر الله وتحرك بإذنه وتحكم في خلقه
بحقه، وولى وعزل، وهدى وخذل وأحيا وقتل وأمراض وشفى، ومنح وأعطى،
ووصل وقطع وحمى ودفع وسلب وحجب، وأعطى المحب ما طلب وفعل بأمر الله
ولا عجب، ثم بعده حكم الإله بإخفاء صاحب هذا المقام وعزته وصونه وقوته
وفيضه على الدوام وإخفائه جلّ وعلا عن الخلق بحكمة من الله الملك الحق المبين .
ثم أظهر الله الولي الكبير ذا النور الكثير القطب الشهير صاحب المنهل العزيز
الشريف الحسن بن الفاطمي القاصمي المحمدي ظاهر الوراثة الشريفة والحقيقة،
وإمام الطريقتين السلوكية والجذبية، أستاذنا الإمام شيخ شيوخ الإسلام أوحد العلماء
الأعلام بركة الأنام القطب الغوث الفرد الجامع البحر المحيط أبا الحسن الشاذلي -
رضي الله تعالى عنه ونفعنا بعلومه - .

فظهر بالخلافة الكبرى والولاية الكبرى والقطبية العظمى والغوثية الفردية
وخصه الله بعلوم الأسماء ومن عليه بإعلاء مقامات الأولياء وأخص خصوصيات
الأصفياء وانفرد في زمنه بالمقام الأكبر والمدد الأكثر والعطاء الأنفع والنوال الأوسع
وتصرف في أحكام الولاية ومددها بالإذن والتمكين وانفرد بسؤدها حق اليقين،
وأمد الأولياء أجمعين وأم بالصدّيقين، ونال المقام الفرد الذي لا تجوز المشاركة فيه
بين اثنين عند المحققين .

وأجمع على ذلك من عاصره من العلماء العارفين والأولياء المقربين وخواص
الصدّيقين، وشهدوا بقطبانيته وفرديته وأمر أن يقول بحضور أكابرهم: قدمي هذا

على جبهة كل ولي لله، وقال ذلك ممثلاً للأمر معظماً للقدر مقرأً بالعبودية ولا فخر ولما قال لبعض الأولياء: إنه ليتنزل علي المدد فأرى سريان الحوت في الماء والطيران في الهواء، فقال له ذلك الولي: فأنت إذاً القطب، فقال أنا عبد الله أنا عبد الله، وما نازعه أحد من أولياء عصره وعلماء زمانه لظهوره بالحق المبين غير أن ابن البراء قاضي القضاة بالمغرب في بدايته عاداه حسداً فمات كمدماً فلما استحكمت عداوته وزاد حسده سلب العلم فعاش طويلاً يتكفف بالأبواب ولا يجد القوت.

قال سيدي أبو الحسن علي بن عمر القرشي قيل إن الشيخ أبا سعيد القليوبي والشيخ علي بن الهيثمي قالوا يوماً للشيخ أبي الحسن الشاذلي: يا سيدي هل يأتي بعدك من هو مثلك في هذا الشأن ويتكلم بهذا اللسان ويظهر بما ظهرت في الفرقان، فقال رضي الله عنه مجيباً لهم ببيتين من الشعر:

أنا راغب فيمن تقرب وصفه ومناسب لفتى يلاطف لطفه
ومعارض العشاق في أسرارهم في كل معنى لم يسعهم كشفه
وقال القرشي أيضاً إذا ذكرت سيدي أبا الحسن الشاذلي: فقد ذكرت سيدي عبد القادر الكيلاني وإذا ذكرت سيدي عبد القادر الكيلاني فقد ذكرت سيدي أبا الحسن لتوحد المقام فهما، ولأن سرهما واحد لا يفترقان ولذلك قال شيخنا الإمام رضي الله عنه في ذلك من الأقوال:

الشاذلية قادرية وقتهم قد خصصوا بحقائق الفرقان
صرح بذكرك فضلهم تحظى بما قد شاهدوا في فضله ببيان
وقال القرشي أيضاً: رأيت النبي - ﷺ - وأنا بيت المقدس فقال لي: اقتد بأبيك أبي الحسن الشاذلي فخطر لي أن مشايخ الشاذلية بالشام ومصر بالمغرب أكثر فرأيته - ﷺ - ثانياً فقال خذ عن سيدك الشيخ ناصر الدين بن الميلىق، قال فتوجهت إليه بأمر النبي - ﷺ - وأخذت الميراث المحمدي الأحمدي القاسمي الشاذلي.

قلت: أخبرني شيخنا أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الميلىق المعروف بابن الشيخ العارف بالله تعالى سيدي علي بن عمر المذني القرشي أنه قال: رأيت النبي - ﷺ - في المنام وسألته عن القطب الرباني: أين هو؟ فقال لي بمصر يا علي فقلت: يا رسول الله ما اسمه؟ فقال: اسمه محمد، فقلت يا رسول الله اسم محمد كثير فقال يعرف بابن الميلىق، فأتيت إليه من بلاد اليمن فسألت عنه فقيل لي: إنه بجامع

المارداني يتكلم على الناس هناك فأتيت إليه، وجلست عنده حتى فرغ فأخبرني بجميع ما وقع لي في عمري من حين بلغت إلى ذلك الوقت .

(تنبيه): قال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في لطائف المنن أدخل الشيخ مسلم السلمي على سيدي أبي الحسن الشاذلي وهو بقلعتي إسكندرية، فقلت يا سيدي: دلوني عليك أنك تدل الخلق على الله فقال له: تلك لعامة الأولياء بل الرجل الكامل من يقول لك ها أنت وربك .

وقال - رضي الله عنه : قيل لي : يا علي مننت عليك بخصلتين لم أعطهما لأحد قبلك ولا بعدك :

إحدهما: من صحبتك لا يصحب غيرك أبداً .

والثانية: من يسمع كلامك لا يسمع كلام غيرك أبداً .

فإن تصحبوا غيري فلا أمنعكم فإن رأيتم منهلاً أعذب من هذا المنهل فردوه، وقال أيضاً - رضي الله عنه - عند موته: والله لقد جئت في الطريقة بما لم يأت به أحد، وقال رضي الله عنه: أعطيت سجلاً مد البصر فيه أصحابي وأصحاب أصحابي إلى يوم القيامة عتقاً لهم من النار وقال أيضاً - رضي الله عنه -: قيل لي: يا علي ما شقي من رآك عين المحبة والتعظيم ولا من رأى من رآك ولو شئت لأطلقت ذلك إلى يوم القيامة .

قال الشيخ أبو عبد الله القاطبي: كنت أترضى عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي في كل ليلة مراراً وأسأل الله به في جميع حوائجي فأجد منها النجاح والقبول . فرأيت النبي - ﷺ - في المنام فقلت: يا رسول الله إنني أترضى في كل ليلة عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي بعد صلاتي وأسأل الله به حوائجي فأجد فيها القبول . أترى علي في ذلك شيئاً إذا تعديتك؟ فقال - ﷺ - أبو الحسن ولدي حساً ومعنى والولد جزء من الوالد فمن تمسك بالجزء تمسك بالكل ، فإذا سألت الله تعالى بأبي الحسن فقد سألته بي .

وقال الشيخ العارف بالله تعالى سري الدين محمد بن المليق: كَلَّم القُطْب أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه في دمنهور الوحش بالبحيرة بكلام عظيم غريب لم يسمع من أحد قبله وصار يقول في تقرير كلامه: قال لي جدي رسول الله ﷺ وكان في المجلس رجل مغربي من أكابر الأولياء المتمكنين، فأنكر ذلك في نفسه فقال:

أين الشيخ وأين جده في هذا الوقت؟ فقام من المجلس وتوجه إلى زاوية الشيخ مجاهد المغربي بدمنهور المذكور.

فلما دخل الليل نام، فرأى النبي - ﷺ - وهو يقول له: يا فلان ما صدقت ولدي أبا الحسن! نعم كل ما قاله قلت له، فانتبه من نومه وقال للشيخ مجاهد: امض بنا إلى الشيخ أبي الحسن الشاذلي فقال له: ما حاجتك بالشيخ أبي الحسن في هذا الوقت فقال: لا بد لي من ذلك فلما حضر ميعاد قال له: يا فلان ما صدقت حتى سمعت بأذنيك، وعزة الله لئن لم تخرج من هذه البلدة لأسلبنك، فخرج من وقته، وقال رضي الله عنه: إن الله مكنتني من ناصية كل ولي لله إلى يوم القيامة.

وقال أيضاً رضي الله عنه: ليلة أخذت ميراثي من رسول الله - ﷺ - مكنت من خزائن السماء فلو أن الجن والإنس يكتبون عني إلى يوم القيامة لكلوا أو ملوا.

من صفاته الجسدية - رضي الله عنه -:

وقال خادمه السيد الكبير العارف بالله تعالى أبو العزائم ماضي - رضي الله عنه - كان سيدي أبو الحسن الشاذلي آدم اللون، نحيف الجسد، طويل القامة، خفيف العارضين، طويل أصابع اليدين كأنه حجازي، فصيح اللسان، عذب الكلام، كان رضي الله عنه يقول إذا تكلم واستغرق في الكلام: ألا رجل من الأخيار يعقل عنا هذه الأسرار. هلموا إلى رجل سفينة بحر الأنوار.

فصل

وفاته

أما وفاته رضي الله عنه وما جرى له في ذلك من خرق العادات واستخلافه لسيدي أبي العباس المرسي - قدس الله روحه - قال: لما وصلت إلى الديار المصرية وسكنت بها. قلت يا رب أسكنتني في بلاد القبط أدفن بينهم، فقال لي يا علي تدفن في أرض بكر ما عصى الله عليها قط.

قال ابن الصباغ حدثني الشيخ أبو العايم ماضي رحمه الله قال: لما توجه سيدي أبو الحسن رضي الله عنه في سفرته التي توفي فيها وكنت تزوجت امرأة من أهل مدينة الإسكندرية، فجعلت تبكي وتقول: كيف تتركني على ولادة وتسافر عني؟ قال فأخبرت بذلك سيدي الشيخ فقال ادعها إليّ، فأتيت بها إليه فلما دخلت عليه قال لها يا أم عبد الدايم: اتركي لي ماضي يسافر معي وأرجو لك من الله خيراً، فقالت له: يا سيدي السمع والطاعة، دعا لها وانصرفت ثم ولدت ذكراً ونحن مسافرون فسمته عبد الدايم.

قال: فلما تجهزت للسفر قال الشيخ احمولوا معكم فأساً ومسحاة، فإن توفي منا أحد واريناها التراب ولم يكن له بذلك عادة متقدمة في جميع ما سافرت معه فكانت تلك إشارة منه لوفاته.

وقال ابن الصباغ أيضاً حدثني الشيخ صالح شرف الدين ولد الشيخ رضي الله عنه ببلد دمنهور في عام خمسة عشر وسبعمائة، قال كان معنا شاب يقرأ القرآن وهو يتيم لا أب له فيأتي معنا وأمه في الدار عندنا، فلما أراد الشيخ السفر فأمرنا أن نتحرك معه بجميع الأهل والأولاد، فتشوق الشاب للسفر معنا فقال الشيخ: احمولوه معكم فجاءت أمه للشيخ وقالت يا سيدي لعل يكون نظركم عليه فقال لها: يكون نظرننا عليه إلى حميثرنا قال فسافرنا فلما دخلنا البرية، مرض الشيخ - رضي الله عنه - والشاب فمات الشاب، قبل أن يصل إلى حميثرنا بمرحلة، فأردنا دفنه قال: فلما غسلناه وصلّى عليه الشيخ ودفناه بها فكان أول من دفن بها وتوفي الشيخ في تلك

الليلة قال: وكان قد جمع أصحابه في تلك العشية وأوصاهم بحزب البحر وقال لهم: حفظوه أولادكم فإن فيه اسم الله الأعظم وخلا بسيدي أبي العباس وحده وأوصاه بأشياء واختصه بها يعني بما خصه الله من البركات وقال لهم إذا أنا ميتٌ فعليكم بأبي العباس المرسي فإنه الخليفة من بعدي - إن شاء الله سبحانه وتعالى - وسيكون له بينكم مقام عظيم وهو باب من أبواب الله سبحانه وتعالى - .

قال: فلما كان بين العشاءين قال لي: يا محمد املاً لي إناء بالماء من هذا البئر فقلت يا سيدي ماؤها ملح زاعق والماء عندنا عذب، فقال: ائتني منها فإن مرادي غير ما أنت تظن، فأتيته بإناء منها فتوضأ ثم قال لي برِّدْه إليها، فرددته إليها فحلا ماء البئر وعذب وكثر بإذن الله تعالى وبات تلك الليلة متوجهاً إلى الله تعالى ذاكراً فكانت أسمعته يقول: إلهي إلهي إلى السحر، فلما كان وقت السحر ظننا أنه نام فحركناه فوجدناه ميتاً - رحمه الله - واستدعينا سيدي أبا العباس فغسله وصلينا عليه ودفناه بحميثرا وهذا الموضع ببرية «عيزاب» في وادٍ على طريق الصعيد.

قال ابن الصباغ وقد شربت من ماء البئر وزرت ضريحه ورأيت له بركات عظيمة نفع الله به في الدنيا والآخرة، قلت: اللهم إني أسألك أن تتفضل عليّ بتيسير زيارته قبل الموت بعنايتك ورحمتك يا أرحم الراحمين، قال: ولما دفناه اختلفوا في الرجوع والتوجه فقال لهم الشيخ أبو العباس المرسي: سيدي أمرني بالحج ووعدني بكرامات فتوجهنا ورأينا تهوينات وبركات ورجعنا صحبته وظهر من بعده ظهوراً عظيماً.

قال الشيخ أبو الحسن - رضي الله عنه - قلت: إلهي متى يكون اللقاء؟ فقيل إلى حميثرا فحيثئذ يكون اللقاء وقال ابن الصباغ حدثني الشيخ الفقيه القاضي المفتي قاضي الجماعة بتونس أن أبا إسحاق إبراهيم بن عبد الرفيع - رحمه الله - قال: لما توجه أبو الحسن الشاذلي للحج في سفرتة التي توفي فيها قال في هذا العام أحج حجة النيابة فمات قبل أن يحج، فلما رجع أصحابه إلى الديار المصرية سألوا سلطان العلماء عز الدين ابن عبد السلام وأخبروه مقالته فبكى فقال لهم الشيخ أخبركم أنه يموت، وما عندكم به علم وقد أخبركم أنه يحج عنه الملك نائباً لأنه جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «إنه من خرج من بيته قاصداً للحج ومات قبل أن يحج فإن الله عز وجل يوكل ملكاً ينوب عنه بالحج في كل عام إلى يوم القيامة»⁽¹⁾.

(1) أورده عبد القادر العيدروس في النور السافر [1/189].

وقال أيضاً حدثني الفقيه القاضي الأعدل الأفضل الأكمل عماد الدين قاضي القضاة بالإسكندرية في عام خمسة عشر وسبعمائة . قال توفيت امرأة بالإسكندرية وكانت مسرفة على نفسها، رآها بعض الصالحين في حالة حسنة فقيل لها: ما فعل الله بك؟ قالت: مات اليوم الشيخ أبو الحسن الشاذلي ودفن بحميثرا فغفر لمن دفن اليوم من المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها فغفر لي من أجله تعظيماً له وإكراماً به، فلما قدم الحاج أخبروا بوفاته، فوجدوا التاريخ صحيحاً.

تاريخ وفاته - رضي الله عنه - وعمره حينئذ:

وتوفي - رضي الله عنه - في ليلة الاثنين لعشرين من ذي القعدة سنة ست وخمسين وستمائة وهو ابن ثلاث وستين سنة رضي الله عنه ونفعنا بعلومه . قلت من جملة ما تفضل الله به علي أنني اقتديت بهذا الأستاذ وصرت من أتباعه والله الحمد على ذلك فأول اقتدائي بهذا الإمام بواسطة الأخذ عن شيخنا وأستاذنا العارف بالله تعالى شاذلي زمانه سيدي محمد بن عمر بن علي المغربي نفعنا الله به وهو صحب واقتدى بالسيد الكبير الذي خضعت لقطبيته الأكابر أبي العباس المرسي الحنفي . وهو صحب واقتدى بالشيخ الإمام العارف صاحب الخوارق والكرامات والتجلي والمشاهدات سيدي شمس الدين محمد الحنفي القطب المشهور شرقاً وغرباً وهو صحب واقتدى بالشيخ الإمام العارف بالله تعالى شيخ الإسلام ناصر الدين الشهير بابن الميلىق .

وهو صحب واقتدى بجده لأمه الشيخ الإمام العلامة المحقق الأصولي صاحب المناقب والكرامات شهاب الدين أحمد بن الميلىق الإسكندري وهو صحب واقتدى بالشيخين الإمامين العارفين بالله تعالى الشيخ ياقوت العرشي والشيخ تاج الدين بن عطاء الله وهما صحبا واقتديا بقطب العارفين سيد علماء الطريقة وإمام أهل الحقيقة أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه ونفعنا بعلومه .

وهو صحب واقتدى بقطب زمانه السيد الشريف عبد السلام بن بشيش - بفتح الباء الموحدة وكسر الشين المعجمة وبالياء المثناة في أسفلها الساكنة ثم شين معجمة - ابن منصور ابن إبراهيم الحسني ثم الإدريسي من ولد إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه القماري المالكي .

وهو صحب واقتدى بعارف وقته السيد الشريف الحسني القطب الفرد الشيخ

أبي محمد عبد الرحمن المدني العطار المعروف بالزيّات .
وهو صحب واقتدى بعارف وقته السيد القطب الرباني الشيخ تقي الدين الفقير
الصوفي الذي لقب نفسه بـتَقِيّ الدين المُقَيّر بالتصغير فيهما، وذلك بأرض العراق .
وهو صحب واقتدى بالقطب الشيخ تاج الدين وهو صحب واقتدى بالقطب
الشيخ أبي القاسم أحمد المرواني .
وهو صحب واقتدى بالقطب الشيخ أبي محمد سعيد وهو صحب واقتدى
بالشيخ القطب سعيد القيرواني وهو صحب واقتدى بأول الأقطاب أبي محمد الحسن
السبط الشهيد المسموم ابن علي بن أبي طالب .
وهو صحب واقتدى بجده رسول الله ﷺ فإن قلت كيف يكون الحسن أول
الأقطاب وقبله أبو بكر الصديق رضي الله عنه وعمر وعثمان وعلي رضوان الله عليهم
أجمعين فالجواب أن يقال: إن الحسن أول من كانت له الخلافة الباطنة مفردة عن
الظاهرة وإن القطب خليفة النبي ﷺ ووارث الأمر من بعده .
وكان الحسن لما ترك الخلافة الظاهرة ابتغاء وجه الله وحقق دماء المسلمين
عوضه الله ما هو أجل منها وهي الخلافة الباطنة؛ لأن من ترك شيئاً لله عوضه الله
خيراً منه .

وأما الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم فكانت لهم الخلافتان الظاهرة والباطنة معاً
ولم يجتمعا لأحد بعدهم إلا أن يكون عمر بن عبد العزيز والله أعلم .

سلسلة لبس أبي الحسن رضي الله عنه للخرقة :

(تنبيه): هذا آخر ما يتعلق بسلسلة الأستاذ أبي الحسن الشاذلي في الطريقة
الاقتدائية وأما طريقته في الخرقة والصحبة المجردين عن الاقتداء وهما أقدم من
طريق اقتدائه المذكور فنقول لبس الشيخ أبو الحسن خرقة الصوفية من شيخه الأول
العارف القدوة أبي عبد الله محمد ابن الشيخ أبي الحسن علي بن خوارزم ويعرف
أيضاً بابن - حرزهم - بكسر الحاء المهملة تلميذ الشيخ العارف بالله تعالى أبي محمد
صالح بن بنصار بن عقبان الذكيالي الإسفيني تلميذ الشيخ العارف بالله الكبير القدوة
المفتوح على يديه أبي مدين شعيب شيخ العارف بالله تعالى محيي الدين بن العربي
لا بالنسبة لشيخه الشيخ عبد القادر ابن الشيخ عبد السلام بن بشيش قدوة ليس فيها
خرقة البته وإنما كلها بالصحبة والاقتداء والتوصل وطريق هذه الخرقة التي من جهة

الشيخ أبي عبد الله محمد ابن الشيخ أبي الحسن علي بن خوارزم بالصحة واللباس فقط فمن قال طريقة الشاذلية الخرقه أي من طريق خوارزم المذكور الأول شيخه الذي صحبه ولم يقتد به .

ومن قال ليست طريقه الخرقه أي من طريق شيخه الثاني ابن بشيش الذي اقتدى به قلت قد لبست هذه الخرقه من طريق أعلى من الأولى بدرجة وذلك أنني اجتمعت على الشيخ الإمام العالم العابد السالك المربي سيدي خير الدين بن محمد بن قطب الزمان شاذلي عصره ووقته الشيخ شمس الدين الحنفي قدس الله روحه يوم الأحد رابع عشر ربيع الأول سنة أربع وسبعين وثمان مائة فتلقنت منه الذكر وألسني الخرقه مع إسبال العذبة ثم صافحني في المجلس كما كان يفعل والذي المذكور - رضي الله عنا به - ولقنني لفظ المبايعه فقلت بايعتك على ذلك ثم كتب لي إجازة بذلك، وأذن لي في فعل ذلك لمن يكون أهلاً بالشرط المعبر عند أهله .

وهو تلقى جميع ذلك وأخذه عن والده المذكور - رضي الله عنه - وهو أخذ ذلك عن قطب الدائرة شيخ الإسلام قاضي القضاة ناصر الدين بن الميلى سوى العذبة فإنه تلقى ذلك عن رسول الله ﷺ وسيأتي الكلام على قصتها إن شاء الله تعالى .

وهو أخذ ذلك عن الشيخين القطبين الشيخ تاج الدين بن عطاء الله والشيخ ياقوت العرشي وهما أخذوا ذلك عن قطب الوجود الشيخ أبي العباس المرسي . وهو أخذ ذلك عن سيد أهل زمانه القطب المحمدي صاحب المقام الرفيع العلي الشيخ أبي الحسن الشاذلي .

وهو أخذ ذلك عن شيخه الأول الكبير العارف بالله القدوة أبي عبد الله محمد ابن الشيخ أبي الحسن علي بن خوارزم ويعرف أيضاً بابن حرزهم وقد تقدم ذلك والله أعلم .

وأما قصة شمس الدين الحنفي أن رجلاً من أهل العلم والصلاح يقال له السيد الشريف كان يسمع ويرى من الشيخ شمس الدين الحنفي المذكور بأنه يلبس الأثواب الجميلة الأنيقة الغالية الأثمان وينكح النساء الحسان المنعمة ويركب الخيول المسومة وإذا ركب ذاهباً أو آيماً فالأمراء وأكابر العسكر تحجبه والجند تحجب حجبه

والعلماء والصلحاء والفقراء تحفه ومنهم من لا يركب ليفتخر ويتبرك بالسعي في ركابه ومنهم من يركب والحافون به يودون لو مشوا معه على الرؤوس فضلاً عن الأقدام فرحاً بقربهم منه والتذاذاً برؤيته وسماع خطابه .

ويقول كل من رآه في طريقه أو في سيره: ما أسعد هذا اليوم وأبركه الذي صدفته في طريقي ورأيتك وحل نظره علي ويحمد الله على ذلك .

وكان يفرح برؤيته المسلمون والنصارى واليهود ويدعون بطول بقائه لشفقته على خلق الله تعالى إقامة لتفريج المكرويين وتفريج المحزونين وإطلاق المسجونين وجبر قلوب المكسورين وإغاثة الملهوفين وتخليص المساكين من أيدي الظالمين وكثر هذا الأمر وشاع عنه وذاع حتى عم نفعه على أهل بلده وأهالي البلاد وصار كهفياً للغريب وكنزاً للفقير وأمناً للأيتام وبعلاً للأرامل وعلماً مقصوداً بين الخلائق .

أهل الغرب والشرق يأكلون من رزق الله على يديه وأهل الحجاز واليمن والشام والروم والعجم والعرب يتواردون لحبّه وينال كل منهم من فضل الله تعالى على يديه ما يغني فقره ويجبر كسره ويعز قدره بحيث إن علماء زمانه أثنوا عليه الثناء العظيم في تواريخهم وأنشدوا في ذلك النظم البديع والقصائد التي لو ذكرناها لخرجنا عن المقصود لكثرتها فمن جملة ذلك ما قاله العلامة قاضي القضاة بدر الدين العيني شارح البخاري وصاحب المصنفات المشهورة في ترجمته أن قال:

حلف الزمان ليأتين بمثله حنثت يمينك يا زمان فكفر

وقال فيه بعض علماء زمانه في قصيدة مدحه بها فيها أبيات كثيرة وأمداح جلييلة فمن جملة ذلك أن قال:

الله أكبر ما أعلى علاك إلى رأي سديد وما أحظاك بالسبق، وكتب له بعض الكتاب بقلم الطوفار على باب خلوته التي يخرج منها للصلاة وللميعاد في ورقة مذهبة ومن جملة ما قال:

**يا فاعل الخير عش هنيئاً فإن عقباك السلامة
وفاعل الشر ما يُهَنَّا فإن عقباه الندامة**

ثم إن السيد الشريف كان يظن أن الأولياء أهل تقشف فقط وكان يرى أن الأستاذ المذكور ما هو إلا ملكاً من الملوك أو رئيساً من أعز رؤساء زمانه فينما هو في ليلة من الليالي نائم وإذا هو يرى أن جماعة من الفقراء سائرون وبينهم رجل

راكب وهم محتفون به وهو جائي من طريق ذاهب إلى فضاء من الأرض وعليه وعليهم سكينه ووقار .

فقال الشريف: من هؤلاء ومن هذا الذي معهم؟ فقال له قائل: هذا سيدي إبراهيم الدسوقي ذاهب لرسول الله ﷺ ليزوره ويتبرك به، فقال الشريف ورسول الله ﷺ في أين حتى يزوره؟ فقيل له في هاتيك الخيمة التي في صدر هذا الفضاء، فلما انقضى أواخر من معه وإذا بجماعة أكثر من أولئك وبينهم رجل راكب وعليهم السكينه والوقار فقال من هؤلاء ومن هذا الرجل؟

فقيل له: هذا سيدي أحمد البدوي أتى لزيارة رسول الله ﷺ فأراد الشريف أن يتبعه وإذا بخلق آخرين وبينهم رجل راكب فقال من هؤلاء ومن هذا الرجل؟ فقيل له: هذا سيدي أحمد بن الرفاعي أتى لزيارة الرسول ﷺ فهم لأن يتبعه فما قدر . ثم وجد طائفة أخرى وبينهم رجل راكب وعليه مهابة وسكينه فقال من هذا ومن هؤلاء؟ فقيل له هذا سيدي عبد القادر الكيلاني وهؤلاء كلهم أتباعهم أتوا لزيارة رسول الله ﷺ فأراد الشريف أن يذهب معه وإذا بخلق لا يكاد أحد يحصى لهم عدداً كالرمل والمطر لكثرتهم وعليهم مهابة وسكينه فبعد ما ساروا بساعات وإذا برجال شبه الأمراء وبعدهم شبه الحجاب وبعدهم شبه الأتابك وبعدهم شبه الخلفاء وإذا هم يحجبون راكباً عليه من المهابة والأنس ما لا يستطيع الحاكي يصفه وإذا بأنوار ساطعة فأحرق الشريف حتى يتحقق من هو وكان يغلب على ظنه أنه ملك وإذا بقائل يقول هذا الشيخ محمد الحنفي أتى لزيارة رسول الله ﷺ فنظر الشريف إلى ذلك وإذا برسول الله ﷺ وحوله من السادة والأصحاب ما شاء الله والخلق بين يدي رسول الله ﷺ كل واحد قربه منه على قدر منزلته وفي محل رتبته .

فقال رسول الله ﷺ لأبي الحسن الشاذلي: إني لأحب من أتباعك هذا الرجل إلا عمامته الزعراء وقال الصمء أشار بذلك إلى الشيخ شمس الدين الحنفي فقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي أتأذن لي يا رسول الله ألف عمامته وأرخصي له العذبة؟ فقال رسول الله ﷺ على رسلك يا علي ليقم لذلك أبو بكر فقام أبو بكر رضي الله عنه وقلع عمامته من على رأسه وألبسها للشيخ الحنفي وأخذ عمامة الشيخ الحنفي ووضعها على رأسه ولفها بالعذبة وطواها في جانب العمامة وأتى بالشيخ الحنفي بين يدي رسول الله ﷺ فأرخصي له عليه الصلاة والسلام العذبة بيده المباركة وقال للشيخ الحنفي: البسها وألبسها لمن شئت .

وجاء الشريف لرسول الله ﷺ يقبل يديه، ويسلم عليه، فظن أن رسول الله ﷺ يريد الإعراض عنه فقال: يا رسول الله أعلم أنني من ذريتك فقال أعلم. إني أحب هذا الرجل فلا تعترض عليه أو قال عليه السلام: فلا تعرض عنه فقلت: يا رسول الله أخشى أنني إذا رأيته أخبرته بما رأيته فلا يصدقني فقال له: قل له بأمانة الصلاة التي ابتكرتها لم يطلع عليها أحد إلا الله ورسوله.

فصل

«حكم القائلين بالحلول والاتحاد»

صرح سادات القوم من أهل التصوف بكفر القائلين بالحلول والاتحاد فممن نص على كفرهم من أئمة التصوف الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في أول (الحلية) وكذلك القاضي ناصر الدين البيضاوي الإمام في التفسير والفقه والكلام والأصول والتصوف فانظر تفسيره المشهور تجده مشحوناً بالتصوف وقد نص في سورة المائدة على كفر من قال بالحلول والاتحاد.

وقال القونوي في شرح التعرف في حديث «كنت سمعته» تأويل الحديث أن الله يتولى من أحبه في جميع أحواله كما يتولى الوالد جميع أحوال الطفل بحيث إنه لا يمشي إلا برجل أحدهما ولا يأكل إلا بيده فكأنه فنيت صفاته وقامت صفات الوالدين مقامها لشدة اعتنائهما بحفظه وتسخير الله إياهما له ولذلك ورد في الحديث «اللهم كلاءه ككلاء الوليد»⁽¹⁾.

ومعنى كنت سمعته إلى آخره، أحاطت عنايتي ولطفي به بحيث يصير فعله وإدراكه كأنه فعلي وإدراكي وما يشير إليه أصحاب القول بالاتحاد في ادعائهم كون الحديث على ظاهره وأن الحق سبحانه وتعالى ما زال سمعاً وبصراً ويداً حقيقةً بدليل قوله: «كنت» وهذا لا يخفى لاستحالة كون القديم صفة للحادث والله أعلم.

وقال الفاكهي أحد أئمة المالكية وأحد أئمة التصوف وأحد أئمة الشيخ أبي العباس المرسي في حديث «كنت سمعته» هو ما يظهر لي على حذف مضاف والتقدير كنت حافظ سمعته الذي يسمع به فلا يسمع إلا ما يحل سماعه وحافظ بصره الذي يبصر به كذلك إلى آخره، قلت هذا عين ما قاله الأستاذ شهاب الدين بن الملق في ديوان المراسلات.

وقال الفاكهي أيضاً: ويحتمل فيه رضائي ورجله كذلك قال شيخ الإسلام

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

ابن حجر رحمه الله وحمله بعض متأخري الصوفية على ما يذكرونه من مقام الفناء والمحو وأنه الغاية التي لا شيء وراءها وهو أن يكون قائماً بإقامته له، محباً بمحبته له، ناظراً بنظره له، من غير أن يبقى معه بقية تقال باسم أو تقف على رسم أو تتعلق بأمر أو بوصف، قال: ومعنى هذا الكلام أنه يشهد إقامة الله له حتى قام، ومحبته له حتى أحبه، ونظره إلى عبده حين أقبل ناظراً إليه بقلبه انتهى.

ثم قال شيخ الإسلام ابن حجر وحمله بعض أهل الزيغ على ما يدعونونه من أن العبد إذا لزم العبادة الظاهرة والباطنة حتى تصفى من الكدر ورأى أنه يصير في معنى الحق تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وأنه يفنى عن نفسه جملة حتى يشهد أن الله هو الذاهر لنفسه المجيب لنفسه، وأن هذه الأسباب والرسوم تصير عدماً صرفاً في شهوده.

ثم قال: ويرد على الاتحادية والقائلين بالوحدة المطلقة قوله في بقية الحديث «ولئن سألتني ولئن استعاذني» فإنه كالصريح في الرد عليهم قال بعض مشايخنا: يعني حيث أثبت سائلاً ومسؤولاً ومستعيذاً ومستعاذاً به. قلت: هذا الاعتراض باطل ولا أصل له بإجماع محققي التصوف وبيان ذلك أن الصوفي إذا تحقق في الفناء كان حينئذ في حضرة الجمع والأحدية التي مات فيها موتاً معنوياً وصار في شهود الحق تعالى عدماً مجازياً لا وجود له ولا رسم لأن العين الحادثة لا تفتح في شمس القدم، كما أن النور لا يجتمع مع [الظلم] فلا وجود إلا الله الواحد الأحد كما كان في الأزل بحيث إن الله تعالى أشهده الحضرة الأحدية تارة يُوحّد نفسه على لسان عبده كقوله على لسان الحلاج: أنا الحق، وقوله على لسان أبي يزيد البسطامي سبحانه ما أعظم شأنه، فصار لسانهما في حضرة التوحيد الذاتي كالألة لتوحيد نفسه كقوله تعالى: "فبى ينطق" وتارة يوحّد ذاته بذاته على لسان نفسه بعد فناء الخلق ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [سورة غافر، آية: 16] فلا يجيبه أحد، فيقول: الله الواحد القهار وسيأتي إن شاء الله تعالى في باب التوحيد.

ولا يرد هنا القول بالحلول والاتحاد إلا عند كل دخيل لم يفهم دقائق القوم من زعم أن قوله ولئن استعاذني كالصريح في الرد عليهم وعلى مذهبهم وليس الأمر كما زعم لأن ذلك إشارة إلى صحوهم في حضرة الجمع التي لا نطق لهم فيها ولا رسم إلى عالم الفرق الذي منه نطقهم ورسمهم ونسبة الأفعال والأقوال إليه وكأنه يقول إذا مات عبدي غريقاً في بحر نشأة توحيد وكنت على لسانه موحداً نفسي بنفسي ولئن

سألني ولئن استعاذني بعد الصحو من نشأته لأعطينه ولأعيدنه إكراماً له وحقاً عليّ فإذا تقرر ذلك علمت أن سؤالهم إنما هو في صحو عالم الفرق بعد الموت من نشأة سكر حضرة الجمع .

فإن قلت ؛ قد قضيت على الفناء بأنه موت وعدم فما الدليل على ذلك؟ قلت : دليل ذلك ما ورد أن الله يوقف يوم القيامة هذه الطائفة بين يديه فيقول عزّ وجلّ : أوليائي لم أزو عنكم الدنيا لهوانكم عليّ ولكن زويتها عنكم لتستوفوا اليوم نصيبكم عندي اذهبوا فاخترقوا الصفوف فمن سلم عليكم من أجلي أو زاركم من أجلي أو عرفكم من أجلي أو أطعمكم من أجلي فخذوا بيده وأدخلوه الجنة فيأتون إلى المحشر يجرون أذيال الفخر فيقول الله تعالى : أنتم متم في الدنيا مرة واحدة وهؤلاء الواحد منهم يموت في اليوم سبعين مرة .

وقال ابن الحاج في المدخل بعد أن ساق هذا الحديث : وقد قال سيدي أبو مدين رحمه الله من مات رأى الحق ومن لم يمت لم ير الحق فإذا كان المرء إذا مات موتة واحدة رأى الحق فما بالك بسبعين مرة في كل يوم؟ وقال العلامة شمس الدين البرماوي أحد شراح البخاري وأحد أئمة المتأخرين في أصحابنا من شرح خطبة الحاوي الصغير : لمخالطة التوحيد الذاتي عدل إلى قوله المتوحد أي الذي هو واحد بذاته وإن لم يوحده موحد لأن الواحد قبل إيجاد الموحّدين له وإذا تقرر في مذهب الصوفي في التوحيد بهذا التقرير وهو عدم ملاحظة نفسه وغيره عما سوى الله تعالى كان حقاً ولا يلزم معه حلول ولا اتحاد مع شيء من خلقه فإن ذلك محال وباطل فانظر كيف صرح بنفي الحلول والاتحاد في هذا المقام الذوقي .

وقال شيخنا وإمامنا العارف بالله تعالى سيدي محمد المغربي والاتحاد المذكور في كتب القوم هو نتيجة الحب لقول الأستاذ شرف الدين ابن الفارض رضي الله عنه معرضاً بهذا البيت .

أفاد اتحادي حبنا لاتحادنا نوادر عن عاد المحبين شدت

واستدل على إتيانه بإشارة حديث الحب الصحيح المذكور فيه ولا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه إلى آخره وقال :

وجاء حديث باتحادي ثابت روايته بالنقل غير ضعيفة

مشيراً بحب الحق بعد تقرب إليه بنفل أو أداء فريضة

وموضع تنبيه الإشارة ظاهر بكننت له سمعاً كنور الظهيرة ولأن الحب هو المعنى الواحد الجامع بين المحبين معنى وإن افرقا ذاتاً وصفاتاً وحدوثاً وقدماً، فإن قلت: قال القاضي عياض في الشفا ما معناه المسلمون على كفر أصحاب الحلول ومن ادعى حلول الباري سبحانه وتعالى في بعض الأشخاص كقول بعض المتصوفة والباطنية والنصارى والرافضة.

وقال الشيخ عز الدين بن جماعة في شرح «الكواكب الوقاد» يجب أن ينزه الله تعالى عن الحلول خلافاً للنصارى وبعض الصوفية فإذا تقرر ذلك فابن العربي وابن الفارض في زمن الشيخ زكي الدين عبد العظيم المنذري ورأى ابن الفارض واجتمع به وسمع من شعره وترجمه في معجمه ولم يصفه بسوء عقيدة وقد أثنى عليه كثيرون من أكابر علماء الشريعة والحقيقة كالشيخ عفيف الدين اليافعي في كتابه «كفاية المعتقد ونكاية المنتقد» وغيره من مصنفاة وناهيك بهذا الإمام الذي يحتج به وترجمه من الشافعية جمال الدين الإسنوي حيث قال في الطبقات ابتدأت بالشافعي وختمت باليافعي وقال ابن الملقن في طبقات الأولياء: هو ممن تنزل الرحمة عند ذكره.

وأما ابن العربي فأثنى عليه تاج الدين بن عطاء الله في لطائف المنن وجده العلامة المحقق عبد الكريم تاج الدين أحد أئمة المالكية في كتابه «مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح» وختم آخره بالنقل عنه من الفتوحات المكية وقد عظمه الشيخ كمال الدين الزملكاني المترجم في طبقات الإسنوي والسبكي في مصنفه الذي ألفه في الكلام على الملك والنبي والصديق والشهيد فقال في الفصل الثاني المتعلق بالصديقية والشيخ محيي الدين بن العربي البحر الزاخر في المعارف الإلهية وذكر من كلامه جملة.

وقال في آخر الفصل وإنما نقلت كلامه وكلام من جرى مجراه من أهل الطريق؛ لأنهم أعرف بحقائق هذه المقامات وأبصر لدخولهم فيها وتحققهم بها ذوقاً عن عين اليقين فاسأل به خبيراً ثم قال ومن شعره.

إذا حلّ ذكرهمُ خاطري فرشت خدودي مكان التراب
وأقعدني الحب في بابكم قعود الأسارى لضرب الرقاب
قلت ومن شعره:

خصصت بعلم لا يحيط بمثله
وأشهدت من علم الغيوب عجائباً
فيا عجباً إنني أروح وأغتدي
لقد أنكر الأقوام قولي وشنعوا
فلا هم مع الأحياء في نور ما أرى
فسبحان من أحيا فؤادي بنوره
تحلى بها من كان قلباً مجرداً
سواي من الرحمن ذي العرش والكرسي
تُصان عن التذكار في عالم الحس
غريباً وحيداً في البلاد بلا جنس
عليّ بعلم لا ألوم به نفسي
ولا هم مع الأموات في ظلمة الرسم
وأفقدهم نور الهداية بالطمس
عن الفكر والتخمين والوهم والحدس
نبذة عن ابن عربي رضي الله عنه :

تنبيه :

مولده رضي الله عنه ونفعنا به في شهر رمضان سنة ستين وخمسمائة بمرسية من الأندلس ثم نشأ واشتغل بسائر العلوم وانتهت إليه الإمامة في زمانه وذكر أنه سمع من ابن بشكوال وغيره وسكن الروم مدة وكتب الإنشاء لبعض الأمراء بالغرب ثم تزهد وتعبد وتفرد وتوجه وسافر وتجرد كذا قاله ابن الملتن في طبقات الأولياء .
وسبب الفتح الذي حصل له أنه رأى رؤيا عظيمة تدل على ذلك فقال رحمه الله مخبراً عن نفسه في كتاب «الباء» ما نصه : اعلم أي كنت ببجاية في رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة فرأيت ليلة كأي أنكحت نجوم السماء كلها فما بقي نجم في السماء إلا نكحته بلذة عظيمة روحانية ثم لما أكملت نكاح النجوم أعطيت الحروف فنكحتها كلها في حال أفرادها وتركيبها وسخر لي حروف في الرؤيا الباء الظرفية وأعطيت فيها سرّاً إلهياً يدل على شرفها وما أودعه الله من الجلال عندها .
وعرضت قصتي هذه على رجل يعرضها على رجل عارف بالرؤيا وتعبيراتها وقلت للذي عرضتها عليه لا تذكرني فلما ذكر المنام له استعظم ذلك وقال : هذا هو البحر الذي لا يدرك قدره وصاحب هذه الرؤيا يفتح له من العلوم وعلوم الأسرار وخواص الكواكب ما لا يكون بيد أحد من أهل زمانه ثم سكت ساعة، وقال : إن كان صاحب هذه الرؤيا في هذه المدينة فهو هذا الشاب الذي وصل إليها فسماني ، فهتّ صاحبي وتعجب ثم قال : ما هو إلا هو فلا تخف عني فقال له صاحبي : نعم هو صاحب الرؤية وقال لا ينبغي أن يكون في هذا الزمان إلا له فسعى أن تحملي

إليه لأسلم عليه فقال: لا أفعل حتى أستأذنه فاستأذني فأمرته أن لا يعود إليه وسافرت عن قريب ولم أجمع به .

وقال الشيخ صفى الدين ابن أبي المنصور في رسالته ورأيت بدمشق الشام الشيخ الإمام العارف بالله تعالى محيي الدين بن العربي من أكابر علماء الطريق من بين سائر العلوم الكسبية وما وقع له من العلوم الوهية وشهرته به عظيم وتصانيفه كثيرة وكان غلب عليه التوحيد علماً وخلقاً وحالاً لا يكثر بالوجود كان مقبلاً أو معرضاً وكان بينه وبين سيدي الأستاذ الخزاز إخاء ورفقة في السياحة .

وقال العلامة المحقق السيد الشريف عبد الله الحسني كنت مجاوراً بمكة شرفها الله تعالى وعظمها وكنت أطلع كتاب «الفتوحات المكية» للشيخ المحقق محيي الدين بن محمد بن العربي قدس الله روحه وكثير من أصحابي العلماء والزهاد ينكرون عليّ بسبب اشتغالي بمطالعة مصنفاته .

وكنت ليلة من الليالي طفت حتى ما بقي لي أن أطوف وجئت إلى مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام ثم صليت ونمت على مكاني فرأيت النبي ﷺ داخلاً في مقام الصفا فقامت له عليه الصلاة والسلام وسلمت عليه فقال ﷺ السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ثم قلت: يا رسول الله ما تقول في كلام ابن العربي حق أم لا؟ فقال ﷺ: حق لمن فهم ثم قال: أما علمت أن جميع كلامه في تفاريع الأصول التي مهدها لهم؟

فقلت: أعلم بعض ذلك ولكن بعض الناس ينكرون عليه فأردت أن أسألك عنه يا رسول الله، فقال ﷺ المنكر معذور من وجه قال: فأردت أن أسأله عن المواضع التي ينكرون فيها فلما أخذت في السؤال قال: اغتنم الدعاء فقلت: ادع لي يا رسول الله فقال: ثبتك الله على الطريق ثم أردت أن أقبل قدمه فأخذ برأسي وأقامني قائماً فاستيقظت وأنا قائم . انتهى .

وقال القطبي العريني الذي نفهمه من كلامه حسن والذي يشكل علينا نكل أمره إلى الله ولا كلفنا بيانه ولا اتباعه ولا العمل بكل ما قاله، وقال بعض المحققين في بعض تصانيفه ما نصه: اجتمع الشيخان العارفان الإمامان المحققان الربانيان الشيخ شهاب الدين السهروردي والشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله عنهما فأطرق كل منهما ساعة وافترقا من غير كلام، فقيل للسهروردي: ما تقول في الشيخ محيي الدين فقال: بحر الحقائق .

القول فيمن طعن في ابن عربي من العلماء :

وبلغني عن بعض المشايخ الكبار العارفين أنه قرأ عليه أصحابه كلام ابن العربي ويشرحه لهم فلما حضرته الوفاة نهاهم عن مطالعة كتب ابن العربي وقال أنتم ما تفهمون مراده ومعاني كلامه .

فإن قلت صرح سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام بالخط عليه وأخبر عنه أنه يقول بقدوم العالم قلت أنت على حد قول الشاعر:

قلُّ للذي يدعي في العلم فلسفةً فهمت شيئاً وغابت عنك أشياء

اعلم أن الشيخ عز الدين له فيه كلامان بحسب السائل ، قال الإمام الياضي في الإرشاد وسمعت أن الشيخ الإمام الفقيه عز الدين بن عبد السلام كان يطعن في ابن العربي ويقول: هو زنديق، فقال له يوماً بعض أصحابه من الصوفية أريد أن تريني القطب فأشار بيده إلى ابن العربي وقال له: هاذاك هو، فقلت له: فأنت تطعن فيه فقال: حتى أصون ظاهر الشرع أو كما قال رضي الله عنهما، أخبرني بذلك غير واحد ما بين مشهور بالصلاح وفضل ومعروف بالدين ثقة عدل من أهل الشام وأهل مصر، إلا أن بعضهم روى أن تريني ولياً من أولياء الله وبعضهم روى القطب، وقد مدحه وعظمه طائفة من شيوخ الطريقة وعلماء الحقيقة كالشيخ نجم الدين الأصبهاني وطعن فيه طائفة لا سيما من الفقهاء وتوقف فيه طائفة والله أعلم .

قلت: هذا عين ما أجاب به سيد علماء الطريقة وإمام أهل الحقيقة أبو الحسن الشاذلي فإنه رضي الله عنه لما سئل عنه وكان السائل فقيهاً فقال له هو زنديق ثم سأله بعض الصوفية عنه أيضاً فقال هو صديق فأجاب كل واحد بما يعتقدده وما اشتهر عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام وحكاه أيضاً عن نفسه أنه كان لما يمر عليه الشيخ محيي الدين بن العربي وقت التصنيف يسقط القلم من غير اختيار فيعلم أنه قد مر عليه الأستاذ.

حكم ما جرى في كلامهم مما يخالف ظاهر الشرع

فإذا تقرر ذلك فاعلم أن علماء الباطن الذين أطلعهم الله على الحقائق والمعارف والحكم تارة يصنفون كتباً واضحة في هذا الشأن لينتفع بها أهل الظاهر والباطن كمصنفات الغزالي والقشيري والسهورودي والشيخ تاج الدين بن عطاء الله الشاذلي السكندري وغيرهم من أئمة الأعلام، وتارة يصنفون كتباً لا يفهمها إلا أهل الباطن بحيث لا يجوز لأحد من علماء الظاهر النظر فيها لما في ظاهر عبارتها من الإشكالات والرموز المقفلة التي لا يفتحها إلا العلماء بالله وذلك كمصنفات الشيخ محيي الدين بن العربي وأمثاله من أئمة السلوك ولهذا قال رضي الله عنه: نحن قوم يحرم النظر في كلامنا إلا لأرباب الأحوال، فانظر كيف صرح بذلك وانتبه له فما بعد هذا القول إلا محض العنا.

وقال القطب العارف بالله تعالى سيدي محمد وفا الشاذلي والد سيدي علي وفا في أول كتابه «شعائر العرفان من أنفاس الرحمن»: فهذه علوم لا يعلمها إلا علماء السُّير والوقوف، ولا يكتسبها المنكر للدين الغير معروف، ولا تدل عليه الحروف، برزت من غياهب الغيب الذي لا يشعر به الغير، ولا ينتهي إليه نهاية السير، وإنما هي إشارات وتلويح لا عبارات وتصريح، فمن كان صديقاً لله خابئاً خُبوت العبد الأواه فليدخل من أبواب جناتها ويحظر في حظائر حضراتها يقتطف من أنواع زهراتها ويتفنن في أفنان تفكهاها ويفتض من أباكار حور لمحاتها، فعسى أن تلحظه أعين تلك العين بلحظاتها وتنكشف عنه كمة أكمام الفكر فيرى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ومن كان مورطاً في ورطت الأوضاع جامداً على عوائد الطباع مقيداً في القول والسمع فلا يطمع أبداً في كشف القناع فليرد العلم لأهله ويتبرأ من سوء ظنه فإن الحقائق من وراء وهمه ومدارك العلوم الوهيبية فوق فهمه.

وقال الشيخ تاج الدين بن السبكي في كتاب «معيد النعم ومبيد النقم»: فالله الله في ألفاظ جرت من بعض سادات القوم لم يعنوا بها ظواهرها وإنما عنوا بها أموراً

صحيحة، فلا ينبغي للشيخ ذكرها لمريد لا يفهمها فإنه يضلّه مثل ما يقال عن بعضهم العلم حجاب فإنه لا يريد به ظاهر ما يفهمه المبتدئ ولكن له معنى لا يناسب حال المبتدئ الكشف عنه وغير ذلك من الألفاظ.

فربما جرى بعضها في حال السكر فإنها مما لا يقتدى بها ولا توجب القدرح في قائلها بل نسلم إليه حاله ونقيم عنده فيما سقط بين شفّتيه بحالة الغيبة فإن الشارع لا يكلف غائب الذهن هذا إذا فقدت أسباب التأويل بكلامه بالكلية ولم نجد ذلك إن شاء الله تعالى في كلام أحد من المعتدّين بل قد نزه الله ألسانهم عن الأباطيل وما لهم كلمة إلا ولها محمل حسن.

وقال أيضاً في موضع آخر: فالواجب تسليم أحوال القوم وإنا لا نأخذ أحداً إلا بجريمة ظاهرة ومتى أمكننا تأويل كلامه وحمله على محمل حسن. لا نعدل عن ذلك لا سيما من عرفناه منهم بالخير ولزوم الطريقة ثم برزت لفظة عن غلطة أو سقطت فإنها لا تهدم ما مضى وهذه الطائفة من الفقهاء التي تنكر على الصوفية مثلها مثل قوم من الترك التي تنكر على الفقهاء، وقد جربنا فلم نجد فقيهاً ينكر على الصوفية إلا ويهلكه الله تعالى وتكون عاقبته وخيمة ولا وجدنا تركيا يهزؤ بالفقهاء إلا ويهلكه الله تعالى، وتكون عاقبته شديدة فسيبيل هذه الطائفة التوبة إلى الله تعالى وحسن الظن بخلق الله تعالى لا سيما من انقطع إلى الله تعالى ورفض الدنيا وراء ظهره، هذا علاج داء هذه الطائفة.

ثم قال: فهؤلاء القوم لا يعاملون بالظواهر، ولا يفيد معهم إلا الباطن ومحض الصفا وهم أهل الله تعالى وخاصته نفعنا الله بهم وأكثر من يقع فيهم لا يفلح انتهى.

تنبيه:

فضيلة حسن الظن بالناس، وخطر المبادرة إلى التكفير:

اعلم أن حسن الظن وعدم الوقعة هو الذي دلت عليه الأخبار ففي الحديث «لأن يخطيء الإمام في العفو خير من أن يصيب في العقوبة»⁽¹⁾. وقال السيد عمر: لا تظن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً. وقال بعض العلماء. لو عاش الإنسان عمره كله لم يلعن إبليس لم يسأله الله عزّ

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

وجلّ، وقال الشيخ تقي الدين السبكي في فتاويه . اعلم إنما يستضعف القول بالكفير وأنه محتاج إلى تحرير المعتقد وهو صعب من جهة الاطلاع على ما في القلب، ويكاد الشخص يصعب عليه اعتقاد نفسه فضلاً عن غيره، واعتراف الشخص به هيات أن يحصل .

وقال الإمام الياضي في نشر المحاسن ما نصه : وإنما قلنا لا تستعجل التكفير لأن المبادرة إلى دون ذلك غير محمودة وصاحبها راكب متن الخطر فكيف بالمبادرة إلى تكفير المسلمين مع عدم الاطلاع على قلوب الخلق واحتمال إرادة التخصيص وغيره، وعظم حرمة المؤمن الذي قتل بغير حق أعظم عند الله من زوال الدنيا . وقد صرح الإمام حجة الإسلام الغزالي بأن ترك قتل نفوس استحقوا القتل أهون من سفك محجمة دم المسلم بغير حق، قال وكذا المؤمن إن صدر منه كفر صريح تعمده وارتد عن الإسلام، لا يبادر إلى قتله بل يستتاب وجوباً واستحباباً على خلاف في ذلك فكيف من لم يعلم أنه تلفظ بالكفر ولفظه يحتمل وجوهاً ممن أراد التخصيص وغيره، ويحتمل أيضاً السهو وسبق اللسان وغير ذلك فينبغي التثبت والتأني في التكفير وسفك دماء المسلمين، فليس ذلك الهين وينبغي إذا نقل عن أحد لفظ ظاهره الكفر أن يتأمل في ذلك وبمعن النظر فيه فإن احتمل ما يخرج اللفظ على ظاهره من أراد التخصيص أو المجاز أو غير ذلك مما قد عرف في القاعدة الأصولية يسأل اللفظ عن مراده وإن كان الأمثل في الكلام هو الحقيقة والعموم وعدم الإضمار وغير ذلك، لأن الضرورة ما نسبته إلى الاحتياط في هذا الأمر، واللفظ محتمل فاذا ما ينفي عنه الكفر مما يتحملة اللفظ بخلاف ظاهره أو اذكر غير ما يحتمل فإن ذكر شيئاً ما استتيب منه فإن تاب قبلت توبته وإن لم يتب وأصر على ذلك فإن كان مدلول ذلك الظاهر كفرةً مجمعةً عليه حكم بكفره وقتل مرتداً، ويترتب عليه أحكام المرتدين .

وإن كان في محل الخلاف نظر في الراجح من الأدلة، فإن لم يكن في الظاهر أهلية النظر في الأدلة نظر في الراجح عند المحققين من أهل النظر، فإن كان الراجح عندهم التكفير ترك، وإن عادل الخلاف أخذ بالأحوط وهو عدم التكفير، وينبغي أن يستتاب ويهدر إن لم يتب، وإن رجحوا التكفير فالحكم ما حكم به الفقيه .

وقال الياضي أيضاً في كتاب الإرشاد ما نقل ونسب إلى المشايخ رضي الله عنهم مما يخالف العلم الظاهر فله مجال الأول أن لا نسلم نسبته إليهم حتى يصح عنه

الثاني بعد الصحة يلتمس له تأويل عند أهل العلم الباطن العارفين بالله، الثالث صدور ذلك عنهم في حال السكر والغيبة والسكر إن كان مباحاً غير مؤاخذ لأنه غير مكلف في ذلك الوقت، فسوء الظن بهم بعد هذه المخارج من عدم التوفيق نعوذ بالله من الخذلان وسوء القضاء ومن جميع أنواع البلاء.

وقيل كان الشيخ الكبير أحمد بن الرفاعي - قدس الله روحه - ونور ضريحه - كثيراً ما ينشد ويردد هذا البيت المفرد.

فإن عبرت وأنت سليم قلب من البلوى فتهنيك السلامة

يعني تعبر سفينته في بحر الدنيا قلت قال شيخنا العارف بالله تعالى سيدي محمد المغربي فإن عبرت يعني سلكت الطريقة وخرجت من الدنيا على دين الإسلام سليماً من الكفر والإنكار على أولياء الله تعالى فتهنيك السلامة لذلك.

وقال بعضهم وكان فقيهاً إذا أردتنا فترك القولين والوجهين، قلت وأنشد اليافعي في هذا المعنى قوله:

وإنني جبان حين أخشى عواقبا وإن كان في ذاك السلامة راجحه
أقدم غيري طالباً لسلامتي وإن ظن مع ذاك التجارة رابحه
وقال أيضاً رضي الله عنه:

وقائلة مالي أراك مجانباً أموراً وفيها للتجارة مريح
فقلت لها مالي بربحك حاجة فنحن أناس بالسلامة نربح
ثم قال وهذا مذهبي أميل إليه وأقول به واعتمد عليه وقد صرحت بذلك في كتاب «روض الرياحين» حيث قلت وأما من اختلف في تكفيره فمذهبي فيه التوقف وتوكلي فيه إلى الله تعالى.

وقال حجة الإسلام: ولا ينبغي أن يظن أن التكفير ونفيه ينبغي أن لا يدرك قطعاً في كل مقام بل التكفير حكم شرعي يرجع إلى إباحة المال وسفك الدم وحكمه الخلود في النار فمأخذه كما أخذ سائر الأحكام الشرعية وتارة يدرك بيقين وتارة بظن غالباً وتارة يتردد فيه ومهما حصل تردد فترك التكفير أولى، والمبادرة في التكفير إنما تغلب على طباع من يغلب عليهم الجهل.

وقال بعض العلماء: اعلم أن دقائق علم التصوف لو عرضت معانيها على

الفقهاء بالعبارة التي ألفوها في علومهم لاستحسنوها كل الإحسان وكانوا أول القائلين، وإنما ينفرد منها إيرادها بعبارة مستغربة لم يالفوها ولهذا قال بعضهم: الحقيقة أحسن ما يعلم وأقبح ما يقال.

وها أنا أضرب لك مثلاً تعرف به صحة ذلك، قال الهروي في منازل السائرين: حقيقة التوبة ثلاثة أشياء ذكر من جملتها وهي عمل صالح وإنما يتوب من المعاصي، وتقرير معناه أن العبد إذا كمل في رجوعه إلى الله تعالى لم يلتفت لأعماله بقلة توبة كانت أو غيرها فيؤوب من سكونه إلى توبته وأزيدك أيضاً أن التوبة وإن كانت من كسب العبد وهي من خلق الله وتوفيقه فهو التائب عليه، ولو لم يتب عليه لما تاب، قال الله تعالى: ﴿تُؤْتَابُ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [سورة التوبة، آية: 118] فأبي صنع للعبد في التوبة وغيرها وهو الذي وفقه لفعالها، فرؤية العبد للتوبة ذنب يستغفر منه، بل عليه أن يشهد محض مئة الله عليه بها وتوفيقه لها، وينفي نفسه أصلاً عن درجة الاعتبار وهذا هو مقام الفناء في التوبة، وهي أول منازل السائرين، إذا تقرر ذلك علمت أن هذا المعنى لو عرض على الفقيه بهذه العبارة المألوفة كان أول قائل به وناصر له، لأن الفقيه السني يقابل على إثبات الأفعال. ونفيها عن العبد مخالفة للمعتزلة والقدرية ونحوهم ممن يزعم أن العبد يخلق أفعال نفسه.

وسئل الشيخ ولي الدين العراقي عن الشيخ محيي الدين بن العربي وابن الفارض فقال رحمه الله تعالى: ينبغي عندي أن لا يحكم على ابن العربي نفسه بشيء فإني لست على يقين من صدور كتاب الفصوص عنه ولا من استمراره عليه إلى وفاته وأما ابن الفارض فالإتحاد في شعره ظاهر لكن معاصروه من أهل الحديث رووا عنه في معاجمهم ولم يترجموه بشيء في ذلك.

ثناء العلماء على ابن الفارض:

فقال الحافظ الكبير زكي الدين عبد العظيم المنذري في معجمه: إن ابن الفارض الشافعي الأديب سمع من القاسم بن أبي القاسم بن عساكر بعد أن حدث عنه وسمعت شيئاً من شعره ثم قال في آخر الترجمة فرضى الله عنه ورحمه.

وقال الحافظ رشيد الدين العطار في معجمه الشيخ الفاضل الأديب كان حسن المنظر متوقد الخاطر وكان يسلك التصوف وينتحل مذهب الإمام الشافعي وأقام بمكة وصحب جماعة من المشايخ.

وقال الحافظ أبو بكر بن مسدي في معجمه برع في الأدب وكان رقيق الطبع عذب النبع فصيح العبارة دقيق الإشارة سلس القيادة نبيل الأضداد متظرف متصرف كالروض البهيج تخلق بالزري وجمع من كرم النفس كل مفترق انتهى .

وقال ابن الملقن في طبقات الأولياء عمر بن الفارض بن أبي الحسن علي بن المرشد بن علي الحموي الأصل المصري المولد والدار والوفاة المنعوت بالشرف صاحب الديوان المعروف الفائق جاور بمكة ومنى ومات في جمادي الأولى سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ودفن تحت المقطم بجبل العارض وولد في ذي القعدة سنة ست وسبعين وخمسائة .

والفارض الذي يكتب الفروض للنساء على الرجال انتهى .

ثناء العلماء على ابن العربي :

وقال أيضاً في ترجمة الشيخ محيي الدين بن العربي محمد بن علي بن محمد بن أحمد الطائي الحاتمي المرسي محيي الدين بن العربي نزيل دمشق ، وأما قوله وقد حط عليه الشيخ عز الدين بن عبد السلام فجوابه ما تقدم ، مات رضي الله عنه بعد الشيخ شرف الدين ابن الفارض سنة ثمان وثلاثين وستمائة .

تنبيه :

الفرق بين المتصوف والمتشبه :

قال السهروردي في «عوارف المعارف» في باب ذكر المتصوف والمتشبه أخبرنا الشيخ الإمام شيخنا شيخ مشايخ الإسلام أبو النجيب السهروردي إجازة قال : أخبرنا أبو محمد بن صاعد قال : حدثنا ابن الحسن المروزي قال : أخبرنا عبد الله بن المبارك قال : حدثنا المعتمر بن سليمان قال : أخبرنا حميد الطويل عن أنس بن مالك قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله متى قيام الساعة؟ فقام رسول الله ﷺ إلى الصلاة فلما قضى الصلاة قال : أين السائل عن الساعة فقال الرجل : أنا يا رسول الله قال : ما أعددت لها؟ قال ما أعددت لها كثير عمل إلا أنني أحب الله ورسوله ، فقال ﷺ : المرء مع من أحب وأنت مع من أحببت⁽¹⁾ .

(1) رواه مسلم في صحيحه ، باب المرء مع من أحب ، حديث رقم (2639) [4/2032] ورواه ابن حبان في الصحيح ، ذكر الإباحة للعالم إذا سئل عن الشيء . . . ، حديث رقم (105) [1/308] ورواه غيرهما .

قال أنس فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام كفرحهم بها⁽¹⁾ فالمتشبه بالصوفية وما اختار التشبه بهم دون غيرهم من الطوائف إلا لمحبتة إياهم وهو عن تقصيره عن القيام بما هو فيه يكون معهم لموضع إرادته ومحبتة، وقد ورد بلفظ آخر أوضح من الخبر الذي روينا به هذا المعنى. روى عبادة بن الصامت عن أبي ذر الغفاري قال: قلت: يا رسول الله الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يفعل كفعالهم قال أنت يا أبا ذر مع من أحببت، قال: فقلت: إني أحب الله ورسوله قال: فإنك مع من أحببت، قال فأعادها أبو ذر فأعادها رسول الله ﷺ⁽¹⁾.

قال السهروردي محبة المتشبه إياهم لا يكون إلا لشبهه روحه لما تنبته له أرواح الصوفية لأن محبة أمر الله وما يقرب منه يكون مجاذب الروح غير أن المتشبه تعوق بظلم النفس والصوفي تخلص من ذلك والمتصوف متطلع إلى حال الصوفي وهو مشارك يبقى شيء من صفاء نفسه عليه للمتشبه.

منزلة الإيمان بطريق القوم:

وطريق الصوفية أوله إيمان ثم علم ثم ذوق فالمتشبه صاحب إيمان فالإيمان بطريق الصوفية أصل كبير وقال سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد: الإيمان بطريقنا هذه ولاية، ووجه ذلك أن الصوفية يتميزون بأحوال عزيزة وإشارات مستغربة عند أكثر الخلق، فإنهم مكاشفون بالقدرة وغرائب الأمور، إشاراتهم إلى عظيم أمر الله والقرب منه، والإيمان بذلك إيمان بالقدرة وعلوم نفيسة من هذا القبيل، فلا يؤمن بطريقهم إلا من خصه الله تعالى بمزيد عناية فالمتشبه صاحب إيمان، والمتصوف صاحب حقيقة علم؛ لأنه بعد الإيمان المكتسب عنده مزيد علم بطريقهم، وصار له من ذلك مواجيد يستدرك على سائرهما، فالصوفي صاحب ذوق والله أعلم.

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب المرء مع من أحب، باب المرء مع من أحب، حديث رقم (2639) [4/2032] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر الإباحة للعالم إذا سئل عن الشيء...، حديث رقم (105) [1/308] ورواه غيرهما.

(2) رواه ابن حبان في الصحيح، ذكر البيان بأن محبة المرء الصالحين...، حديث رقم (556) [2/315] ورواه أبو داود في السنن، باب إخبار الرجل الرجل بمحبته إله، حديث رقم (5126) [4/333] ورواه غيرهما.

فصل

حكاية آخر حجة للسهروردي

لما حج الشيخ شهاب الدين السهروردي صاحب عوارف المعارف وكان آخر حجة في سنة ثمان وعشرين وستمائة، وكان وقفة الجمعة وحج معه خلق كثير من أهل العراق ورأى كثرة ازدحام الناس عليه في الطواف بالبيت والوقوف بعرفة، واقتدائهم بأقواله وأفعاله، وبلغه أن الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض في الحرم فاشتاق إلى رؤيته وبكى وقال في سره يا ترى هل أنا عند الله تعالى كما يظن هؤلاء القوم بي؟ ويا ترى هل ذكرت في حضرة الحبيب في هذا اليوم؟ فظهر له الشيخ عمر شرف الدين بن الفارض رضي الله عنه وقال له: يا سهروردي لك البشارة فاخلع ما عليك فقد ذكرت ثمّ على ما فيك من عوج.

فصرخ الشيخ شهاب الدين وخلع كل ما عليه وخلع المشايخ والفقراء الحاضرون كل ما كان عليهم وطلب الشيخ فلم يجده فقال السهروردي: هذا إخبار من كان في الحضرة، ثم اجتمعا بعد ذلك في الحرم الشريف واعتنقا وتحادثا وتساررا زماناً طويلاً.

وسئل القطب سيدي علي وفا عن ابن الفارض فقال: يدور حول حمانا وسئل عنه أيضاً مرة أخرى فقال: ذاك عاشق وأنا معشوق وأنشدني شيخنا العلامة نور الدين الأشموني لنفسه:

رفضوا بجهل قطب دائرة الورى عمر الولي العالم ابن الفارض
ومضيت سُنِّيًّا أرى حبي له فرضاً عليّ ورافضاً للرافضي

فصل

في التستر

قال بحر الحقائق محيي الدين بن العربي رضي الله عنه في كتابه «الفنا في المشاهدة»: والعلم يجب ستره عن الكشف على الخلق لما فيه، فقعره بعيد، والتلف فيه قريب، فإن من لا معرفة له بالحقائق ولا بامتداد الرقائق يقف على هذا الفن وهذا الشهد نم لسان صاحبه المحقق به وهو من لم يذقه ربما قال: «أنا من أهوى ومن أهوى أنا» فلهذا نستره ونكتمه وقد كان الحسن البصري إذا أراد أن يتكلم في مثل هذه الأسرار التي لا ينبغي لمن ليس في طريقها أن يقف عليها دعا فرقد السبخي ومالك بن دينار ومن حضر من أهل هذا الفن فلولا وجوب كتمه ما فعل هذا.

وكذا قال أبو هريرة فيما ذكره البخاري في صحيحه حملت على النبي ﷺ جرائين أما الواحد فبثثته فيكم وأما الآخر فلو بثثته فيكم قطع مني هذا البلعوم⁽¹⁾. وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [سورة الطلاق، آية: 12] لو ذكرت تفسيرهن لرجتموني وقتلت: إني كافر. وكان علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول ويضرب بيده على صدره: آه إن هاهنا لعلوماً جمّة لو وجدت لها حملة⁽²⁾، وقال عليه الصلاة والسلام: «ما فضلكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بشيء وقر في صدره»⁽³⁾ ولم يُبين ذلك الشيء وكتمه عليهم فليس كل علم يلزم معرفة العالم به.

(1) رواه أبو نعيم في الحلية بلفظ: «حفظت من رسول الله ﷺ خمسة جرب فأخرجت منها جرابين ولو أخرجت الثالث لرجتموني بالحجارة». [381/1]. وأورد الحديث بلفظه الألويسي في التفسير، سورة المائدة [991/6]، ورواه البخاري في صحيحه، باب حفظ العلم، حديث رقم (120) [56/1]، ولفظه: «حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين فأما أحدهما فبثثته وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم».

(2) أورده الغزالي في إحياء علوم الدين، الباب الخامس في آداب المتعلم، [115/1].

(3) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2228) [248/2].

تنبيه:

فائدة في كيفية النظر في دقائق العلم:

قال عليه الصلاة والسلام: «خاطبوا الناس على قدر عقولهم»⁽¹⁾ فينبغي لمن وقع في يده كتاب في علم لا يعرفه ولا يسلك طريقه أن لا يبدي به ولا يعيد، وأن يرده على أهله، ولا يؤمن به ولا يكفر، ولا يخوض فيه ألبته، فرب حامل فقه ليس بفقيه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَوْ يُحِيطُوا بِعَلْمِهِ﴾ [سورة يونس، آية: 39]، ﴿فَلَمْ تَحْجُونْ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ [سورة آل عمران، آية: 66] قد ورد فيهم الذم حيث تكلموا فيما ليس يسلكون طريقه وإنما سقنا هذا كله؛ لأن كتب أهل طريقنا مشحونة من هذه الأسرار ويتسلط عليها أهل الإنكار بإنكاره، وأهل الظواهر بأول احتمالات الكلام فيقعون فيهم، ولو سئلوا عن مجرد اصطلاح القوم للذي تواطئوا عليه في عباراتهم ما عرفوه، فكيف ينبغي لهم أن يتكلموا فيما لم يحكموا أصله؟ وربما قالوا إذا عاينوهم يتكتمون بمواجيدهم مع أصحابهم: دين مكتوم مشؤوم» وما عرفوا جهات الدين وهؤلاء ما تكتموا بالدين قط بل تكتموا بنتيجته وما وهبهم الحق تعالى في طاعته حين أطاعوه.

ثم قال رحمه الله تعالى: وأنا والله أخاف على المنكرين على هذه الطائفة، وقد قال: من قعد معهم يعني مع أهل الحقائق من أهل الصوفية وخالفهم في شيء مما يتحققون به نزع الله نور الإيمان من قلبه قلت: وكذا قاله الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في لطائف المنن: ومن أنكر كرامات الأولياء رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فالدلائل الثقيلة والعقلية ترد عليه ويخشى على من هذا مذهبه سوء الخاتمة أعاذنا الله من ذلك بفضلته وكرمه.

وقال ابن العربي رضي الله تعالى عنه في كتابه المسمى «بالعظمة»: فهم الشهود والأمناء وهم الأبرياء الأخفياء لا يعرفهم سواه، مجهولة أحوالهم من حيث الشبه بالصورة واختلاف البواعث والمعاني فهم يأكلون ويشربون وينكحون ويمزحون ويضحكون ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [سورة

(1) ورد بلفظ: «أمرت أن تكلم الناس على قدر عقولهم». رواه الديلمي في الفردوس عن ابن عباس برقم (1611) [398/1].

الفرقان، آية: [7] انظر ما فعلت مشاركة الصور وإن اختلفت آيات السور فهذا اللسان نطقوا وعن هذه الحقيقة ترجموا ولو عزا عليهم رحموا هكذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: فسبحان من سترهم عن أعين المنكرين وإن كانوا مسلمين صالحين . قال بعض العارفين: لا يبلغ الرجل درجة الحقيقة حتى يشهد فيه ألف صديق أنه زنديق . معنى هذا الكلام لو نطق بما يقتضيه مقامه وحاله مستور لكن لا ينطق إلا بالأمر المعتاد فيخفى بين العباد .

وقال الإمام الياقيني في الإرشاد ما نصه قال شيخ الطريقة وبحر الحقيقة محيي الدين بن العربي رضي الله عنه: كنت أنا وصاحب لي في المغرب الأقصى بساحل البحر المحيط وهناك مسجد يأوي إليه الأبدال فرأيت أنا وصاحبي رجلاً قد رفع حصيراً في الهواء على مقدار أربعة أذرع من الأرض وصلّى عليه فجئت أنا وصاحبي ووقفت تحته وقلت:

شغل المحب عن الحبيب بسره في حب من خلق الهوا أو سخره العارفون عقولهم معقولة عن كل كون يرتضيه مطهره فهم لديهم مكرمون وعندهم أسراره مخزونة ومحرره قال فأوجز في صلاته وقال: إنما فعلت هذا لأجل المنكر الذي معك وأنا أبو العباس الخضر، ولم أكن أعلم أن صاحبي ينكر كرامات الأولياء فالتفت وقلت: يا فلان كنت تنكر كرامات الأولياء قال: نعم قلت: فما تقول الآن قال بعد العيان ما يقال . وقال القرطبي: أحد أئمة المالكية في منظومة قواعد الإسلام:

قد جمعت طهارة الأعضاء ألف بلا شك ولا امتراء ذكرها محمد بن العربي خزانة العلم وقطب المغرب قلت هو الحاتمي الطائي صاحب «الفتوحات المكية» وغيرها من المصنفات لا كما يظن بعض الناس أنه القاضي أبو بكر تلميذ الغزالي لأنه وإن كان إماماً في العلوم الشرعية فلم يشتهر عنه التبخر في التصوف كشهرة في العلوم الظاهرة فضلاً عن أن يترجم بالقبطية التي هي ثمرة العلوم الباطنة .

أخبرني بعض الثقات من الفضلاء قال سمعت علامة الوجود حنفي زمانه كمال الدين بن الهمام يقول: ابن العربي لست أقول فيه شيخ الإسلام بل إنما هو شيخ مشايخ الإسلام انتهى .

تنبيه :

الفرق بين ابن العربي مَعْرَفًا وابن العربي مُنْكَرًا:

اعلم أن الشيخ محيي الدين بن العربي الصوفي معرف بالألف واللام كالقاضي أبي بكر بن العربي الفقيه وإنما نكره بعض المتأخرين للتمييز بينهما وهاهنا لطيفة لا بأس بذكرها وهي قول شيخنا العارف بالله تعالى سيدي محمد المغربي إنما نُكِّر الصوفي لأنه مُعَرَّف لنفسه غير مفتقر للتعريف ولقد ترجمه معرفاً بالأداة جماعة من العلماء كالشيخ صفي الدين بن أبي المنصور الذي رآه واجتمع به والشيخ تاج الدين بن الملتن في طبقات الأولياء وغيرهما من الأئمة الأعلام.

فصل

قال الشيخ عبد الغفار القوسي في كتاب «الوحيد» ولما جاء أبو العباس المرسي صاحب الشيخ أبي الحسن الشاذلي إلى مدينة قوص قال لي الشيخ جلال الدين الدشناوي: قلت: وهو أحد أئمة الشافعية المترجمين في طبقات الشيخ السبكي وكذا الإسنوي وكان حبراً فاضلاً: دخل معي إلى الشيخ أبي العباس فدخلنا عليه فأجد الشيخ جالساً القرفصاء وعليه الحال وعيناه محمرتان وأسنانه تطقق ولحيته تلعب على صدره، فلم أسلم ولم أتكلم؛ لأنه لا يليق بذلك الوقت في أحوال القوم وتباعدت، فقال الشيخ أبو العباس: والله الذي لا إله إلا هو ما أنكر من كلام الفقهاء إلا خصلتين:

الواحدة يكفرون الحلاج.

والثانية يحكمون بموت الخضر.

إيش تقول أنت في الخضر؟

فقال الشيخ جلال الدين: الناس يختلفون في موته.

فقال الشيخ أبو العباس: قد دخل عليّ وعرفني نفسه واكتسب فيه أرواح المؤمنين بالغيب فوالله لو جاء مائة فقيه ما رجعت إليهم، فقال الشيخ جلال الدين يا سيدي لو رأيت روعي في أرواح المؤمنين؟ قال الشيخ عبد الغفار فالتفت الشيخ جلال الدين إلى ليشهدني عليه بذلك ثم قال الشيخ: فأى شيء تقول في الحلاج؟ قال يا سيدي: كنت أحبه حتى سمعت عنه أنه قال: على دين الصليب يكون موتي، فحصل لي شيء، فقال الشيخ في هذا: وهل الدين إلا الوقت والحين قال الله تعالى: ﴿مَدَّكَ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [سورة الفاتحة، آية: 4] وهو إشارة إلى أنه يموت مصلوباً وكذلك كان، ثم أنشد الشيخ على لسان بعض العارفين فقال:

تعالوا ندخل الحانا ونقضي فيه أو طارا
ونكسر منبر الجامع ونعمل فيه مزمارا
وننتف لحيه القاضي ونعمل منه أوتارا

وجعل يعبر عن ذلك بعبارات لطيفة من كون الجامع مجمع اللعب والمنبر منبر الشيطان والقاضي إبليس .

تنبيه :

سبب قتل الحلاج :

ذكر ابن خلكان في تاريخه أن بعض أصحاب الحلاج ادعى أنه رآه يوم قتله وهو راكب على حمار في طريق النهروان وأنه قال لعلمكم تظنون أنني هو المضروب المقتول .

وكان سبب قتله أنه جرى منه كلام في مجلس حامد بن العباس وزير المقتدر فأفتى القضاة والعلماء بقتله وإباحة دمه فأمر المقتدر بتسليمه إلى محمد بن عبد الصمد صاحب الشرطة فتسلمه بعد العشاء خوفاً من العامة أن تنزعه من يده ثم أخرجه يوم الثلاثاء لست بقين من ذي القعدة سنة تسع وثلاثمائة عند باب الطاق واجتمع عليه خلق كثير فضربه الجلاد ألف سوط، فما استعفى ولا تأوه، ثم قطع أطرافه الأربعة وهو ساكن لا يضطرب، ثم حز رأسه وأحرق جثته وألقي رمادها في الدجلة ونصب الرأس ببغداد ثم حمل وطيف به في النواحي والبلاد .

واتفق أنها زادت الدجلة تلك السنة زيادة وافية فادعى أصحابه أن ذلك بسبب إلقاء رماده فيها وادعى أصحابه أنه لم يقتل وإنما ألقى شبهه عند قتله ولما خرج ليقتل أنشد عند قتله :

لم أسلم النفس للأسقام تتلفها إلا لعلمي أن الموت يشفيها
ونظرة منك يا سؤلي ويا أملي أشهى إلي من الدنيا وما فيها
نفس المحب على الآلام صابرة لعل متلفها يوماً يداويها

وكان الحلاج رضي الله تعالى عنه قد صحب الجنيد ووقع بينه وبين الشبلي وغيره من مشايخ الصوفية وذكر عز الدين بن عبد السلام المقدسي في حل الرموز ومفاتيح الكنوز أنه لما أتى به ليصلب ورأى الخشب والمسامير ضحك ضحكاً كثيراً ثم نظر في الجماعة فرأى الشبلي فقال يا أبا بكر هل معك سجادة قال : بلى قال : افرشها لي ففرشها فتقدم فصلّى ركعتين بفاتحة الكتاب ومن بعدها : ﴿وَلَنَبَلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ [سورة البقرة، آية : 155] الآية ثم قرأ في الثانية الفاتحة وبعدها

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [سورة آل عمران، آية: 185] الآية ثم ذكر كلاماً كثيراً ثم تقدم أبو الحارث السيف ولطمه لطمه هشم وجهه فصاح الشبلي وأغمي على أبي الحسن الواسطي وجماعة من المشايخ المشهورين .
 وكان الحلاج يقول: اقتلوني واعلموا أن الله تعالى قد أحل لكم دمي، فاقتلوني ليس للمسلمين اليوم شغل أهم من قتلي وقال أيضاً: في قتلي قيام الحدود ووقوف مع الشريعة ومن جاوز الحدود أقيمت عليه الحدود.

تنبيه:

قال الشيخ عبد الغفار القوصي في كتاب «الوحيد»: وحكاية الحلاج لما دخل عليه ابن خفيف. وقال أسألك عن ثلاث، فقال: قل.

فقلت: الصبر ما هو؟

فنظر إلى الأغلال والقيود فتفككت ونظر إلى الحائط فانفلق وإذا نحن على الدجلة، فقال الصبر هذا.

فقلت له فما الفقر؟

فنظر إلى حجارة هناك فصارت ذهباً وفضة وقال الفقر هذا وإني لأحتال على الفلاس للزيت.

فقلت: فما الفتوة؟

فقال إلى غد فقتل في ذلك النهار فلما كان الليل رأيت كأن القيامة قد قامت ومنادياً ينادي أين الحسين ابن منصور الحلاج؟ فأوقف بين يدي الله تعالى فقيل له: من أحبك أدخلته الجنة ومن أبغضك أدخلته النار فقال يا رب اغفر للجميع ثم التفت إليّ وقال لي: هذه الفتوة انتهى.

محامل شطحات الحلاج:

وقد ذكر الإمام قطب الوجود حجة الإسلام الغزالي في كتاب «مشكاة الأنوار» فصلاً طويلاً في أمره واعتذر عن إطلاقه بقوله: (أنا الحق وما في الجبة إلا الله) وحملها كلها على محامل حسنة وقد قال هذا من فرط المحبة وشدة الوجد وهو مثل قول القائل: أنا من أهوى، ومن أهوى أنا.

كان ابن سريج إذا سئل عنه يقول هذا رجل خفي عليّ حاله في أن أقول فيه

شيئاً. قال الشيخ كمال الدين الدميري في حياة الحيوان الكبرى وهذا شبيهه بكلام عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وقد سئل عن علي ومعاوية رضي الله عنهما فقال هي دماء طهر الله منها سيوفنا أفلا نُظْهَر من الخوض فيها أَلَسْتَنَا . وهكذا ينبغي لمن يخاف الله تعالى أن لا يكفر أحداً من أهل القبلة بكلام يصدر منه يحتمل التأويل على الحق والباطل فإن الإخراج من الإسلام عظيم ولا يسارع به إلا جاهل .

وقال شيخنا العارف بالله تعالى سيدي محمد المغربي انظر إلى كلام ابن سريج كيف أثبت له حالاً خفي عليه وعلى مثله وكأنه يقول رداً على المعترض ما لي وأمثالي من أرباب الأقوال والاعتراض على أرباب الأحوال .

وقال قطب الزمان الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس الله روحه : عثر الحلاج ولم يكن له من يأخذ بيده ولو أدركت زمانه لأخذت بيده، وقال سيدي عبد القادر الكيلاني معرضاً بالحلاج كان بازيماً من بزاة الملك مخاط العينين بخيط ﴿وَحُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [سورة النساء، آية: 28] فقوي بصره لما اكتحل من كحل رأيت ربي بعين قلبي فخفي عليه المطار ولم يقربه القرار فارتفع إلى العلا محاولاً ما طلب فصدعه ﴿فَأَيْنَمَا تُولُؤُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة، آية: 115] فلم يجد ما يجد ما يحاوله فكر هارباً إلى الأرض حائراً في فضاء ﴿فَأَيْنَمَا تُولُؤُوا فَتَمَّ﴾ فحملته الحيرة والشوق وما أخذ منه بالطوق أن صفر في دوحه توحيد بصفير لم يعهد من مثله عرضه إلى حتف أنفه هذا اختصار عبارته بالمعنى رضي الله عنهما وعفى .

علة تسميته بالحلاج :

وسمي الحلاج؛ لأنه جلس يوماً على حانوت حلاج واستفضاه حاجة فقال له الحلاج أنا مشغل بالحلج فقال له امض الآن في حاجتي حتى أحلج عنك فمضى الحلاج في حاجته فلما عاد وجد قطنه كله محلوجاً وكان لا يحلجه إلا عشرة رجال في أيام متعددة فمن ثم قيل له الحلاج .

وقيل إنه كان يتكلم على الأسرار ويخبر عنها فسمي حلاج الأسرار وكان من أهل البيضا بلدة بفارس وكنيته كما قال ابن الملقن في طبقات الأولياء أبو الغيث والله أعلم .

تنبيه :

موقف الجنيد من العلاج :

زعم بعض المتفهبين من أهل زماننا أن سيد الطائفة أبا القاسم الجنيد أفتى بكفره ظاهراً وباطناً وليس الأمر كما زعم .

والصواب أنه أفتى بقتله لكونه خرق في ظاهر الشريعة خرقاً لا يسده إلا عنقه ، وأفتى بما يقتضيه ظاهر الشرع مع أنه يعتقد في الباطن أنه من أكابر الأولياء المقربين ولأن من أظهر سراً من الأسرار بغير إذن فدمه هدر كما هو معروف في مذهب القوم .

ولهذا قال قطب الزمان الشيخ محيي الدين عبد القادر الجيلاني رضي الله تعالى عنه .

في باطني من نوركم ما لو بدا أفتى بسفك دمي الذي لا يعلم ولو أنني أبدي سرائر وذكركم قال العواذل ليس هذا مسلم ولقد أحسن سيد علماء الطريقة وإمام أهل الحقيقة أبو الحسن الشاذلي قدس الله روحه ونور ضريحه حيث يقول :

اسكت إلى أن تراها فيك ناطقة فإن وجدت لساناً ناطقاً فقل وقال الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض رضي الله تعالى عنه وأعاد علينا من بركاته .

وما عنه لم تفصح فأنكر أهله وأنت غريب عنه إن قلت فاصمت وقال شيخ شيوخنا قطب الدائرة شمس الدين الحنفي رضي الله عنه في ذلك . ومن شهد الإشارة فليصنها وإلا سوف يقتل بالحديد وقال بعضهم :

وارحمةً للعاشقين تحملوا ثقل المحبة والهوى فضّاح بالسر إن باحوا تُباح دماؤهم وكذا دماء البائحين تُباح

معنى قولهم : إفشاء سرّ الربوبية كفر :

وقال حجة الإسلام الغزالي في «مشكاة الأنوار» ولقد ارتقيت أيها السالك مرتقياً

صعباً تتقلص دون أعاليه أعين الناظرين، وقرعت باباً مغلقاً لا يفتح إلا للعلماء الراسخين، ثم ليس كل سر يُكشف ويُفشى ولا كل خفية من الحقيقة تعرض وتُجلي، صدور الأحرار قبور الأسرار.

وقد قال بعض العارفين بالله: إفشاء سر الربوبية كفر قال سيد الأولين والآخرين ﷺ: «إن من العلم كهية المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله تعالى فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله»⁽¹⁾ فإذا كثرت الإنكار من أهل الاغترار وجب حفظ الأسرار فيه على وجه الإسرار انتهى.

قلت أشار حجة الإسلام بقوله وقرعت باباً مغلقاً لا يفتح إلا للعلماء الراسخين إلى أن الحقيقة كالبيوت والشريعة كأبوابها والمخالفة وشهود الأغيار كظهورها، فكأنه يقول لا وصول إلى الحقيقة إلا من باب الشريعة قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [سورة البقرة، آية: 189] وإلى هذا المعنى أشار ابن الفارض رضي الله تعالى عنه.

أتيت بيوتاً لم تنل من ظهورها وأبوابها عن قرع مثلك سُدَّتْ فدع عنك دعوى الحب وادع لغيره فؤادك وادفع عنك غيِّك بالتّي وجانب باب الوصل هيهات لم يكن وها أنت حيّ إن تكن صادقاً مُتّ تذنيب:

من كلام الحلاج وتأويله:

من كلام الحسين بن منصور الحلاج رحمه الله:

سقوني وقالوا لا تغني ولو سقوا جبال حنين ما سقوني لغنت قال شيخنا العارف بالله تعالى شاذلي زمانه سيدي محمد المغربي قوله: سقوني أي أحبائي من شراب الحب والوداد بكأس حسن الاتباع للشريعة والامثال والانقياد لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [سورة آل عمران، آية: 31]. وقالوا لا تغني أي اكنتم شرك ولا تبج منه بذرة فإن من كنتم سره ملك أمره ولكن من أحب شيئاً أكثر ذكره فإن كنتم غلب وإن أراد البسط فتغني بمحبوبه وترنم أو غلب

(1) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب عن أبي هريرة، حديث رقم (802) [1/210].

وأراد القبض فأفصح سره البكاء ونم عليه وتكلم قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ خَلِقُوا إِلَى نَسْخِ ضَعِيفًا مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ كُلِّ﴾ [سورة المائدة، آية: 83].
 هذا في مبادئ الأمر فإذا تنهى حال الموحد وحقق قل من يثبت والثبات أفضل مهما أمكن وأرفق، وإلا تقطع صاحبه لغلبة الوارد وتمزق، ولسان الحال ينطق ويقول وهو أصدق، كيف لا أتأثر؟ إنما أنا بشر ما أنا حجر لا يلين ولا يطرب عند سماع الطيب من الكلام المحرك للحب الساكن بالقلب على الدوام بل ولو سقوا جبال حنين أي وغيرها من سائر الجبال ما سقوني لغنت أي غيبت أو تقطعت من هيبة الجلال وتدكدت كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشِرْكَ مِمَّا عَرَفُوا﴾ [سورة البقرة، آية: 177] وكما قال الأستاذ شرف الدين سيدي عمر بن الفارض رحمه الله في هذا المعنى:

ولو أن ما بي بالجبال وكان طو ر سينا بها قبل التجلي لدكّت
 وأنشد الحلاج يقول:

اقتلونني يا ثقاتي إن في قتلي حياتي
 وحياتي في مماتي ومماتي في حياتي
 فاقتلونني واحرقوني بعظامي الباليات
 ثم مروا برؤفاتي وعظامي المدارس
 تجدوا سر حبيبي في طوايا الباليات

ولقد كان من هذا كلامه في أحبابه المخصوصين بالولاية وشدة الاقتراب لذلك أصيب بقدر ما أصاب من علو المقام وكثرة الثواب قال الله تعالى في أيوب عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعِمَّ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [سورة ص، آية: 44].

مقياس الولاية عند أهل العلم:

باب في قول الإمامين المجتهدين الشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهما إذا لم تكن العلماء أولياء فليس لله ولي وإلا لو قلنا بعموم لفظ مدلول العلماء الصادق بأهل الظاهر للزم أن جميع علماء الظاهر أولياء لله مطلقاً كانوا عاملين بعلمهم أم لا وهذا باطل بلا شك لأن العلم يناله بالكسب مع فعل المعاصي بخلاف العلم الباطن فإنه لا يحصل إلا للعلماء بالله أرباب الولايات.

قال الياضي في نشر المحاسن: اعلم أن العلوم والمعارف اللدنية يخص بها الولي والصدوق والعلوم الظاهرة ينالها الصالح والزنديق.
وقال سفيان بن عيينة: أجهل الناس من ترك العمل بما يعلم وأفضل الناس أشجعهم لله. قال السهروردي في عوارف المعارف: وهذا قول صحيح يحكم أن العالم إذا لم يعمل بعلمه فليس بعالم لا تغرك شدته واستطالته وحذاقته وقوته في المناظرة والمجادلة فإنه جاهل وليس بعالم إلا أن يتوب الله عليه ببركة العلم.

العلماء بين الباطن والظاهر:

واعلم أن العلماء الذين جمعوا بين الظاهر والباطن لهم حالتان:
منهم من كان الغالب عليه علم الحقيقة كأبي القاسم الجنيد والسيد أبي الحسن الشاذلي وأضرابهما.

ومنهم من كان الغالب عليه الشريعة كالشافعي وأحمد بن حنبل وأضرابهما من العلماء الصالحين الجامعين بين علمي الشريعة والحقيقة والدليل على ذلك واقعة سيدنا موسى مع أبي العباس الخضر عليهما الصلاة والسلام فإن سيدنا موسى غلبت شريعته على حقيقته ولهذا أنكر على الخضر بسبب ظاهر الشريعة.

ولما غلبت حقيقة الخضر على شريعته أظهر شيئاً من محاسنها في قالب الحكمة التي لا يدركها إلا من وهبه الله الكشف عن الحقائق الربانية كما قال تعالى حاكياً عنهما ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾، ﴿مِنْ كُلِّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، و﴿الْجُوعِ إِذَا قَائِمًا تَلَوْتُمُوهُ فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَقَامَهُ﴾ [سورة الكهف، الآيات: 71 - 77] فأقامه» ولهذا قال سلطان أهل المحبة شرف الدين عمر بن الفارض رضي الله عنه ونفعنا به آمين:

وقد طلعت شمس الوجود فأشرقت وجودي وحلّت لي عقود أليّة
وكانت حراماً قبل تحريمها لنا فلما أتاه آية الحزم حلت
قتلت غلام النفس بين إقامة الـ جدار لأحكامي وخرق سفينتي
وقال شيخنا العارف بالله تعالى سيد علماء الطريقة وإمام أهل الحقيقة سيدي
محمد الشاذلي المغربي أي وطلعت شمس الحقيقة بواسطة الواقعة التي بين موسى
وبين الخضر عليه السلام.

وقوله: وحلت لي عقود أليّة أي وثيقة وذلك لما صار حالي في الحقيقة كحال الخضر عليه السلام حيث حلت له عقود أحكام الشريعة من خرق السفينة وقتل الغلام وغير ذلك وكانت هذه الوقائع حراماً في شريعة من قبلنا لقول موسى عليه السلام للخضر ﴿أَخْرَقَهَا لِنُغْرَقَ أَهْلَهَا﴾، ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ﴾ [سورة الكهف، الآيتان: 71-74] وذلك قبل ورودها وقبل خروجها لنا أي علينا «فلما أتتها آية الحزم حلت» أي باطن الحقيقة والله أعلم... الشيخ أبو العباس المرسي في قصيدة له يقول:

رفعت مقامات الوصول حجابي حتى احتجبت بكم عن الحجاب
ولزمت محرابي لزوماً جامعاً فرأيت وجه الحق في محرابي
وخرقت لوح سفينتي لأعيبها فنجوت من ملك لها غصاب
ورقيت في السبع السموات العلى حتى دنوت فكنت مثل القاب
فحينئذ إذا تقرر ذلك علمت أن العلم الباطن لا ينال بمجرد الكسب فضلاً عن
التكسب بأفعال المعاصي وكيف يتوهم حصوله بالكسب لكل أحد وقد جعله
خصيصة لأصفيائه الذين ورثوا النبوة والرسالة..

قال الياضي في نشر المحاسن: أفضل العلماء هم العلماء بالله الذين يكشف لهم الغطاء فشاهدوا الجمال الأسنى وسكروا بمحبة المولى وعرفوه بأسمائه الحسنی وصفاته العلى وتحلوا من صفاته بمحاسن الأخلاق وشاهدوا عجائب ملكوته وغرائب حكمته وعظائم آياته الكبرى، وقربهم في حضرة قدسه وأجلسهم على بساط أنسه، ولقلوبهم بصفات الجمال والجلال تجلى وجعلها مطالع أنواره وخزائن أسرارها ومعادن المعارف والحكم فسبحان من نشر أعلام ولايته، وصرفهم في المملكة بهدى رعايته، وشوقهم إلى النظر إلى وجهه الكريم، فزهدوا في الدنيا والأخرى، وأحیی بهم الدين ونفع بهم المریدین، وجلی بهم عن قلوبهم الصدى وأغاث بهم العباد، وأصلح البلاد، وكشف بهم البلاء.

وقال بعض العارفين نعم الناطقون بالحق عن الحقيقة والمرشدون إلى سلوك الطريقة نطقوا بالحكم من بحور تلاطم أمواجها وثار عجاجها فاستقرت دور التوحيد في مروجها ولاحت الأنوار على ساحاتها وانسبطت في الأقطار وتشعشت في الأمصار فاستخرج منها اللآلئ الكبار وأودعوا من العلوم اللدنية جواهر الأسرار

وخرقت لهم الحجب العلوية فارتقت إلى معادن الأنوار واستقروا على بساط الأنس وكشفوا عن سر الأزلية باختيار علت هممهم إلى المراتب العلوية والعلوم الإلهية والأنفاس الروحانية فاتضح لهم العلم وانكشف لهم السر المكنون شربت أرواحهم راح المحبة في حضرة القدس فسكرت عند مشاهدة الجمال على بساط الأنس فهم الأصفياء المحبوبون والجلساء المقربون.

وقال السهروردي في عوارف المعارف: الصوفية أحكموا أساس التقوى وتعلموا العلم لله تعالى وعملوا بما علموا لموضع تقواهم؛ فعلمهم الله ما لم يعلموا من غرائب العلوم ودقائق الإشارات واستنبطوا من كلام الله تعالى غرائب العلوم وعجائب الأسرار وتوشح قدمهم بالعلم.

قال أبو سعيد الخراز: أول الفهم إلقاء السمع والمشاهدة لقوله تعالى: **الْمَوَالِجُوعِ إِذَا قَائِمًا تُولُوا فَتَمَجُّهُ اللَّهُ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** [سورة ق، آية: 37] وقال أبو بكر الواسطي الراسخون في العلم الذين رسخوا بأرواحهم في غيب الغيب، وفي سر السر، فعرفهم وأراد منهم من مقتضى الآيات ما لم يرد من غيرهم وخاضوا بحر العلم بطلب الزيادة فانكشف لهم عن مدخور الخزائن والمخزون تحت كل حرف وما تضمنه من الفهم وعجائب النص فاستخرجوا الدرر والجواهر ونطقوا بالحكمة وقد ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ فيما رواه سفيان بن عيينه عن ابن جريج عن عطاء عن أبي هريرة أنه قال: «إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله»⁽¹⁾.

حقيقة العلم اللدني:

أخبرنا أبو زرعة قال أخبرنا أبو بكر بن خلف إجازة قال: أخبرنا أبو عبد الرحمن قال: سمعت النصر أباذي يقول: سمعت ابن عائشة يقول سمعت القرشي يقول: هي أسرار الله تعالى نبذها إلى أمناء أوليائه وسادات أتقيائه النبلاء من غير سماع ولا دراسة وهي من الأسرار التي لم يطلع عليها إلا الخواص.

وقال أبو سعيد الخراز: للعارفين خزائن أودعوها علوماً غريبة وأنباء عجيبة ويتكلمون فيها بالأسرار الأبدية وبعبارة الأزلية وهو من العلم المجهول فقوله:

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

«بلسان الأبدية وبعبارة الأزلية» إشارة إلى أنهم بالله ينطقون وقد قال الله على لسان نبيه ﷺ «فبي ينطق»⁽¹⁾ وهو العلم اللدني الذي قال الله تعالى في حق الخضر ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف، آية: 65].

وقال الياضي في كتابه سراج التوحيد: اعلم أن العلماء إنما تشرفوا على قدر شرف علومهم وشرف العلوم على قدر متعلقاتها فعلم المعارف المتعلقة بالله تعالى وأسمائه وصفاته أشرف العلوم وأصحابها أشرف العلماء، وبعدها علم الفقه لتعلقه بأحكام الله وشرعه الذي يستعبد به عباده، واعلم أن معرفة الله ومعرفة عبادته واجبة؛ لأن الخلق إنما خلقوا لمعرفة الله وعبادته كما قال الله عز وجل: **أَعْرِفْهَا يُعْرِقَ أَهْلَهَا** **وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** [سورة الذاريات، آية: 56] ثم العابد مفتقر إلى معرفة المعبود ومعرفة كيف يعبد، وقول بعض المفسرين معنى «يعبدون» يعرفون فذلك أيضاً يتضمن ذلك، إذا علم هذا فاعلم أن معرفة كثير من العلوم وسيلة إلى العمل والعمل وسيلة إلى طاعة الله والقرب منه سبحانه وذلك هو المقصود فمن استعمل هذه الوسائل على وجهها والمراد منها وصل منها إلى المقصود، فظفر بغاية المراد ونهاية الشرف المحمود، ومن جعل مقصوده بعض الوسائل كمن اتخذ علماً يماري به الناس ويجادلهم واشتغل به عن المقصود فهو الجاهل؛ لأن العالم في الحقيقة هو العامل.

فيا خسارة من باع غنى آخرته بدنياه باذلاً للجواهر بالنحاس ويا ويح من ضيع منا أوقاته ويا خيبة من أفنى عمره في المعاصي والتشدد بكثرة الفضول والجدل خالياً عن خوف الله تعالى تاركاً للعمل والعلم النافع.

ويا فضيحة من عد نفسه من جملة العلماء أولي الأبواب ولم يدر أنه معدود منهم أم من المتشبهين بالحمار والكلب، في نص الكتاب، القانع من العلم بالقشر الخالي عن اللباب المعرضين عن اكتساب الخيرات المتعرضين للمقت والعقاب نعوذ بالله وبوجهه الكريم من مكره وسخطه وعذابه الأليم.

أدلية عقلية ونقلية على أفضلية العلوم الوهية وأصحابها:

واعلم أن علوم المعارف التي ذكرت هي أشرف لأنها علوم لا تنال بالكسب

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

وإنما تنال بالوهب، فهي أفضل العلوم وأصحابها أفضل العلماء، فإن قلت لا نسلم ذلك إلا بدليل شرعي قلت الأدلة على ذلك كثيرة فنقتصر منها على ستة: ثلاثة من المعقول وثلاثة من المنقول.

الدليل الأول من المعقول: اعلم أن العلوم والمعارف الدينية يخص بها الولي والصديق، والعلوم الظاهرة ينالها الصالح والزنديق.

قال الإمام شيخ الإسلام أستاذ الطريقة الجامع بين علمي الشريعة والحقيقة شهاب الدين السهروردي - قدس الله روحه - في كتابه «عوارف المعارف»: «وينبئ عن علم الصوفية وشرفه والعلماء أن العلوم وكلها لا يمكن تحصيلها مع محبة الدنيا والإخلال بحقائق التقوى وربما كانت محبة الدنيا عوناً على اكتسابها؛ لأن الاشتغال بها شاق على النفوس فجلبت النفس على الجاه والرفعة حتى إذا استشعر حصول ذلك بحصول العلم أجابت إلى تحمل التكليف وسهر الليل والصبر على الغربة والأسفار وتعذر الملاذ والشهوات وعلوم هؤلاء القوم يعني الصوفية لا تحصل مع محبة الدنيا ولا تنكشف إلا بمجانبة الهوى ولا تدرس إلا في مدرسة التقوى قال الله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ وَيَكْلُمُوا لَهُمْ﴾ [سورة البقرة، آية: 282] انتهى كلامه.

والدليل الثاني: أن فضل العلم على قدر انتفاع صاحبه ونفع الغير به ولا شك أن العارفين بالله هم الذين انتفعوا أو نفعوا حقاً وصدقاً، وبيان انتفاعهم ونفعهم إذا بسطناه احتجنا إلى كتب كثيرة فنلقي من ذلك نبذة.

فيكفي من انتفاعهم تطهير قلوبهم وتزكية نفوسهم، ولم يختاروا غير ما اختار لهم الله، وتلذذوا ببلاء الله وسكروا بمحبة الله وغابوا عما سوى الله، وسكرنا نحن بمحبة الدنيا وغفلنا عن المولى تعالى.

وأما نفعهم للغير فبهم يغيث الله العباد في جميع البلاد ويدفع بهم الفساد وإلا لفسدت الأرض بظهور الفساد، ويوجد بهم إقامة الدين وقضاء حوائج المسلمين، ويرشد بهم المريدين إلى السوك إلى مقامات الدين والقرب من رب العالمين والبعث عن الغفلة - والفسوق واستحواذ الشياطين وبلوغ النفع عنهم قد بلغ في الكثرة والشهرة مبلغاً خارجاً عن الحصر والتعداد مغنياً عن الاستدلال والاستشهاد.

قال اليافعي في «نشر المحاسن»: «ويكفي عنهم ما جاء عنهم من الحكايات لصحيح الروايات الصادرات عن العيان والمشاهدات، والمستفيضات في كثير من الجهات منها: ما أخبرني الشيخ الصالح محمد بن سعيد البخاري رحمه الله في

أرض اليمن أنه مرَّ يوماً في بعض شوارع زيد أيام بدايته فوق بصره على السراة عند بابها فافتتن بها واستزله الشيطان فدخل عليها وهمَّ بها فسمع شيخه العارف بالله تعالى الولي الكبير الفقيه العالم شيخ شيوخنا أبا محمد عبد الله بن أبي بكر الخطيب قدس الله روحه ونور ضريحه يقول له وهو في عدن هكذا تفعل يا محمد فذهب عنه رجز الشيطان وخرج هارباً عاقلاً بعد ما كان كالسكران وأدركه الله بلطفه وسلمه الله من المهالك وجعل الشيخ المذكور سبباً في ذلك .

وكذلك جرى لبعض أصحاب الشيخ الجليل الفقيه النبيه الشيخ العارف بالله سفيان اليميني - قدس الله روحه - مع امرأة من عدن فلما دنا منها وهم بها ما يشعر إلا وقد لطمه الشيخ المذكور على عينيه فرجع عنها يرجف إلى خلفه لا يبصر، ثم أخذ معه من يقوده إلى الشيخ فلما وصل إليه تكلم الشيخ عليه فقال: يا سيدي ادع الله أن يرد علي بصري وأنا تأتب إلى الله تعالى فقال له الشيخ: أدعوك لبرد بصرك ولكنك ما تموت إلا أعمى قال: رضيت فدعا له فرد الله عليه بصره إلى أن بقي من عمره ثلاثة أيام عاد إليه العمى ومات رحمه الله تعالى عليه .

قلت: وهذه القضية تضمنت خمس كرامات للشيخ المذكور .

الأولى: اطلاع الله على حال المرید في وقته .

والثانية: لطمته له مع البعد عنه .

والثالثة: حفظه ببركته .

والرابعة: قبول شفاعته فيه بقبول توبته ورد بصره .

والخامسة: اطلاع الله له على عود العمى إليه قبل موته وفي القضية التي فيها ثلاث كرامات الاطلاع والحفظ وبلوغ الثوت نحو عشرة مراحل وكذلك جرى لبعض شيوخ أبي الغيث اليميني وذلك أنه صحبه بعض القراء من العجم وبلاده بعيدة فأقام عنده مدة ثم أمره الشيخ بالعود إلى بلاده فعاد فلما كان بعض الأيام استزله الشيطان إلى امرأة وهم بها وكان ذلك عند صلاة العصر فضربه الشيخ بقباقبه بعد زجر وغضب وهو في مكانه في اليمن وأصحابه يسمعون كلامه وينظرون ضربه ولا يدرون من كلم وضرب فصرخوا ذلك الوقت لدهشتهم، وفقد قبقاب الشيخ الذي ضربه به فوقع الضرب في ظهر الفقير فارتدع عن المعصية وسلمه الله تعالى ببركة الشيخ فعرف قبقاب الشيخ وجاء به بعد مدة من مسيرة شهر إلى الشيخ قدس الله سره

متأدباً في ذلك، وأخبر بما جرى له من المرأة والضرب بالقبقاب، فوافق ذلك الوقت الذي ضربه الشيخ بالقبقاب.

قلت: وفي هذه القضية أيضاً ثلاث كرامات اطلع الشيخ وبلوغ ضربه إلى مسيرة شهر وحفظ صاحبه وكذلك روى مسنداً في كتاب مناقب القطب شيخ شيوخ الأكابر إمام الطريقتين ومقدم الفريقين الجامع بين علمي الظاهر والباطن وشرفي الولاية والنسب سيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه أنه توضع قبقاب له وصلّى ركعتين في بعض الأيام فلما سلم صرخ صرخة عظيمة ورمى بفردة قبقابه في الهواء فغابت عن أبصار الحاضرين ثم صرخ أخرى ورمى بالثانية كذلك ولم يجسر أحد يسأله عن ذلك.

ثم بعد ثلاثة وعشرين يوماً قدمت قافلة من بلاد العجم وجاءوا بنذر الشيخ حرير وثياب وذهب وبقبقاب الشيخ الذي رمى به فسألهم أصحاب الشيخ عن خبر القبقاب فقالوا بينا نحن سائرون في اليوم الفلاني وذكرنا اليوم الذي رمى الشيخ فيه بالقبقاب إذ خرج علينا عرب لهم مقدمان فانتبهوا وقتلوا منا فنزلوا وادياً يقتسمون أموالنا ونزلنا على شفير الوادي فقلنا لو ذكرنا الشيخ عبد القادر فنذرنا له شيئاً من أموالنا إن سلمنا فما هو إلا أن ذكرناه فسمعنا صرختين ملأتا الوادي ورأيانهم مذعورين فظننا أنه قد جاء إليهم عرب فجاء إلينا بعضهم وقالوا تعالوا خذوا أموالكم وانظروا ما قد دهمنا فأتوا بنا إلى مقدميهم فوجدناهما ميتين وعند كل واحد منهما فردة من هذا القبقاب مبتلة بماء وردوا علينا أموالنا وقالوا إن لهذا الأمر نبأً عظيماً . . .

وكذلك روي أن الولي الكبير الفقيه الشهير ذا المناقب الحميدة والكرامات العديدة إمام اليمن وشمس الزمان ذا المجد الفريد أحمد بن موسى بن عجيل رضي الله عنه رمى يوماً فردة من قبقابه فجاء بها بعض أصحابه من بلاد بعيدة وذكر أنه كان نوى نية غير صالحة فرمى بها فعلم أنها للسيد المذكور فاستغفر الله العظيم وتاب من تلك النية وجاء بالفردة إليه.

وكذا القصة المذكورة للأستاذ سيد الطائفة أبي القاسم الجنيد قدس الله روحه في توبته عن المريد الذي اسود جسمه بمجرد نظرة وحديث نفس صدر منه في الصلاة فايض جسمه لما تاب عنه وكان المريد في بلاد بعيدة فلما قدم على الجنيد قال له لولا أنني تبت عنك لبقيت بذلك السواد إلى أن تلقى الله.

وأمثال ذلك مما يطول ذكره بل يتعذر حصره لتعذر الإحاطة بما صدر عنهم في جميع الآفاق وقد قال بعضهم لا يكون الشيخ شيخاً حتى يمحو خطيئة تلميذه من اللوح المحفوظ .

وقال آخر منهم منكر لهذا القول المذكور لو كان شيخاً ما غفل حتى وقع تلميذه في الخطيئة، قلت وقد كان بعض الكبار لا يصحب أحداً حتى يعرف حاله في اللوح المحفوظ فجاءه إنسان يطلب منه الصحبة وخدمة الفقراء في بعض الطوائف فأطرق الشيخ ساعة ثم رفع رأسه وقال له ما بقي عندنا وظيفة .

وقال يا سيدي لا بد أن تفكر في خدمة فقال ليس عندنا خدمة إلا إن كنت تقدر تذهب في كل يوم تأتي بحزمة من الحلفاء فقال: نعم يا سيدي فصار كل يوم يأخذ محشاً ويذهب ويعود بحزمة منها فلما كان بعد مدة أوجعته يده فرمى بالمحش وترك الفقراء وذهب فيبينما هو في بعض الطريق، رأى في منامه كأن القيامة قد قامت والناس يجوزون على الصراط فمنهم الناجي ومنهم الواقع في النار فنسأل الله السلامة فلم يقدر على المرور وبقي في حصر عظيم يكاد يقع فيها فطلب شيئاً يتمسك به فلم يجد فبقي متحيراً مشرفاً على الهلاك وإذا بحزمة من حزم الحلفاء تحته في النار مارة عليه ولم تحترق فرمى بنفسه فوقها فمرت به حتى أخرجته من النار ناجياً بلطف الله تعالى فاستيقظ مرعوباً من هول ما رأى فرجع إلى الشيخ فلما وقع بصر الشيخ عليه قال له أما قلنا لك ليس عندنا خدمة تصلح لك سوى الحلفاء فاستغفر الله وعاد على ما كان عليه وصبر على ذلك حتى فتح الله عليه رضي الله تعالى عن جميع الصالحين ونفعنا بهم فنفعهم اللازم صار متعدياً إلى هذا النفع العظيم الذي نفع غيرهم بالنسبة إليه حقير .

فكم أصلح الله بالواحد منهم من فساد، وكم أغاث به من العباد، وكم أحيا ببركته من البلاد، وكم كشف به عن الخلق من البلاء، وكم أنالهم به من العطاء فنفع غيرهم إذا صحت فيه النية المثقال ونفعهم كأمثال الجبال .

والدليل الثالث: أن معرفة العبادة ليس فضلها كمعرفة المعبود ولست أعني بمعرفة المعبود المعرفة العامة المشتركة التي هي العلم في لسان علماء الظاهر إذ عندهم كل علم معرفة وكل معرفة علم وكل عالم عارف وكل عارف عالم ولكنني أعني بالمعرفة الخاصة المختص بها الخواص أرباب المشاهدة وهي عند القوم

اجتماع أوصاف عديدة في عبد اصطفاه الحق سبحانه وتعالى ثم تكلموا فيها وأشاروا إليها بعبارات مختلفة ومعاني مؤتلفة .

وإلى ذلك أشار الإمام الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله عنه حيث قال :
المعرفة عن القوم منك عرف الحق سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته ثم صدق الله تعالى في معاملاته ثم اتقى من أخلاقه الردية ثم طال باب وقوفه ودام بالقلب عكوفه فحظي من الله تعالى بجميل إقباله وصدق الله تعالى في أحواله وانقطع عنه هوى نفسه ولم يصغ بقلبه إلى خاطر يدعو إلى غيره فإذا صار عن الخلق أجنياً وعن آفات نفسه برياً ومن المشككات والملاحظات نقياً وأدام في السر مع الله مناجاته وحق في كل لحظة إليه رجوعه وصار محدثاً من قبل الحق سبحانه وتعالى بتعريف أسراره فيما يجري من تصاريف أقداره يسمى عند ذلك عارفاً وتسمى حالته معرفة .

وقال أيضاً المعرفة اتصال بصائر التعريف بعين العلم، فإذا اتصل بيقين العلم داوم المناجاة مع الله تعالى بالقلب وحصل من الله تعالى التعريف على دوام الأوقات باختلاف الحالات فعند ذلك تظهر أنواع أنوار المعرفة وإذا تجرد العلم واتضحت البراهين وانتفت الشكوك بالكلية وحصل ثلج الفؤاد وبرد اليقين لا يسمى العبد في هذه الطريقة عارفاً حتى يحصل بينه وبين الله أحوالاً زائدة على العلم في فنون الكشوفات وصنوف التعريفات وتحدث الحق مع العبد من غير سماع تعلق بالجراحة والعارف تبدو في قلبه في ابتداء التعريف لوائح ثم لوامع ثم كشوفات وبصائر أنوار وطوال أسرار .

فالعارف كأنه يخاطب سبحانه وتعالى بكل شيء ويلقي إليه كل خطاب ويعوده في كل وقت بنوع تعريف وكاشفة وفي كل حال بسرائر متألفة ثم من صفة العارف أنه لا يخلو من معلومات منها المحبة والتعظيم والهيبة ومنها الأسف والقربة ومنها الحياء في الحضور والغيبة .

وإذا تحقق في ابتداء طلبه بدوام المراقبة وصل إلى المشاهدة والمراقبة علمه بأن الله سبحانه وتعالى يراه ويعلمه على دوام الأوقات ثم أنوار المشاهدة تلوح في القلب، والمشاهدة غلبه نور الحق على القلب وانتفاء إحساسك وذكرك لك وخبرك عنك، فتكون مخاطباً عن جملتك باستيلائه عليك، فكلما زاد شهودك لبه زادت أجنييتك عنك وعن الكون بالجملة، وإذا طلعت شمس العرفان استهلك في ضوئها نجوم العلوم كما قيل :

ولما استنار الصبح أدرج ضوءه بأسفاره أنوار ضوء الكواكب

انتهى كلامه .

قلت: فلما استولى على قلوبهم سلطان المعرفة خضعوا لصفات الربوبية وتحلوا بصفات العبودية وخرجوا عن نفوسهم بالكلية فرضوا بكل مقدور وصبروا على كل بلية بل تلذذوا بأنواع البلاء وعدوه من جملة العطايا السنية والدليل الرابع وهو الأول من المنقول قوله عز وجل: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف، آية: 65].

وقول موسى عليه الصلاة والسلام ﴿هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَيَّ أَنْ تَعْلَمَ مِنْ مِمَّا عَلَّمْتَ رَسُولًا﴾ [سورة الكهف، آية: 66] الآية ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ [سورة الكهف، آية: 69] الآية مع كون الخضر عليه السلام وليًا من الأولياء على الصحيح لا نبياً وهو الذي اختاره جمهور العلماء وقطع به العلماء العارفون بالله تعالى وكون موسى عليه الصلاة والسلام أفضل منه بلا خلاف ومفضلاً عليه بالنبوة والرسالة والتكلم ومع هذا رحل إليه وتعلم والتمس منه الصحة والتعليم فأطلعه على علوم غامضات وأمور عجيبات في ضمنها آيات باهرات وكرامات ظاهرات .

والدليل الخامس وهو الثاني من المنقول ما ورد في فضل أويس القرني رضي الله عنه وكونه أفضل التابعين في بعض روايات صحيح مسلم مع ما في التابعين من العلماء الكبار وهو يشغله بالله ووليه بمحبته تنسبه إلى الجنون الأشرار وقد نوه بفضله ﷺ في الأخبار المشهورات في جميع الأمصار .

والدليل السادس وهو الثالث من المنقول ما روي عن جماعة من كبار علماء الظاهر أنهم وافقوا علماء الباطن على تفضيل علم العارفين بالله ومن جملة الجماعة المذكورين الفقيه الإمام فتي الأنام رفيع المقام عز الدين بن عبد السلام رضي الله عنه صرح بذلك في بعض تصانيفه أعني تفضيل العارفين بالله تعالى وكذلك ما اشتهر عنه أنه حضر هو والشيخ الكبير العارف بالله تعالى أبو الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه وجماعة من العلماء في بعض الجوامع فتكلم جماعة من العلماء في حالة قراءتهم رسالة الشيخ الإمام الأستاذ أبي القاسم القشيري رضي الله عنه والشيخ أبو الحسن المذكور ساكت فالتمسوا منه الكلام فتكلم بالحكم والمعارف المشتملة على الأسرار واللطائف .

فقال الشيخ عز الدين المذكور اسمعوا الكلام العجيب الغريب القريب العهد من ربه وصار يرجع إلى خلفه حتى بعد من صدر المجلس إلى الباب . وكذلك ما اشتهر عن جماعة من علماء الباطن العارفين امتحنهم علماء الظاهر بمسائل دقيقة فأجابوا عنها بأجوبة فائضة من بحر علوم الحقيقة في قلوب فاضت عليها الأنوار فصارت معادن الأسرار فتحير من تلك الأجوبة أصحاب السؤال واعترفوا لهم بعلو الشأن وعظيم النوال وثنوا العنان من ميدان الانتقاد إلى ميدان الاعتقاد .

من ذلك الأستاذ أبو القاسم الجنيد مع عبيد الله بن سعيد بن كلاب لما سأله عن التوحيد، وقضية الشيخ أبي الحسن النوري لما ألقى عليه القاضي مسائل فقهية، وغير ذلك مما هو في التصانيف المذكور وعنهم مسطور رضي الله عنهم أجمعين . وكذلك ما اشتهر في بعض بلاد اليمن أنه لما غاب الفقيه محمد بن حسين البجلي في بعض الأيام درس لأصحابه الشيخ محمد بن أبي بكر الحكمي رضي الله عنهما مع كونه أمياً فشرح لهم شرحاً شارحاً للصدور ظاهراً في خلال النور، وإلى شرف علمهم المشكور أشار السيد المشهور سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه حيث قال لو علمت أن تحت أديم السماء أشرف من علمنا هذا لسعيت إليه وقصدته .

وقال الشيخ الإمام العارف بالله تعالى شهاب الدين السهروردي رضي الله عنه قد ورد في الخبر «فضل العالم على العابد كفضلي على أمتي»⁽¹⁾ والإشارات في هذا العلم ليس إلى علم البيع والشراء والطلاق والعتاق إنما الإشارة إلى العلم بالله تعالى وقوة اليقين وقد يكون العبد عالماً بالله تعالى ذا يقين وليس عنده علم من فروض الكفايات .

وقد كان علماء التابعين فيهم من هو أقوم بعلم الفتوى والأحكام من بعضهم يعني من بعض الصحابة قال : والعلماء الزاهدون بعد الأخذ مما لا بد لهم منه يعني فرض العين أقبلوا على الله وانقطعوا إليه وخلصت أرواحهم إلى مقام القرب فأضاءت أرواح قلوبهم بأنوار تهيأت بها لإدراك العلوم وصار العالم الرباني راسخاً في العلم .

(1) هذا الحديث سبق تخريجه .

لطيفة في فضل العلم الباطن على الظاهر:

قلت: وفي فضل العلم بالله الذي هو العلم الباطن على علم الظاهر قال بعضهم: كم من يشق الشعرة بعقله لو اختل من مزاجه ذرة اضطرب إيماناً، وآخر رأسه بين ركبتيه لو وقعت السماء على الأرض لم يرفع رأسه لقوة يقينه وكمال معرفته بالله وصدق توكله على الله وعلمه بأن تصرفات الحق في جميع مقاديره كلها حق متحقق؛ لقوله تعالى: **تَكْفُرُونَ وَلَكِنَّا أَهْلُ الْحَقِّ أَكْثَرٌ** [سورة التوبة، آية: 51] ولقوله ﷺ: «ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك» وقوله ﷺ: «جف القلم بما هو كائن».

وقال بعضهم العالم به يقتدي والعارف به يهتدي وقال الشيخ الكبير السيد الجليل بحر الحقائق أبو الغيث ابن جميل رضي الله عنه إن العز لأهل العلم والإيمان في السموات والأرض الذين يحمونه عن غير أهله كبار خلق الله أين ما كانوا، قال ولم يزل العاقل يرافق الأشياخ بعلمه وعمله فإذا اجتنى من ثمار جنة المأوى وشرب من ماء عين اليقين المصفى بنار الفقر يرد العقل روحاً بصيراً بطبع الحياة فرضاً، وحينئذ يفارق الأشباح وأوصافها قطعاً، ويسجد الوجه عند نعمة الله شكراً، ولم يزل الله يبدي ويعيد ويحيي ويميت، وقال: من ذاق طعم الأنس بالله تعالى نسي إساءته حقيقة وإحسانه مزية، ومهما بقي من الحس ومدركات الحس والعقل هنا فهو مخبول، وإذا لم يبق حس ولا محسوس سلخ العقل من خياله حقاً وبرا عن خسة احتياله.

ولا شك أن سلطان العقل يقاتل حزب الشيطان طبع الغافلين باطناً بنور علم اليقين، وخواص جنود حزب الله تعالى يقاتلون جنود الأحزاب كل بنور شمس العلوم إلى أن يبقى الله كما لم يزل وهم كما لم يزالوا سرمداً بحكم الضرورة. وقيل إن الحس والمحسوس حجاب عين الله وإذا ظهر سلطان حب الله بنار نور القلب بالله أحرق حراريق الهوى بنا سلطانه الذي لا يقدر أحد منا ينفيه بحال وقيل: كل خيال نقاب لوجه الله الكريم فضلاً لثلا يبرز من ذلك الجلال ذرة فلا يبقى أحد من الثقلين ولا ممن سواهما يعرف لله طاعة ولا عصياناً قلت: هذا الكلام والذي قبله كلام عظيم شريف في غاية الحسن والتحقيق والمعنى الدقيق.

معنى قولهم لا يعرف الله طاعة ولا عصياناً:

وقوله لا يعرف الله طاعة ولا عصياناً يظهر لي فيه احتمالان:
أحدهما: الإشارة إلى الفناء الكلي واصطدام الحس والمحسوس وفقدان جميع الوجود لاستيلاء سلطان جلال الجمال وحالة الشهود فلا يشعر حينئذ بطاعة ولا معصية ولا مطيع ولا عاصٍ.

والاحتمال الثاني: أن يشهد المقدر سابقاً للمقدور بشرط القضاء المبرم وقائداً له العلم السابق بزمام الحكم المحكم فصار مزعجاً بالخروج إلى حيز الوجود من حيز العدم واقعاً لا محالة بقدره الملك القادر وإيجاد خالق كل شيء العزيز القاهر المهزوم منه إليه المستعان به منه سبحانه وتعالى.

تأويلات بعض أقوالهم الباطنة:

قلت: وإذا فهم هذا فهم قوله إذا طلعت شمس من أفق قلبه إلى الأفق الأعلى أخذ كل من الأفق الأدنى نصيبه من شعاعها وليس كل مدرك بالحس هو هي فأما إذا طلعت من كل مكان فانتفت رؤية التعاقب عنا يقيناً لم يبق ليل ولا نهار ولم يبق كفر ولا إسلام قطعاً ووجب حينئذ ظهور الشيء الذي حال بيننا وبين الأحوال وكثرت المقالات والأفعال كما يحول السحاب يقيناً فإذا لم يبق ثم حائل ظهر الشيء الذي لا يشبهه شيء بشرط الفناء، ولا حضور بشرط البقاء فإن كنت هاهنا رأيت ما رأينا وإن لم تر شيئاً فكن حجراً أصم يدق به النوى.

وقال كل عالم يعلمه الله يجب عليه تعليم الخلق مما علمه الله تعالى بلا علة إجلالاً وتعظيماً لجمال جلال سبحات وجه الله العلي الكبير، قال: وإذا اختلط ماء الأمطار بماء البحر كان منه الدر واللؤلؤ والياقوت الأحمر قطعاً قلت: يحتمل أنه إذا اختلط ماء أمطار المدامع وغيث الفضل المنهل من سحاب الجود عند مشاهد الجمال وشرب كؤوس الوصل بماء بحر توحيد القلوب المنورة الطيبة الزكية المطهرة يكون من ذلك المطر در المعارف ولؤلؤ العلوم وياقوت الحكم الأحمر ويحتمل إذا اختلط ماء أمطار العلوم الباطنة بماء بحر العلوم الظاهرة في ظروف القلوب الطاهرة تتابعت الحكمة.

وقال ابن عبيد: الهوى حلالاً كان أو حراماً عند من يملك الهوى يقيناً في صحيح الفقر قطعاً قلت يعني من صار حراً من رق الهوى وملك جميع ما ملكه سواء

كان ذلك الهوى حلالاً في الشرع أو حراماً لأن العبد وما ملكت يده ملك لمالكة ومعنى ذلك أن الأحرار من رق هوى نفوسهم بسبب موتها وحياة قلوبهم سادات لكل من لم يخلص من رق هوى نفسه التي ملكته بشهواتها فمنهم من بقي عليه من صفاتها بقية فهو ملك لها لأن المكاتب من ما بقي عليهم درهم فالحر من رقها من جميع الوجوه التخلص من أسر شهواتها حلالاً وحراماً عزيز جداً ولهذا قال قائلهم: أتمنى على الزمان محالاً أن ترى مقلتي طلعة حر

نبذة عن الشيخ اليمني الصياد رضي الله عنه

قلت فجميع هذه الأوصاف المشكورة في هذه الأقوال المذكورة إنما هي أوصاف علماء الباطن العارفين بالله تعالى ومما يدل أيضاً على فضلهم وفضل علمهم وطريقتهم بالروايات الصحيحة والإسناد في سيرة الشيخ الكبير العارف بالله تعالى اليمني الصياد رضي الله تعالى عنه أنه قال: الفقهاء يقولون لي من أيام البداية: يا صياد لو عبد الجاهل ربه إرباً إرباً⁽¹⁾ لم يزد من ربه إلا بعداً فأبكي لذلك بكاءً شديداً فأرى الخضر عليه السلام يقول لي: يا صياد وإن الله تعالى يقول: ﴿يَأْتُوا الْبُيُوتَ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾ [سورة فاطر، آية: 28] فالعلماء كل من يخشى الله من عباده.

قال: فكانوا يقولون لي إقرأ في الفقه وارقد بالليل وكل بالنهار فهو خير مما أنت عليه فأبكي بكاءً شديداً فأرى الخضر عليه السلام فيقول لي يا صياد إن الله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُ غُفَاةً﴾ [سورة البقرة، آية: 282] وأعطوني مرة ثوباً أبيض وأمروني أن أغتسل غسلًا نقياً زائداً وقالوا سَبِّحْ مشعلك يعنون الركوة اغسلها سبع مرات بالماء ففعلت ذلك فرأيت الخضر عليه السلام فقال: يا صياد دع هذين والبس خرقك فإنهم لا يعرفون الطريق فرميت الثوب ولبست خرقتي وتغربت بالتراب فضحكوا عليّ ثم ذكر كلاماً كثيراً ومراجعات بينهما وبينه وأن الخضر عليه السلام قال له لما أكثروا عليه: يا صياد جاهد في الله فإن الله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة العنكبوت، آية: 69].

قال فلما فتح الله علي بالفتوح استوفيت من جميع أصحابي يعني الذين كانوا يضحكون عليه وذكر أن الفقهاء سلموا له العلم وقالوا: يا صياد لقد غلبتنا عاصياً وعالماً وسلم له المشايخ وتبعه أكثر الذين كانوا يرمونه بالحجارة من الصبيان وكشف

(1) أرب الرجل إذا احتاج إلى الشيء وطلبه، يأرب أرباً . . . وقولهم أرب الدهر كأن له أرباً يطلبه . . . وقطعته إرباً إرباً أي عضواً عضواً (لسان العرب).

للعمامة الذين كانوا يسخرون منه فقالوا: والله يا صياد لقد فضحتنا وبينت عيوبنا، ما كان لنا ولك!! .

قال: ثم أمرت بصحبة المريدين فصبني جمع كثير قدر ألفين أو ثلاثة آلاف ونالني خيرات كثيرة وكنت إذا وصلت قرية مطرت مطراً شديداً ونزل بأهلها البركة والرحمة وتبعني أكثرهم .

قال: ولما حججت دخلت مسجد «الخيف» فإذا بشاب يتكلم ويقول: من أحب أن يسأل عن المعرفة فليقدم فلقد رأيت الشاب جالساً بالمسجد وهاب الخلق منه وأنا قاعد على ثياب رثة فنظرت إلى الشاب فإذا هو غير عارف فتقدمت إليه فقلت له استح من الله وتب ثم إن ذلك الشاب سأله عن مسائل، فأجاب فقام الشاب إليه وقبّل رأسه... إلخ .

ثم التفت إليه الإمام الفقيه العالم ابن أبي الغيث ومعه جماعة وقالوا: أحسنت أحسنت يا صياد والله ما علمنا أن معك هذه المعرفة وهذا العلم كله قال: ووفد علينا في مكة رجل من سادات العارفين عليه هيبة وجمال فسأل أحدهم عن أشياء فأجبتة فقال: صدقت ثم قال: يا شيخ أخبرنا عن المعرفة فقلت: المعرفة وجود تعظيم في القلب يمنع الشخص عن الانقياد لغير معروفه فصاحاً عند ذلك وخرا مغشياً عليهما ساعة طويلة ثم أفاقا .

من كرامات الشيخ الصياد:

وقال تلميذه الشيخ العارف إبراهيم بن شارة رضي الله عنه بينما نحن ذات يوم مع الشيخ العارف بالله تعالى أبي العباس أحمد بن أبي الخير الصياد إذ دخل علينا القاضي الأجل أبو بكر بن أبي عقامة فتحدث مع الشيخ . ثم أقبل بوجهه على الجماعة ثم ذكر كلاماً مختصره أنه «اشهّدوا على شهادتي أن هذا الرجل مر عليّ وأنا في جماعة فقامت الجماعة وقمت موافقة لهم ثم ذهب فقلت لهم: أتقومون لرجل عامي لا يعرف شيئاً من العلم والقيام لا يكون إلا للعلماء ولو سئل هذا عن مسألة ذكرها الغزالي في البسيط والوسيط في الطهارة لم يعرفها ولا يقدر أن يجيب عنها . فرجع الشيخ بعد أن غاب ولم يبق منا أحد فلما وصل إلينا قمنا له فقال: اقعّدوا مكانكم ثم قال: يا قاضي كأنني ببعض الناس يقول: أتقومون لرجل لا يعرف شيئاً من العلم وذكر الكلام المتقدم في ذكر المسألة ثم قال والله إنني لأفهمها وهي كذا

وكذا وقرأها من أولها إلى آخرها فقال القاضي: اشهدوا عليّ بهذه الزيادة.

قال الراوي: فتبسّم الشيخ قال: وأخبرني بعض الصالحين أنه دخل هو وجماعة مسجد الفارة قلت: هو بالفاء والراء مسجد مبارك مشهور بساحل زبيد فوجدوا الشيخ الصياد قاعداً فيه وشاب جالس معه في أول ما أمر بصحبة المريدين قال: فقلت له يا صياد هذا تلميذك فسكت فقلت: للشاب هذا شيخك فقال: نعم فقلت له من طريق الإدلال عليه وقد صار لك يا صياد مريدون فغضب غضباً شديداً ثم قال: نعم هو تلميذي فقال بعضنا إن كان تلميذاً فمره يمشي على هذا البحر بحالك فيأتينا من الجبل الفلاني بحجر وبيننا وبين الجبل مسيرة نصف يوم في البحر إذا طابت الرياح قال: فهاج الشيخ وخرج إلى صحن المسجد وقال للشاب: اخرج وامش على هذا الماء واتنني بحجر من الجبل في هذه الساعة.

قال: فسار الشاب مسرعاً كأنه على الأرض فتبعه الشيخ في البحر وهو يسير فأقسمت عليه أن يرجع فلم يرجع ثم أقسمت عليه وقلت له: بحرمة الشيخ إلا ما رجعت فاستقام قائماً فناداه الشيخ: ارجع فرجع فندم الجماعة عند ذلك ندماً شديداً وقبلوا رأس الشيخ واسترضوه فرضي عنهم وقال في وقت ذلك: والله إني لأعرف الجنة قصرًا قصرًا، وأعرف النار حانوتًا حانوتًا، أعرف أصحابهما واحداً واحداً.

وقال أيضاً: كشف لي عن الشمس فرأيت ملكين عظيمين يجريانها على العجلة في الفلك من المشرق إلى المغرب، ومن المغرب إلى المشرق، وقال الراوي: فقلت: صف لي الملكين فقال: هما ملكان عظيمان لهما كذا وكذا من مخلب لو نظر إليهما أهل الدنيا لماتوا.

وقال: ولم أسأله عن كيفية جريان القمر في الفلك، وقال لي يا أبا إسحاق: والله إني لأعرف سدرة المنتهى كما تعرف السدرة بينكم وفيها نهران يفجان بالماء وهو أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وذكر أشياء من الآيات والعبر ما لا يحتمله هذا المختصر.

وله كرامات عظيمة وأحوال سنيات، ومشاهدات غميضات، وفضائل عديدات، وسيرة مشتملة على عجائب، وغرائب، وغوامض، علوم من كل سر من علماء الظاهر وقد أسبل عليهم من دونه الحجاب، وكشف للأولياء علماء الباطن والعارفين أولى الأبواب كما قال الشيخ القرشي رضي الله عنه: العالم من نطق عن

سرك وأطلع على عواقب أمرك، وقال أيضاً: الولي منك يرى الأشياء منك وراء حجاب الشرع. رضي الله عنهم أجمعين نفعنا بهم آمين. قلت: وقد اقتصر من فضلهم على هذا القدر وهو قطرة من بحر والله در القائل حيث قال:

قلوبُ العارفين لها عيونٌ ترى ما لا يراه الناظرون
وَألسنةٌ بِسرٍ قد تناجي بغيب عن كرام كاتبينا
وأجنحةٌ تطيرُ بغيرِ ريشٍ فتأوي عند رب العالمينا
فترتُعُ في رياضِ القدسِ طوراً وتشربُ من بحارِ العارفينَا
عبادٌ قد سروا بالسر حتى دنوا منه وصاروا واصلينا

قال الشيخ قطب الدين أبو بكر القسطلاني أحد أئمة الشافعية المترجمين في طبقات الإسنوي في كتابه «تحفة المفاد والمفيد في صفة المراد والمريد» وقد ورد في بعض الأخبار عن بعض الأنبياء صلى الله عليهم وسلّم أنه قال حاكياً عن ربه «إذا كان الغالب على عبدي الاشتغال بي؛ جعلت همته ولذته في ذكرى أحبني فأحبهته ورفعت الحجاب فيما بيني وبينه لا يسهو إذا سهاها الناس ولا يفتر إذا فتر الناس، كلامهم كلام الأنبياء أولئك الأولياء حقاً أولئك للذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة أو عذاباً ذكرتهم فصرفته بهم عنهم!

ثم قال وقد روينا بالسند المتصل عن سفيان بن عيينة: إن في هذه الأمة خلفاً كسائر الأنبياء عليهم السلام يسلكون طريقهم إلى يوم ينفخ في الصور ثم تلا هذه الآية: ﴿فِيهِدْنَهُمْ أَقْدَمًا﴾ [سورة الأنعام، آية: 90] وسمعت والدي أحمد بن علي بن محمد القسطلاني رحمه الله بمكة وسمعت أيضاً غيره يحكي عن الشيخ الإمام قدوة العارفين شيخنا الشيخ شهاب الدين السهروردي قال: قصدت زيارة الشيخ أحمد بن محمد بن عيد بالبصرة فلما قربت من موضعه قلت: أفتتح قراءة سورة الأنعام فحيث انتهيت إلى قوله تعالى: ﴿فِيهِدْنَهُمْ أَقْدَمًا﴾ [سورة الأنعام، آية: 90] فتمسكت به وعلمت مكانه من الله وقربه هذا آخر كلام القسطلاني.

نبذة عن القسطلاني:

وهو من أكابر علماء الحديث ومن الجبال الراسخين في التصوف أخذ عن السهروردي اجتمع بالقطب الأستاذ أبي الحسن الشاذلي وقال الإسنوي في ترجمته:

كان ممن جمع العلم والعمل والزهد والورع والكرم طلب من مكة وفوضت له مشيخة دار الحديث «بالكاملية» وإلى أن توفي في شهر المحرم سنة ست وثمانين وستمائة قاله الذهبي في العبر انتهى .

تنبيه :

قال : بحر الحقيقة والشريعة حجة الإسلام الغزالي رحمه الله في بعض كتبه : «اعلم أن مقام الصوفية الأكبر مقام المكاشفة ومن كان في مقام المكاشفة رأى حقاً وغيره باطلاً فلا جرم كان الغالب على ألسنتهم اسم الحقيقة وأما المتكلمون فهم في مقام الاستدلال بغير الله على وجود الله فلا جرم كان الغالب على ألسنتهم اسم الشرع .

شبهة وجواب :

فإن قلت : كيف يصح دعوى القول بأن علم الباطن لا ينال بالكسب كما تقدم وقد شوهد حصوله بذلك لأهل الظاهر قلت : لا شك أن علوم الأنبياء والرسول عليهم السلام إنما كان حصولها بالوحي غالباً أو بالفيض الإلهي الذي قذفه الله في بواطن قلوبهم وأبرزوه للأنام في باطن الكشف عن الحقائق الربانية ومعلوم أن هذا ليس بكسب وهو واقع أيضاً لحقائقهم من القوم حيث أفصحوا عنه بعبارات الأزل التي يقصر عنها نطاق نطق أهل الظاهر في الأبد .

قال الشيخ تاج الدين السبكي في الطبقات الكبرى ما نصه «ذكر أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام كان يقرأ بين يديه رسالة القشيري فحضره مرة الشيخ أبو العباس المرسي لما قدم من الإسكندرية إلى القاهرة فقال له الشيخ عز الدين : تكلم عني هذا الفصل فأخذ المرسي يتكلم والشيخ عز الدين يزحف في الحلقة ويقول : اسمعوا هذا الكلام الذي هو حديث عهد بربه .

وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في لطائف المنن : أخبرني ابن الشيخ مكين الدين الأسمر قال : حضرت بالمنصورة في خندقها فرأيت الشيخ عز الدين بن عبد السلام والشيخ مجد الدين الأحميمي والشيخ أبي الحسن الشاذلي ورسالة القشيري تقرأ عليهم وهم يتكلمون والشيخ «أبو الحسن» صامت إلى أن فرغ كلامهم فقال : يا سيدي نريد أن نسمع منك .

فقال: أنتم سادات الوقت وكبرائه وقد تكلمتم فقالوا: لا بد أن نسمع منك، فسكت الشيخ ساعة ثم تكلم بالأسرار العجيبة والعلوم الجليلة فقال الشيخ عز الدين وخرج من صدر الخيمة وفارق موضعه: اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله.

قلت: وفي رواية ساقها الحافظ ابن كثير «كان الشيخ عز الدين يحضر مجلس الأستاذ أبي الحسن الشاذلي فيسمع تقريره في الحقائق ويشاهد حسن إفصاحه عن العلم اللدني فعند ذلك يحصل له وارد من جانب الحق ويركض على قدميه طرباً من المريدين، وهو يقول تأملوا هذا التقرير فإنه قريب العهد من ربه انتهى.

هذا هو العلم الباطن الحاصل لهم من الفيض الإلهي منك غير اكتساب، وأما حصوله لأهل الظاهر بالتلقي عن الأستاذين، فصار ملحاً به، والحالة هذه بالعلوم العادية الكسبية التي تؤخذ بالتقليد وليس هذا الآن من العلم الغريب القريب العهد بربه لكونه يخرج عن مقتضى العلم اللدني بسبب تلقيه عن الخلق دون الخالق، قال عبد السلام المقدسي في كتابه «حل الرموز ومفاتيح الكنوز»: اعلم أن العلم علمان:

علم الظاهر وهو الشريعة:

وعلم الباطن هو الحقيقة.

قال رسول الله ﷺ: «العلم علمان علم باللسان وعلم بالقلب فأما علم اللسان فهو حجة الله على عباده، وأما علم القلب: فهو العلم الأعلى الذي لا يخشى الله العباد إلا به»⁽¹⁾ فعلم القلب هو العلم اللدني الذي لم يسطر في الطروس ولم يحفظ بالدروس وإنما هو تلقين من الله تعالى بغير واسطة ملك ولا سفارة رسول.

كما أن الخضر عليه السلام علم بالعلم اللدني ما لم يعلمه موسى عليه السلام بعلم الوحي فقتل النفس الزكية بغير نفس، هذا على ظاهر الشرع عدوان محض لكن ظهر تحقيق فعله بعلم آخر لدني لم ينقل من الكتب والأوراق، وإنما هو وحي من الملك الخلاق، فوجب على موسى عليه الصلاة والسلام إنكار ذلك واستقباحه قياماً بالحدود وعملاً بالشريعة إذ هو متشرع ومقتد بها فلو سكت على الإنكار لما قام به

(1) ورد بلفظ: «العلم علمان علم باللسان فذلك حجة الله على ابن آدم وعلم بالقلب فذلك العلم النافع» رواه الربيع في المسند عن جابر بن زيد برقم (947) [365/1] ورواه غيره بنحوه.

غيره وكذلك الخضر عليه السلام معه بقوله عليه السلام: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [سورة الكهف، آية: 67] على ما يخالف الشريعة ثم لما أعلمه الخضر عليه السلام بما لم يدخل في علم الشريعة علم موسى - عليه السلام - أن الشريعة جسد والحقيقة روحها.

وقال في موضع آخر: اعلم أن العلوم مقدمة نتيجتها العمل والعمل مقدمة نتيجتها الحال فالعلم والعمل كسبي والحال وهبي قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [سورة العنكبوت، آية: 69] فالمجاهدة للعبد بالعلم والعمل والهداية مواهب الله تعالى في الأحوال وهذا معنى قوله ﷺ: «من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم»⁽¹⁾ فالذي ورثه الله لعبده لم يكن من كسبه بل بفضل الله وبرحمته وبذلك من الله تعالى به على نبيه فقال: ﴿نَفْسٍ لَقَلْبُوتٍ تَكُنْ وَلَيْسَ أَلْبِرٌ بِأَنْتَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ﴾ [سورة النساء، آية: 113].

تحقيق الهروي للعلم اللدني:

وقال الهروي في منازل السائرين:

الدرجة الثالثة علم لدني إسناده وجوده، وإدراكه عيانه، ونعته حكمه، ليس بينه وبين الغيب حجاب «قال شارحه العارف بالله تعالى كمال الدين القاشاني أي علم لا يكون إلا من لدنه رحمة وموهبة لقوله سبحانه وتعالى في حق الخضر عليه السلام ﴿ءَأَيُّتُهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف، آية: 65] ولا يثبت بالإسناد كسائر العلوم المنقولة التي ثبت صحتها بالإسناد بل إسناده وجوده وإدراكه عيانه أي لا يحصل بالإدراك العقلي والفهم كسائر العلوم المنقولة بل إدراكه شهوده. ولما كان العيان الذي هو الإدراك البصري أجل الإدراكات أطلق على كل إدراك يكون في غاية الجلاء فأطلق على الشهود الحقاني ونعته حكمه: أي لا يمكن نعته بعبارة تفهم معنا ولا يمكن نعته ووصفه لمن ليس له ذلك فلا يمكن تعريفه للغير فلا يعرفه إلا من ظهر عليه، ليس بينه وبين الغيب حجاب.

ماهية الغيب وغيب الغيب:

المراد بالغيب غيب الغيوب الذي هو علم الحق بعينه وهو التجلي الذاتي، قال

(1) أورده السيوطي في الدر المنثور وعزاه إلى أبي نعيم في الحلية، [2/ 123].

شيخنا العارف بالله تعالى سيدي محمد المغربي: الغيب هو ما غاب عن بصرك من الملك والملكوت، وغيب الغيب: هو علم الله تعالى بذاته والمراد بالتجلي الذاتي: التجلي بالعلم بالذات بذلك العلم شهدت الذات المقدسة فحيث لا تجلي لها أي لا جهود للذات إلا بالعلم بها والصورة العلمية معنوية لا توصف بكيف ولا أينية.

قال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في لطائف المنن: اعلم أن اطلاع العبد المخصوص على غيب من غيوب الله تعالى ليس بجسمانية ولا وجود صورة وإنما هو بنور الحق تعالى فيه، دليل ذلك قوله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»⁽¹⁾ فكيف يستغرب أن يطلع على غيب من غيوب الله تعالى بعد أن شهد له الرسول ﷺ أنه إنما ينظر بنور ربه لا بوجود نفسه.

وكذلك قوله في الحديث «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به»⁽²⁾ الحديث إلى آخره ومن كان الحق بصره فليس الاطلاع على الغيب عليه بمستغرب وفي بعض طرق الحديث فإذا أحببته كنت سمعاً وبصراً وقلباً وعقلاً ويداً ومؤيداً فإن قلت: فكيف تصنع بهذه الآية وهي قوله سبحانه: وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ [سورة الجن، الآيتان: 26، 27] فلم يستثن أحداً إلا الرسول ﷺ؟

واعلم أنني سمعت شيخنا العارف بالله تعالى أبا العباس المري رضي الله عنه يقول في معناه: أو صديق أو ولي، قلت هذه زيادة على ما تضمنه الكتاب العزيز فاعلم أنه إذا قيل: إنك السلطان لم يأذن اليوم إلا للوزير وحده وربما دخل ممالك الوزير معه وكان الإذن لمتبوعهم إذناً لهم كذلك الولي إذا أطلع الله تعالى على غيب من غيوبه فإنما ذلك لانطوائه في جاه النبوة وقيامه بصدق المتابعة فما رأى ذلك بنفسه وإنما رآه بنور متبوعه. وأيضاً إن الآية تشير إلى نفي اطلاع العباد على غيب الله إلا من أطلع الله تعالى، وبين سبحانه وتعالى سبب اطلاع من أطلع الله على غيب من غيوبه وإن ذلك إنما كان لأنه مرضى عنده بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَرْضَى﴾ وقوله من رسول خص «الرسول» بالذكر ولم يذكر النبي ولا الصديق والولي وإن كان كل منهم ممن ارتضى لأن الرسول أولى به مما سواه والله أعلم.

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) هذا الحديث سبق تخريجه.

أقسام الغيب عند ابن عربي :

وقال بحر الحقائق حامل لواء العلم بالله محيي الدين بن عربي - رضي الله عنه - في كتابه مفاتيح الغيب: الغيب بالنظر إلينا ينقسم إلى قسمين: إلى غيب لا ندركه أبداً وإن كان جائز الإدراك بالنظر إلى ذاته. وإلى غيب ندركه.

ثم الغيب منه :

ما هو مطلق كقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ وَإِذَا﴾ [سورة الأنعام، آية: 59] فجاء بالألف واللام الشاملة لجميع أقسامه وهما حرف الشمول وتسميها النحويون حرف الجنس كما يقال: أهلك الناس الدنيا والدرهم.

ومنه ما هو مقيد كقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا وَيَطْلُبُ كَمَا كَفَّ أَمَّهُ أَحَدًا﴾ [سورة الجن، آية: 26] فغيب «الهوى لا يدرك أبداً والمفاتيح الأول التي هي عنده لا يعلمها إلا هو لأنها عنده وقوله: ﴿إِلَّا مَن أَرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [سورة الجن، آية: 27] فإنه يطلع على غيوب مخصوصة شريفة لا يطلع عليه غيره أي: ولكن من الغيوب التي شملتها الألف واللام في قوله: «عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول» فإنه يُعلمه ببعض الغيب الداخل تحت حرفي الشمول وذلك بعد أن يحفه بالأنوار الملكية من جميع جوانبه وقاية وحماية وحفظاً من الأرواح النارية الشيطانية.

علة تسلط الشياطين :

فإن المناسبة الطبيعية هي التي يتسلط علينا فإنه محمول في ناريتة مثل حملنا لكن غلب عليه العنصر الألف فناسب روحانيتة فكان روحانياً وغلب علينا العنصر الألف فبعدت المناسبة عن روحانيتنا من حيث أعياننا وذواتنا فكنا جسمانيين بالنظر إلى الغالب علينا فلما كان بين الثقلين هذه المناسبة لم تتمكن أن نعصم نفوسنا عنه بأعياننا عند التنزلات فاحتجنا إلى أمر نحتمي به عن سلطانه بهذا الجذب النسبي؛ فتنزلت الأرواح النورية من كونه رصداً على مسالكة من الأمزجة الطبيعية فاقعدوا له كل مرصد فاحتمي الملقى إليه في عالم العنصر فسمي ذلك عصمة إن كان نبياً وحفظاً إن كان ولياً.

وقال العارف بالله تعالى سيدي داود المناخلي الشاذلي في شرح حزب البحر «اعلم أن القلب له مطالعة عالم الغيب ما للحواس مطالعة عالم الشهادة ولهذا كلفنا

الله تعالى بالإيمان بالغيب وبما وعدنا وأوعدنا فما كلفنا حتى وهبنا ما به نعلم؛ ذلك لأنه **﴿لَا يُعَلِّمُ سِرَّهُمْ وَلَا يَكْفِيهِمْ سِرَّهُمْ أَحَدًا إِلَّا مَنْ﴾** [سورة البقرة، آية: 286] ومطالعة الغيب المأمور بالإيمان به على حسب منزلة القلب المطلع لذلك فقلب يكون له ذلك وقلب يكون خفياً عن ذلك وتارة يكون نظراً وتارة يكون خبيراً.

مضادة عالم الغيب لعالم الشهادة وأجوبتها:

ومراتب القلوب في ذلك لا تنحصر وجعل الله تعالى عالم الشهادة مانعاً من عالم شهود الغيب لأنه ضده لكن إذا وفق العبد نظر في خلال ذلك لمحات من النظر إلى عالم الغيب فيؤمن به ولهذا كان النائم يبدو وله شيء من المغيبات لركود عالم حسه لكثرة الاشتغال بعالم الحس والميل إليه لا سيما للمحذور منه شرعاً يحدث في القلب شكوكاً وأوهاماً. وظنوناً تستر عنه مطالعة الغيب فيضعف الإيمان لذلك ولهذا تجد كثيراً ممن اشتغل بالدنيا يضعف إيمانه بالآخرة. وقال حجة الإسلام الغزالي في كتابه: «الأمالي على مشكل الأحياء» فإن قيل ألم يقل الله تعالى: **﴿وَأَهْفُوا وَيُلَاقِكُمْ فَأَقَامَهُ أَحَدًا﴾** [سورة الجن، الآيتان: 26، 27] وسماع الله عز وجل بحجاب وبغير حجاب وعلم ما في الملكوت ومشاهدة الملائكة وما غاب عن المشاهدة والحس من أجل الغيوب فكيف يطلع عليها من ليس برسول؟ قلنا في الكلام حذف يدل على صحة تقديره الشرع الصادق والمشاهدة الضرورية وهو: أن يكون معناه إلا من ارتضى من رسول ومن اتبع الرسول بإخلاص واستقامة وعمل بما جاء به لأن النبي ﷺ **﴿قال اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله﴾** (1)، وفي القرآن العظيم **﴿قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾** [سورة النمل، آية: 40] فعلم ما غاب عن غيره من إمكان إثبات ما وعد به وزاد أنه قدر عليه ولم يكن نبياً ولا رسولاً.

وقد أنبأك الله سبحانه عن ذي القرنين من إخباره عن الغيب وصدقه فيه حين قال: **﴿مَنْ لَمْ يَلْمُوهَا لُجُوعٌ إِذَا فَايِنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ أَوْ﴾** [سورة الكهف، آية: 98]، وإن وقع الاختلاف في نبوة ذي القرنين من إخباره عن الغيب وصدقه فالإجماع على أنه ليس برسول وهو خلاف المشروط في الآية وإن رام أحد المدافعة بالاحتياط لما أخبر

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

به ذو القرنين وما ظهر على يدي الذي كان عنده علم من الكتاب وأراد أن يجوزه على غرر بأن يفرق بين السُّنة والحقائق، فما يصنع فيما جرى للخضر وما أنبأه الله سبحانه عنه وأظهره عليه من الغيوب الغيبية وهو بعد أن يكون نبياً فليس على الوفاق من الجميع والله تعالى يقول: ﴿إِلَّا مَنْ أَرْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾ فدل على أن في الآية حذفاً ينقاد معناه إلى ما ظهر من الكلام، كان سعد رضي الله عنه يرى الملائكة عليهم السلام وهم غيب الله، وعلم أبو بكر بما في البطن وهو من غيب الله عزَّ وجلَّ، وشواهد ذلك في الشرع كثيرة جداً تعجز المتناول وتبهر المعاند.

هذا والقول في تخصيص العموم أظهر من الجراءة وأشهر كما نقل الكافة ويحتمل أن يكون المراد في الآية بالرسول المذكور فيها ملك الوحي الذي بواسطته تنزل العلوم وتكشف الغيوب فمتى لم يرسل الله عزَّ وجلَّ ملكاً بإعلام غيب أتى بخطاب مشافهة وإلقاء معنى في روع، أو ضرب مثل في يقظة أو منام فإنه يطلع على ذلك أيضاً ويكون فائدة الإخبار بهذا في الامتنان على من رزقه الله تعالى علم شيئاً من مكنوناته وإعلامه به أن لم يصل إليها بنفسه ولا بمخلوق سواه إلا الله عزَّ وجلَّ حين أرسل فيه الملك بذلك وبعثه إليه حين تبرأ المؤمن من حوله ومن حول كل مخلوق وقوته ويرجع إلى الله سبحانه وحده ويتحقق أنه لا يرد عليه شيء من علم أو معرفة أو غير ذلك إلا بإرادته ومشيئته.

ويحتمل وجهاً آخر وهو أن يكون معناه والله أعلم فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ويريد من سائر خلقه وصوفي عباده ويكون معنى من رسول أي على يد رسول من الملائكة.

وقال: القاشاني رحمه الله في باب الهيمان من شرح منازل السائرين في تلاطم أمواج التحقيق العلمي وهو العلم اللدني الذي هو ميراث للعمل الصالح عند صفاء القلب وزكاء النفس بالمكاشفة الذوقية العيانية فإنها بعد الفرق، وذلك أن للعلوم الشرعية حكماً، ووجوهاً، وحيثيات واعتبارات ينقل عنها علماء الرسوم ولا يتحققها إلا العالمون بها على التقليد فإنهم إذا صفت بواطنهم بالعمل على الإخلاص، وكحلت بصائرهم بنور الهداية الحقانية انصبت أنهار العلوم إلى أودية فهمهم، وتلاطمت أمواج بحار الحكم في قلوبهم، وانجلت بصائرهم فأدركت معاني من عالم القدس وحقائق من أسرار الغيب من يراهم تحقق تلكم العلوم وتواصلت إلى

أسرارهم عجائب أسرار الغيب وخزائن عالم الألوهية واشتد هيمنهم وطاشت عقولهم وتلاشت أفكارهم فظهرت تلك الحكم والمعارف على ألسنتهم بطريق الورود من غير نكير.

قلت: هذا تحقيق قول سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام: إن التجلي والمشاهدة عبارة عن العلم والعرفان.

قال ابن السبكي في الطبقات الكبرى: ومن هذا يؤخذ أن جميع ما أفصح به القوم من العلوم اللدنية والاستنباطات إنما هي أثر من أثر التجليات. انتهى.

ما تشترك فيه النبوة والولاية:

وقال بحر الحقائق محيي الدين بن عربي في كتابه «رسالة الأنوار فيما يمنح به صاحب الخلوة من المعارف والأسرار»: «اعلم أن النبوة والولاية يشتركان في ثلاثة أشياء:

الواحد: في العلم من غير تعلم كسبي.

والثاني: في الفعل في الهمة فيما جرت العادة به أن لا يفعل إلا بالجسم أو لا قدرة للجسم عليه.

والثالث: في رؤية عالم الخيال في الحس.

ما يفرقان فيه:

ويفرقان بمجرد الخطاب فإن مخاطبة الولي غير مخاطبة النبي ولا يتوهم أنها معارج الأولياء ليس الأمر كذلك لأن المعارج تقتضي أموراً لو اشتركا فيها بحكم العروج عليها لكان للولي ما للنبي وليس الأمر على هذا عندنا وإن اجتمعنا في الأصول وهي المقامات لكن معارج الأنبياء بالنور الأصلي ومعارج الأولياء بما يفيض من النور الأصلي وإن جمعهما مقام التوكل فليست الوجوه متحدة والفضل ليس في المقام وإنما هو في الوجوه، والوجوه راجعة للمتوكلين، وهذا في كل حال ومقام من فناء وبقاء وجمع وفرق وغير ذلك، واعلم أن كل ولي لله تعالى فإنه يأخذ ما يأخذ بواسطة روحانية نبيه الذي على شريعته ومن ذلك المقام يشهد فمنهم من يعرف ذلك ومنهم من لا يعرفه ويقول: قال لي الله وليس غير تلك الروحانية.

اختلاف ميراث الأولياء في هذه الأمة:

وهنا أسرار لطيفة تضيق هذه الأوراق عنها لما أردناه من التقريب والاختصار غير أن الأولياء من أمة محمد ﷺ الجامع لمقامات الأنبياء - عليهم السلام - قد يرث الواحد منهم موسى - عليه السلام - ولكن من النور المحمدي لا من النور الموسوي فيكون حاله من محمد ﷺ حال موسى عليه السلام منه ﷺ وربما يظهر من ولي عند موته ملاحظة موسى أو عيسى فيتخيل الجاهل ومن لا معرفة له أنه قد تهود أو تنصر لكونه يذكر هؤلاء الأنبياء عند موته وإنما ذلك من قوة المعرفة بمقامه والاتصاف به إلا القطب فإنه على قلب محمد ﷺ.

وقد رأينا رجالاً على قلب عيسى وهو أول شيخ لقيته ورجالاً على قلب موسى وآخرين على قلب إبراهيم وغيرهم عليهم السلام ولا يدري ما نذكره إلا أصحابنا. واعلم أن محمداً عليه الصلاة والسلام هو الذي أعطى جميع الأنبياء والرسول مقاماتهم في عالم الأرواح حتى بعث بجسمه ﷺ وتبعناه والتحق بنا من الأنبياء في الحكم من شاهده أو ترك بعده فأولياء الأنبياء الذين سلفوا يأخذون عن أنبيائهم وأنبيائهم يأخذون عن محمد ﷺ فشاركت الولاية النبوة في الأخذ عنه ولذا ورد في الخبر «علماء هذه الأمة كأنياء بني إسرائيل»⁽¹⁾ وقد قال الله تعالى فينا: ﴿لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [سورة البقرة، آية: 143] وقال في حق الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿لِيُؤْمِنُوا بِمَا نَحْمَدُ بِهِ وَيَكْتَفُوا كَلِمَاتٍ لِّمَدَنِهِ صَابِرًا نِّعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا مِنْ خَشْيَةِ﴾ [سورة النحل، آية: 89] فنحن والأنبياء شهداء على أتباعهم فاصرف الهمة في الخلوة للوراثة الكلية المحمدية. هذا آخر كلامه رضي الله عنه.

دليل شرف علم الحقيقة:

وقال السهروردي في «عوارف المعارف» في أثناء الكلام على علوم المشاهدة: وهذه كلها علوم من ورائها علوم، عمِلَ بمقتضاها وظفر بها علماء الآخرة الزاهدون وحرم ذلك علماء الدنيا الراغبون، وهي علوم ذوقية لا يكاد النظر يصل إليها إلا بذوق ووجدان: كالعلم بكيفية حلاوة السكر لا يحصل بالوصف فمن ذاقه عرفه. ويكفيك من شرف علوم الصوفية وزهاد العلماء أن العلوم كلها لا يمكن

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

تحصيلها مع محبة الدنيا والإجلال بحقائق التقوى وربما كان محبة الدنيا عوناً على اكتسابها لأن الاشتغال بها شاق على النفوس فجبلت النفس على محبة الجاه والرفعة حتى استشعرت حصول ذلك بحصول العلم أجابت على حمل الكلف وسهر الليل والصبر على الغربة والأسفار وتعذر الملاذ والشهوات.

وعلوم هؤلاء القوم لا تحصل مع محبة الدنيا ولا تنكشف إلا بمجانبة الهوى ولا تدرس إلا بمدارسة التقوى وعلوم غير هؤلاء القوم متيسرة من غير ذلك بلا شك فعلم فضل علماء الآخرة حيث لم يكشف إلا لأولى الألباب، فأولو الألباب حقيقة: الزاهدون في الدنيا.

قال بعض الفقهاء: إذا أوصى الرجل بماله لأعقل الخلق يصرف إلى الزهاد؛ لأنهم أعقل الخلق. قال سهل بن عبد الله التستري «للعقل ألف اسم ولكل اسم منه ألف اسم وأول كل اسم منه ترك الدنيا». قلت بعض الفقهاء هم الإمامان الشافعي وأحمد بن حنبل - رضي الله عنهما - كذا صرح به الإمام الياضي - رحمه الله - وغير واحد من العلماء ثم السهروردي.

«فعلوم الولاية مستخرجة من علوم الدراسة ومثال علوم الدراسة كاللبن الخالص السائغ للشاربين ومثال علوم الوراثة كالزبد المستخرج منه فلو لم يكن لبن لم يكن زبد، ولكن الزبد هو الدهنية المطلوبة من اللبن والمائية في اللبن جسم قائم به روح الدهنية والمائية بها القوام ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ خَرْفٍ حَيًّا﴾ [سورة الأنبياء، آية: 30]، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَأَتَى ﴿سورة الأنعام، آية: 122﴾ أي ميتاً بالكفر فأحييناه بالإسلام فالإحياء بالإسلام هو القوام الأول والأصل الأول.

عين اليقين وحق اليقين:

وللإسلام فروع بعد التحقيق بالإسلام وهي مراتب. كعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين وقد يقال التوحيد والمعرفة والمشاهدة والإيمان في كل نوع من فروع علوم، فعلم الإسلام علوم اللسان، وعلوم الإيمان علوم القلب، ولها وصف خاص ووصف عام.

فالوصف العام علم اليقين وقد يتوصل إليه بالنظر والاستدلال ويشترك فيه علماء الآخرة وهي السكنينة التي أنزلت في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، والمشاهدة وصف خاص في اليقين وهو عين اليقين وفي عين اليقين وصف

خاص هو حق اليقين إذاً فوق المشاهدة وحق اليقين موطنه ومستقره في الآخرة وفي الدنيا منه لمح يسير لأهله وهو من أعز ما يوجد منه أقسام العلم بالله، لأنه وجدان فصار علم الصوفية، وزهاد العلماء نسبتته إلى علم علماء الدنيا الذين ظفروا باليقين بطريق النظر والاستدلال كنسبة ما ذكرنا من علم الوراثة والدراسة، علمهم بمثابة اللبن لأنه اليقين والإيمان الذي هو الأساس.

وعلم الصوفية بالله تعالى من أنصبة المشاهدة وعين اليقين وحق اليقين كالزبد المستخرج من اللبن فضيلة الإنسان بفضيلة العلم وقد ورد في الخبر «فضل العالم على العابد كفضلي على أمتي»⁽¹⁾ والإشارة في هذا العلم ليس إلى علم البيع والشراء والطلاق والعناق وإنما الإشارة إلى العلم بالله تعالى وقوة اليقين وقد يكون العبد عالماً بالله ذا يقين صادق وليس عنده علم من فروض الكفايات.

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ أعلم من علماء التابعين وقد كان علماء التابعين فيهم من هو أقوم بعلم الفتوى والأحكام من بعضهم روي أن عبد الله بن عمر كان إذا سئل عن شيء يقول سلوا سعيدي بن المسيب وكان عبد الله بن عباس يقول سلوا جابر بن عبد الله لو نزل أهل البصرة على فتياه لوسعهم.

وكان أنس بن مالك يقول سلوا مولانا الحسن فإنه قد حفظ ونسينا فكانوا يردون إليهم في علم الفتوى والأحكام ويعلمونهم حقائق اليقين ودقائق المعرفة لأنهم كانوا أقوم بذلك من التابعين صادفهم طراوة الوحي وغمرهم عزيز العمل المجمل والمفصل.

وما أحسن قول الإمام العارف حامل لواء العلم بالله محيي الدين بن عربي رضي الله تعالى عنه في كتابه الإسراء إلى مقام الإسراء ثم نشأ في نشأة أخرى، وتلى . . . ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا مِنْ أَلْمَاءٍ﴾ [سورة المؤمنون، آية: 44] فسويت جناح اللطائف، وامتطت متون الرفارف وطوت في حق العارف، وإذا هي ثلاثمائة رفر، تدعى بالملأ الأعلى الأشرف:

فعاينت من علم الغيوب عجائباً تصان عن التذكار من رأى من وعى
فمن صاحات فوق غصن أراكها تزعزع بلبال الشجى إذا خلا
ومن نيرات سائلات ذواتها تفيض علينا النور من فيضة البها

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

من نافثات السحر في عشق الدجا
 وأبصرت أقواماً كراماً تبرقعوا
 فمنك سالك نهج الطريق مسافر
 ومن أصل سير للحقيقة صامت
 ومن قائم بالحال في بيت مقدس
 ومن واقف للخلق عند مقامه
 ومن ظاهر وسط المكان مبرز
 ومن شاطح لم يلتفت لحقيقة
 ومن نيرات في القلوب طوالع
 ومن عاشق سر الزهاب متيم
 وصاحب أنفاس تراه مسلطاً
 ومن كاتم للسر يظهر عنده
 ومن فاضل والفضل حق وجوده
 ومن سيد أمسى أديب زمانه
 ومن ماهر حاز الرياضة واعتلى
 ومن متحل بالصفات التي جرى
 ومن متجل طالب الأنس بالذي
 ومستيقظ بالانزعاج لعله
 فقام له سر التجلي بقلبه
 ومن شاهد للحق بالحق قائم
 ومن كاشف وهو الإمام حقيقة
 ومن حائر قد حيرته لوامح
 ومن شارب حتى القيامة ما ارتوى
 ومن غربة والمكر فيها مضمن

عسى ولعل الدهر يسطو بهم غدا
 ولو حسروا أضحت على أرضها هبا
 إلى سفر يسمو وفي الغيب ما سما
 ولو تطور المسكين عجزه الورى
 فلا نفسه نظما ولا سره ارتوى
 ورتبته في الغيب مرتبة الأسا
 وله مكنة تسمو على كل من سما
 قد أنزله دعواه منزلة الهبا
 تدل على المعنى ومن يتصل يرى
 قد أنحله الشوق المبرح والجوى
 على نار أشواق بها قلبه اكتوى
 عليه لطلاب المشاهد بالتقى
 ولكن ما يرجوه في راحة النداء
 فيلقاه من يلقاه من حيث ما جرى
 فصار ينادي بالأسنة واللها
 بأجسادها حادي المنية للبلا
 تأزر بالجسم الترابي وارتدى
 أصابته مطروحاً على فرش الضنا
 فلم يفن في الغير الدني ولا الدنا
 وله همة تفني الأوبد والفنا
 ولولا أبو العباس ما انصرف الفضا
 تقول له قد أفلح اليوم من رقى
 ومن ذائق لم يدر ما لذة الطوى
 ومنك اصطلام حل من مضمهر الحشا

ومن واجد قد قام من متواجد فابدله الوجد المجرد ومازها
 ومن حائز علماً وزى إشارة إلى عارف فوق الأقاويل والحجا
 ومن ناشر طوعاً جناح يقينه يسر ويسرى في الهواء بلا هوى
 ومن باسط كفيه وهي بخيلة ولولا وجود الفيض ما مدح الندى
 وصاحب أنس لم يزل ذا مهابة وصاحب محو عن نسيم قد انبرى
 وصاحب إثبات عظيم جليلة تتوج بالجوزاء وانتعل السُّها

فصل

بيان وجه البقاء بعد الفناء

هذا آخر الكلام على تحقيق العلم اللدني وهو نتيجة البقاء بعد الفناء والتوحيد وبيان ذلك أن السالك إذا تحقق في توحيده فني عن أوصافه البشرية وتخلق بأوصافه البقائية الربانية لأن الحادث لا يقابل القديم . واعلم أن هذا الشاهد الدليل هو الدليل المشاهد في عين أهل البصر وهو العالم على ما هو عليه غين لا عين هذا الذي يجب اعتقاده وفي عين أهل البصيرة عين لا غين بشرط تحوله الذي هو عليه إلى حالة صاحب الحال الوارد به ومنه وإليه قال سلطان أهل المحبة شرف الدين بن الفارض - رضي الله عنه - حيث يقول:

فلما اجتليت العين عني اجتليتني مفيقاً معنى العين بالعين قرّت

فحال أهل البصيرة كمن هو في النهار لا يشهد إلا نهاراً وليس لليل في عين شهوده أثر وكما أن جبريل عليه السلام في الصورة البشرية هو عند النبي ﷺ ملك لا بشر وعنده غيره بشر لا ملك، وكما أن من كان مع نفسه فهو مع هواه محجوب به عن الله لا يشهد إلا إياه لحديث «حبك الشيء يعمي ويصم»⁽¹⁾.

أي يعمي عن رؤية غير محبوبه ويصم عن السماع من غيره لأن المرء ما جعل الله له من قلبين في جوفه ولا لقلب من وجهين، وليس له إلا وجهة واحدة فإذا توجه إليها حجب عن غيرها ومفهوم هذا الحديث حب الله لا الشيء يسمع ويصم لقوله: «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به»⁽¹⁾ الحديث.

فكذلك لا يسمعون إلا بمحبتهم، ومن محبتهم، ولا يبصرون إلا به، ولا يرون إلا هو ولو رأوا كل شيء؛ لأنه لما طاب مشربهم تقرب مشهدهم ولما تقرب مشهدهم منه تعيّب غيره عنهم...

(1) رواه أبو داود في السنن، باب في الهوى، حديث رقم (5130) [334/4] ورواه الطبراني في مسند الشاميين، عن خالد بن محمد الثقفي، حديث رقم (1454) [340/2] ورواه غيرهما.

أثر زيادة الحب :

وفي قصة يعقوب عليه السلام مع بنيه دليل وإرشاد وأسوة للمهائمين بمحبوبهم بكل واد حين عمي عن رؤية غير يوسف ولم يبصر إلا به يشم رائحة أثره بثيابه لأنه عين المراد فإذا ثبت رؤيته تعالى بهذا الدليل على هذه الكيفية لأهلها، فلا إمكان للقول بالحلول والاتحاد ولا التفات إلى قول بعض الفقهاء الفح الذين حججهم الله عن العلوم الذوقية لما زعموا أن شهود الحق تعالى بعد الفناء يلزم منه الحلول والاتحاد وليس الأمر كما زعموا لأن الحلول والاتحاد مذمومان شرعاً إذ من شأنهما وجود الغيرية المقتضية للفرق بين الاثنينية فإن الروح مثلاً متحدة بالبدن؛ لكونها مدبرة له .

ومعلوم قطعاً أن الروح غير الجسم، والفناء لا يكون كذلك لأن شرطه عدم الغيرية التي فيها السالك بحيث قد ماتت نسبتها إليه لما مات عنها بالموت المعنوي، ومن مات رأى الحق فعند ذلك يدخل برزخ البقاء ويخلع عليه خلع أوصاف القدم فيحيا حينئذٍ بالتخلق والتحلي بها، ثم يأتي إليه شراب المشاهدة في كؤوس المقامات فيلتقي القدم بالقدم .

تحقيق المغايرة شعراً في نظم أكابر القوم :

وما أحسن قول القطب الرباني سيدي علي بن وفا :

يظنوا بي حلولا واتحادا وقلبي من سوى التوحيد خالي
فانظر كيف تبرأ من الحلول والاتحاد الذي قاله بعض الفقهاء في حق سادات القوم بل يترتب على القول بنسبته إليهم تكفير الأصفياء وأكابر الصديقين أعاذنا الله من ذلك ونسأله السلامة من الوقوع في هذه المهالك .

وقال بحر الحقائق حامل لواء العلم بالله محيي الدين بن عربي - رضي الله عنه - في كتابه مواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار والعلوم .

من ظن أن طريق أرباب العلى قول فجهل حائل وتعذر
إن السبيل إلى الإله عناية منه بمن قد شاءه وتعذر
لا يرتضي بحقيقة ذو غرة إلا إذا ضم السنابل بيدر
الحال يطلبه بسر مقامه فمن ادعاه فحاله لك يشهر

يتخيل المسكين أن علومها هيهات بل ما أودعوا في كتبهم لا تقرأ الأقسام غير نفوسهم فترى الدخيل يقيس فيه برأيه وتناقضت أقواله إن لم تكن علم الطريقة لا ينال براحة عزت علوم القوم عن إدراك من وتنفس مما يجن وإنه وتدلّه وتولّه في غيبة وتقبض عند الشهود وغيره وتخشع وتفجع وتسرع هذا مقام القوم أو حالاتهم ثم ادعى أن الحقيقة خالفت تبا لها من قاله من جاحد أو من يشاهد في المساجد مطرقاً هذا امرؤ لا يستلذ براحة لكنه في ذلك أسعد حالة

قال الشيخ الإمام العارف بالله أبو المواهب التونسي الشاذلي رضي الله عنه في هذا المعنى شعراً.

وليس علم الكشف إلا موهبا ومن ذاق طعم الشهد أدرك سره ومن ليس ذا ذوق جحود كل ما فلا تلتفت يوماً لخذلان الذي تسامت عن الأوهام والكسب والحصر وحقق سر الطعم بالذوق والخبر يخالف منه الطبع للعرف والفكر يدوم له عذراً فما لك عن عذر

تحقيق القول في التوحيد عند الصوفية

وجه موافقة الاستشهاد للهروي:

باب في توحيد القوم قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْظُرْ عَيْفَانِ اللَّذَمِّ مِمَّنْ قَوْلًا﴾ [سورة آل عمران، آية: 18] إنما خصت بعض الآية بالذكر كصنيع الهروي في منازل السائرين لأن هذا محض التوحيد الجمعي وهو أن لا يكون شيء فلو ذكروا الملائكة وأولي العلم لكان نزولاً عن الجمع إلى الفرق فيكون معه غيره فلا يبقى التوحيد فهو الشاهد لنفسه فلم يشهد أن لا إله إلا الله غيره فمن تحقق هذا بالذوق فقد شهد التوحيد بالحقيقة هكذا حققه الفاشاني رحمه الله.

ومن هنا يعلم أن التوحيد الذاتي مرادف للتوحيد الجمعي لأنهما لا يكونان إلا في الحضرة الأحدية التي يوحد الله فيها ذاته بذاته سواء كان يوحد ذاته على لسان عبده كقول الحلاج: أنا الحق وقول البسطامي: سبحاني ما أعظم شأنني وهذا لا يكون إلا بعد فناء الفناء أو ذاته بذاته كقوله تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [سورة غافر، آية: 16].

واعلم أن التوحيد هو أصل التوكل قال الله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ أَتَىٰ بُيُوتَٰهُم مِّنْ ظُهُورِهِمْ﴾ [سورة المائدة، آية: 23]، وقال الله تعالى: ﴿وَجَمَعْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ [سورة إبراهيم، آية: 11]، وقال الله تعالى: ﴿وَإِنسَ لِلْعِبَادُونَ اللَّهُ يَكْفُونَ﴾ [سورة الزمر، آية: 36]. فطالب الكفاية من غيره هو التارك للتوكل وهو المكذب لهذه الآية فإنه سؤال في معرض استنطاق بالحق أي: إنكار بالحق كقوله تعالى: ﴿فَسُجِّدْ لِلَّهِ أَوْ اللَّطِيفِ سَمْعَ وَهَيْدٍ يَكُونُ تَقْوَىٰ اللَّهُ﴾ [سورة الإنسان، آية: 1]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِّنْ رَّبِّهِمْ وَحِيقَ الْإِنسَانُ﴾ [سورة الأعراف، آية: 194]، بين أن كل ما سوى الله تعالى عبد مسخر حاجته مثل حاجتك فكيف تتكل عليه وقال تعالى: ﴿الْمَاءِ كُلِّ خَرْقَهَا حَرْقًا لِلْغُرَابِهَا وَالْإِنسَ لِلْعِبَادُونَ لِلَّهِ كُونُهَا عَلَى النَّاسِ﴾ [سورة العنكبوت، آية: 17]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ﴾ [سورة

المنافقون، آية: [7]، وقال تعالى: ﴿اللَّيْكُؤُودُ إِذْ عَلِمَ أَنَّا بَعَثْنَا مِنْهُمُ آيَاتٍ وَإِذَا سَمِعُوا﴾ [سورة يونس، آية: 3].

وكل ما ذكر في القرن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكل على الواحد القهار وأما الأخبار فقد قال ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»⁽¹⁾، قال ﷺ: «من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكره الله إليها»⁽²⁾.

ويروى عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا أصاب أهله خصاصة قال «قوموا إلى الصلاة»⁽³⁾. ولما قال جبريل لإبراهيم عليهما السلام وقد رمى في النار من المنجنيق: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، وفاء بقوله: «حسبي الله» إذ قال ذلك حين أخذ ليرمى به، وأوحى الله إلى داود يا داود ما من عبد يعتصم بي دون خلقي فتكيدته السموات والأرض إلا جعلت له مخرجاً.

قال حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله في كتاب التوحيد من ربع المنجيات ما نصه: اعلم أن التوكل من باب الإيمان لا ينتظم إلا بعلم وعمل وحال والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الأصل وعمل هو الثمرة وحال هو المراد باسم التوكل فلنبداً ببيان العلم الذي هو الأصل وهو المسمى إيماناً في أصل اللسان إذ الإيمان هو التصديق وكل تصديق بالقلب فهو علم فإذا قوي سمي يقيناً لكن أبواب اليقين كثيرة ونحن إنما نحتاج منها إلى ما ينبني عليه التوكل وهو التوحيد الذي يترجمه قولك: لا إله إلا الله وحده لا شريك له والإيمان بالقدرة التي يترجم عنها قولك: له الملك والإيمان بالوجود والحكمة الذي يدل عليه قولك: وله الحمد ومن قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير فقد تم له الإيمان الذي هو أصل التوكل أعني أن يصير معنى هذا القول وصفاً لازماً لقلبه غالباً.

- (1) رواه الحاكم في المستدرک، کتاب الرقاق، حدیث رقم (7894) [354/4] ورواه ابن ماجه في السنن، باب التوکل والیقین، حدیث رقم (4164) [1394/2] ورواه غیرهما.
- (2) أورده المنذري في الترغيب والترهيب حدیث رقم (2642) [341/2] وعزاه إلى أبي الشيخ في کتاب الثواب والبيهقي كلاهما من رواية الحسن عن عمران.
- (3) أورده الغزالي في الإحياء، کتاب التوحيد والتوکل، [208/4] والشرييني في تفسير السراج المنير، تفسير سورة طه، آية 128 [543/2].

فأما التوحيد وهو الأصل والقول فيه يطول وهو من علم المكاشفة ولكن بعض علوم المكاشفات يتعلق بالأعمال بواسطة الأحوال ولا يتم علم المعاملة إلا به، فإذا لا يتم القدر الذي يتعلق بالمعاملة بالتوحيد الذي لا ساحل له فنقول: التوحيد أربع مراتب:

مراتب التوحيد:

وهو ينقسم إلى لب، ولب اللب، وإلى القشر، ولنمثل ذلك تقريباً إلى الفهم الضعيف يعني بالجوز في قشرته العليا فإن له قشراً وله لب ودهن هو لب اللب. فالمرتبة الأولى: من التوحيد أن يقول الإنسان باللسان لا إله إلا الله وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافق.

الثانية: أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما يصدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد. والثالثة: أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقربين وذلك بأن يرى أشياء كثيرة لكنه يراها على كثرتها صادرة من الواحد القهار.

الرابعة: ألا يرى في الوجود إلا واحداً وهي مشاهدة الصديقين وتسمية الصوفية الفناء في التوحيد؛ لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً فلا يرى نفسه أيضاً، وإذا لم ير نفسه لكونها مستغرقة بالواحد كان فانياً عن نفسه في توحيده: بمعنى أنه فني عند رؤية نفسه.

فالأول: موحد بمجرد اللسان وذلك يعصم صاحبه في الدنيا عن السيف والسنان.

والثاني: موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه ومفهوم لفظه وقلبه خالٍ عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه وهو عقد على القلب ليس فيه انشراح وانفتاح ولكنه يحفظ صاحبه عن العذاب في الآخرة إن توفي عليها ولم يضعف بالمعاصي عقدها، ولهذا العقد حيل يقصد بها تضعيفه وتحليله يسمى بدعة، وله حيل يقصد بها دفع حيلة التحليل والتضعيف ويقصد بها أيضاً إحكام هذا العقد بقلوب العوام حتى لا تنحل عقده. والثالث: موحد بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلاً واحداً وقد انكشفت له الحقيقة؛

فإن ذلك رتبة العوام وعلماء الكلام إذا لم يفارق المتكلم العاصي في الاعتقاد بل في صفة تلقين الكلام الذي به يدفع حيل المبتدع في تحليل هذه العقد.

والرابع: موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد فلا يرى الكل من

حيث إنه كثير بل من حيث إنه واحد، وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد فالأول: كالقشرة العليا من الجوز والثاني: كالقشرة السفلى، والثالث: كاللب، والرابع: كالدهن المستخرج من اللب.

وكما أن القشرة العليا لا خير فيها بل إن أكلت فهي مرة المذاق وإن نظر إلى باطنها فهي كريهة المنظر وإن اتخذ حطباً أطفأ النار وأكثر الدخان وإن ترك في البيت ضيق المكان؛ فلا يصلح ذلك القشر إلا أن يترك مرة على الجوز للصون ثم يرمى به عنه، فكذلك التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر ومذموم الظاهر والباطن لكنه ينفع مدة في حفظ القشرة السفلى إلى وقت الأكل، والقشرة السفلى هي القلب والبدن فكذا توحيد المناق يصون بدنه عن سيف الغزاة فإنهم لم يؤمروا بشق القلوب بالسيف وإنما يصيب جسم البدن وهو القشر وإنما يتجرد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده.

وكما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالإضافة إلى القشرة العليا فإنها تصون اللب وغرسه عن الفساد عند الادخار وإن فصل أمكن أن ينتفع به حطباً لكنه نازل القدر بالإضافة إلى مجرد النطق باللسان ناقص القدر بالإضافة إلى الكشف والمشاهدة التي تتحصل بانسراح الصدر وانفساحه وانسراح نور الحق فيه إذ ذلك الشرح هو المراد بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [سورة الأنعام، آية: 125]، ولقوله تعالى: ﴿وَجْهَ اللَّهِ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ هَيِّدٌ يُلَاقُوا اللَّهَ﴾ [سورة الزمر، آية: 22].

بيان وجه الحصر في مشاهدة الله لا غير:

وكما أن اللب نفيس في نفسه بالإضافة إلى القشر فكان المقصود لكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات إلى الكثرة بالإضافة إلى من لا يشاهد إلا الواحد الحق.

فإن قلت: كيف يتصور أن لا يشاهد إلا واحداً. وهو يشاهد السموات والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة فكيف يكون الكثير واحداً؟ فاعلم أن هذا غاية علوم المكاشفة وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب فقد قال العارفون: «إفشاء سر الربوبية كفر» ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة نعم ذكر ما يكسر سورة استبعادك ممكن وهو أن الشيء قد يكون كثيراً بنوع مشاهدة واعتبار، وهذا

كما أن الإنسان كثير إذا التفت إلى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه، وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد إذ يقول: إنه إنسان واحد فهو بالإضافة إلى الإنسانية واحد، وكم من شخص يشاهد إنساناً ولا يخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه وأطرافه وتفصيل روحه وجسده والفرق بينهما، وهو في حالة الاستغراق والاستتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفرق وكأنه في عين الجمع والملتفت إلى الكثرة في قومه فكذلك كل ما في الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبار واحد.

وباعتبار آخر سواه كثير وبعضه أشد كثرة من بعض ومثال الإنسان وإن كان لا يطابق الغرض ولكن ينه بالجملة على كيفية مصير الكثرة في حكم المشاهدة واحداً ويستفيد بهذا الكلام ترك الإنكار والجحود لمقام لم يبلغه ويؤمن به إيمان تصديق فيكون لك من حيث إنك مؤمن بهذا التوحيد نصيب وإن لم تكن ما آمنت به صفتك كما أنك إذا آمنت بالنبوة وإن لم تكن نبياً كان لك نصيب منها بقدر قوة إيمانك. وهذه المشاهدة التي لا يظهر فيها إلا الواحد الحق تارة تدوم نظراً كالبرق الخاطف وهو الأكثر والدوام نادر عزيز وإلى هذا أشار العارف بالله الحسين بن منصور الحلاج حين رأى الخواص يدور في الأسفار فقال: فيما ذا أنت؟ قال: أدور في الأسفار لأصحح حالي في التوكل وقد كان من المتكلمين؛ فقال الحسين رضي الله عنه قد أفنيت عمرك في عمران باطنك فأين الفناء في التوحيد فكان الخواص في تصحيح المقام الثالث من التوحيد فطالبه بالمقام الرابع فهذه مقامات الموحدين في التوحيد على سبيل الإجمال. انتهى كلام حجة الإسلام بحروفه وأنشدنا شيخنا العارف بالله سيدي محمد المغربي لنفسه فقال:

وجودك كالزجاجة والسراج	بها حكم الفناء بمن تناجي
وليل الغير لما أن تبدا	ضيا المحبوب في جنح الدياتي
تولى مسرعاً فالوقت صبح	وأهل الود أضحوا بابتهاجي
كذا الأرواح تجلى في نفوس	شراب في كؤوس بابتلاجي
كذا تجلى العروس بكل زي	جمال في جلال بامتزاج
فدونكها بكل واختطبها	ببذل النفس في نقع العجاج
ولا تلفت عنانك كن جواداً	فأهل الجود مطلب كل راج

فمن ولى إلى الدنيا فراراً بيوم الزحف منا غير ناج
ومن يرضى بها داراً ستأتي إليه النار من كل الفجاج
على عجل فتب ودع التواني فإن القلب عنه في انزعاج
القصد من هذا وجودك كالزجاجة ومشهود الحق تعالى كالسراج لها لأنها
صارت في حكم الفناء المعنى؛ للاشتغال بشهود البقاء وهو السراج الذي مثلنا به؛
وأن السالك من القوم إذا تحقق في سلوكه صار مستغرقاً في شهود الحق - تعالى -
فانياً عن شهود الأغيار بحيث إن العالم كله صار عنده عدماً كلياً؛ لاشتغاله بمشاهدة
شمس القدم فيبقى حينئذ كالزجاجة المستهلكة في وجود السراج.

فأرباب المشاهدات فنوا عن رؤية الزجاجة لاشتغالهم بشهود سراجها وهو
الحق تعالى فلم ينظروا ولم يشاهدوا إلا شعاع القدم ولهذا قال علي بن أبي طالب
كرم الله وجهه في خطبة البيان.

«هو نور يشرق من صبح الأزل فيلوح على هياكل التوحيد آثاره».

وما أحسن قول حجة الإسلام رحمه الله حيث يقول:

رق الزجاج وراقت الخمر فتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر⁽¹⁾

وفرق بين أن يقال: الخمر قدح وبين أن يقال: كأنها قدح وهذه الحالة التي
غلبت سميت بالإضافة إلى صاحب الحالة فناء الفناء لأنه فني عن نفسه وفني عن
فناؤه؛ فإنه ليس يشعر بنفسه عن تلك الحالة ولا بعدم شعوره بنفسه ولو شعر بعدم
شعوره بنفسه لكان قد شعر بنفسه وتسمى هذه الحالة بالإضافة إلى المستغرق بلسان
الحال اتحاداً ولسان الحقيقة توحيداً، وقال سيد علماء الطريقة وإمام أهل الحقيقة
الشيخ أبو الحسن رحمه الله:

إننا لننظر إلى الله - تعالى - ببصائر الإيمان والإيقان فأغنانا بذلك عن الدليل
والبرهان ونستدل به على الخلق هل في الوجود شيء سوى الملك الحق؟ فلا تراهم
وإن كان ولا بد فتراهم كالهباء في الهواء إن فتشتهم لم تجد شيئاً.

(1) هذان البيتان هما للشيخ السهروردي المقتول أبو الفتوح يحيى بن حبش الحكيم شهاب
الدين السهروردي المولود سنة 549هـ والمقتول سنة 587 هجرية (الموسوعة الشعرية،
المجمع الثقافي، أبو ظبي).

مراتب التلاوة عند ابن عربي :

قال بحر الحقائق حامل لواء العلم بالله محيي الدين بن عربي رحمه الله في كتابه «مواقع النجوم» عند الكلام على الفلك اللساني: فإذا وفقك الله تعالى وتريد أن يسمع الحق جلّ جلاله منك تلاوتك ويسميك في ديوان التالين ويقول لك على الكمال حمدني عبدي فاعلم منازل التلاوة وموطنها وكم التالين منك وذلك: بأن تعلم أن على اللسان تلاوة وعلى القلب تلاوة وعلى الروح تلاوة وعلى السر تلاوة.

فتلاوة اللسان ترتيب الكتاب على الحد الذي رتب المكلف له، **وتلاوة الجسم** المعاملات على تفصيلها في الأعضاء التي على صحته، **وتلاوة النفس**: التخلق بالأسماء والصفات، **وتلاوة القلب** الإخلاص والفكر والتدبر، **وتلاوة السر** الاتحاد، **وتلاوة سر السر** الأدب وهو التنزيه الوارد عليه في التلقي منه جلّ وعلا فمن قام بين يدي سيده بهذه الأوصاف كلها ونظر إليه جلّ اسمه فلم ير جزءاً منه فرداً إلا مستغرقاً فيه على ما يرضاه منه كان عبداً كلياً وقال له الحق - تعالى - إذ ذاك حمدني عبدي أو ما يقول: على حسب ما ينطق به العبد قولاً أو حالاً وإن كان فيه بعض هذه الأوصاف وتعلق عقله ببعض التالين فليس بعبد كلي ولا يكون فيه للحق من عبودية الاختصاص إلا قدر ما اتصفت به ذاته؛ فثم عبد يكون لله فيه السدس ولهواه ما بقي وعبد الله فيه الخمس ولهواه ما بقي والربع والثالث والنصف على قدر ما يحضر منه مع الحق من حيث هو ومن حيث هو نودي كما جاء في الصلاة: «إنه لا يقبل منها إلا ما عقل عشرها تسعها ثمنها سبعها سدسها خمسها ربعها ثلثها نصفها».

فإن حضر له بالكل حصل له الكل فإن محبة الحق تعالى لك على قدر محبتك له أليس الله تعالى يقول: «من تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ومن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، ومن أتاني يسعي أتيت هرولة».

تفسير الهروي للتوحيد نظماً وبيان ابن القيم له :

تنبيه قال الهروي في باب التوحيد في منازل السائرين :

ما وحد الواحد من واحد إذ كل من وحده جاحد
توحيد من ينطق عن نعمته عارية أبطلها الواحد
توحيد إياه توحيد ونعت من ينعته لاحد
قال شارحه العلامة شمس الدين بن القيم رحمه الله أي ما وحد الله أحد حق

توحيده الخاص الذي يفنى فيه ويضمحل فيه كل أحد ويتلاشى فيه كل مكون، فإنه لا يتصور منه التوحيد إلا بفناء الرسم وهو الموحد وتوحيده القائم به، فإذا وحده شهد فعله الحادث ورسمه الحادث، وذلك جحود لحقيقة التوحيد الذي تفنى فيه الرسوم وتتلاشى فيه الأكوان، فلذلك قال إذ كل من وحده جاحد، هذا أحسن ما يحمل عليه كلامه.

تفسير القاشاني كلام الهروي:

وقال القاشاني: يعني ما وحد الحق تعالى حق التوحيد الذاتي أحد، إذ كل من وحده أثبت فعله ورسمه بتوحيده فقد جحده بإثبات الغير إذ لا توحيد إلا بفناء الرسوم والآثار كلها توحيد من ينطق عن نعته عارية، إذ لا نعت في الحضرة الأحدية ولا نطق ولا رسم لشيء، والنطق و النعت يقتضيان الرسم وكلما يشم منه رائحة الوجود فهو للحق عارية عند الغير فيجب عليه ردها إلى مالكتها حتى يصح التوحيد ويبقى الحق واحداً واحداً فلذلك أبطل الواحد الحقيقي تلك العبارة التي هي ذلك التوحيد مع رسم الغير فإنه باطل في نفسه في الحضرة الأحدية «توحيده إياه توحيده أي توحيد الحق تعالى ذاته بذاته هو تويحيده الحقيقي» ونعت من ينعت ل«احد» أي وصف الذي يصفه هو أنه مشترك جائز على طريق الحد مائل عنه لأنه أثبت النعت ولا نعت ثمة وأثبت رسمه بإثبات النعت ولا رسم لشيء في الحضرة الأحدية ولا أثر وإلا لم تكن أحدية انتهى.

يَنْكُرُونَ تفسير الكوراني لكلام الهروي:

وقال القطب الرباني أبو المحاسن يوسف بن عبد الله عمر الكوراني: اعلم أن القاعدة في علم التوحيد الذاتي بقولهم التوحيد إسقاط الحدث وإثبات القدم، فقوله ما وحده الواحد أي ما وحد الله تعالى حق توحيده الذاتي أحد، إذ كل من وحده أثبت وجوده وفعله بتوحيده، فقد جحده بإثبات وجود نفسه وفعله، فما بقيت ذات الله تعالى وحدها بل ذات الله تعالى وذات العبد الموحد، فإنه ما يصح التوحيد الحقيقي الذاتي على لسان العبد إلا بفناء وجوده المجازي الهالك المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ إِذْ أَقْبَيْنَا نُؤُلُوفَهُمْ وَجَهُ ﴾ [سورة القصص، آية: 88] وقوله: «فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ولساناً في ينطق»⁽¹⁾ الحديث وقوله ﷺ قال الله تعالى على

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

لسان عبده: «سمع الله لمن حمده»⁽¹⁾ وقوله «ما قلت له ولكن قاله الله».

يَنْكُرُؤُا تَأْيِيدُ الْمُؤَلَّفِ لَدُنْكَ :

وما يؤيد هذا المعنى ضرب المثل لو فرضنا أن شخصين في دار واحدة وقال أحدهما للآخر ما في الدار إلا أنت فعلى الحقيقة وجود القائل يكذب قوله، لأن وجوده أيضاً معه في الدار فما في الدار وجود واحد بل وجودان، فما صح قوله فما في الدار إلا أنت فصح أن كل من وحده جاحد أي وجوده جاحد قوله.

وأيضاً لو قلنا إن نور القمر والكواكب من نور الشمس فبالليل ما يصح منهم توحيد نور الشمس بأن يقولوا لا نور إلا نور الشمس لأن أنوارهم اندرجت في نور الشمس أو يقول إن أنوارهم كانت عارية عندهم من جهة الشمس فلما تجلت الشمس تجلي الذات أخذت عاريتها وأبطل نورها وجودهم المستعار، تمثل المحسوس على المعنى بعيد على الحقيقة جداً ولكن العقل يقرب المعنى إلى الفهم المحسوس أكثر منه بالمعنى، وهذا مقام جمع الجمع المشهور في اصطلاح الصوفية من قولهم الفناء والبقاء وفناء الفناء وبقاء البقاء والتفرقة وجمع الجمع^(*).

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب إقامة الصف من تمام الصلاة، حديث رقم (689) [1] / 253] ورواه مسلم في صحيحه، باب التشهد في الصلاة، حديث رقم (404) [1] / 303] ورواه غيرهما.

(*) الفناء: هو اضمحلال ما دون الحق علماً ثم جحداً، ثم حقاً، وورقته الأولى فناء المعرفة، والثانية: فناء شهود الطلب لإسقاطه، وفناء شهود المعرفة لإسقاطها، وفناء شهود العيان لإسقاطه. الثالثة: الفناء عن شهود الفناء.

الفناء هو أن يفنى عن كل ما سوى الله بالله ولا بد وأن تفنى في هذا الفناء عن رؤيتك فلا تعلم أنك في حال شهود حق، إذ لا عين لك مشهودة في هذا الحال. (موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي).

مقام البقاء بعد الفناء

هو رتبة المعرفة التي عرفتها في الرتب من كونها هي المغيبة بقوله تعالى «فبي يسمع وببي يبصر». فإذا صار العبد من أهل الرتبة؛ الذين يسمعون بالحق ويبصرون به بل بأنفسهم، سمي مقامه بمقام البقاء بعد الفناء. وإنما سمي بذلك لكون العبد إنما يتحقق به بعد أن يفنى عن وجوده بنفسه، وعن بقاءه بها. ويبقى بوجود ربه، فلهذا قال تعالى: «فبي يسمع وببي يبصر» . . . الخ.

فناء الفناء: هو الوصول إلى الحد الذي فيه ينمحق الغير والغيرية بهدم رسوم جميع الأطلال وانمحاق جميع الآثار فلم يبق إلا الحق بالحق في الحق عن الحق وهو باب المدخل إلى محبة الذات وهي غاية الغايات.

وقد طلب رسول الله ﷺ في دعائه هذا وما فوقه بقوله «واغسلني بالماء والثلج والبرد»⁽¹⁾. والقافية الثانية «توحيد من ينطق عن نعته عارية» إذ لا نعت في الحضرة الأحدية ولا نطق ولا رسم لشيء فالنطق والرسم يقتضيان الرسم وكل ما يشم منه رائحة الوجود فإنه للحق تعالى وعند الغير عارية فيجب عليه ردها إلى مالکها حتى يصح التوحيد ببقاء الحق تعالى واحداً أحد فلذلك أبطل الواحد الحقيقي تلك العبارة التي هي ذلك التوحيد مع بقاء رسم الغير فإنه باطل في نفسه في الحضرة الأحدية كالسراب يرى أن له وجوداً وهو باطل في نفسه من حيث ما يرى أن له وجوداً لا مطلقاً لأن الله تعالى قال: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ أي من حيث ما رأى وقال: ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابًا﴾ [سورة النور، آية: 39] أي من حيث الحقيقة لا من حيث المجاز السرابي.

فلما أن وجد الله تعالى عنده ما خيبه بل أراه حسابه حق الوفاء، والقافية الثالثة «توحيده إياه» أي توحيد الله تعالى ذاته بذاته هو توحيد الحقيقي سواء كان على لسان عبده في ينطق أو بنفسه ﴿لَمَنْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَجْدِ الْقَهَّارِ﴾ [سورة غافر، آية: 16] «ونعت من لا ينعت لاحد» أي وصف الذي يصفه الواصف وهو حائد طريق الحق تعالى مائل عنه لأنه أثبت النعت ولا نعت ثم أثبت رسمه بإثبات النعت ولا رسم لشيء في الحضرة الأحدية ولا أثر وإلا لم يكن أحدية هذا آخر كلامه.

= بقاء البقاء [عند الصوفية]: هو مقام البقاء في الباقي، حيث يفنى العبد عن وجوده ثم يبقى بعد ذلك في الباقي، وهو مقام تميز المسلمون بالقول به.

جمع الجمع، ما ورد في معناه: 1- جمع الفرق، 2- فرق الجمع، 3- تفرقة الجمع، 4- جمع التفرقة، 5- انصداع الجمع، 6- شعب الصدع، 7- صدع الشعب، 8- صدع الجمع، 9- وصل الفصل، 10- فصل الوصل، 11- الفرق، 12- الفرق الأول، 13- الفرق الثاني، 14- الوصل، 15- وصل الوصل، 16- صحو الجمع، 17- الصحو المفيق، 18- تشتت الشمل، 19- تفرق الشمل، 20- تشعب الشمل، 21- تشعب الجمع. وينظر كل واحد في حرفه.

- وتارة يطلق جمع الجمع، ويراد به الاستهلاك في الله بالكلية كما عرفت ذلك فيما مر.
- وتارة يراد بجمع الجمع حق في خلق، كما أن الجمع حق بلا خلق، والفرق رؤية خلق بلا حق.
- وقد يعنى بجمع الجمع شهود الوحدة في الكثرة، وشهود الكثرة في الوحدة، وهذا يسمى بالفرق الثاني.

(1) رواه البخاري بلفظ: «اللهم اغسل عني حطايي بماء الثلج والبرد». صحيح البخاري، باب التعوذ من المأثم والمغرم، حديث رقم (6007) [5/2341] ورواه مسلم في صحيحه، باب التعوذ من شر الفتن وغيرها، حديث رقم (589) [4/2078] ورواه غيرهما.

يَنْكُورُوا تَفْسِيرَ آخِرِ اللَّأْبِيَاتِ :

وقال بعض المحققين ممن تكلم على هذه الأبيات واعلم أن التوحيد الذاتي هو انفراد الرب سبحانه تعالى بالوجود فلا يكون معه وجود وهذا معنى قولهم التوحيد إسقاط الحدث وإثبات القدم، والتوحيد فعل مغاير له والموحد كذلك فإثباتهما معه في الوجود ينافي في التوحيد الذاتي قال تعالى ﴿ إِذَا قَائِمًا تُولُؤًا فَتَمَّ وَجْهٌ ﴾ [سورة القصص، آية: 88].

ولا شك أن الوجود الحقيقي هو الذي وجوده واجب فأما الذي وجوده جائز فقد كان عدماً ويصير عدماً فالمعنى ما وحد الواحد وهو الله تعالى حق توحيدته الذاتي أحد، لأنه يكون حينئذ قد أثبتت مع الله تعالى نفسه ورسمه.

قال العلامة شمس الدين البرماوي في شرح خطبة الحاوي الصغير قلت: ولعل صاحب الحاوي لما لحظ هذا المعنى عدل إلى قوله: «المتوحد» أي الذي هو واحد بذاته وإن لم يوحد موحد لأنه الواحد قبل إيجاد الموحدين له وإذا تقرر مذهب الصوفي في التوحيد بهذا التقرير وهو عدم ملاحظة نفسه وغيره مما سوى الله كان حقاً ولا يلزم منه حلول ولا اتحاد مع شيء من خلقه فإن ذلك محال باطل.

ومعنى قوله في البيت الثاني «عارية» أن الحضرة الإلهية إذا لم يكن معها نطق ولا رسم على الحقيقة كان إثباتهما عارية معنى استعير له اسم الوجود وهو ما يعبر عنه بالمجاز والاستعارة لأن التفريع على أن الوجود الحقيقي هو الواجب لا الوجود الممكن وهذا على طريق العارية، ولهذا قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ [سورة النور، آية: 39] وقال ﷺ في الكهان «ليسوا بشيء»⁽¹⁾ وقال للمسيء صلته: «ارجع فصل، فإنك لم تصل»⁽²⁾ فهذان شاهدان من الكتاب والسنة.

ومما يحكى عن الجنيد سيد الطائفة إنني ليخطر لي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين من الكتاب والسنة وأما على المشهور الشائع فإن الخلاف

(1) رواه البخاري ف صحيحه، باب قول الرجل للشيء ليس بشيء وهو ينوي . . . حديث رقم (5859) [2294/5] ورواه مسلم في صحيحه، باب تحريم الكهانة . . . حديث رقم (2228) [1750/4] ورواه غيرهما.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب وجوب القراءة للإمام . . . حديث رقم (724) [263/1] ورواه مسلم في صحيحه، باب وجوب قراءة الفاحة . . . حديث رقم (397) [298/1] ورواه غيرهما.

من كون الوجود ينطلق على القديم والحادث من المشترك أو من المتواطىء أو من المشكل خلاف مشهور ومعنى قوله في البيت الثالث توحيد إياه أي توحيد الحق تعالى نفسه أي علمه بوحدانيته هو التوحيد لأنه قبل أن يوجد الخلائق كما في حديث عمران بن حصين «كان الله ولم يكن شيء وكان عرشه على الماء»⁽¹⁾ الحديث ويستمر توحيده نفسه بعد خلق الخلق لأنهم لم يوحده إلا بأقداره وتعليمه وإعلامه فلسان العبد كالألة كما قال تعالى: «فبي ينطق»⁽²⁾ ويستمر بعد فناء الخلق كما قال الله تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ فلا يجيبه أحد فيجيب نفسه ﴿لِلَّهِ الْوَجْدُ الْقَهَّارِ﴾ [سورة غافر، آية: 16].

وقوله: «ونعت من ينعتة لاحد» أي وصف الذي يصفه من خلقه إذا كان مع إثبات رسمه وفعله واعتقاده وجودهما مع وجوده فهو بذلك لاحد أي مائل عن جهة الحق كما سبق تقريره فحقق ذلك واجتنب غيره.

وقال حجة الإسلام الغزالي رضي الله عنه في مشكاة الأنوار: ومن هاهنا ترقى العارفون من حضيض المجاز واستكملوا معارجهم فرأوا بالمشاهدة العيانة أن ليس في الوجود إلا الله وأن ﴿إِذَا قَائِمًا تُولُوهُ فَتَمَّ وَجْهُ﴾ [سورة القصص، آية: 88] لا أنه يصير هالكاً في وقت من الأوقات بل هو هالك أزلاً وأبداً لا يتصور إلا كذلك وأن كل شيء سواه إذا اعتبر ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض وإذا اعتبر من الوجه الذي سرى إليه الوجود من الأول الحق فهو موجود لا في ذاته ولكن من الوجه الذي يلي موجوده فيكون الموجود وجه الله تعالى.

ولكل شيء وجهان: وجه إلى نفسه ووجه إلى ربه فهو باعتبار وجه نفسه عدم وباعتبار وجه الله تعالى موجوداً، فإذا لا موجود إلا الله ووجهه فإذا ﴿إِذَا قَائِمًا تُولُوهُ فَتَمَّ وَجْهُ﴾ أزلاً وأبداً ولم يفتقر هؤلاء العارفون إلى قيام القيامة ليسمعوا نداء الباري تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَجْدُ الْقَهَّارِ﴾ بل هذا النداء لا يفارق سمعهم أبداً ولم يفهموا من معنى قوله: الله أكبر أنه أكبر من غيره حاشا لله إذ ليس معه في الوجود غيره حتى يكون أكبر بل ليس لغيره رتبة المعية بل رتبة التبعية بل ليس لغيره وجود إلا من الوجه الذي يليه.

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) هذا الحديث سبق تخريجه.

فالموجود وجهه فقط ومحال أن يقال له أكبر من وجهه بل معناه أنه أكبر من أن يقال له أكبر بمعنى الإضافة والمقايسة وأكبر من أن يدرك غيره كنه كبريائه نبياً كان أو ملكاً بل لا يعرف الله كنه معرفته إلا الله .

يَكُونُوا حَقِيقَةً رَوِيَةَ الْأَشْيَاءِ عِنْدَ الْقَوْمِ :

اعلم أن أرباب البصائر ما رأوا شيئاً إلا ورأوا الله تعالى معه، وربما زاد على هذا بعضهم فقال: ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله . لأن منهم من يرى الله فيرى الأشياء به، ومنهم من يرى الأشياء فيراه بالأشياء، وإلى الأول الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سورة فصلت، آية: 53] وإلى الثاني الإشارة بقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [سورة فصلت، آية: 53] فالأول صاحب مشاهدة والثاني صاحب استدلال بآياته، فالأول درجة الصديقين، والثاني درجة العلماء الراسخين فليس بعدهما إلا درجة الغافلين المحجوبين .

يَكُونُوا الْفَرْقَ بَيْنَ أَهْلِ الْبَصْرِ وَالْبَصِيرَةِ :

وقال شيخنا العارف سيدي محمد المغربي رحمه الله اعلم أن هذه الأشياء الدليل المشاهد في أعين أهل البصر وهو العالم كما هو عليه غين لا عين هذا الذي يجب اعتقاده، وفي عين أهل البصيرة عين لا غين بشرط تحوله إلى حاله الورد منه وإليه، كما قال سلطان أهل المحبة ابن الفارض قدس الله روحه حيث يقول:

فلما اجتليت الغين عني اجتليتني مفيقاً فمني العين بالعين قرت

فحال أهل البصر كمن هو في الليل لا يشهد إلا ليلاً وليس للنهار في عينه أثر وإن كان له في عين بصيرته علم وخبر، وحال أهل البصيرة كمن هو بالنهار لا يشهد إلا نهاراً وليس لليل في عين شهوده أثر وكما أن جبريل في الصورة البشرية هو عند النبي ﷺ ملك لا بشر وعند غيره بشر لا ملك وقد تقدم الكلام على ذلك وإنما ذكرته ثانياً لتقدير المقام التوحيدي .

يَكُونُوا الْمَرَادَ بِالْغَيْنِ فِي اللُّغَةِ وَأَرْبَابَ السَّلُوكِ :

يَكُونُوا تَنْبِيهِ :

الغين في اللغة: الغشاء والتغطية قال أبو عبيدة وأصله في غين السماء وهو إطباق الغيم وقال غيره من أئمة اللغة: شيء يغشى القلب ولا يغطيه كل التغطية

كالغيم الرقيق الذي يعرض في الهواء فلا يمنع ضوء الشمس، وأما في اصطلاح أرباب السلوك فهو تغطية شهود الحق تعالى بشهود الأغيار.

يَنْكُؤُوا تَأْوِيلَ حَدِيثِ يُوْهَمُ الْغَيْنَ لَهُ ﷺ :

وليس من قوله ﷺ: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة فاستغفروا الله»⁽¹⁾ لأنه ﷺ منزّه عن شهود الأغيار التي هي حجاب عن شهود الحق تعالى ولأنه لم يزل حاضراً مع الله تعالى شاهداً لتجلياته على الدوام، وإنما المراد بالغيان هنا اختلاف التجليات الواردة على قلبه ﷺ لأن كل تجلي من التجليات غير التجلي الآخر لا غين، كما أن التجلي الصفاتي غين وحجاب عن التجلي الذاتي لأنه لا عينه، فحينئذ فالغيان الوارد على قلبه إنما هو اختلاف التجليات على كثرة أنواعها لا غير ذلك.

ومما يشهد لهذا التقرير قول الأستاذ الرباني أبي الحسن الشاذلي لقد أشكل عليّ معنى قوله عليه السلام: «إنه ليغان على قلبي» فرأيت الرسول ﷺ وهو يقول لي: يا مبارك ذاك غين الأنوار لا غين الأغيار كذا نقله الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في لطائف المنن.

وقال الشيخ عبد السلام المقدسي في حل الرموز ليس هذا الغين غين حجاب ولا غفلة، ومن ظن ذلك بنبيه فقد أخطأ في حقه وأساء ظنه به، وإنما كان ﷺ يستغرقه أنوار التجليات فغيب بذلك الحضور ثم يسأل الله تعالى أن يستر عليه حاله فيطلب المغفرة وهي الستر لأنها مأخوذة من الغفر فكأنه سأل ستر حاله عليهم، لأن الخواص لو دام لهم التجلي وما يكاشفهم به لتلاشوا في ظهور سلطان الحقيقة فالستر لهم هناك رحمة.

وأما الستر للعوام فعقوبة لأنه حجاب لهم وغطاء على أعين بصائرهم فإنهم مستورون عنه بغيره والخواص مستورون به عما سواه.

قلت: والستر حينئذ ليس ستر حجاب شهود الأغيار بل إنما هو ستر نور الذات المحرق المهلك لسائر الموجود وهي التجلي الذاتي بنور تجلي الصفات الرحمانية

(1) رواه مسلم في صحيحه بلفظ: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة». الصحيح، باب استحباب الاستغفار...، حديث رقم (2702) [4/2075] ورواه البيهقي في السنن، باب كان يغان على قلبه...، حديث رقم (13119) [7/52] ورواه غيرهما.

ولهذا قال سلطان أهل المحبة ابن الفارض على لسان وارد الحقيقة .

ولولا احتجابي بالصفات لأحرقت مظاهر ذاتي من سنا سبحيتي

قال الشيخ العارف بالله تعالى قطب الوجود سيدي محمد المغربي أي ولولا احتجاب الذات بالصفات عند التجليات لأحرقت سار الموجودات التي هي مظاهر أدلة ثبوت وجود مرآه عين شهود ذاته : إذ لا بقاء للحادث مع إشراق شمس القدم والسناء هو الإشراق والسبحية هي جلال الحق سبحانه .

يَنْكُرُوا وَجْهَ إِثَارِ صِفَةِ الرَّحْمَةِ فِي ﴿خَوَّلَيْتُمُنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنْ﴾ :

ومنه قوله تعالى : ﴿خَوَّلَيْتُمُنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنْ﴾ [سورة طه، آية : 5] ولم يقل «الله» فسرى سر الرحمانية في العرش فما دونه إلى تحت تخوم الثرى فثبت ولو قال (الله) على العرش استوى لذلك العرش فما دونه دكة واحدة من هيبة جلال الذات التي تقطع جبل طور سيناء وصار دكاً في بارقة من نور جلاله .

يَنْكُرُوا أَنْوَاعَ التَّجْلِي :

والتجلي تجليات : تجلي ذاتي وتجلي صفاتي، فالذاتي جلالي والصفاتي جمالي، فكل إيجاد وإنشاء من أثر إيجاد الجمال، وكل إعدام وإهلاك من أثر إشراق الجلال، مثال ذلك إشراق الشمس على التدرج شيئاً فشيئاً فلو تجلت بجرمها بلا حجب من السماوات تكفها وتضعف حدة إشراقها لتركت النبات هشيماً والحيوانات رميمًا وأهلكت هلاكاً عظيماً، ولكنها بذاتها احتجبت وبلطيف جمالها ونورها اقتربت فربت وأثرت، فانظر إلى أثر صفة هذه الذات وهو إشراق الشمس باللطيفة المنتجة قبل الشديدة المنضجة على النبات، ثم انظر إلى أثر رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات .

وقال العارف بالله تعالى الحسين بن منصور الحلاج قدس الله روحه حجبهم بالاسم فعاشوا، ولو أبرز لهم علو القدرة لطاشوا، ولو كشف لهم عن الحقيقة لماتوا .

يَنْكُرُوا شِبْهَةَ وَجْهِ :

* **تذنيب :** قد يستشكل وقوع الاستغفار من النبي ﷺ مطلقاً من غير غين وهو معصوم والاستغفار يستدعي وقوع خطيئة وأجيب عن ذلك بعدة أجوبة :

أحدها : ما قدمناه في الغين المخصوص بمقامه ﷺ .

ثانيها: على الإطلاق وهو هفوات الطباع البشرية التي لا يسلم منها أحد.

يَكُونُ تَفْسِيرُ الْحَدِيثِ: إِنَّهُ لِيَغَانِ عَلَيَّ قَلْبِي:

والأنبياء وإن عصموا من الكبائر فلم يعصموا من الصغائر كذا صرح به ابن الجوزي وهو مفرع على خلاف المختار والراجح عند جمهور العلماء عصمتهم من الصغائر أيضاً.

ثالثها: قول ابن بطال: الأنبياء أشد الناس اجتهاداً في العبادة لما أعطاهم الله تعالى من المعرفة فهم زائدون في شكره معترفون له بالتقصير انتهى، ومحصل هذا الاستغفار من التقصير في أداء الحق الذي يجب لله تعالى ويحتمل أن يكون لانشغاله بالأمور المباحة من أكل أو شرب أو جماع أو نوم أو راحة أو مخاطبة الناس والنظر في مصالحهم ومحاربة عدوهم تارة ومداراته أخرى وتأليف المؤلفات وغير ذلك مما يحجبه عن الانشغال بذكر الله والتضرع إليه ومشاهدته ومراقبته فيرى ذلك ذنباً بالنسبة إلى المقام العلي وهو الحضور في حظيرة القدس.

رابعها: أن استغفاره تشريع لأمة ليستغفروا.

خامسها: أن استغفاره كان بسبب ما اطلع عليه من أحوال أمة من ذنوبهم وما يكون منها بعده فكان يستغفر لهم.

سادسها: ما ذكره حجة الإسلام الغزالي في الإحياء حيث قال: كان النبي ﷺ دائم الترقى في المقامات سريع التنقل في المنازل فكان إذا ترقى من مقام إلى غيره اطلع على المتنقل عنه فظهر له أنه نقص بالنسبة إلى المتنقل إليه فكان يستغفر الله تعالى من الأول ويتوب منه كما في الحديث الآخر «يا أيها الناس توبوا فإنني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرة»⁽¹⁾.

وقد أشار سيد الطائفة الجنيد إلى هذا بقوله: حسنات الأبرار سيئات المقربين. وتعقبه شيخ الإسلام ابن حجر بأنه يدل على وقوع الاستغفار موقوفاً بحب تعدد الأحوال وظاهر ألفاظ الحديث يخالف ذلك لكن قال شيخنا الحافظ قاضي القضاة قطب الدين الخيضي:

(1) لم أجده بلفظه والذي ورد إنه ليغان علي قلبي وإنني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة، سبق تخريجه.

وعندي في هذا نظر بل الذي يدل عليه مجموع الأحاديث أنه كان يفعل ذلك تارة في مجلس واحد وتارة مفرقاً لقوله «في اليوم» وهو على الاحتمال مع أن في رواية أحمد من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إني لأستغفر الله في كل يوم وليل مائة مرة»⁽¹⁾ فهذا ظاهره التفرقة ويحتمل الاجتماع مرة ليلاً ومرة نهاراً والأول أقرب، وثم أقوال آخر غير ذلك فمنها ما يظهر لي وهو إظهار الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى، فإنه وإن كان في غنية عنه أحب أن يكون مستديماً للتذلل والانكسار، وذلك مثل سؤاله في الفاتحة هداية الصراط المستقيم مع أنه على أعظم الطرق المستقيمة والله أعلم.

ومنها ما ذكره ابن الفارض بأن عدد السبعين ورد في حديث آخر من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ «والله إني لأستغفر الله وأتوب في اليوم أكثر من سبعين مرة» أخرجه البخاري والترمذي عن أبي هريرة بلفظ «إني لا أستغفر الله في اليوم سبعين» فحينئذٍ يحتاج إلى الجمع بين الروايات والذي يظهر أن رواية أكثر من سبعين مبهمة فيحتمل تفسير الأكثرية ببلوغ المادة، وإنما نص على السبعين لأنها العدد المعروف وأما رواية الجزم بالتحسين فالحديث يحتمل العدد فتارة كان يفعل مائة وتارة سبعين وتارة أكثر والله أعلم.

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب استغفار النبي ﷺ، حديث رقم (5948) [2327/5] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر البيان بأن هذا العدد الذي ذكرناه لم يكن بعدد...، حديث رقم (925) [204/3] ورواه غيرهما.

فصل

تفسير الغين اللائق بمقامه ﷺ

لقد ساق القاضي عياض في الشفا اختلاف العلماء في تفسير الغين اللائق بمقامه ﷺ .

وها أنا أذكره بالحرف ليكون شرحاً وبياناً لما تقدم فقال ما نصه : فإن قيل فما معنى قوله عليه السلام «إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله كل يوم مائة وفي طريق في اليوم أكثر من سبعين مرة» فاحذر أن يقع ببالك أن يكون هذا الغين وسوسة أو ريباً وقع في قلبه عليه السلام بل أصل الغين في هذا ما يتغشى القلب ويغويه قاله أبو عبيدة وأصله من غين السماء وهو إطباق الغيم عليها .

وقال غيره : والغين شيء يغشى القلب ولا يغويه كل التغطية كالغيم الرقيق الذي يعرض في الهواء فلا يمنع ضوء الشمس ، وكذلك لا يفهم من الحديث أنه يغان على قلبه مائة مرة أو أكثر من سبعين مرة في اليوم إذ ليس يقتضيه لفظه الذي ذكرناه وهو أكثر الروايات ، وإنما هذا عدد للاستغفار لا للغين ، فيكون المراد بهذا الغين إشارة إلى غفلات قلبه وفترات نفسه وسهوها عن مداومة الذكر ومشاهدة الحق تعالى بما كان ﷺ دفع إليه من مقامات البشر وسياسة الأمة ومعاناة الأهل ومقاومة الولي والعدو ومصلحة النفس وكلفة أعباء أداء الرسالة وحمل الأمانة وهو في كل هذا في طاعة ربه وعبادة خالقه ، ، ولكن لما كان رسول الله ﷺ أرفع الخلق عند الله مكانة وأعلاهم درجة وأتمهم به معرفة وكانت حاله عند خلوص قلبه وخلو همته وتفرده بربه وإقباله بكليته عليه ومقامه هناك أرفع حالة ، رأي عليه السلام حال فترته عنها وشغله بسواها غضاً من على حاله وخفضاً من رفيع مقامه فاستغفر الله تعالى من ذلك .

هذا أولى وجوه الحديث وأشهرها وإلى معنى ما أشرنا به مال كثير من الناس وحام حوله فقارب ولم يرد الماء وقد قربنا غامض معناه وكشفنا للمستفيد محياه وهو مبني على جواز الفترات والغفلات والسهو في غير طريق البلاغ على ما سيأتي .

وذهبت طائفة من أرباب القلوب ومشيخة المتصوفة ممن قال بتنزيه النبي ﷺ عن هذا جملة واحدة، وأصله أن يجوز عليه في حال سهو أو فترة إلى معنى الحديث ما يهم خاطره ويغم فكره من أمر أمته عليه السلام لاهتمامه بهم وكثرة شفقتهم عليهم فيستغفر لهم قالوا وقد يكون الغين هنا على قلبه السكينة التي تتغشاها لقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَالْتَوَكَّلْ إِنَّا﴾ [سورة التوبة، آية: 40] ويكون استغفاره عليه السلام عندها إظهار العبودية والافتقار.

وقال ابن عطاء: استغفاره وفعله هذا تعريف للأمة بحملهم على الاستغفار، وقال غيره: ويستشعرون الحذر ولا يركنون إلى الأمن وقد يحتمل أن تكون هذه الإغانة حالة خشية وإعظام تغشى قلبه فيستغفر حينئذ شكراً لله وملازمة لعبوديته كما قال في ملازمة العبادة «أفلا أكون عبداً شكوراً»⁽¹⁾ وعلى هذه الوجوه الأخيرة تحمل ما روي في بعض طرق هذا الحديث عنه عليه السلام «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله أكثر من سبعين مرة فأستغفر الله» انتهى كلام القاضي رحمه الله. وقال النووي في شرح مسلم قوله ﷺ: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة».

قال أهل اللغة: الغين بالغين المعجمة والغيم بمعنى واحد والمراد هنا ما يغشى القلب ثم نقل كلام القاضي النووي عياض وقال في آخره: وقيل هو شيء يعتري القلوب الصافية مما تتحدث به النفوس فيهوشها وهذا زاده على كلام القاضي. وقال البرماوي في شرح البخاري فهو: إن كان ﷺ معصوماً لا ذنب له أصلاً لكن استغفاره نفسه عبادة فهو يتبعه به أو تعليم لأتمته أو من ترك الأولى أو تواضعاً أو «عما» لعله سهى فيه أو لما قبل النبوة أو لأنه لما اشتغل بمصالح الأمة على عظيم مقامه وهو حضوره مع الله تعالى وفراغه عما سواه رأى ذلك ذنباً بالنسبة إليه وإن كان الذي اشتغل به من أفضل الطاعات لكنه نزول عن عالي درجاته، أو أنه لما كان دائماً في الترقى في الأحوال السنية فإذا رأى ما قبلها دون ما صار إليه استغفر منه كما يقال: حسنات الأبرار سيئات المقربين أو أنه تتجدد غفلات الطبع فيفتقر للاستغفار، قلت: وبعض هذه الأوجه من بعض والقصد ظاهر الحديث.

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب قيام النبي ﷺ . . . ، حديث رقم (1078) [380/1] ورواه مسلم في صحيحه، باب إكثار الأعمال . . . و حديث رقم (2819) [2/2171] ورواه غيرهما .

لِنَكُونُوا تَنبِيهِ :

سئل الحافظ أبو زرعة العراقي عن قوله ﷺ: «إنه ليغان على قلبي» فإن الأقوال كثرت وانتشرت في تفسير معناه فأبي قول أصح وأشبه بحاله ﷺ وهل قوله بعد ذلك «وإني لأستغفر الله» معقب عليه أم يحتمل أن يكون كلاماً برأسه؟ فأجاب رحمه الله بكلام القاضي عياض المتقدم بحروفه ثم قال والحديث المذكور هو المذكور في صحيح مسلم وفي سنن أبي داود من حديث الأغر المزني بهذا اللفظ: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة» هذا لفظ مسلم.

وقال أبو داود «في كل يوم» والظاهر أن الجملة الثانية مترتبة على الأولى وأن سبب الاستغفار الغين، ويدل لذلك قوله في رواية النسائي في عمل اليوم والليلة «إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في كل يوم مائة مرة» وفي رواية له أيضاً فأستغفر الله والألفاظ المختلفة يفسر بعضها بعضاً ويحتمل من حيث اللفظ أن تكون الجملة الثانية كلاماً ما برأسه غير متعلق بما قبله فيكون عليه الصلاة والسلام أخبر بأنه يغان على قلبه وأنه يستغفر الله في اليوم مائة مرة، وعلى هذا الاحتمال أن يكون عليه السلام هو الذي جمع بين هاتين الجملتين، ويحتمل أن يكون الجمع بينهما من الراوي ويكون النبي ﷺ قال كل جملة على انفرادها.

ولكن أظهر الأظهر وإذا قلنا بالأول فنسأل عن الحكمة في الجمع بينهما والذي يقال في ذلك أنه أخبر بحصول ذلك الغين مع الاستغفار في اليوم مائة مرة فما ظنك بمن لم يستغفر أو استغفر أقل من ذلك الاستغفار وعلى هذا فيظهر أن هذه الجملة حالية أخبر أنه يغان على قلبه مع أن حاله الاستغفار في اليوم مائة مرة وهي حال مقدرة لأن الغين ليس موجوداً إلى الاستغفار بل إذا جاء الاستغفار أذهب ذلك الغين وعلى تقدير تعلق إحدى الجملتين بالأخرى وأن الثانية مسببة عن الأولى فيحتمل أن يكون هذا الغين تغطية للقلب عن أمور الدنيا وحجاباً بينه وبينها فيجتمع القلب حينئذ على الله تعالى ويتفرغ للاستغفار شكراً وملازمة للعبودية.

لِنَكُونُوا تَرْجِيحِ الْمَوْلَفِ لِلْوَجْهِ الْأَخِيرِ :

وقد تقدم هذا الاحتمال في قول القاضي عياض وقد تقدم أن تكون هذه الإغانة حالة خشية وإعظام تغشى قلبه إلى آخر كلامه وهو عندي حسن جداً وتكون هذه الجملة الثانية مسببة عن الأولى لا بمعنى أنه يسعى بالاستغفار في إزالة الغين بل

بمعنى أن الغين وصف محمود وهو الذي تسبب عنه الاستغفار وترتب عليه، وهذا أنزه الأقوال وأحسنها، لأن الغين حيثئذ وصف محمود وهو الذي ينشأ عنه الاستغفار.

وعلى الأول يكون الغين بما يسعى في إزالته بالاستغفار وما ترتب الإشكال وجاء السؤال إلا على تفسيره وأهل اللغة إنما فسروا الغين بالغشاء فيحمل على غشاء يليق بحاله ﷺ وهو الذي يصون القلب ويحجبه عن أمور الدنيا لا سيما وقد رتب على هذا الغشاء أمراً محموداً وهو الاستغفار فما نشاهد الأمر الحسن إلا عن أمر حسن والله أعلم.

فصل

تأصيل علم الحقيقة

الأصل في علم الحقيقة أحاديث وآثار منها ما أخرجه الشيخان عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ أنه قال: «إن موسى قال للخضر هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً قال إنك لن تستطيع معي صبراً يا موسى إني على علم الله علمنيه لا ينبغي لك أن تعلمه، وأنت على علم علمك الله لا ينبغي لي أن أعلمه»⁽¹⁾.

قال شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر في شرح البخاري قوله: «لا ينبغي لك أن تعلمه» أي جميعه وكذا قوله: «لا ينبغي لي أن أعلمه» أي: جميعه قال وتقدير ذلك معتبر، لأن الخضر كان يعرف من الحكم الظاهر ما لا غنى بالمكلف عنه وموسى كان يعرف من الحكم الباطن ما يأتيه بطريق الوحي، وقال شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني قد يستشكل هذا فإن العلم المذكور في الجهتين كيف لا ينبغي علمه؟ وجواب هذا الإشكال: أن علم الحقائق ينافي علم الظاهر فلا ينبغي للعالم الحاكم بالظاهر أن يعلم الحقائق للتنافي ولا ينبغي للعالم بالحقيقة أن يعلم العلم الظاهر الذي ليس مكلفاً به إذا كان ينافي ما عنده من الحقيقة.

يَكُونُ الْعَمَلُ عِنْدَ تَعَارُضِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ:

قال ويمكن حمل العلم على تنفيذه. والمعنى لا ينبغي لك أن تعلمه لتعمل به لأن العمل به منافٍ لمقتضى الشرع ولا ينبغي لي أن أعلمه فأعمل بمقتضاه لأنه منافٍ لمقتضى الحقيقة قال: وهذا لا يجوز للولي التابع للنبي ﷺ إذا اطلع على حقيقة أن ينفذ ذلك بمقتضى الحقيقة وإنما عليه أن ينفذ الحكم الظاهر انتهى.

(1) نصه كما في البخاري: «هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً قال له الخضر: يا موسى إنك على علم من علم الله علمك الله لا أعلمه وأنا على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه...» الحديث الصحيح، باب: فلما جاوزا...، حديث رقم (4450) [4/1757] ورواه غيره.

قال ابن عطية: وكان أبو الفضل الجوهري يقول في وعظه: مشى موسى عليه السلام لمناجاة ربه تعالى أربعين يوماً لم يحتج إلى طعام ولما مشى إلى بشر لحقه الجوع. والإشارة في ذلك أن موسى وفتاه يوشع عليهما السلام كانا متعلمين وطالب العلم من حقه أن يحمل كل مشقة ولا يبالي بصيف ولا شتاء ولا جوع ولا ذل، لأن الذي يطلب لا يعرف قيمته إلا صاحبه ومن عرف قدر ما يطلب هان عليه ما يبذل، ومن طلب العظيم خاطر بالعظيم. وقال شيخنا العارف بالله تعالى سيدي محمد المغربي وهذا السيد موسى قد اجتمع فيه النبوة والرسالة والتكلم وهو كما أخبر عليه السلام أنه أعلم أهل الأرض أي بعلم الشريعة التي هي ضرورة الإرسال دون غوامض أسرار الحقيقة التي تنافي ظاهر الشريعة ومع ذلك قال لمن هو دونه في الرتبة إلى من تكاملت فيه آداب الشريعة أن يطرق بها باب الحقيقة لعل أن يفتح له وهو باب الكمال ليصير فيه.

يَنْكُؤُوا تَنْبِيهِ:

أخرج النسائي والترمذي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن أبي بن كعب وأبي هريرة رضي الله عنهم وهو أول الحديث الذي تقدم تخريجه عن الشيخين أن النبي ﷺ قال «قام موسى النبي عليه السلام خطيباً في بني إسرائيل فستل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم، فعتب الله تعالى عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك» وفي الرواية الأخرى، أنه قيل له: «أتعلم أحداً أعلم منك: قال موسى: لا، فأوحى الله تعالى إلى موسى بل عبدنا خضر».

يَنْكُؤُوا وجه الحكمة في اختيار مجمع البحرين للقاء:

قال قتادة: مجمع البحرين هما: بحر فارس وبحر الروم مما يلي المشرق وقيل: هما بحر الأردن وبحر القلزم، والحكمة في جمع موسى مع الخضر عليهما السلام بمجمع البحرين أنهما بحران في العلم أحدهما أعلم بالظاهر وأعني علم الشريعة وهو موسى، والآخر أعلم بالباطن علم الحقيقة وأسرار الملكوت وهو الخضر فكان اجتماع البحرين بمجمع البحرين مناسبة...

* إشارة: اعلم أن موسى عليه السلام لم يجد من هو دونه وهو الخضر حتى تجرد من كل شيء سواه وكذا العبد لا يجد قرب مولاه وحبه حتى يتجرد من كل

شيء سواه قال الشبلي: انفرد بالله حتى تكون مجرداً عن الأغيار وتكون واحداً للواحد فرداً للفرد.

يَنْكُؤُا الاختلاف في اسم الخضر:

يَنْكُؤُا «تفريع»:

اسم الخضر مضطرب فيه اضطراباً مبايناً فليل: إنه بليا بن ملكان بن فالغ بن شامخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام قاله وهب بن منبه وقيل: إليا بن عاميل بن شمالخين بن أديا بن علقما بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام وقيل: اسمه أرميا بن حليفا من سبط هارون قاله الإمام الثعلبي.

قال الشيخ كمال الدين الدميري في حياة الحيوان الكبرى قلت: والأصح ما قاله أهل السير وثبت عن النبي ﷺ كما قاله البغوي وغيره أن اسمه بليا «ببء مفتوحة واللام مسكنة وباء مثناة من تحت وفي آخره ألف» ابن ملكان بفتح الميم وإسكان اللام وبالنون في آخره» وقيل كليان.

وقيل كان من بني إسرائيل وقيل: كان من أبناء الملوك وكنيته أبو العباس وقال السهيلي: وقد ذكر أن الخضر هو أرميا وهو مردود كذا قاله محمد بن جرير الطبري وذكر أيضاً لأنه اليسع صاحب إلياس.

وقال النقاش: إنه ابن فرعون صاحب السيد موسى قلت هذا قول غريب وأغرب منه وأعجب قول من قال إنه من الملائكة وسيأتي ذلك إن شاء الله تعالى. قال السهيلي أيضاً كان أبوه ملكاً وأمه اسمها «اتها» وإنها ولدته في مغارة وأنه وجد هناك شاة ترضعه في كل يوم من غنم رجل من القرية فلما وجدته الرجل أخذه ورباه فلما شب طلب أبوه كاتباً وجمع أهل المعرفة والنبالة ليكتب الصحف التي أنزلت على إبراهيم وشيث عليهما السلام فكان فيمن أقدم عليه من الكتاب ابنه الخضر وهو لا يعرفه فلما استحسن خطه ومعرفته بحث عن جلية أمره فعرف أنه ابنه فضمه لنفسه وولاه أمر الناس ثم إن الخضر فر من الملك لأسباب يطول شرحها ولم يزل سائحاً إلى أن وجد عين الحياة فشرب منها فهو حي إلى أن يخرج الدجال وإنه الرجل الذي يقتله الدجال ويقطعه ثم يحييه الله تعالى انتهى.

يَنْكُؤُا اسم ذي القرنين:

قال صاحب ابتلاء الأخيار اسم ذي القرنين الإسكندر قال: وكان أبوه أعلم أهل

الأرض بعلم النجوم ولم يرقب أحد الأفلاك مراقبته وكان قد مد الله تعالى له في الأجل فقال ذات ليلة لزوجته قد قتلني السهر فدعيني أرقد ساعة وانظري في السماء فإذا رأيت قد طلع في هذا المكان نجم وأشار بيده إلى موضع طلوعه فانبهيني حتى أطأك فتعلقين بولد يعيش إلى آخر الدهر، وكانت أختها تسمع كلامه ثم نام أبو الإسكندر فجعلت أخت زوجته تراقب النجم فلما طلع أعلمت زوجها بالقصة فوطئها فعلمت منه بالخضر عليه السلام فكان الخضر ابن خالة الإسكندر ووزيره. فلما استيقظ أبو الإسكندر رأى النجم قد نزل في غير البرج الذي كان يرقبه فقال لزوجته لم تنبهيني قال: استجبت والله فقال لها: أما تعلمين أنني أرقب هذا النجم منذ أربعين سنة والله لقد ضيعت عمري في غير شيء ولكن الساعة يطلع في أثره نجم فأطأك فتعلقين بولد يملك قرني الشمس فما كان إلا قليلاً وطلع النجم فواقعها فعلمت بالإسكندر وولد الإسكندر وابن خالته في ليلة واحدة ثم إن الإسكندر فتح الله تعالى عليه بتمكينه في الأرض وفتح البلاد وكان من أمره ما كان.

يَكُونُوا تَنْبِيهِ :

اختلف في سبب تلقيب الخضر بالخضر فقال الأكثرون: إنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء والفروة وجه الأرض وقيل: لأنه كان إذا صَلَّى اخضر ما حوله، والصواب الأول.

يَكُونُوا الاختلاف حول حياة الخضر :

واختلف في حياته فقال الإمام محيي الدين النووي وجمهور العلماء: هو حي موجود بين أظهرنا قال: وهذا متفق عليه عند الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة وحكاياتهم في رؤيته والاجتماع معه والأخذ عنه وسؤاله وجوابه ووجوده في المواضع الشريفة ومواطن الخير أكثر من أن تحصى وأشهر من أن تستهر.

وقال الحافظ إمام أهل الحديث أبو عمرو بن الصلاح: هو حي عند جماهير العلماء والصالحين، والعلماء معهم على ذلك وإنما شذ بانكاره بعض المحدثين انتهى، وقال الحسن: إنه مات.

وقال ابن المناوي لا يثبت حديث في بقائه وقال الإمام أبو بكر بن العربي: مات قبل انقضاء المائة ويقرب من هذا جواب الإمام محمد بن إسماعيل البخاري لما سئل عن الخضر وإلياس هل هما في الإحياء؟ فقال: كيف يكون ذلك وقد قال

النبي ﷺ: «لا يبقى على رأس مائة سنة ممن هو اليوم على وجه الأرض أحد»⁽¹⁾. قال الدميري والصحيح بل الصواب أنه حي وقال بعضهم إنه اجتمع بالنبي ﷺ وعزى أهل بيته وهم مجتمعون لغسله وقد روي ذلك من طرق صحاح في التمهيد لابن عبد البر إمام أهل الحديث في وقته رحمه الله «أن رسول الله ﷺ حين غسل وكفن سمعوا قائلاً يقول: السلام عليكم أهل البيت إن لله خلفاً من كل هالك وعوضاً من كل تالف، وعزاء من كل مصيبة، فعليكم بالصبر واحتسبوا ثم دعا لهم ولا يرون شخصه فكانوا يرون أنه الخضر يعني أصحاب رسول الله ﷺ وأهل بيته» انتهى.

يَكُونُ الاختلاف حول نبوته:

واختلف في نبوته فقال الأستاذ أبو القاسم القشيري والياضي وجمهور العلماء: هو ولي، وقال بعضهم: هو نبي ورجحه النووي وحكى الماوردي في تفسيره ثلاثة أقوال: أحدها: أنه نبي. والثاني: أنه ولي؟ والثالث: من الملائكة وهذا القول غريب.

وقال المازري: اختلف العلماء هل هو نبي أو ولي فقال جماعة: هو نبي واحتجوا بقوله: ﴿إِذَا فَايْتَمَّاتُوا فَثَمَّ﴾ [سورة الكهف، آية: 82] فدل على أنه نبي يوحي إليه وبأنه أعلم من موسى وبعده أن يكون ولي أعلم من نبي وأجاب الآخرون بأنه يجوز أن يكون قد أوحى الله تعالى إلى نبي ذلك العصر بأن يأمر الخضر بذلك انتهى. واختلف في كونه مرسلًا فقال الثعلبي الخضر نبي مرسل بعثه الله تعالى بعد شعيب وهو معمر محجوب عن أبصار كثير من الناس قال: وقيل إنه لا يموت إلا في آخر الزمان حين يرفع القرآن.

يَكُونُ تنبيه:

قال الياضي في نشر المحاسن: سأل جماعة من الفقهاء سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام عن الخضر أهو حي؟ فقال: ما تقولون لو أخبركم الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد أنه رآه بعينه أكنتم تصدقونه أم تكذبونه؟ فقالوا: نصدقه فقال: فقد والله أخبر عنه سبعون صديقاً أنهم رأوه بأعينهم كل واحد منهم أفضل من ابن دقيق العيد. انتهى كلامه.

(1) أورده ابن حجر العسقلاني، في الزهر النضر في أخبار الخضر، [41/1].

قال اليافعي قلت: وهذا هو الصحيح المختار عند المحققين أن العلماء بالله أرباب المعارف الإلهيات أفضل من العلماء بأحكام الله رضي الله عن الجميع، وبهذا قال الشيخ عز الدين المذكور وغيره وقال الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد بعد أن ذكر أن بعض الأولياء رآه وهو خبر صدق أن الخضر عليه السلام حي لأن الصديقين رضي الله عنهم لم يزالوا في كل زمان يخبرون بأنهم اجتمعوا به وذلك مشهور مستفيض عنهم ويروى عنهم في الكتب المشهورات التي رواها العلماء والثقات.

يَكُونُوا أخبار عن اجتماع الأولياء بالخضر عليه السلام وعن حياته:

وقد روى بعض الشيوخ الكبار أن الشيخ الكبير العارف بالله سهل بن عبد الله التستري رضي الله عنه أقبل على الناس يوماً وتكلم بكلام حسن، فقيل له: لو تكلمت كل يوم مثل هذا كنا قد انتفعنا فقال: إنما تكلمت اليوم لأنه جاءني الخضر عليه السلام فقال لي: أقبل على الناس بوجهك وتكلم عليهم فقد مات أخوك ذو النون وقد أقمته مقامه فلولا أن أستاذ الأستاذين أمرني ما تكلمت عليكم.

قال الأستاذ العارف بالله تعالى أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: رأيت الخضر عليه السلام في تربة عيداب فقال لي: يا أبا الحسن أصحبتك الله اللطيف الجميل وكان ذلك صاحباً في الإقامة والرحيل. وليس في الحديث الذي تعلق به بعض المحدثين في الاحتجاج على موت الخضر عليه السلام حجة، لأنه متأول عند الجمهور من العلماء المحققين.

قلت: أخبرني شيخنا العارف بالله قطب الوجود سيدي محمد المغربي أنه رآه واجتمع به غير مرة ونقل بعض المتأخرين أن حافظ العصر زين الدين العراقي اجتمع بالشيخ الإمام العارف بالله عفيف الدين اليافعي فوق بينهما مناظرة في حال الخضر فصار العراقي يميل إلى القول بموته تبعاً لابن الجوزي ويقول: لو كان حياً لاجتمع بالنبى ﷺ ولو اجتمع به لورد وصار اليافعي يقطع بأنه حي موجود عند جماهير العلماء ثم استطال في الرد عليه بكلام ابن الصلاح والنووي وغيرهما من الأئمة لا سيما في اجتماع الصوفية عليه قديماً وحديثاً ثم قال اليافعي: إن لم ترجع للحق عن هذا الاعتقاد دعوت عليك، فرجع في الحال قبل انفضاض المجلس انتهى.

يَكُونُوا ورود ما يدل على حياة الخضر في السنة:

فإن قلت: هل ورد شيء ثابت في السنة يدل على حياته؟ فإن ابن المناوي

وابن الجوزي زعماً أنه لم يثبت حديث في بقاءه قلت ورد ما يدل على بقاءه في عدة أحاديث وإن كانت ضعيفة فكثرة الطرق والأخبار يقويها فمن جملتها ما أخرجه ابن عدي والبيهقي عن كثير بن عبد الله بن عمر بن عوف عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ كان في المسجد فسمع كلاماً من ورائه فإذا هو بقائل يقول: اللهم أعني على ما ينجيني مما خوفتني فقال رسول الله ﷺ حين سمع ذلك: ألا تضم إليها أختها فقال: اللهم ارزقني شوق الصالحين إلى ما شوقتهم إليه فقال النبي اذهب إليه فقل له يقول لك رسول الله ﷺ: تستغفر لي فجاء أنس فبلغه فقال الرجل: يا أنس أنت رسول رسول الله ﷺ إلي، قال: نعم، قال اذهب فقل له: إن الله فضلك على الأنبياء مثل ما فضل رمضان على سائر الشهور وفضل أمتك على الأمم مثل ما فضل يوم الجمعة على سائر الأيام فذهب ينظر إليه فإذا هو الخضر.

وأخرج الدارقطني في الأفراد والطبراني في الأوسط وابن عساكر من ثلاث طرق عن أنس قال: خرجت ليلة مع النبي ﷺ أحمل الطهور فسمع قائلاً يقول: اللهم أعني على ما ينجيني مما خوفتني منه فقال رسول الله ﷺ: يا أنس ضع الطهور فإن رأيت هذا فقل له: ادع لرسول الله ﷺ أن يعينه على ما أتبعه وادع لأمته أن يأخذوا ما أتاهم به نبهم من الحق فأتيته فقلت له: فقال مرحباً برسول رسول الله أنا كنت أحق أن آتية، اقرأ على رسول الله ﷺ مني السلام وقل له: الخضر يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن الله فضلك على النبيين كما فضل رمضان على سائر الشهور وفضل أمتك على الأمم كما فضل يوم الجمعة على سائر الأيام فلما وليت سمعته يقول: اللهم اجعلني من هذه الأمة المرحومة المتاب عليها انتهى.

ومما اشتهر قديماً وحديثاً حضوره مجالس الإملاء النبوي قال الحافظ الكبير أبو القاسم الأصبهاني في الترغيب والترهيب: أخبرنا عبد الواحد بن إسماعيل الروياني في كتابه قال: أخبرنا أبو محمد الخبازي قال: سمعت أبا الحسن النهاوندي الزاهد يقول لقي رجل الخضر فقال له أفضل الأعمال اتباع رسول الله ﷺ والصلاة عليه، قال الخضر: وأفضل الصلوات عليه ما كان عند نشر حديثه وإملائه يذكر باللسان ويكتب في الكتاب ويرغب فيه شديداً ويفرح به كثيراً وإذا اجتمعوا لذلك حضرت ذلك المجلس معهم.

وأما قصة سيدنا موسى عليه السلام معه فتركها لطولها وشهرتها لكن قال السهيلي: إن القرية هي برقة وقيل غير ذلك والله أعلم.

فصل

دليل آخر على الحقيقة

ومنها حديث عمر في سؤال جبريل عليه السلام عن الإحسان قال رسول الله ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»⁽¹⁾ أخرجه الشيخان .

يَنْكُرُونَ تَفْسِيرَ الْهَرَوِيِّ لِلْإِحْسَانِ :

قال الهروي في منازل السائرين في هذا الحديث إشارة جامعة لمذهب هذه الطائفة ثم قال في باب الإحسان بعد أن استدل بقوله تعالى: الْإِحْسَانُ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ وَإِذَا سَمِعُوا ﴿ [سورة الرحمن، آية: 60]: قد ذكرنا في صدر الكتاب أن الإحسان اسم جامع يجمع أبواب الحقائق وهو أن تعبد الله كأنك تراه قال شارحه المحقق العارف كمال الدين القاشاني رحمه الله: المراد بأبواب الحقائق جميع الأبواب التي يشتمل عليها الكتاب فإنها حقائق يتحقق بها مذهبهم وإنما يجمعها معنى الإحسان، لأنها عبادات ومعاملات مبنية على المشاهدة التي هي معنى الإحسان فمن لم يبين عمله على ذلك المعنى لم يفتح له باب الوصول إلى المقصود ولم يرجع بنصيب من اللقاء الموعود، وأما استشهاده بالآية على الإحسان بهذا المعنى فهو أن العبد إذا عبد الله حق عبادته كمن قال تعالى فيه ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ تَكُنْ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا ﴾ [سورة النساء، آية: 125] بمشاهدته إياه في رعاية حقوقه وإسلام وجهه كما قال تعالى: ﴿ تَكُنْ وَلَيْسَ ﴾ [سورة البقرة، آية: 152].

وقال تعالى في حديث قدسي (أنا جليس من ذكرني، وأني من شكرني،

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب سؤال جبريل النبي ﷺ . . . حديث رم (50) [27/1] ورواه مسلم في صحيحه، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان . . . حديث رقم (8) [1/36] ورواه غيرهما .

ومطيع من أطاعني⁽¹⁾.

وقال شيخنا العارف بالله سيدي محمد المغربي: هذا جامع بين الحقيقة والشريعة لأن قوله ﷺ «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه» فهذا من علوم المكاشفة المحضة عند أرباب الحقائق بخلاف قوله «فإن لم تكن تراه فإنه يراك»⁽²⁾ فهذا مجرد علوم المعاملة التي لا تتم إلا بعلوم المكاشفة كما صرح به الغزالي رحمه الله في باب التوحيد لأن الكشفية من علوم الباطن التي لا بد للسالكين منها ولا غنى للسائرين عنها، فأما الملحظ الأول الأكمل فهو رؤية العين بإشارة قوله كأنك تراه ولقوله ﷺ: «وجعلت قرّة عيني في الصلاة» ومعلوم أن العين لا تقر إلا برؤية محبوبها لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا نَسْفُتُنَّ عَيْفًا مِّنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ﴾ [سورة القصص، آية: 13] هذا ملحظ الحقيقة.

وأما الملحظ الثاني: فهو النزول عن رتبة شهود العين إلى رتبة العلم بأنه يراك وهذه الرتبة لا يجوز للعارف النزول إليها، لأنها سيئة وردة معنوية عند المقربين ولمثل هذا المقام أشار الأستاذ ابن الفارض بقوله:

وإن خطرت لي في سواك إرادة على خاطري سهواً قضيت بردتي
وأما النزول عن المقام الذي هو من حسنات الأبرار إلى الجهل برؤية الله تعالى لك في عبادتك فهو نزول والعياذ بالله إلى النار. انتهى.

يُنَكِّرُونَ تَنْبِيه:

تأويل ابن عطاء الله لحديث «جعلت قرّة عيني في الصلاة»⁽³⁾:

سئل العارف بالله تعالى الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله عن قوله ﷺ: «وجعلت قرّة عيني في الصلاة» هل ذلك خاص به أو لغيره منه شرب ونصيب؟ فأجاب رحمه

(1) لم أجد بلفظه كاملاً فيما لدي من مصادر ومراجع والذي ورد: «قال موسى عليه السلام أي ربّ أقرب أنت فأناجيك أم بعيد فأناديك قال يا موسى: أنا جليس من ذكرني قال يا رب فإننا نكون من الحال على حال نعظّمك أو نجلّك أن نذكرك عليها، قال وما هي قال الجنابة والغائط قال يا موسى اذكرني على كل حال».

(2) هذا الحديث سبق تخريجه.

(3) ونصه كاملاً: «حبيب إليّ النساء والطيب وجعلت قرّة عيني في الصلاة». رواه الحاكم في المستدرک، كتاب النكاح، حديث رقم (2676) [174/2] ورواه البيهقي في السنن الكبرى، باب الرغبة في النكاح، حديث رقم (13232) [78/7] ورواه غيرهما.

الله ما نصه: عن قرّة العين بالشهود على قدرة المعرفة بالمشهود، والرسول ﷺ ليس معرفة كمعرفته فليس قرّة عين كقرته وإنما قلنا إن قرّة عينه في صلاته لشهوده جلال مشهود، لأنه قد أشار إلى ذلك بقوله في الصلاة ولم يقل بالصلاة إذ هو صلوات الله وسلامه عليه لا تقرر عليه عينه بغير ربه وكيف وهو يدل على المقام ويأمر به من سواه لقوله ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه»⁽¹⁾ ومحال أن يراه ويشهد معه سواه.

يَنْكُرُوا تَأْوِيلَ آخِر:

وقال بعض المتأولين وقد تكون قرّة العين بالصلاة لأنها فضل من الله تعالى وبارزة من مئة الله فكيف لا يفرح بها وكيف لا تكون قرّة العين بها وقد قال الله سبحانه وتعالى أَلْبُيُوتَ تُظَاهِرُهَا وَلَكِنَّ أَلْبَرَ مِنْ ﴿ [سورة يونس، آية: 58]. اعلم أن هذه الآية قد أومأت بالجواب لمن تأمل سر الخطاب إذ قال: ﴿ أَلْبَرَ مِنْ ﴾ وما قال فبذلك فافرح يا محمد قل لهم يفرحوا بالإحسان والفضل وليكن فرحك أنت بالمتفضل كما قال في الآية الأخرى ﴿ أَلْبَرَ مِنْ ﴾ من اتقى ﴿ [سورة الأنعام، آية: 91] هذا آخر كلامه في الحكم. قال شارحه المحقق العارف بالله محمد بن عباد: وكانت منزلة نبينا محمد ﷺ عند ربه عز وجل أشرف المنازل ومرتبته في المعرفة به أرفع المراتب بحيث لا يتصور أن يشاركه في ذلك غيره به لانفراده بالمرتبة العليا والخاصية الكبرى فقلوه صحيح وعليه يدل ظاهر قوله ﷺ: «وجعلت قرّة عيني في الصلاة» بعد قوله: «إنما حب إليّ من الدنيا الطيب والنساء»⁽²⁾.

ولا شك أن حبه لهذين الأمرين ليس على قياس غيره لهما وإنما ذلك لوجود الخاصية التي اقتضت منه ذلك ألا ترى أنه أبيع له ما لم يبيع لغيره من عدد الحرائر وأمن لأجل ذلك من وقوع مفسدة التباغض والتشاجر بسبب اجتماع الضرائر، واستعماله ﷺ للطيب وحبه إنما هو للقاءه الملائكة التي تناجيه وإلا فهو في ذاته غني عن الطيب واستعماله كما قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «ما مسست حريراً ولا خزاً ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شممت رائحة قط مسكاً ولا عنبراً أطيب من

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) هذا الحديث سبق تخريجه.

رائحة رسول ﷺ⁽¹⁾ فإذا كان حاله في هذين الأمرين على ما ذكرناه مع أنه لم يذكر فيهما سوى لفظ الحب وهما من لذات الدنيا فكيف يكون حاله في الأمر الثالث مع أنه عبر فيه بقرة العين وهو غاية المحبة وهو من أعمال الآخرة؟
ومعنى قوله: «من الدنيا» أي في الدنيا ومن قال إن لغيره منه شرباً ونصيياً على المعنى الذي يليق بهذا الغير، فلقوله وجه. وجواب المؤلف رحمه الله محتمل لهذين الوجهين والله أعلم بما أراد منهما ومن غيرهما.

(1) رواه أحمد في المسند عن أنس بن مالك، حديث رقم (12067) [107/3] ورواه الدارمي في السنن، عن أنس بن مالك، حديث رقم (61) [45/1] ورواه غيرهما.

فصل

تأويل المقدسي لمراتب السلوك

قال الشيخ عبد السلام المقدسي في «مفاتيح الكنوز» ما نصه: اعلم أن مراتب السلوك إلى منازل الملوكة ثلاثة: الإسلام والإيمان والإحسان، فالإسلام أول مراتب الدين لعامة المؤمنين، ثم الإيمان أول مدارج القلب لخاصة المؤمنين، ثم الإحسان أول معارج الروح لخاصة المقربين.

وقد فسر ذلك رسول الله ﷺ في الحديث المشهور الصحيح وهو ما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «بينما نحن مع رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه قال يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت الحرام إن استطعت إليه سبيلاً، فقال له صدقت فعجبنا له يسأله ويصدقه قال: فأخبرني عن الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال: صدقت فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» الحديث ثم يبين في آخر الحديث فقال: «يا عمر أتدري من السائل قلت: الله ورسوله أعلم قال ذلك جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»⁽¹⁾.

يَكُونُ إشارات رموز حديث الإحسان:

فأول ما نفتح من الكنوز ما في هذا الحديث من السر المرموز والمعنى المملغوز وهو أن جبريل عليه السلام هو الفاتح لهذا الباب والسائل عن هذه الأسباب

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان. . ، حديث رقم (8) [1/36] ورواه أبو داود في السنن، باب في القدر، حديث رقم (4695) [4/223] ورواه غيرهما.

والمتأدب بهذه الآداب ففي ذل سؤاله إجلال لعزة رسول الله ﷺ إذ هو بين يديه كالمتعلم بعد ما كان معلماً ولا عجب إذ أتاه جبريل يتأدب بآدابه ويقف السائل على بابه وكيف لا يكون كذلك وقد خلفه عند سدره المنتهى وانتهى إلى حضرة ليس لها منتهى وجلس حيث لا أين، على بساط قاب قوسين وتعلم من علم ﴿شَهَادَةً عَلَى النَّاسِ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ﴾ [سورة النجم، آية: 10] ثم خرج من مكتب «أدبني ربي فأحسن تأديبي»⁽¹⁾ فتلقاه سابق الروح الأمين قائماً على باب «لو تقدمت أنملة لاحتقرت»⁽²⁾ فناده بذلة السؤال: يا محمد كنت أظن أنني عرفت الله قبلك، وأني أقاس في الرتبة مثلك، وقد عرفت قدرك من قدري ولك وإلى الله عذري فأنت في الحقيقة متقدم وها أنا بين يديك، أخبرني ما الإسلام أخبرني ما الإيمان؟ أخبرني ما الإحسان، فجبريل في الحقيقة عريف هذه الأمة في مكتب التعليم من نبي الرحمة ثم في الحديث معنى خفي يظهر لمن في قلبه زكى في قوله: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» فقوله: «فإن لم تكن» هذا كلام تام وشرط تام ثم في قوله «تراه» جزء هذا الشرط فمعناه فإن لم تكن أنت في البين - ولا لك أثر في العين فإنك «تراه» لكن اعترض الشيخ تاج الدين ابن السبكي بحسب ظاهر العبارة التي اختطفت منها ملمح الإشارة ولم يحتج إلى تقدير صحة المنطوق فإنه قال في الطبقات الكبرى:

وفي هذا اللفظ من الفوائد الرد على من حرف الكلم عن مواضعه ووقف على قوله: «فإن لم تكن» مشيراً إلى أن المصطفى ﷺ أشار بذلك إلى مقام الفناء قائلاً: إن «كان» هنا تامة وإن المعنى: أنك إذا فנית عن نفسك فلم ترها شيئاً شاهدت الله عزَّ وجلَّ، فإن النفس ورؤيتها حجاب دون الحق سبحانه وتعالى فمن نحا الحجاب شاهد الجناب كما قال بعض المشايخ رأيت رب العزة في النوم فقلت: رب كيف الطريق إليك؟ فقال: خل نفسك وتعال: هذا كلام من أشرنا إلى أنه حرف الكلام عن مواضعه.

يَكُونُ الرد على فهم الفناء من الحديث:

ولسنا ننكر مقام الفناء ولا حق أهله وإنما ننكر على القائل تحريفه لفظ الحديث وسوء فهمه فإنه لو كان الأمر كما زعم لجزم لفظ «يراه» على أنه جواب الشرط فإن

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (164) [72/1].

(2) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

تقدير «فإن لم تكن» عنده أي عند القائل «بأن فنيت» وبذلك تم الشرط وصار الجواب «تراه» وجواب الشرط مجزوم قال إن حرف العلة قد يقلب ويقدر الجزم فيه على حد «ولا ترضاها من قول الراجز:

إِذَا الْعَجُوزُ غَضِبَتْ فَطَلَّقِ وَلَا تَرْضَاهَا وَلَا تَمَلِّقِ

والجواب إن ذلك إنما يجوز في الضرورة ثم يضيع قوله: «فإنه يراك» ولا يصير بينه وبين ما قبله ارتباط والصواب أن «فإنه يراك» جواب الشرط لا يمتري في ذلك ذو فهم وهذا اللفظ الذي أخرجه الطيالسي صريح في المراد حيث: «فإن كنت لا تراه فإن يراك» وما أخوفني ممن ساء فهمه أن يقف على «لا» ويقول: المعنى فإن كنت عدماً تراه كما صنع في الأول وليس إلى صلاح من هذا مبلغ فهمه سبيل، ولكنه إذا انتهى إلى هنا وسلمنا له نترك ما تصوره فطريق الرد عليه أن تلجئه فنقول: على هذا التقدير حديث «فإن لم تكن» معارض بحديث «فإن كنت لا» لأن المعلق عليه ثم عدم كونه وهنا كون عدمه وفرق هائل بين عدم الكون وكون عدم لسنا لتحقيقه الآن قاصدين وليت شعري أي داع دعى هذا الرجل إلى هذا التأويل الذي لا ينساق عليه لسان عربي ولا فكر صحيح؟ ومقام الفناء به طرق كافلة بتقرير قاضية بأنه حق وإن كان غيره أعلى منه.

انتهى قال شيخنا العارف بالله الرباني سيدي محمد المغربي رداً لهذا الاعتراض ما نصه: قول الإمام السبكي رحمه الله ننكر مقام الفناء ولا حق أهله أي ولا ننكر شيئاً مما نسب إلى القوم رضي الله عنهم من رفع الحجاب وكمشاهدة الجنب وهي رؤية الحق تعالى في جنبها اللائق بها وهو مقام البقاء بالله تعالى وإنما ننكر على هذا القائل تحريفه لفظ الحديث أي لا غير فتبين لك أن الخلاف لفظي وأن المعنى المشار إليه صحيح فإياك أن تفهم من تضعيف الاستشهاد والاستدلال إشارة هذا الحديث المؤدية للفظه ومعناه.

كما قيل بالاختلاف، بطلان المقام الذي فيه الكلام لثبوته بالأدلة الراسخة عند القوم رسوخ الجبال ومنهم الإمام ابن السبكي رحمه الله حيث قال: ومقام الفناء له طرق كاملة بتقريره قاضية بأنه حق وإن كان غيره أي وهو مقام البقاء أعلى منه وأما قوله: ثم يضيع قوله «فإنه يراك» ولا يصير بينه وبين ما قبله ارتباط موجود ولا تضييع في ذلك لأن التقدير: فإن كنت في البين ولك أثر في العين فاعلم أنه يراك وهذا مرتبط بما قبله ولا مرية وبهذا التقدير صحت الإشارة وسلمت العبارة.

ولقائل أن يقول: قد لا يشترط في الإشارة التي لم يوضع اللفظ لها تصحيح عبارة، لأنها مقتبسة من النص الظاهر كلمحة «برق مختطفة من الضمائر وكل ذلك والركب سائر وسياق اللفظ بصدد معناه الموضوع له كالكأس للشراب عليه دائر فالفقيه النبيه هائم بشراب فقهه ومعانيه مستمسك بكأس دليله اللفظي وبه على غيره يتيه وكذلك الصوفي لما طفح عليه الشراب استخطفته إشارات الأحباب عن رؤية الدليل إلى مشهود المدلول وهو الله تعالى فحضر به وعمما سواه غاب وهكذا يكون السالكون **كَلِمَاتُ أَحَدًا إِلَّا مَلَرْتَضَى مِنْ سَوْلٍ وَجُعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلِّ** [سورة السجدة، آية: 17].

يُنَكُّوُنَا مِنَ الْإِشَارَةِ إِلَى الْفَنَاءِ:

ومن الإشارات قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوْنَ فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة، آية: 115] قوله: (فثم) إشارة إلى الجهات عند القوم إشارة إلى ما وراء العقل وهو مشهود الذات كما قال الأستاذ ابن الفارض رضي الله عنه.

وراء العقل علم يدق عن مدارك غايات العقول السليمة

وإذا ثبت عندك أن للقرآن ظهراً وبطناً علمت أن هذا وأمثاله من الوجه الباطن، «وقوله وفرق هائل بين عدم الكون وكون العدم لسنا لتحقيقه قاصدين».

أقول: تحقيق الفرق في ذلك أن قوله إن المعلق عليه ثم أي الرؤية هو الفناء من الحديث الأول المشار إليه بـ «فإن لم تكن» وهذا صريح في نفي وجود الشخص الذي لم يتقدم له وجود في زمن من الأزمنة فعلى هذا استحال الفناء لأن شرط الفناء والحالة سبق الوجود عليه ولا أسبقية هنا فحينئذ لا فناء وأما كون العدم: فهو تسليط العدم على محسوس يتقدم وجوده عليه وهو من الرواية الثانية من قوله عليه السلام «فإن كنت لا تراه» وهذا عين الفناء بلا شك هذا حاصل تحقيق إشكال ابن السبكي.

وأما الجواب عن إشكاله في الرواية الأولى وهو قوله: فإن لم تكن أي موجوداً حساً وصورة بل كنت موجوداً علماً ويقيناً بالإرادة للإيجاد فإنك حينئذ تراه لأنه ما ثم هناك في الأزل إلا الله وهذا مقام: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [سورة الأعراف، آية: 172] العلمي الذي انفصلنا عنه بالوجود الصوري وحينئذ الإشارة بالفناء في كلا الروايتين صحيح لا إشكال فيه. والله أعلم وقال بحر الحقائق حامل لواء العلم محيي الدين

ابن العربي في كتابه «الفاني المشاهدة» فأشار النبي ﷺ لأهل الإشارات بقوله فإن لم تكن تراه أي رؤيته لا تكون إلا بفنائك عنك وأثبت «الألف» من «تراه» من أجل ظهور لتعلق الرؤية به إذ لو حذفهما وقال: فإن لم تكن تراه لم يصح الرؤية فإن الهاء من تراه كناية عن الغائب، والغائب لا يرى، والألف محذوفة فكان ترى بلا رؤية هذا لا يصح فلماذا ثبتت وإما حكمة ثبوت الهاء فإنه كان ينبغي فإن لم تكن تراه إشارة إلى أنك إذا رأيت بوجود اللف فلا تقل أحطت فإنه تعالى يجلب ويتعالى عن أن يحاط به وما لم يحط به فيكون الهاء الذي هو ضمير ما غاب عنك من حقيقة الحق عند الرؤية شهد لك بعدم الإحاطة. انتهى قلت: وله غائب لا يرى والألف محذوفة، يعني لأن الألف بمثابة ذات الحق تعالى والباء والتاء إلى آخر الحروف بمثابة صفات تجلياتها فتارة تظهر ذات الحق تعالى العلوية المقدسة كظهور الألف نفسه بالخط القويم وهذا يسمى عند القوم بالتجلي الذاتي وتارة تظهر وتتجلي بالصفات في أفعالها الخلقية كظهور الألف في مرتبة الحرفية لأنه روح كل حرف وصورته إذ ليس هناك إلا الألف يتعدد ويتكرر بحسب مراتبه وهكذا الحق تعالى يظهر بنفسه لنفسه في تطورات خلقه وصفاته فلا موجود هناك غيره أزلاً وأبداً فحينئذ لو حذفت الألف من تراه لا تنفي شهوده تعالى ذاتاً وصفاتاً لأن الهاء ضمير الغائب والغائب لا يرى كما قال رضي الله عنه.

فصل

دليل آخر على الحقيقة

ومنها ما أخرجه الطبرسي في ترغيبه قال: أخبرنا أبو بكر بن الحسن قال: أخبرنا أبو علي حامد بن محمد الرِّفاء الهروي قال: أخبرنا نصر بن أحمد البورجاني قال: حدثنا عبد السلام بن صالح قال: حدثنا سفيان بن عيينة عن ابن جريج قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل العلم بالله فإذا انطلقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله»⁽¹⁾.

هذا إسناد ضعيف وعبد السلام بن صالح هو أبو الصلت الهروي من رجال ابن ماجه كان رجلاً صالحاً لكنه شيعي وقد اختلف فيه فقال أبو حاتم لم يكن عندي بصدوق، وضرب أبو زرعة العراقي على حديثه وقال العقيلي رافضي خبيث، وقال النسائي: ليس بثقة وقال ابن عدي، متهم وقال الدارقطني رافضي متهم بوضع حديث الإيمان لكن أثنى عليه ابن سيار في تاريخ «مرو»، وفيه قال: كان يعرف بالتشيع، فناظرته لاستخراج ما عنده فلم أره يفرط، رأيته يقدم أبا بكر وعمر ولا يذكر الصحابة إلا بالجميل، وقال لي: هذا مذهبي الذي أدين الله به فحينئذ إذا تقرر ذلك فحديثه في مرتبة الضعيف الذي ليس بالموضوع.

وقد ذكر هذا الحديث حجة الإسلام الغزالي في مشكاة الأنوار والحافظ الكبير شهاب الدين السهروردي في عوارف المعارف وقال الحافظ وقطب الدين القسطلاني بعد أن أورده في كتاب له في التصوف: إن له شاهداً من مراسيل سعيد بن المسيّب.

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

فصل

دليل آخر على الحقيقة

ومنها ما أخرجه الديلمي في مسند الفردوس بسند مسلسل من طريق أحمد بن غسان عن عبد الواحد بن زيد عن الحسن عن حذيفة مرفوعاً «سألت جبريل عن علم الباطن ما هو فقال: قال الله: هو سر بيني وبين أحبائي أودعه في قلوبهم» وأخرجه من وجه عن أحمد بن غسان بلفظ «سألت جبريل عن الإخلاص ما هو؟».

قال الذهبي في الميزان عبد الواحد بن البصري الزاهد شيخ الصوفية وواعظهم لحق الحسن وغيره. ضعفه النقاد فقال ابن معين: ليس بشيء وقال البخاري: تركوه، وقال الجوزجاني: سيئ المذهب وليس من معارف الصدق، قال الذهبي له مناكير مع أنه كان مجاب الدعوة، حدث عنه وكيع وأبو سليمان الداراني وقال: إنه صَلَّى الصبح بوضوء العتمة أربعين سنة انتهى.

فصل

دليل آخر

ومنها ما أخرجه الفريري في تفسيره عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل آية ظهر وبطن».

يُنَكَّرُ تفسير الظهر والبطن في الحديث:

قال ابن النقيب: ظهر الآية ما ظهر من معانيها لأهل العلم بالظاهر وبطنها ما تضمنته من الأسرار التي أطلع الله عليها أرباب الحقائق، وأخرج أبو نعيم عن ابن مسعود قال إن القرآن أنزل على سبعة أحرف ما فيها حرف إلا له ظهر وبطن وإن علياً بن أبي طالب عنده منه علم الظاهر والباطن.

قلت: ولهذا قال رضي الله عنه ما من آية إلا ولها أربع معانٍ ظاهر، وباطن، وحد، ومطلع فالظاهر التلاوة والباطن الفهم والحد، أحكام الحلال والحرام، والمطلع مراد الله سبحانه وتعالى من العبد بها. . .

وحكي عن جعفر بن محمد أنه قال كتاب الله على أربعة أشياء العبارة والإشارة واللطائف والحقائق فالعبارة للعوام والإشارة للخواص واللطائف للأولياء والحقائق للأنبياء ويحكي عن بعضهم أن العبارة للسمع والإشارة للعقل واللطائف للمشاهدة والحقائق للاستسلام.

وقال بعضهم: الظهر من ظواهر الخطاب، والباطن ما بطن من المعاني التي لا يتوصل إليها إلا بالتأمل والتوفيق ونحوهما، والحد غاية ما ينتهي إليه من الظاهر والباطن، والمطلع علم الله تعالى بمراده من ذلك الكلام وقيل غير ذلك.

وقال السهروردي: أخبرنا أبو الحسن بن شاذان قال: أخبرنا دعلج بن أحمد قال: أخبرنا أبو الحسن علي بن عبد العزيز البغوي قال: أخبرنا أبو عبيد القاسم بن سلام قال: حدثنا حجاج عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن الحسن يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «ما نزل من القرآن آية إلا لها ظهر وبطن ولكل حرف حد ولكل حد

مطلع» قال فقلت يا أبا سعيد ما المطلع؟ قال مطلع الله تعالى قوم يعملون به . قال أبو عبيد: أحسب أن أقول الحسن هذا إنما ذهب إلى قول عبد الله بن مسعود قال أبو عبيدة حدثني حجاج عن شعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن مسعود قال: ما من حرف أو آية إلا وقد عمل بها قوم، أولها قوم سيعملون بها فالمطلع المصعد يصعد إليه من معرفة علمه فيكون المطلع الفهم بفتح الله به على قلب بما يرزق من النور واختلف الناس في معنى الظهر والبطن قال قوم الظهر لفظ القرآن والبطن تأويله وقيل: الظهر صورة القصة مما أخبر الله من غضبة على قوم وعقابه إياهم فظاهر ذلك إخبار عنهم وباطنه عظة وتنبيه لمن يقرأ ويسمع من الآية وقيل: ظاهره تنزيله الذي يجب الإيمان به وباطنه وجوب العمل به وقيل ظهره تلاوته كما أنزل الله تعالى: ﴿وَرَكِلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [سورة المزمل، آية: 4] وبطنه التدبر والتفكير قال الله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكًا لِنُبَيِّنَ لِقَوْمٍ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [سورة ص، آية: 29].

وقيل: قوله لكل حرف حد أي في التلاوة لا يجاوز المصحف الذي هو الإمام وفي التفسير لا يجاوز للمسموع المنقول. وفرق بين التفسير والتأويل فالتفسير علم نزول الآية وشأنها وقصتها والأسباب التي نزلت فيها وهذا محظور على الناس كافة القول فيه إلا بالسمع والأثر وأما التأويل فصرف الآية إلى معنى تحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه يوافق الكتاب والسنة فالتأويل يختلف باختلاف حال المؤول على ما ذكرناه في صفاء الفهم ورتبة المعرفة ونصيب القرب من الله تعالى .

قال أبو الدرداء: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة فما أعجب قول أبي عبد الله بن مسعود «ما من آية إلا ولها قوم يعملون بها» وهذا الكلام يحرض لكل طالب صاحب همة أن يصغي لوارد الكلام لفهم دقيق معانيه وغوامض أسراره من قلبه فللصوفي بكمال الزهد في الدنيا وتجريد القلب عما سوى الله عز وجل مطلع من كل آية وله بكل مرة في التلاوة مطلع جديد، وفهم عتيد، وله بكل فهم عمل جديد ففهم يدعو إلى العمل وعملهم يجلب صفاء الفهم ودقيق النظر في معاني الخطاب فمن الفهم علم ومن العلم عمل والعلم يتناوبان فيه، وهذا العمل أيضاً عمل القلوب غير عمل القلب وإعمال القلوب للطفها وصلافتها مشاكلة، للعلوم لأنها نيات وطويات وتملقات روحية وتادبات قلبية ومسامرات سرية وكلما أتوا بعمل من هذه الأعمال رفع لهم عملهم من العلم واطلعوا على مطلع من

فهم الآية جديد ويخالج سري أن يكون المطلع ليس بالوقوف بصفاء الفهم على دقيق المعنى وغامض السر في الآية ولكن المطلع أن يطلع عند كل آية على شهود المتكلم بها لأنها مستودع وصف من أوصافه ونعت من نعوته فتتجدد له التجليات بتلاوة الآيات وسماعها وتصير لها مرآة منبئة عن عظيم الجلال .

ولقد نقل عن جعفر الصادق أنه قال: لقد تجلى الله تعالى لعباده في كلامه ولكن لا يبصرون، فيكون لكل آية مطلع من هذا الوجه، فالحد حد الكلام والمطلع الترقى عن حد الكلام إلى شهود المتكلم وقد نقل عن جعفر الصادق أيضاً أنه خر مغشياً عليه وهو في الصلاة، فسئل عن ذلك فقال: ما زلت أردد الآية حتى سمعتها من المتكلم بها، فالصوفي ما لاح له لائحة التوحيد وألقى سمعه عند سماع الوعد والوعيد وقلبه بالتخلص عما سوى الله صار بين يدي الله «حاضراً شهيداً يرى لسانه ولسان غيره في التلاوة كشجرة موسى حيث أسمع الله منها خطابه إياه بـ «إني أنا الله فإذا كان سماعه من الله واستماعه إلى الله»، صار سمعه وبصره وعلمه وعاد آخره أوله وأوله آخره ومعنى ذلك أن الله تعالى خاطب الذر بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [سورة الأعراف، آية: 172] سمعت النداء على غاية الصفاء، ثم لم تزل الذرات تتقلب في الأصلاب وتنتقل إلى الأرحام قال الله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُولُونَ فَتَمَّ وَجْهُهُ ۖ اللَّهُ أَوْ أَلْفَى﴾ [سورة الشعراء، الآيتان: 218، 219] يعني تقلب ذرتك في أصلاب أهل السجود في آبائك الأنبياء فما زالت تنتقل الذرات حتى برزت إلى أجسادها فاحتجبت بالمحكمة عن القدرة وبالعالم الشهادة عن عالم الغيب وتراكم ظلمتها بالتقلب في الأطوار، فإذا أراد الله بالعبد حسن استماع بأن يصيره صوفياً لا يزال يرقيه في رتب التزكية والتحلية حتى يخلص إلى قضاء القدرة وتزال عن بصيرته النافذة سجف الحكمة فيكون سماعه ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ كشفاً وعياناً وتوحيداً وعرفانه بياناً وبرهاناً وتندرج له ظلم الأطوار في لوامع الأنوار، قال بعضهم: أنا أذكر خطاب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ إشارة منه إلى هذا الحال، فإذا تحقق الصوفي بهذا الوصف صار وقته سرمداً وشهوده مؤيداً وسماعه متوالياً متجدداً يسمع كلام الله تعالى وكلام رسوله حق السماع .

فصل

الخلافا في مطالع السور

قال شيخ الإسلام العارف بالله قاضي القضاة ناصر الدين بن البلقيني الشاذلي في «التجارة الرابعة في الدلالة على مقاصد الفاتحة» ومن خطه نقلت ولهم خلافا في المطلع هل هو ما استأثر الله سبحانه نفسه به عن خلقه؟ والأكثر على هذا وهو مما يمكن اطلاع خواص الخلق عليه وإليه ذهب بعضهم، ثم القائلون بهذا منهم من خصه بالنبي ﷺ.

ومنهم من قال بإمكانه لخواص الأولياء ولا شك في أن الله سبحانه علماً بحقائق كلامه لا يشاركه فيه غيره فمن أطلق المطلع على ذلك فهو صحيح لا نزاع فيه ويكون الحد غاية ما ينتهي إليه إدراكات المخاطبين ولا سيما إن تأملت مدلول الحد في اللغة من كونه المنع فكأن المخاطبين منعوا من التسور على ما وراءه، ويقوى بهذا قول من خص الحد بمقام النبوة، واعلم أن أقواماً هجموا بظنونهم وأقدموا بآرائهم على القرآن الكريم فسموا ذلك من علم باطن القرآن.

فمنهم من أصاب من حيث كون ذلك الكلام يتناول ما نبهوا عليه إما بعمومه أو بدلالة التزام قياسي أو غيره.

ومنهم من أخطأ حيث قصر العام على الخاص من غير دليل على التخصيص، بل يقع مثل ذلك من بعضهم مع وجود دلالة أخرى على أن ذلك العام لم يرد به الخاص، وإنما هو كما يفهم منه من العموم.

يَكُونُ مواطن الخطأ في بيان الكلام:

ومنهم من أخطأ حيث أخرج الكلام عن مدلوله اللغوي وموضوعه العرفي من غير مانع بل مع وجود تنصيص إعلام المفسرين على أن ذلك المدلول مراد وإنما ألجأهم التعمق في استخراج المعاني الخفية إلى القول بما يعكّر بالإبطال على قاعدة شرعية أو قضية عقلية وربما جالوا في ذلك حتى انتهوا إلى سوء أدب على أحد من

الأنبياء - عليه الصلاة والسلام - ويزين لهم الشيطان ذلك من حيث إن فيه تفضيلاً
لنبينا ﷺ .

كما رأيت له لبعض من دُونَ تفسير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿مَنْ ظَهَرَهَا
وَلَكِرَ لِبَرٍّ مِّنْ أَتَقَرُّوا النَّبِئَاتِ﴾ [سورة التوبة، آية: 40] فقال: راعى نبينا ﷺ
الأدب مع الله سبحانه وتعالى فقدم اسمه على المعية فقال: إن الله معنا، فعادت بركة
ذلك على أمته وقدم موسى عليه السلام - المعية على الاسم فقال لما قال له أصحابه
﴿وَلَنَبَلِّغَنَّكُمْ إِشْرَاقَ يَوْمٍ﴾ قال: ﴿مِنَ الْخَوَافِ جُوعٍ إِذْ قَاتَيْنَا قَوْلُوا﴾ [سورة الشعراء، الآيتان: 61،
62] قال فأصيبوا بالتيه وما وقع لهم بعد ذلك من تبديل الدين ونحوه فانظر بصرك الله
كيف نسب إلى موسى عليه السلام زينة الشيطان حتى صار عند قائله من أجل
المعاني التي يزعم التقرب بها إلى الله سبحانه .

واعلم أنه حين وقفت على هذا الكلام في بدأة معاناتي بهذا الفن لاح لي كمال
حكمة كل النبيين عليهما السلام حيث أتى كل منهما بخطاب يليق بحال المخاطب،
فأما موسى عليه الصلاة والسلام فكان خطابه مع عامة بني إسرائيل الذين فيهم من
تكملت معرفته بالله سبحانه وتعالى، وفيهم من هو في طريق الاستكمال، ولا
يتوصلون إلى كمال معرفة الله سبحانه إلا بمعرفة موسى عليه الصلاة والسلام،
فناسب أن يقدم المعية المضافة إليه قبل اسم الربوبية إذ هو الوسطة ومنه تعرف
الربوبية .

وأما نبينا ﷺ فكان خطابه مع أخص أمته وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه -
الذي كملت معرفته بالله، ولهذا لم يحتج في إيمانه إلى ترادف الأدلة وتضاعف
البراهين فناسب أن يخبره بالاسم أولاً ليشهده المعية المترتبة على كمال الإلهية ثم
هنا مناسبات أخرى تتعلق بذكر اسم الله هنا واسم الرب هناك ليس هذا محل ذكرها .

أسباب تعدد الفهم عند القوم

ثم قال رحمه الله: واعلم أن أجل ما جمع من أقوال أشياخ التصوف - رحمة الله
عليهم - ما جمعه الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي - رحمه الله تعالى - في كتابه
المسمى بـ«الحقائق» إلا أنه سود فيه ما وقع له، ولم يميز بين رتبته، ومن تأمل ما نقله
فيه وجد فيه من الاستنباط الحسن، والتفقه المتين ما تبهج به روحه .

واعلم أنه فتح إلهي، وعلم رباني أضاء لقائله من مشكاة النبوة منحة من الله

سبحانه له بواسطة التدبر العلمي، والتفكر النظري، والذوق الوجداني كما أن المتأمل لهذا الكتاب المذكور - أيضاً - قد يقف فيه على شوارد المفهوم التي ندت عن قواعد العلوم، وبعدت عن مقام الخطاب الشرعي، وموارد الصواب العرفي. فلا تكاد تنتظم مع غيرها من وجوه الصواب في سلك واحد إلا بتكلف شديد، وتعصب زائد، ولعل السبب في وقوع ذلك من قائله - والله تعالى أعلم - أحد أمرين:

إما أن تقوم به حالة من الحالات. وتتلى عليه آية من الآيات فيفهم عندها ما يليق بحالته تلك مع الغيبة عن حقيقة الكلام ودلالته كما يتفق ذلك كثيراً لأرباب الأحوال، ويفهمون ما يناسبهم من الحوادث وإن لم تكن من جنس الأقوال، ويكون ذلك عند الشيء لا منه فيحكي أحدهم ما فيه عند سماعه لتلك الآية، فيظن من سمعه أنه قال ذلك تفسيراً للآية واستنباطاً منه وليس كذلك.

وإما أن يبني ما فهمه من تلك الآية على شيء اعتقد دلالة اللفظ عليه إما الاشتراك أو غيره، وكان هناك ما يمنع من دلالة اللفظ عليه، وإذا علمت اشتغال كلام الله تعالى على ظهر وبطن وحد ومطلع مع ما تقدم من الأدلة الشرعية ظهر لك تعدد المداغل إلى فهم معاني القرآن العظيم وأن الناس وإن تسابقت أفهامهم في معانيه لا يبلغون غايتها إلا أنهم متفاوتون فليس من وقف على سواحل الخطاب كمن غاص في قعر بحر التدبر، فاستخرج من جواهر المعاني العجب العجيب هذا مع أن جواهر هذا البحر لا تفتنى ويتامى درره كلها لا تحوى.

ولقد يمن الله سبحانه وتعالى - على كثير من خواص عبيده العلماء المتدبرين الموفقين في الآية الواحدة بل هي في الكلمة الواحدة بل في الحرف الواحد بما لا يكاد يحصى من المعاني التي لا تدرك بمجرد نور القلب بل لا يدفع ذلك من نور رباني ليتظافر النوران الخارجي والوالمجي الممنون بهما على من أريد بالهداية لسابق العناية.

ولقد حكى بعض الأكابر الشيوخ الذين لقيتهم عن والده - رحمه الله - وكان من أكابر الأولياء والعارفين أنه قال: ما قرأت الفاتحة قط إلا فهمت منها ما لم أكن أفهمه قبل ذلك، فانظر إلى اتساع مجال هذا الرجل، وكم قرأ الفاتحة في عمره من مرة في الصلوات وغيرها!

ولعمري لقد اغترف هذا من بحر ممدود بمداده لا ينقطع، وماذا عسى يكون

نسبة جملة ما فهمه هذا وأمثاله إلى ما ذكره الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [سورة الكهف، آية: 109] ولقد قام النبي - ﷺ - ليلة في آية واحدة يكررها وهي قوله تعالى: ﴿بِكَ شَهِدْنَا مِنْ خُلُقَيْنَاؤُنَا بِشَيْءٍ مِنَ الْغُفُورِ وَالْجُوعِ إِذَا فَأَيْنَمَا﴾ [سورة المائدة، آية: 118] ومن تأول طويل زمانه - ﷺ - في التدبر مع كمال نوره وتمام فتحه واتساع إدراكه وارتقائه إلى أعلى مقامات العلم والفهم قضى باتساع مجال الفهم في القرآن. ولقد نبه علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - على ما فتح به عليه في تلك الفهوم والعلوم حتى قال: لو شئت أن أوفر من فاتحة الكتاب سبعين بغيراً لفعلت. انتهى.

وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في «لطائف المنن»: اعلم أن تعبير هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسوله - ﷺ - بالمعاني الغريبة كما مضى من فهم الشيخ أبي العباس المرسي - رضي الله عنه - من قوله: ﴿شَهِدُوا بِكُلِّ شَيْءٍ أَنَّ اللَّهَ﴾ [سورة الشورى، آية: 49] الحسنات ﴿وَلِكُلِّكُمْ أَهْلًا إِلَّا الْعُلُومَ﴾، أو يزوجهم ذكراً وإنثاءً: علوماً وحسنات.

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ [سورة الشورى، آية: 50] لا علم ولا حسنة، وكما مضى - أيضاً - من قوله: ﴿الْبَاطِنُونَ لِنَلَسُوهُمْ مِنْ شَدَائِهِمْ عَلَى﴾ [سورة البقرة، آية: 67] فقال الشيخ: بقرة كل إنسان نفسه والله أمره بذبحها فهذا ليس إحالة للظاهر عن ظاهرة، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت الآية له ودلت عليه في عرف اللسان وثم إفهام باطنه عند الآية والحديث لمن فتح على قلبه.

وقد جاء أنه عليه السلام قال «ولكل آية ظاهر وباطن وحد ومطلع»⁽¹⁾ فلا يصدنك عن تلقي هذه المعاني منهم ذو جهل ومعارضة بأن يقول لك هذا إحالة لكلام الله تعالى وكلام رسوله - ﷺ - فليس ذلك بإحالة وإنما يكون إحالة لو قالوا: لا معنى للآية إلا هذا وهم لم يقولوا ذلك بل يقررون الظواهر ومراداتها وموضوعاتها ويفهمون عن الله ما أفهمهم، قلت: ومن هنا يعلم عظم قدر تفسير القاشاني وغيره من أئمة القوم ولا التفات إلى قول بعض الجهلة المحجوبين، لأن علوم الباطن لا يفهمها إلا علماء الحقائق.

قال ابن عطاء الله: وربما فهموا من اللفظ ضد ما قصده واضعه ما أخبر الشيخ

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

الإمام مفتي الأنام تقي الدين محمد بن علي القشيري المشهور بابن دقيق العيد - رحمه الله تعالى - قال : كان ببغداد فقيه يقال له «الجوزي» يقرأ اثني عشر علماً فخرج يوماً قاصداً إلى المدرسة فسمع منشداً يقول :

إذا العشرون من شعبان ولت فواصل شرب ليلك بالنهار
ولا تشرب بأقذاح صغار فقد ضاق الزمان عن الصغار
ففهم من ذلك شيئاً أزعجه وأخرجه هائماً على رأسه حتى أتى مكة فجاور بها
وتعبد وترك التدريس قال الإمام عفيف الدين الياضي - رحمه الله - قلت : هذا الشعر
المذكور يفهم منه الموفق أن عمره قد ولى وقد قارب الفوت وضاق عن الاتساع
للاشتغال بالاستعداد للموت، فليبادر بالعزائم الكبار إلى مواصلة الأعمال بالليل
والنهار متلذذاً بالخدمة والمنادمة للملك القهار معرضاً عن دار الاغترار مشتاقاً إلى
دار القرار .

قال الياضي : أيضاً في «الإرشاد» ودخل على الشيخ العارف بالله إبراهيم
الجعبري بعض أصحابه فقال له : يا سيدي سمعت بيتين أعجباني قال : قلهما لي
فأنشد :

وقائل أنفقت عمرك مسرفاً على مسرف في تيه ودلاله
فقلت لها كفي عن اللوم إنني شغلت به عن هجره ووصاله
فقال له الشيخ ما هذا مقامك، ولا مقام شيخك، فأطرق ساعة تم رفع رأسه
وقال : يا سيدي وقع لي بيتان غيرهما قال : قلهما لي فأنشد :

وقائلة طال انتسابك دائماً إليه فهل يوماً خطرت بباله؟
فقلت لها ما كنت أهلاً لبحره فما تعتريني شبهة في وصاله
فقال : هذا مقامك ومقام شيخك، وقال ابن عطاء - أيضاً - في اللطائف .

وقرىء بين يدي الشيخ مكين الدين الأسمر - رضي الله عنه - قول القائل :
لو كان لي مسعد بالراح يسعدني لما انتظرت بشرب الراح أقطارا
الراح شيء شريف أنت شاربه فاشرب ولو حملتك الراح أوزارا
يا من يلوم على صهباء صافية خذ الجنان ودعني أسكن النارا
فقال إنسان هناك : لا يجوز قراءة هذه الأبيات، فقال الشيخ مكين الدين الأسمر

للقارىء: اقرأ هذه الآيات، هذا رجل محبوب، والشيخ مكين الدين هذا هو الذي شهد له قطب الدين الشيخ أبو الحسن الشاذلي - رضي الله عنه - بأنه من السبعة الأبدال، وكان يقول عنه - أيضاً - بينكم رجل يقال له عبد الله بن منصور أسمر اللون أبيض القلب والله إنه ليكاشفني وأنا مع أهلي وعلى فراشي .

ومرة أخرى قال الشيخ أبو الحسن - أيضاً - فيه: ما سلكت غيباً من غيوب الله إلا وعمامته تحت قدمي قال: ويكفيك في هذا ثلاثة سمعوا منادياً ينادي يا سعتري بري ففهم كل منهم عن الله مخاطبة خوطب بها في سره سمع «اسع تر بري» وسمع الآخر «ما أوسع بري» وقال الآخر الساعة ترى بري فالمسموع واحد واختلف أفهام السامعين، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَلَّاسُخَّرَ عَيْفًا مِّنَ الدَّمْعِ وَمَا عَرَفُوا مَن كَلُّ﴾ [سورة الرعد، آية: 4] وقال سبحانه: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ﴾ [سورة البقرة، آية: 60] فأما الذي سمع: «اسع تر بري فمريد يدل على النهوض إلى الله سبحانه وتعالى بالأعمال فيستقبل الطريق بالجد وقيل له اسع إلينا بصدق المعاملة تر برنا بوجود المواصلة، وأما الثاني فكان سالكاً إلى الله طاولته الأوقات فخاف أن تفوته المواصلة فقبل له ترويحاً على قلبه لما أحرقه نار الشغف: الساعة ترى بري، وأما الآخر فعارف كشف له عن وسع الكرم فخوطب من حيث أشهد فسمع ما أوسع بري».

وقال الشيخ محيي الدين بن العربي - رضي الله عنه - دعانا بعض الفقراء إلى دعوة بزقاق القناديل بمصر فاجتمع بها جماعة من المشايخ فقدم الطعام وهناك وعاء زجاج قد اتخذ للبول، ولم يستعمل، ففرق فيه رب المنزل الطعام والجماعة يأكلون، وإذا الوعاء يقول منذ أكرمني الله بأكل هؤلاء السادة مني لا أرضى لنفسي أن أكون بعد ذلك محلاً للأذى ثم انكسر نصفين .

قال الشيخ محيي الدين فقلت للجماعة: سمعتم ما قال الوعاء؟ قالوا: نعم، قلت: ما سمعتم؟ فأعادوا القول الذي تقدم، فقلت: ما شرح هذه الكلمات؟ فأطرقوا ولم يتكلم منهم أحد، فقلت: قال قولاً غير ذلك، قالوا: وما هو؟ قلت: قال كذلك قلوبكم من أكرمها الله بالإيمان فلا ترضوا بعد ذلك أن تكون محلاً لنجاسة المعصية وحب الدنيا، جعلنا الله وإياكم من أولى الفهم عنه، والتلقي منه - آمين - .

وقال ابن عباد النفري في شرح الحكم: المستمعون موسومون بالفقر والحاجة

إلى معنى ما يستمعون إليه عن المواعظ والحكم وهو قوت قلوبهم، وغذاء أرواحهم كما أن المستطعمين والسؤال موسومون بالفقر والحاجة إلى أقوات أبدانهم، وكما أن أقوات هؤلاء مختلفة فلا يصلح لواحد من هؤلاء ما يصلح للآخر من الأطعمة والأشربة لاختلاف طبائعهم وأمزجتهم، فكذلك أقوات القوم مختلفة فلا يصلح لواحد منهم من العبارات التي تتضمن وجود القوت المعنوي ما يصلح للآخر لاختلاف مذاهبهم وتباين مطالبهم.

فإذا سمعت عبارة من عالم أو عارف أو أحد من أهل هذا الطريق ولم تحط منها بشيء فاعلم أنها لا تصلح لقوتك وغذائك وهي صالحة لقوم آخرين ومما يتنظم في هذا السلك أن يقرع أسماء بعض الناس العبارة من بعض الأشخاص ففهم منها معنى لم يقصده المتكلم ويتأثر باطنه بذلك تأثيراً عجبياً، وقد يقع ذلك لجماعة من الناس ففهم كل واحد منهم ما لا يفهمه الآخر، ويحصل لهم بذلك التأثير مع أن المتكلم لم يرد شيئاً من ذلك، وربما كان مضاداً له وقد يسمع أرباب القلوب من الجمادات ثم ساق كلام اللطائف المتقدم والله أعلم.

تنبيه:

قال الشيخ تاج الدين بن السبكي في الطبقات الكبرى ما نصه اختار الإمام فخر الدين الرازي في التفسير في سورة «الإسراء» أن الجمادات وغير المكلف من البهائم إنما تسبح الله بلسان الحال، ولا تسبح له بلسان المقال، واحتج بما لم ينهض عندنا.

وفصل قوم قا لوا: كل حي ونام يسبح دون ما عداه، وعليه قول عكرمة: الشجرة تسبح والأسطوانة لا تسبح، وقال: يزيد الرقاشي للحسن وهما يأكلان طعاماً، وقد قدم الخوان، أيسبح هذا الخون أبا سعيد؟ فقال قد كان يسبح ثمره يريد أن الشجرة في زمن ثمرها واعتدالها ذات تسبيح، وأما الآن فصار خواناً ويستدل لهذا بما ثبت في حديث ابن عباس أن النبي - ﷺ - «مرّ بقبرين فقال إنهما ليعذبان، وفيه أنه دعا بعسيب رطب وشقه اثنين وغرس على هذا واحداً وعلى هذا واحداً ثم قال لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا»، فإن فيه إشارة إلى أنهما ما دام رطبين يسبحان وإذا يبسا صارا جمادين، ذهب قوم إلى أن كل شيء من جماد وغيره يسبح بلسان المقال، وهذا هو الأرجح عندنا، لأنه لا استحالة فيه قلت: وقد نسبه النووي في

شرح مسلم إلى المحققين - والله أعلم .

قال ابن السبكي : ويدل له كثير من المنقول قال الله تعالى : ﴿مَنْ أَتَقَى اللَّهَ تَجَافَىٰ لَهُ أَشْيَاءَ اللَّهِ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَدْ خَلَقْنَا لِكُلِّ شَيْءٍ مِّنْ أَوْبَهِئَاتٍ فَتَوَكَّلْ﴾ [سورة ص، آية : 18] وقال - ﷺ - كما روى ابن ماجه «لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شجر ولا حجر ولا مدر ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة» وفي صحيح البخاري : أنهم كانوا يسمعون تسييح الطعام وهو يؤكل عند النبي - ﷺ - ، وفي صحيح مسلم أن رسول الله - ﷺ - قال : إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث» خبر الجذع في هذا مشهور .

وروى ابن المبارك في رقائقه أن ابن مسعود قال إن الجبل ليقول للجبل هل مر بك ذاكر لله فإن قال : نعم ، سر إلى غير ذلك من أخبار وآيات تشهد لمن يحمل قوله تعالى : لِيَعْبُدُونَ اللَّهَ كُفْرًا وَعَدُوًّا لِلنَّاسِ ﴿ [سورة الإسراء، آية : 44] على عمومه غير أنا نقول : لا يلزم من تسييحها بلسان المقال أنا نسمعها ، وإنما يكون ذلك على سبيل المعجزة كما كانوا يسمعون تسييح الطعام عند المصطفى - ﷺ - أو على وجه الكرامة انتهى .

* * *

باب في شرح ألفاظ مشكلة تتعلق بمذهب القوم

فمنها قول القطب الرباني عبد القادر الكيلاني - رضي الله عنه - ونفعنا بعلومه :
ما في المناهل منهل مستعذب إلا ولي فيه الألد الأطيب
أو في الوصال مكانة مخصوصة إلا ومنزلتي أعز وأقرب
وهبت لي الأيام رونق صفوها فحلت مناهلها وطاب المشرب
وغدوت مخطوباً لكل كريمة لا يهتدي فيها اللبيب فيخطب
أنا من رجال لا يخاف جليسهم ريب الزمان ولا يرى ما يرهب
قوم لهم في كل مجد رتبة علوية وبكل جيش موكب
أنا بلبل الأفراح أملاً دوحها طرباً وفي العلياء باز أشهب
أضحت جيوش الحب تحت مشيئتي طوعاً ومهما رمته لها يعزب
أصبحت لا أملاً ولا أمنية أرجو ولا موعودة أترقب
ما زلت أرضع في ميادين الرضا حتى وهبت مكانة لا توهب
أضحى الزمان كحلة مرموقة تزهو ونحن لها الطراز المذهب
أفلت شمس الأولين وشمسنا أبداً على فلك لك العلى لا تغرب

قال الإمام الياقعي في نشر المحاسن «قلت هذا البيت الأخير يحتاج إلى تأويل وحمل سالم من قادح غير لائق بجلالة الشيخ عبد القادر، ومحاسن آدابه وجميل مقاصده، وفي ميدان معناه اتساع لمجال التأويل، والعاقل لا يسلك الطريق مع اتساع السبيل».

والمحتاج إلى تفسير لائق بالحال مطابق ثلاثة ألفاظ في البيت المذكور اللفظ الأول قوله: «شمسنا» إلى من يعود الضمير في «شمسنا»؟ هل يختص بالمتكلم لقوله: «أنا بلبل الأفراح» وقوله: «ما زلت» إلى قوله حتى وهبت مكانة لا توهب، أو الضمير يعود على الطائفة أي أصحاب الطريقة.

السالكين إلى الله تعالى المكاشفين من الله تعالى بإسرار الحقيقة وهم مشايخ الصوفية لقوله:

أنا من رجال لا يخاف جليسهم ريب الزمان ولا يرى ما يرهب
أي: الرجال صحبتهم وربوني حتى حصل لي معهم نهاية المطلوب، يكون
المعنى وشمسنا أيتها الطائفة، وهذا تأويل أوسع مسلماً من الأول وأسلم منه،
وأقل مؤاخذاً، أو يعود الضمير بتأويل بعيد إلى هذه الأمة الذاكرين الله تعالى:
لقوله - ﷺ - هم القوم لا يشقى جليسهم» الحديث الصحيح الوارد في القوم
المجتمعين على ذكر الله تعالى، ويكون المعنى و«شمسنا أيتها الأمة» أو أيها القوم
الذاكرون الله تعالى - فيه ثلاث احتمالات أرجحها الأول من سياق الكلام، وقوة
القرينة الدالة عليه، والثاني أرجح من حيث اشتراك الطائفة في الوصف وشمول
اسم المعرفة لجميع العارفين وبقاء نور شمس المعرفة في الوارث من كل مورث
منهم أبداً.

اللفظ الثاني:

قوله:

أفلت شمس الأولين.....

هل المراد بالأولين من تقدم زمانه من الشيوخ على زمانه؟ أو من تقدم زمانه من
بعد الصحابة على زمن طائفة الصوفية؟ أو من تقدم زمانه على زمن الذاكرين الله
تعالى من هذه الأمة؟ مع بعد هذا الأخير كما تقدم نظيره في ثلاث احتمالات - أيضاً -
عائدة على الثلاثة الأول، كل واحد من هذه مفهوم من واحد من تلك.

اللفظ الثالث:

قوله:

أفلت شمس الأولين.....

وقوله في آخر البيت «لا تغرب» هل المراد شمس الأولين غروبها بموتهم؟
فليس أحد يهتدي بنورها بعد موتهم، وشمسنا يهتدي بنورها بعد موتنا لا تغرب أبداً
من سماء مجدنا الباقي بعدنا الموروث عنا إرثاً بعد إرث على تعاقب الدهور بالولادة
المعنوية من لقاح النور إشارة منه إلى عدم انقطاع الأخذ على أتباعه النائبين عنه بل

يبقى ذلك مع الجاه الوسيط والشرف الرفيع، أو أن المراد بطلوع شمسنا أفول شمس من قبلنا لا بموتهم.

وشمسنا لا تغرب بطلوع شمس من بعدها أبداً فيه احتمالان ولكون الغروب على الاحتمال الثاني بمعنى الاستتار والانمحاق، لغلبة صفة أحد الشيين على صفة الآخر على معنى قول القائل:

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب
وقد بلغني عن بعض شيوخ اليمن الكبار أنه بشر بولي يظهر بعده وقال يكون شمس زمانه لكن لا كشموسنا فظهر كما ذكر - رضي الله عنه - فلما أنشد الشيخ عبد القادر - رضي الله عنه - الأبيات المذكورة أجابه الشيخ أبو المظهر الواعظ المعروف بجراده - رحمه الله - منشداً هذه الأبيات:

بك الشهور تهني والمواقيت يا من بألفاظه تغلو اليواقيت
الباز أنت فإن تفخر فلاعب وسائر الناس في عين فواخيت
أشم من قديمك الصدق مجتهداً لأنه قدم في نعله الصيت
(تنبيه):

سئل شيخ الإسلام عن قول القطب السيد عبد القادر الجيلي تأتي السنة وتسلم عليّ، ويأتي الشهر ويسلم عليّ ويأتي اليوم ويسلم عليّ ولا تطلع الشمس ولا تغيب حتى تسلم عليّ .

فأجاب - رحمه الله - ما نصه: اللهم ألحقنا بعبادك الصالحين، وقال الله تعالى: ﴿نَفْسٍ ذَايِقَةٍ تَكُنْ وَلَيْسَ﴾ [سورة يس، آية: 58] وقال تعالى: ﴿تَكُنْ وَلَيْسَ﴾ [سورة الرعد، الآيتان: 23، 24] فالله جلّ جلاله سلم على أوليائه، والملائكة سلمت على أوليائه، فما بال الشمس والقمر لا يسلمان على أوليائه، والمنكر يعذر مع حرمانه والله أعلم.

وقال الياضي - أيضاً - اعلم أنه قد اشتهر عن بعض الأكابر، وهو الشيخ الإمام عبد القادر الجيلاني - رضي الله عنه - أنه كان معتقد الجهة، وقد استغرب هذا منه وعد شاذاً... عن أئمة المشرق كما عده الإمام ابن عبد البر - رحمه الله شاذاً في ذلك عن أئمة المغرب لكن قد أخبر الشيخ العارف بالله الشهير نجم الدين - رضي الله

عنه - أن الشيخ الإمام العارف بالله عبد القادر الجيلاني المذكور رجع آخرأ عما يعتقد أولأ، ذكر ذلك لما بلغه أن الشيخ الإمام تقي الدين ابن دقيق العيد - رحمه الله تعالى - تعجب من السيد الكبير الإمام الشهير الجامع بين علمي الظاهر والباطن الحسيب النسب ذي الشرف والمفاخر محيي الدين عبد القادر في اعتقاده الجهة مخالفاً للجمهور، وهذا الشيخ نجم الدين الأصبهاني كان العراق له وطناً، وكان من أهل الكشف والنور والاطلاع ظاهراً وباطناً أخبرني بالرجوع عن الاعتقاد المذكور غير واحد من أصحاب الشيخ نجم الدين المذكور - رضي الله عنه - مما لا أشك - والله - في صدقهم .

ثم قال اليافعي بعد أن ساق كلامه في العائد فهذا كلامه - رضي الله عنه - محتوياً على التوحيد والتنزيه مصرحاً بنفي التجسيم والتشبيه مفصلاً بكون الحق تعالى لم ينتقل إلى مكان ولم يتغير عما عليه كان، وقال في موضع آخر، وأما من توهم لجهله بأولياء الله تعالى وفساد قلبه أن الشيخ عبد القادر الجيلاني قال: قدمي هذا على رقبة كل ولي لله تعالى بحظ نفس وهوى كامن في باطنه فهو يظن أن أصفياء الله مثله منظون على خبث الضمائر ومتصفون بالصفات الرذائل نعوذ بالله العظيم من الخذلان وسوء الظن بأولياء الله أهل العرفان فإن من خضع له أكابر الأولياء هذا الخضوع، ورجع إليه العارفون بالله هذا الرجوع وزفته العناية هذا الزفاف المشعر بعظم جلالته، ورقص الكون جميعه طرباً لظهور ولايته وحمل بين يديه علم القطبية، وتوج بتاج الغوثية وألبس خلعة التصريف العام النافذ في جميع الوجود، ومشيت أكابر الأولياء من الصديقين والبلاء تحت ركابه بأمر الإله المعبود واشتهرت في الوجود كراماته، وجمعه بين علمي الظاهر والباطن يستحيل أن يكون قال ذلك بحظ نفس، وهوى كامن في نفسه .

وفي كتاب مناقبه - رضي الله عنه - في طرق كثيرة، وروايات شهيرة عن جماعة من المشايخ الأكابر، والعلماء الأفاضل والأخيار الثقات، واشتهر واستفاض حتى في الجهات البعيدات أنه قال في مجلسه وهو على الكرسي يتكلم على الناس قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، وكان في مجلسه حينئذ عامة مشايخ العراق، وروي أنهم كانوا نحواً من خمسين، وروي نيفاً وخمسين شيخاً منهم الشيخ أبو النجيب السهروردي والشيخ قضيب البان الموصلية، والشيخ أبو السعود أحمد بن أبي بكر العطار وغيرهم من المشايخ الأكابر المعدودين .

وروي من طرق كثيرة عن خلائق من الأولياء أنه لم يبق أحد من الأولياء في ذلك الوقت من الحاضرين والغائبين في جميع آفاق الأرض إلا حنا له رقبة إلا رجلاً بأصبهان فإنه لم يفعل فسلب حاله وروي أن الشيخ أبا النجيب السهروردي طأطأ رأسه حتى كاد يبلغ الأرض وقال: على رأسي، قالها ثلاثاً.

وكان من جملة من حنا له رقبة من الغائبين المشهورين الشيخ أبو مدين، والشيخ عبد الرحيم القناوي، والشيخ أحمد الرفاعي فرووا عنه أنه كان جالساً يوماً بأم عبيدة فمد عنقه وقال: على رقبتني، وفي رواية أنه قال وحميد منهم فسئل عن ذلك فقال قد قال الشيخ عبد القادر الآن ببغداد قدمي هذه على رقبة كل ولي لله. وأما الشيخ أبو مدين فرووا أنه حنى رأسه يوماً وهو بين أصحابه وقال وأنا منهم، واللهم إني أشهدك وأشهد ملائكتك أنني سمعت فأطعت فسأله أصحابه عن ذلك فقال قد قال الشيخ عبد القادر الآن ببغداد: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، فأرخوا ذلك وهم في المغرب ثم جاء المسافرون من العراق وأخبروا أن الشيخ عبد القادر قال ذلك في الوقت الذي أرخوه.

وأما الشيخ عبد الرحيم فرووا عنه أنه مد عنقه يوماً بقنا وقال صدق الصدوق فقيل له: ومن هو؟ فقال الشيخ عبد القادر قد قال: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله وتواضع له رجال المشرق والمغرب فأرخوا ذلك الوقت ثم جاء الخبر بذلك في الوقت الذي أرخوه، وروي بأسانيد كثيرة من طرق متعددة عن جماعة من كبار المشايخ أنه لم يقل ذلك إلا بأمر منهم الشيخ عدي - رضي الله عنه - قال: إنما وضع الأولياء كلهم رؤوسهم لمكان الأمر ألا ترى إلى الملائكة لم يسجدوا لآدم - صلوات الله وسلامه عليه وعليهم - إلا لورود الأمر عليهم.

ومنهم الشيخ أبو سعد - رضي الله عنه - قال: فلا بأمر لا شك فيه، وهي لسان القطبية قال ومن الأقطاب في كل زمان من يؤمر بالقول فلا يسعه إلا القول وهو الأكمل في مقام القطبية، لأنه لسان الشفاعة.

ومنهم علي بن الهبتي - رضي الله عنه لما قال الشيخ عبد القادر مقالته تلك صعد إليه فوق الكرسي وأخذ قدمه وجعلها على عنقه ودخل تحت ذيله فقال له أصحابه لم فعلت ذلك؟ فقال لأنه أمر أن يقولها وأذن له في عزل من أنكرها عليه من الأولياء فأردت أن أكون أول من سارع إلى الانقياد له.

ومنهم الشيخ أبو محمد القاسم - رضي الله عنه - قال لما أمر الشيخ عبد القادر أن يقول: «قدمي هذه على رقبة كل ولي» رأيت الأولياء بالمشرق والمغرب واضعين رؤوسهم تواضعاً إلا رجلاً من العجم فإنه لم يفعل فتوارى عنه حاله . قلت صعود ابن الهيتي - رحمه الله - فوق الكرسي وجعله قدم الشيخ على عنقه يرد ما قاله شيخ الإسلام ابن حجر - رحمه الله حيث أول القدم بالطريقة بل جميع أقوال المؤلفين لأنه لو أراد بالقدم الطريقة لم يكن في هذه خصيصة له على سائر لأقطاب لأن كل قطب طريقة على رقاب أولياء زمانه شرقاً وغرباً ولأن امتناع الرجل الذي بأصبهان عن الخضوع فيه دلالة على أن الشيخ لم يرد الحقيقة التي من شأنها أن تخضع لها أهل دائرة القطب في كل زمان بل إنما أرادوا الحالة هذه أعظم من ذلك وهو القدم المعروفة فإذا تقرر ذلك علمت أنه صرح بما أعطاه الله تعالى من خصوصية عظمى التي ما نالها أحد من الأقطاب قبله والله أعلم .

وكان الأستاذ القطب سيدي علي بن عمر القرشي الشاذلي رضي الله عنه يقول: قول الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس الله روحه قدمي هذه على رقبة كل ولي لله . قالها بالإذن، والأولياء الذين شهدوا له أكثر من أن يحصروا غير رجل «بأصبهان» فأبى عن الطاعة فعزل وقال: من أنكرها في زماننا هذا أو بعده إلى يوم القيامة عزل أيضاً .

ولقد أخبر جماعة من المشايخ الكبار أهل الكشف والأنوار والمعارف، والأسرار عن هيئة الحال، لما قال الشيخ عبد القادر ذلك المقال منهم الشيخ أبو سعد رضي الله عنه قال: لما قال الشيخ عبد القادر قدمي هذه على رقبة كل ولي تجلى الحق عز وجل على قلبه وجاءته خلعة من رسول الله - ﷺ - على يد طائفة من الملائكة المقربين وألبسها بمحضر من الأولياء من تقدم منهم ومن تأخر الأحياء بأجسامهم وكانت الملائكة ورجال الغيب حافين بمجلسه واقفين في الهواء صنفوا حتى اسند الأفق بهم ولم يبق ولي في الأرض حتى مد عنقه .

ومنهم الشيخ بقه - رضي الله عنه - قال: لما قال الشيخ عبد القادر رضي الله عنه «قدمي هذه على رقبة كل ولي لله» قالت الملائكة: صدقت يا عبد الله .

ومنهم الشيخ خليفة رضي الله عنه وكان كثير الرؤيا للنبي - ﷺ - وروى عنه الشيخ أبو القاسم بن أبي بكر بن أحمد بن أبي السعادات البندنجي - رحمه الله - أنه

قال: رأيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله قد قال الشيخ عبد القادر: قدمي هذه على رقبة كل ولي، فقال: صدق الشيخ عبد القادر وكيف لا وهو القطب وأنا أراعاه. قلت: فهذه نبذة يسيرة تتعلق بمقالة الشيخ عبد القادر رضي الله عنه وقد أضربت عن أشياء كثيرة مما يتعلّق بذلك طلباً للاختصار وقد ذكر بعض أهل العلم أن كرامات قربت من التواتر يعني قرب حصول العلم بوجودها من العلم القطعي الحاصل بكثرة الرواة البالغين حد التواتر المعروف لكثرة المخبرين عنها وبالجملة فهذا الذي ذكرته من فضله إنما هو قطرة من بحر فضائله أو غبار من رمال ساحله.

* * *

الشطح وتأويله

تنبيه :

أعلم أن الشطح في جملة ما أمروا به فصدر عنهم امتثالاً للأمر ويكون ذلك الأمر تنويهاً بفضلهم وبياناً لعلو شأنهم وتعريفاً للجاهل لكبير قدرهم وإرشاداً إلى التعلق بهم والتوسل برفيع جاههم وسبباً لمصالح العباد ونفعهم .
قال الياضي في نشر المحاسن : «إنما يعرفون الأمر بإعلام الله بالهام أو كشف أو سماع خطاب أو غير ذلك من وجوه التعريفات ومن ذلك ما روي واشتهر وتواتر في بلاد اليمن وما قرب منها أن الفقيه الإمام عالي المقام وصاحب الكرامات العظام الولي الكبير العارف بالله الشهير بالذبيح إسماعيل بن محمد الحضرمي - رضي الله عنه - قال قال : من قبل قدمي دخل الجنة . ولم يزل يقبل قدمه كل من زاره من الأكابر والأصاغر من المشايخ والعلماء وغيرهم من كل باد وحاضر .

ومن ذلك أيضاً ما اشتهر عن السيد الجليل الشيخ الكبير إمام الطريقة ولسان الحقيقة العارف بالله أحمد بن الجعد اليمني رضي الله عنه أنه التزم الشفاعة لمن رآه ومن رأى من رآه ومن ذلك أيضاً قول بعض المشايخ السادات أصحاب الكرامات : شُفِّعت في القرن الذي أنا فيه ومن هذا كثير لا ينحصر .

واعلم أن من الشطح ما يعتذر عنه بالتأويل الظاهر كما اشتهر عن بحر الحقائق ، معدن الأسرار والمعاني الدقائق شيخ الشيوخ الأكابر أبي الغيث بن جميل قدس الله روحه - أنه جاء إليه جماعة من الفقهاء فقال لهم مرحباً بعيدي فاستعظموا منه ذلك ورجعوا منكربين عليه فلقوا شيخ الطريقة وإمام الفريقين إسماعيل بن محمد الحضرمي المتقدم ذكره فذكروا له ذلك فقال صدق أنتم عبيد الهوى والهوى عبده وإلى هذا أشار الياضي في قصيدته بقوله :

وبعض له التأويل في الشطح ظاهر وبعض لتعريف ونصح ليقتدى

فصل :

ومن الشطح أيضاً تصريحهم في المملكة بإذن الله فيتصرفون فيها ويحكمون فينفذ ذلك بإذنه ومشيتته فإذا نازع الولي أحد ممن هو دونه من الأولياء في ولاية التصريف في المملكة أو ادعى أنه أعلى منه مقاماً أو أنه جاوز مقامات الأولياء جاز أن ينكر عليه قوله ويدعي ذلك لنفسه إذا كان فيه صادقاً محققاً من ذلك قول الشيخ أبي الغوث بن جميل المشهور مشيراً إلى التصريف المشهور، «فالأرض أرضي والسماء سمائي» لما كتب إليه الشيخ الكبير العارف معدن الأسرار والمعارف أحمد بن علوان رضي الله عنه في بعض جبال اليمن بهذين البيتين:

حُرْتُ الصفوف إلى الحروف إلى الهجا حتى انتهيت مراتب الإبداع
لا باسم ليلي أستعنت على السرى كلا ولا لبني شراعي
فأجاب الشيخ أبو الغيث معارضاً لقوله في هذين البيتين:

وحباني الملك المهيمن واجتبي فالأرض أرضي والسماء سمائي
وإلى هذا أشار الياضي بقوله:

مشيراً ينظم في جواب منازع يسمى ابن علوان علياً وسيدا
إلى أنه في وقته الأرض والسما له فيها التصريف بالإذن مفردا
ومعنى قوله: «وحباني الملك» إلى آخره أي أعطاني ملك الأرض والسماء
ولاية التصريف فيهما بطريق النيابة لما علمه في من توفيقه لي لموافقة مراده في
أحكامه ولهذا أشار الياضي أيضاً بقوله:

مولي على التصريف في الملك حاكم ويديه في ظلمة الليل يهتدي
قلت: ولو قال أمير ولاء سلطان بلاداً وصرفه فيها يولي ويعزل ويقطع ويصل
«هذه البلاد بلادي» لم يكن مستنكراً وقد اشتهر عن الشيخين السديدن الكبيرين
العارفين بالله تعالى - إمامي عصرهما ومالكي زمام زمانهما الشيخ محمد بن أبي بكر
الحكمي والفقير محمد بن حسين المشهورين في بلاد اليمن رضي الله عنهما - أنهما
سما خطاباً من قبل الحق سبحانه وتعالى: إذا شئتما أن تفعلوا شيئاً فافعلوا ولا
تستأذناني وهذا بعض الخطاب المذكور.

وأما البيتان اللذان أرسلهما الشيخ: أحمد بن علوان إلى الشيخ أبي الغيث بن

جميل المذكوران ففي تأويلهما صعوبة فكأنه أشار والله أعلم بقوله «جزت الصفوف» أي أنه جاوز مقامات الأولياء وجاوز صفوف الملائكة وقوله: «إلى الحروف» يحتمل أنه أراد إلى علم الحروف والأسماء وقوله: «إلى البحار» يحتمل أنه أراد الإطلاع على الأسرار وقوله: حتى «انتهيت مراتب الإبداع» فيه ما فيه وينبغي أن يحمل على أحد ثلاثة محامل:

أحدهما: التصرف بالإذن فيما شاء الله بقدرته الله وقد تقدم أن الخوارق للعوائد تجوز جميعها في كرامات الأولياء بشرط عدم التحدي، بالنبوة.

والثاني: بلوغه إلى مقام اطلع فيه على تكوين الخلق واختراعهم أو سماع صريف القلم الذي أمر بكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة وهذه المقامات المشار إلى بلوغها في هذا البيت إنما يبلغ إليها بالروح والعلم بطريق الكشف لا بالجسد والعلم بطريق النقل.

والثالث: حمل ذلك على صدوره منه في حال سكر الحال وقوله في البيت الثاني «لا باسم ليلي استعنت على السرى كلا ولا لبني ترد شراعي».

فيه أيضاً ما فيه وينبغي أن يحمل على الاستغناء عن الاستعانة بالمشايخ إشارة إلى أنه صار مستقلاً بنفسه في التصريف مأذوناً له فيه لا يحتاج في طريق سراه إلى شيخ يده ولا شيخ يحمل عنه شرع مركبه الساري في بحر المعارف ويقله لا بنفسه ولا بذبح نفسه أو يحمل ذلك كله على أنه قاله في حال السكر والله أعلم.

فصل

إن التخريب في جملة ما يعتذر عنهم عند المحققين وهو أن يفعل من يظن به صلاحه فساداً وذلك بأشياء كثيرة يدل فعل كل واحد منها على تهاونه بالدين كما سيأتي ذلك إن شاء الله تعالى.

وأما التخريب بالشطح فهو أن يتكلم بكلام عظيم يدعي فيه حالاً عظيماً فوق ما يظن به بحيث يسقط من القلوب ويساء الظن به فيحصل مقصوده في نفي الصلاح عنه وإلى ذلك أشار بحر الحقائق محيي الدين بن العربي بقوله:

ومن شاطح لم يلتفت لحقيقة قد أنزله دعواه منزله الهبا
وقال أيضاً رضي الله عنه:

ومن كاتم للسري يظهر ضده عليه لطلاب المشاهر بالتقى

قال شيخنا العارف بالله سيدي محمد المغربي نفعنا الله به أشار الشيخ بذلك إلى الملامية الذين يتلبسون بالمنكرات في الظاهر وليسوا في حال الباطن منها في شيء وقال اليافعي في كفاية المعتقد اعلم أن مذهب التخريب مبني على إظهار المساوى وإخفاء المحاسن وأنواع التخريب كثيرة والمخربون كثيرون ولا يزالون يتعاطون ما يؤدي إلى إساءة الظن بهم وسقوطهم من قلوبهم الخلق ورميهم لهم بالعظائم، لا يحتفلون بمدح الخلق ولا بدمهم استجلاباً لكمال الإخلاص واستبراء للنفس من شوائب الشرك الخفي الذي لا يسلم منه إلا الخواص لا يبالي أحدهم بكونه بين الخلق زنديقاً إذا كان عند الله صديقاً فبعضهم يوهم الناس أنه يصلي ولا يصوم فيما بينه وبين الله وقد شوهد منهم كثير يصلون في الخلوات ولا يصلون بين الناس.

وبعضهم: إذا بات عند الناس يوهم أنه نائم ويخرج إلى بعض المزابل يوهم أنه يبول وليس يبول ولا نوم بل يصلي الصبح بوضوء العشاء وبعضهم يصلي بين الناس ولكن لا يرى في الصلاة يحتجب عن الناس بحاله إخفاءً للمحاسن كما تقدم.

وبعضهم يكشف عورته بين الناس وبعضهم يشتم الناس بالألفاظ القبيحة وبعضهم يجعل قصبة ويعدو عليها كأنما فرسه وبعضهم يشتغل ببعض الحرف الدنيئة وبعضهم جاءه بعض الملوك يزوره في بعض عسكره فاستدعى بطعام وجعل يأكله أكلاً بشعاً شنيعاً فانصرف عنه الملك لما رأى ذلك.

وبعضهم يأخذ شيئاً للناس حتى ينسبوه إلى اللصوصية وتزول عنه شهرة الصلاح كما حكى عن إبراهيم الخواص رضي الله عنه أنه لا يقيم في بلد إلا أياماً معدودة خوف الشهرة فلما دخل بعض البلاد اشتهر فيها فأراد أن يزيل عنه شهرة الصلاح وما يترتب عليها من الضرر فدخل الحمام ووجد لباس ابن الملك قد نزع ووضع عند الحمامي ليحفظه له فغفل الحمامي عنه فلبسه الخواص ولبس من فوقه ثيابه وخرج يمشي رويداً حتى يلحقوه وينسبوه إلى اللصوصية وتزول عنه شهرة الصلاح فلحقوه وأخذوا منه ذلك وضربوه وسموه في تلك البلدة لص الحمام فقال لنفسه ها هنا طاب المقام.

وقد سأل بعض الفقهاء بعض الفقراء عن هذه القضية بعينها وقال له أريد أن تقيم على جوازها دليلاً ظاهراً من ظاهر الفقه وإلا لا أقبل ما يذكره الفقراء قال له

الفقير وما طلبته من الدليل حاصل قال: وما هو؟ قال: أليس يجوز في ظاهر الفقه استعمال بعض المحرمات عند بعض الضروريات كاستعمال النجاسات في مداواة قال الفقيه بلى يجوز ذلك فقال الفقير: فكذلك في هذه المسألة داوى قلبه بهذا المحرم فاعترف الفقيه وقال هذا الجواب هو الفقه بعينه.

قلت: وقد زدت هذا الجواب بياناً إذا جاز أن تداوي الأجسام من الأسقام شيء حرام فلأن يجوز أن تداوي القلوب التي هي محل المعرفة والنور بشيء محظور أولى وأبعد من المحذور وشتان ما بين المرضيين فمرض الأجسام رحمة وحسنات ومرض القلوب نقمة وهلكات وأين هلاك الأبدان من هلاك الأديان ففي هلاك الأديان سخط الملك الديان والبعد من الرحمة والقرب من الشيطان وليس كذلك هلاك الأبدان فظهر أن مداواة القلب من مرض ضرر الشهرة وغيرها أولى وأحرى.

وقد نبه النبي المكرم ﷺ على شرف القلب بقوله ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ألا وهي القلب» أخرجاه في الصحيحين⁽¹⁾ وإلى ذلك أشار الياضي رضي الله عنه بقوله:

وبعض على التخريب مال تسترا لكيلا يرى فيه الصلاح ويحمدا
يداوي لقلب في حرام مخفف لجسم وبل أولى جوازاً مؤكداً
لأن سقام الجسم أجر ورحمة وبالضد سقم القلب للدين مفسداً
كما فعل الخواص في لبس خلعة ابن ملك بحمام لغسل تجردا
ليدعوه لصاً ثم تذهب شهرة فلا قط يدعى صالحاً متعبداً
قوله «في حرام مخفف» أي لا يداويه بالتخريب بحرام مغلظ كالكبائر ونحوها
ومع هذا يحتاج إلى معرفة فلا ينبغي أن يقرب الحرام إلا إذا علم بنور الله تعالى أنه
إن لم يقدم على الحرام المذكور دخل عليه من الفساد والضرر أكثر مما يدخل عليه
بارتكاب الحرام، ومع هذا يستدرك ذلك بالاستغفار وبالعتق لمن ظلمه بسبب تخريبه
المجاوز للحق الواجب عليه في ظاهر الشرع، وكذلك إذا حصل الغرض بالتخريب

(1) صحيح البخاري، باب فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم (52) [28/1] وصحيح مسلم، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث رقم (1599) [3/1219] وروى الحديث غير البخاري ومسلم.

بمكروه ولا يجوز بحرام وقول ابن ملك ملك هنا بسكون اللام لغة في ملك بكسرهما ومليك بالياء أحد الملوك .

فقلت وللمخربين حكايات كثيرة صحيحة لا يمكن حصرها من ذلك ما حكى عن الشيخ عبد العزيز المنوفي - رضي الله عنه - أنه اشتهد عليه نفسه في بعض سياحاته شهوة وألحت عليه فيها فعدل إلى بعض القرى فإذا فيها ناس مجتمعون فدعته نفسه إلى الوقوف عليهم لينظر على أي شيء اجتمعوا فإذا فيهم شيخ يضرب لهم بدف أو قال: بطل فقلت في نفسي ما لقي هذا الشيخ إلا هذه الصنعة .

قال لي: لو لقينا صنعة أفحش من هذه الصنعة دخلنا فيها ثم مشى بي إلى بيته فدق الباب فخرج «بنية» له صغيرة وقالت يا أبي ترى حاجة الشيخ عبد العزيز قد جهزناها له قال فمقت نفسي ونويت أني ما بقيت أكلها فقال لها: يا بنية هو قد خرج عنها قال: فبت عنده إلى الصباح .

ومن ذلك ما حكى وروي عن بعض الفقهاء أنه قيل له ذات ليلة في النوم أنت من الأبدال فلما أصبح قال في نفسه إذا كنت من الأبدال فما بقيت أسلم للسلطان شيئاً من المكتب يعني من خراج الأرض الذي يكتب على أهل الحرث ويؤخذ منهم للسلطان شيئاً .

وكان الفقيه المذكور حراثاً فأتى إليه أعوان السلطان الذين يجمعون الخراج وطالبوه فأبى أن يعطيهم شيئاً فأعلموا الأمير بذلك فلاطفه الأمير في تسليم ذلك فامتنع فقال له يا فقيه نحن نحترمك ونبجلك وما نشتهي لك إهانة فلا تحوجنا إلى الشر والخروج إلى ما تكره فلم يفعل وقام رجل «مشا على» ممن يخدم ولاية الأمير وقال للأمير ومن عنده من كبراء الديوان دعوني أحل بالفقيه وأكلمه فقالوا: ما جاء منه شيء بكلامنا له يجيء بكلامك أنت؟ فقال: خلوني وما عليكم فقالوا: دونك .

فتباعد به عنهم ثم قال له: يا فقيه هم قالوا لك البارحة في النوم إنك من الأبدال قال: نعم قال: فقالوا لك: إنك منهم الآن. قال لا قال: فأعطهم حقهم الذي طلبوه منك وأنت سالم حتى يجيء ذلك الوقت: فإذا جاء فحينئذٍ اقطع وصل وول واعزل وما يكون ذلك حتى أموت أنا فإذا مت وجعلت في مكاني فقم الساعة واعطهم الذي لهم مثل غيرك، فقال السمع والطاعة، فقام وأعطاهم فتعجبوا من ذلك وما دروا أنه من الأبدال السادات أولى السعادات ومنهم من ستر بحمل المشعل حاله .

ومن ذلك ما حكى الشيخ المشهور صفي الدين بن أبي المنصور - رضي الله

عنه - في رسالته قال : لما جاء الشيخ الإمام شهاب الدين السهروردي رضي الله عنه إلى دمشق في رسالة الخليفة إلى الملك العادل بالخلعة والطرق وغير ذلك قال لأصحابه : أريد أن أزور علياً الكردي فقال له الناس : يا مولانا لا ينبغي لك هذا أنت إمام الوجود هذا الرجل لا يصلي ويمشي مكشوف العورة أكثر أوقاته في الجامع حتى دخل عليه موله آخر يقال له : يا قوت فساعة دخوله من الباب خرج الشيخ علي من دمشق وسكن جنباتها بالباب الصغير وما دخلها بعد ذلك إلى أن مات وياقوت فيها يتحكم .

فقالوا للشيخ شهاب الدين هو بالجبانة فركب بغلته ومشى في خدمته من يعرفه فلما وصل إلى قريب مكانه كشف عورته فقال الشيخ شهاب الدين ما هذا شيء يصدعنا عنك وها نحن ضيفانك ثم دنا منه وسلم عليه وجلس معه وإذا بحمالين قد جاؤوا ومعهم مأكول معتبر فقال لهم : من تريدون؟ قالوا الشيخ الكردي ، فقال لهم ، دعوه قدام ضيفي وقال الشيخ شهاب : هذه ضيافتك فأكل ، وكان يعظم الشيخ عليا الكردي .

ومما ظهر من كرامات الشيخ علي المذكور أنه دعا رجل من أعيان دمشق يقال له بدر الدين ودعى الفقراء المعروفين في الجامع وغيره فهم مجتمعون وإذا بالشيخ علي قد جاء إلى الدار فرأى في صفة منها قوالب سكر فقال سكر لصاحب الدار : ارمها كلها في البركة قال : نعم ثم رمي الجميع في البركة فصار الفقراء يشربون الجلاب ويسمعون إلى آخر النهار ثم أكلوا وانصرفوا ثم قال الشيخ لصاحب الدار أخرج القوالب فأخرجها ووجدها كلها صحاحاً لم يذهب من السكر شيء وأنشد بعض المخربين بالجنون .

وموت دهري بالجنون على الورى لأكتم ما بي من هواه فما انكتم ولما رأيت الشوق بالحب بائحاً كشفت قناعي ثم قلت : نعم نعم فإن قيل مجنون فقد جنن الهوى وإن قيل مسقام فما بي من سقم وقال شيخ الطريقة معدن الحقيقة شهاب الدين المتقدم ذكره في عوارف المعارف الملامتى : هو الذي لا يظهر خيراً ولا يضمراً شراً وشرح هذا أن الملامتى تشربت عروقه طعم الإخلاص وتحققت بالصدق فلا يجب أن يطلع أحد على حاله وأعماله . وقال الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي الفوارس في بعض تصانيفه : اعلم

أن الصوفية على نعتين سلامتي وملامتي: فالسلامتي هو المتمسك بما نص عليه الكتاب والسنة ظاهراً وباطناً.

والملامتي هو الذي يتمسك بالحقائق المكونة في جداول آيات الكتاب والسنة سرّاً وعلانية.

وقال أيضاً السلامتي من عينه إلى عين الطريق والفريق والملامتي من عينه إلى سر الطريق ومن الشطحيات المنقولة عن الملامتية ما حكى أن أبا يزيد البسطامي دخل بعض البلاد فأقبل الخلق عليه فطلع إلى موضع عالٍ ووقف وقال يا قوم إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدون فرجع الخلق عنه وقالوا: إنه مجنون وقواعد مناهج الملامتية محكمة بمعنى هذين البيتين.

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
فيا ليت ما بيني وبينك عامر وبينني وبين العالمين خراب
ومنها: القول بقدم العالم اعلم أن القائلين بذلك من الصوفية ليس مذهبهم في ذلك كمذهب الفلاسفة معاذ الله ثم معاذ الله فقد قال رئيس القوم وسيد السالكين في زمانه الجامع بين علمي الظاهر والباطن أبو حامد الغزالي رضي الله عنه في كتابه المنقذ من الضلال يجب تكفير الفلاسفة في ثلاث مسائل:

الأولى: القول بقدم العالم.

الثانية: قولهم: إن الله يعلم الكلّيات ولا يعلم الجزئيات.

الثالث: إنكارهم حشر الأجساد.

وقال بعض العلماء: اختلف الناس في معرفة الصانع والمصنوع فقال بعضهم: العالم محدث لما فيه من دلائل الحدث من التأليف والتصوير والحركة والسكون وذلك دليل على أن له صانعاً قديماً بخلافه.

فقال بعضهم: قديم لأنهم لم يشاهدوا شيئاً إلا من شيء كالإنسان لا يكون إلا من نطفة والطير لا يكون إلا في بيضة وإنما يقع نمو ذلك باعتدال الحر والبرد والرطوبة واليبس ويقع فساده بإفراط أحدها فيه ثم اختلفوا من قال بقدم العالم.

فقال الهيلولائيون: ومن قال بقولهم هيولاه قديم وتفسير الهيلولي أصل الأشياء مثل القطن للثوب وهو هيولي له فالهيولي هو المدبر للعالم وهو أصل له لم يزل وقوة معه فالعالم لم ينفك عن عرض وجوهه فالجواهر القابل للأعراض الهيلولي

حركة القوة فحدث البرد ثم حركها فحدث الحر فقبلهما الجوهر فالجوهر قديم معه .
وقالت الأطباء ومن قال بقولهم أربع طبائع لما طوي يتعلق بمذاهب الحكماء
والفلاسفة لا حاجة إلى الخوض فيها وإنما ذكرت هذا القدر اليسير ليعلم أن من قال
من الصوفية بقدم العالم لم يقصد شيئاً معارضاً لمذاهب أئمة الإسلام . بل إنما قصد
والحال هذه قدمه من حيث العلم القديم والإرادة الأزلية لأن العالم وجميع ما حدث
فيه من الكائنات كان موجوداً وبيان ذلك أن الله سبحانه وتعالى أراد وجود العالم في
الأزل وعلم بإرادته القديمة جميع ما يحدث فيه من الأمور والكائنات إلى يوم القيامة
فالعالم حينئذٍ كان هناك في الأزل موجوداً علماً وإرادة وإن كان معدوماً حساً وصورة
لأن الله تعالى كان في قدم ولا شيء معه .

قال بعض المحققين : العالم قديم التعيين حديث النبيين فأما قدمه في التعبير
فهو اختيار الحق تعالى إيجاده في الأزل وأما كونه حديث النبيين فهو إبرازه بهذه
الصورة التي هو عليه في الأبد :

قلت : إذا تقرر ذلك علمت أن هذه المسألة في كتبهم عين الشريعة بلا شك
وغيرها من مسائل المعاينة التي صرح بها القوم وإلى هذا أشار بحر الحقائق حامل
اللواء العالم بالله محيي الدين بن العربي قدس الله روحه - بقوله :

لا أقول بتكرار الوجود ولا عود التجلي فما في الأمر تكرار
فالبحر بحر على ما كان في قدم إن الحوادث أمواج وأنهار
لا يحجبك إشكال مشكلة عن تشكل فيها فهي أستار

قال شيخنا العارف بالله سيدي محمد المغربي : اعلم أن بكل مسألة ذات خلاف
تأويلات قل أن يتعين تقيدها بجهة من المعاني دون جهات فمن أثبت الصفة شهد
العالم آثار الصفات وإلا شهد مجرد إثبات عين الذات متجلية متوحدة بانفرادها منزهة
عن وجود سواها في جميع الحضرات فحال هذه المعارف حال من استغرقه شهود
البقاء بالله تعالى واستهلك عن شهود سائر الموجودات فوجود الوجود وموجوده في
الأزل علماً عند أهل النفي والإثبات كالبحر العجاج ووجود ذلك البحر وشهوده هنا
في الأبد عيناً كتلاطم الأمواج وليس بين بحر الأزل وموج الأبد غيرية سوى عينية
اتحاد تصرف الإرادة بالقدرة السارية الجارية أزلاً وأبداً في جميع الأوقات هذا القدر
هو المفهوم لنا من ظاهر معاني هذه الآيات . وما بطن منها فهيات أن يطلع عليه إلا

رب السماوات ومن أيده الله تعالى بروح من عنده أطلعه على مثل هذه الكرامات .

يَنْكُؤُوا تَنْبِيهِ :

اختلف في صفات الأفعال فالأشعرية على أنها حادثة والحنفية على أنها قديمة وإليه ذهب كثير من الصوفية فقالوا: لم يزل خالقاً واحتجوا بأنها لو كانت حادثة لكان ناقصاً فيما لم يزل قال القونوي في شرح «التعرف» ويقال لهم يلزمكم على هذا قدم الخلق لأن قولكم لم يزل خالقاً يوجب كون الخلق معه في القدم قال: وهذه شبهة الفلاسفة في قدم العالم .

وقد يحكي بعضهم أنه صعد المنبر وقال للحاضرين ما تقولون في رجلين اعتقاد أحدهما أن الله لم يزل مالكاً للملك خالقاً للخلق رازقاً غنياً جواداً مفيضاً للخيرات له الخلق والأمر أزلاً وأبداً، والآخر معتقد أن الله كان في الأزل وحده لم يكن معه شيء ولا كان له خلق ولا أمر حقيقة ثم تجدد له ذلك أيهما أحق بالاتباع . فبادر الناس إلى أن القائل الأول أحق بالتصديق والاتباع وهذه وسيلة فلسفية فلينتبه لها ليتحرز عنها قلت: لا نسلم أن مقالة الأول وسيلة فلسفية أزلاً فرق بين المقالتين عند تحقيق المناط لأن قوله «إن الله لم يزل مالكاً للملك» أي بالقدرة والإرادة أزلاً بالفعل وجوداً وصورة وهذا عين قوله الثاني بلا شك حيث قال إن الله كان في الأزل وحده أي كان الله في الأزل وحده مع القدرة والإرادة لخلق الخلق إيجاباً لا وجوداً ثم قال القونوي رحمه الله - ويقال لهم لا نقص مع تحقيقي القدرة الكاملة أزلاً وأبداً وإنما اقتضت الحكمة الإلهية تأخير الخلق إلى حين إرادة الله لتعلق القدرة الأزلية بإيجاده وإذا استحال كون الحادث أزلياً لم يكن تعلق القدرة بإيجاده أزلاً لنقص في القدرة بل لعدم قابلية المستحيل لتأثير القدرة فيه بالإيجاد قلت:

هذا مراد السادة الصوفية ولا يظن بهم خلاف ذلك معاذ الله ولهذا قال شيخنا

العارف بالله سيدي محمد المغربي :

«قول السادة الصوفية إن الله تعالى لم يزل خالقاً أي لم يزل موصوفاً بالقدرة على ذلك أزلاً وأبداً ولا يلزم من إيجاد الخلق في الأبد وجوده في الأزل لأنه تعالى كان موصوفاً أزلاً بالقدرة على الفعل إرادة لا بالفعل وجوداً إذ لو كان موجوداً بالفعل أزلاً للزم من ذلك للحادث من القدم أو للقدم من الحدوث ما يلزم والله أعلم .

فصل

ومنها ما صرح به بعض الصوفية فيه تفضيل الولاية على النبوة وهذا القول ليس بكفر عند المحققين من أهل الشريعة فضلاً عن أهل الحقيقة لأن صاحب هذا القول لم يقصد به ما يفهم من ظاهره بل هو مؤول بما سنذكره .

وتأويله ما ذكر الشيخ علاء الدين القونوي في شرح التعرف : أن الولاية والنبوة بينهما عموم وخصوص مطلق فكل نبي ولي ولا عكس فلا ينفك النبي عن كونه ولياً أصلاً كما أن بين النبوة والرسالة عموماً وخصوصاً مطلقاً فلا ينفك الرسول عن كونه نبياً أصلاً ثم قال صاحب هذه المقالة إن النبي من حيث كونه ولياً أفضل من حيث كونه نبياً ولا يلزم من ذلك ما ظن من المحذور لأنه إنما كان يلزم تفضيل الولي على النبي لو وجد نبي غير ولي وهذا لا يوجد كما تقدم .

فالنبي فيه الولاية وزيادة النبوة فهو أجل مقاماً وأشرف ونظير هذا ما قاله سلطان العلماء الشيخ عز الدين بن عبد السلام أن مقام النبوة أفضل من مقام الرسالة كما حكاه ابن جماعة في شرح جمع الجوامع نظراً إلى أن النبوة مقام العمل فهي متعلقة بالله تعالى من طرفيها والرسالة مقام التبليغ فهي متعلقة بالخلق ثم لا يلزم من هذه المقابلة تفضيل النبي على الرسول لأنه لا يوجد رسول وهو غير نبي حتى يلزم ذلك بل الرسول فيه النبوة وزيادة الرسالة فهو أفضل من النبي قطعاً لاجتماع المقامين فيه فافهم ذلك .

وقال صاحب التعرف وأجمعوا على أن الأنبياء عليهم السلام أفضل البشر وليس في البشر ما يوازي الأنبياء في الفضل لا صديق ولا ولي ولا غير ذلك وإن جلّ قدره وعلت مرتبته .

قال القونوي قصده بهذا الكلام الرد على ما يروى عن طائفة من الضلال أن الولي أفضل من النبي وهذا عند أهل التحقيق كفر لا يعتقده إلا كل زنديق وما ادعاه حكم عليه بالتكفير والتضليل قال : نعم وقع في كلام بعض المتأخرين أن الولاية أفضل من النبوة وتأويله من يحسن الظن فيه بأنه ما أراد تفضيل المتصف بالولاية المجردة على المتصف بالنبوة وإنما أراد أن النبي فيه صفتان وذكر نحو ما تقدم .

قلت قد صرح الشيخ محيي الدين بن العربي نفسه بهذا المراد فإنه قال في كتاب مقام القرية وإذا سمعتم لفظة من عارف متحقق مبهمة وهي أن يقول الولاية هي

النبوة الكبرى أو الولي العارف مرتبته فوق مرتبة الرسول فاعلم أنه لا اعتبار للأشخاص من حيث ما هو إنسان فلا فضل ولا شرف في الجنس بالحكم الذاتي وإنما يقع التفاضل بالمراتب فالأنبياء صلوات الله عليهم ما فضلوا الخلق إلا بالمراتب .

فالنبي ﷺ له مرتبة الولاية والمعرفة والرسالة ومرتبة الولاية والمعرفة دائمة الوجود ومرتبة الرسالة منقطعة فإنها تنقطع بالتبليغ والفضل الدائم الباقي والولي العارف مقيم عنده والرسول خارج وحالة الإقامة أعلى من حالة الخروج فهو ﷺ من كونه ولياً وعارفاً أعلى وأشرف من كونه رسولاً وهو الشخص بعينه واختلفت مراتبه لا أن الولي منا أرفع من الرسول نعوذ بالله من الخذلان هذا آخر كلام ابن العربي بحروفه وبه يندفع أقوال المعترضين الذين لا معرفة لهم بمصطلح القوم .

وانظر كيف نفى المحذور واستعاذ بالله من الخذلان .

وقال القطب سيدي محمد وفا الشاذلي في كتابه «نفائس العرفان من أنفاس الرحمن»: الولاية لها ظاهر وباطن ظاهرها توفيق العبد لأن يتولى الله بامتثال أمره ونواهيه واتباع مرضاته والنبوة فوق ذلك أي فوق درجة الولاية والرسالة فوق ذلك بما خصص الله الأنبياء من الأنباء والاطلاع على المغيبات ومكاشفة الملكوت وما أيد الله به الرسل من تنزل روح القدس والإمداد بالحكمة والقوة على الدعوة إلى الله تعالى والمعجزات الباهرة والدلالات الظاهرة وإلى غير ذلك .

وأما الولاية الباطنة فهو بما تولى الله به عبده بذاته وأطلعه عليه من مكنون أسمائه وصفاته وأحضره في حضائر قدس تجلياته فأخذه منه وأفناه عنه وأبقاه به فهو لا هو، لا هو إلا هو وهذه الولاية هي التي ترقى إليها محمد ﷺ لما فارقه جبريل عند سدره المنتهى وكان بها في مقام قاب قوسين أو أدنى وكانت النبوة في هذا الوجه دون مقام ولايته والرسالة دون مقام نبوته .

وقال القاشاني في تفسير قوله تعالى: ﴿مِنَ الْخَوَافِ الْجُوعِ إِذْ قَائِمًا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُهُ﴾ [سورة النساء، آية: 64] الآية الفرق بين الرسول والنبى أن الرسالة باعتبار تبليغ الأحكام لِبَلَدِكُمْ بِشَيْءٍ مِّنْ ﴿[سورة المائدة، آية: 67] والنبوة باعتبار الإخبار عن المعارف والحقائق التي تتعلق بتفاصيل الصفات والأفعال فإن النبوة ظاهر الولاية التي هي الاستغراق في عين الجمع والفناء في الذات فعلمها علم توحيد الذات ومحو الأفعال والصفات فكل رسول نبي وكل نبي ولي وليس كل نبي مرسلًا

وإن كانت رتبة الولاية أشرف من النبوة والنبوة من الرسالة كما قيل : مقام النبوة في برزخ دون الولي وفوق الرسول .

يَكُونُ تَنْبِيهِ :

قول الشيخ العارف بالله أبي يزيد البسطامي - رضي الله عنه - خضت بحراً وقف الأنبياء بساحله قال قطب الدائرة الشيخ أبو العباس المرسي - رضي الله عنه - به مراده أن الأنبياء خاضوا بحر التوحيد ووقفوا على ساحل الغرق يدعون الخلق إلى الخوض أي فلو كنت كاملاً لوقفت حيث وقفوا .

قال الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله في لطائف المنن : « وهذا الذي فسر به الشيخ كلام أبي يزيد هو اللائق بمقام أبي يزيد » قال والمشهور عنه التعظيم للشريعة والقيام بكمال الأدب حتى إنه حكى عنه أن وصف له رجل بالولاية فأتى إلى زيارته فقعد في المسجد ينتظره فخرج ذلك الرجل وتنخم في حائط المسجد فرجع أبو يزيد ولم يجتمع به وقال هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب الشريعة كيف يؤمن على أسرار الله تعالى .

قال وما جاء عن الأكابر أولي الاستقامة مع الله تعالى في أقوال وأفعال يستنكر ظاهرها أولناها لهم لما علمنا من استقامتهم وحسن طريقتهم وقد ورد : لا تظن بكلمة برزت من امرئ مسلم سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً انتهى . وكيف يظن بهذه المقالة سوى وقد قال أبو يزيد نفسه : جميع ما أخذ الأولياء مما أخذ الأنبياء كزق ملىء عسلاً ثم رشحت منه رشاحة فما في باطن الزق للأنبياء وتلك الرشاحة للأولياء .

وقال شيخنا وإمامنا العارف بالله سيدي محمد المغربي - نفعنا الله به - لعل المراد بهذه المقالة والله أعلم أن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، وقفوا بعدما أذن لهم فيه من الأمر للأمام باتباع الشريعة قال تعالى : **كَلِمَاتُ الْبُيُوتِ مِنْ ظُهُورِهِمْ كَلِمَاتُ الْبِرِّ** من ﴿سورة الجاثية، آية : 18﴾ وكفوا عن الخوض فالأمر لهم بما لم يؤذن لهم فيه من أمر الحقيقة خلاف الولي فإنه قد يؤذن له أن يدعو الخلق إلى الحقيقة بالحق وفي هذا المعنى قال الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض - قدس الله روحه .

ودونك بحراً خضته وقف الأولى بساحله صوناً لموقف خدمة أي كم خضت بحراً في المعرفة طالباً لمقام العارفين وهو مشاهدة الحق بالحق

مع فناء الخلق دونه وقف الأولى وهم الأمم المبتدئون في السير إلى الله تعالى وهم العابدون حسب ما أذن لهم في أنبيائهم لأن الشرائع ظاهرة سهلة قريبة مبنية على الرخص والتخفيف بخلاف الحقيقة التي مبنها على العزيمة والتشديد وقوله بساحله بداية مسير العارفين وقوله: «صوناً لموقف خدمة» أي حفظاً للقيام بالعبودية والحقوق اللازمة والله أعلم.

فصل

ومنها قول أبي يزيد أيضاً: «سبحاني ما أعظم شأنني» قال: يعتقد في أبي يزيد أنه ما يقول ذلك إلا على معنى الحكاية عن الله - تعالى - وهكذا ينبغي في قول الحلاج: «أنا الحق» وقال الشيخ قطب الدين القسطلاني في بعض كتبه: وممن نقل عنه أنه شطح في إشارات وطفح وجده في عباراته الشيخ أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه فمن ذلك قوله: «سبحاني ما أعظم شأنني».

قال: وتكلم أهل الطريق في إيضاحه فممن تكلم في شرح معناه الجنيد وسواه، فنقل عن الجنيد أنه قال فيه: جرت عليه أوقات الغفلة ثم صحا فقال، يعني ذلك حيث صحوت بربي وقيل نظر إلى ذكر الله القديم له فغاب بذلك عن حدوثه وصفاته وقال: سبحاني إذ كنت ممدوحاً في الذكر المصون ولا ماء ولا طين.

وقال القسطلاني قلت ويحتمل أن يكون قامت به في ذاته صفة من العظمة والجلال فتلاشى معها عنده وجدانه، فشهد تلك الصفة وغاب عن وجوده فنطق عن تلك الصفة المشاهدة منزهاً لها بعظمة شأنها، فظن السامع أنه يعني نفسه وهو لم ير لها وجوداً فيكون معبراً عنها، بل عبر عن تلك الصفة القائمة فيه، ثم ذكر احتمالاً آخر لم أذكره اختصاراً وقال في آخره، وكلا من الاحتمالين يصلح أن يكون مقصوداً في نفسه غير أن ظاهر ذلك ينبو عنه الفهم أول وهلة، فإذا تدبرته علمت صحته وفهمت مقصده والله أعلم.

يَنْكُرُ قَاعِدَةَ فِي مَعْرِفَةِ التَّأْوِيلِ:

اعلم أن التأويل في كلام القوم أمور:

أحدها: أن العبارة عن المعاني المدركة بالوجدان على ما هي عليه تعسر جداً ألا ترى أن الشخص لو أراد أن يصف لذة الجماع لمن ليس له مباشرة بعبارة توصل ذلك إلى فهمه على الحقيقة لم يستطيع ذلك أبداً، ومن الأمور المقدرة في المعقول أن البديهيات والضروريات لا يمكن حدها، وقد قال الإمام فخر الدين الرازي: إن العلم لا يحد، لأنه ضروري.

وقال إمام الحرمين: إنه نظري عسر الحد فيدرك العارف منهم معنى قائماً بقلبه

فيريد التعبير عنه فلا يمكنه عبارة تعطيه، فيأتي بعبارة موهمة كما قال حجة الإسلام الغزالي في الفناء إن العلماء به قصرت عباراتهم عن إيضاحه وبيانه بعبارة مفهومة موصلة للغرض إلى الأفهام.

وكما قال ابن عباد في مراتب الشهود إن التفرقة بين حقائقها على ما هي عليه تقصر العبارة عنه وإنه زلت بسبب ذلك أقدام كثير من الناس، وقال صاحب التَّعْرِفِ «مشاهدات القلوب ومكاشفات الأسرار لا تمكن العبارة عنها على التحقيق بل تعلم بالمنازلات بالمواجيد، ولا يعرفها إلا من نازل تلك الأحوال» زاد القونوي في شرحه ونظير ذلك حال المسرور والمهموم من يصف السرور والمهموم، قال: وقد يجد الإنسان في نفسه أموراً يتحققها وتضيق عنها عبارته ويقصر عن تعريفها إشاراته».

الأمر الثاني: إنه يمكن استعمال اللفظ في معنى آخر غير المشهور على السنة العلماء تواضعاً منهم كلفظ الاتحاد فإنه يطلق على المعنى المرادف للحلول كما جمع بينهما الغزالي والبيضاوي وذلك لغز ويطلق بمعنى التوحيد وإفراد الأمر كله لله تعالى وقد نبه على ذلك من أئمة العلماء غير واحد، ولهذا قال سيدي علي بن وفا قدس الله روحه في قصيدة له:

يظنوا بي حلوياً واتحاداً وقلبي من سوى التوحيد خالي

فتبرأ من الاتحاد بمعنى الحلول وقال أيضاً رضي الله عنه في أبيات آخر:

وعلمك أن كل الأمر أمري هو المعنى المسمى باتحاد

فذكر أن المعنى الذي يريدونه بالاتحاد إذا أطلقوه هو تسليم الأمر لله تعالى وترك الإرادة معه والاختيار والجري على مواقع أقداره من غير اعتراض وترك رؤية الخلق ونسبة العطاء والمنع مثلاً إليهم.

وقال أبو يعقوب: الخالص من الأعمال ما لم يعلم به ملك فيكتبه، ولا عدو يفسده ولا النفس فتعجب به، قال صاحب «التعرف»: معناه انقطاع العبد إلى الله تعالى والرجوع إليه من فعله، قال القونوي: أي إذا كمل انقطاع العبد إلى الله تعالى فناؤه عن فعله يصير فعله كلاً فعل، فكأنه لم يفعل شيئاً، فلا الملك يكتبه ولا العدو يفسده ولا النفس تعجب به، أي على سبيل التشبيه والتقدير إذ التقدير إعطاء الموجود حكم المعدوم أو بالعكس.

قال: وأكثر ما يقع في كلام هذه الطائفة من الإشارات محمول على هذا النوع من الاستعارات ومن حملها على ظواهرها أشكلت عليه معانيها فأساء الظن بهم نعوذ بالله من ذلك.

الأمر الثالث: أن يكون ما وقع في ألفاظهم موهماً مضافاً إلى أنفسهم وهو مما لا يضاف إلا إلى الله تعالى لم يقصدوا به حكايته عن أنفسهم وإنما أوردوه كله مورود الحكاية عن الله تعالى فإن الكلام ينقسم إلى ما يحكيه المتكلم عن نفسه وإلى ما يحكيه عن غيره وإن لم يصرح بالإضافة إليه كحديث البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال عن الله: «ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا إذا احتسبه إلا الجنة»⁽¹⁾.

فهذا إنما قاله ﷺ حكاية عن ربه وإن لم يصرح به وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [سورة الصافات، آية: 164] فهذا على لسان الملائكة وقال تعالى: ﴿إِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَىٰ﴾ [سورة مريم، آية: 64] فهذا على لسان جبريل، ومثله قول سيدي علي بن وفا - رضي الله عنا به آمين -:

كمالك حالتي في كل حالي ونقصك إن تعاند في مرادي
فإن هذا قاله على لسان الحقيقة، وكذا قول الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض قدس الله روحه:

فلم تهوني ما لم تكن في فانيا ولم تفن ما لم تجتلي فيك صورتني
قال شيخنا العارف بالله سيدي محمد المغربي: هذا وارد نطق على لسان الحقيقة وتقرير ذلك أن تعلم أن الفناء الأول هو التخلي عن الأوصاف البشرية والتخلي أي التخلق بالأوصاف الربانية، وهذا هو مقام المحبة لأن المحب فني عن صفات نفسه وبقي بصفات محبوبه وهو البقاء الأول ويسمى أيضاً مقام الجمع باعتبار اتحاد المعنى الجامع وهو المحبة، لكن هذا مشهود الفناء، مشهودك لنفسك ونسبتك الأوصاف الربانية التي تخلقت بها إليك، ولهذا قال رضي الله عنه ونفعنا ببركاته.

(1) صحيح البخاري، باب العمل الذي يبتغي به وجه الله فيه سعد، حديث رقم (6060) /5/ [2361] ورواه أحمد في المسند عن أبي هريرة، حديث رقم (9382) [417/2] وروى الحديث غيرهما.

فلم تهوني ما لم تكن فيّ فانياً ولم تفن ما لم تُجتلى فيك صورتني
يعني إذا ترك أوصافك البشرية وتفن عنها في حبي لم تهوني، ولم تفن إذا لم
تشرف على قلبك صورة حسن الأوصاف الربانية التي يتخلق بها السالك وأما مقام
فناء الفناء فهو حضرة جمع الجمع وبقاء البقاء ومن لازم هذه الحضرة الشريفة فناؤك
فيها بشهود الحق - تعالى - عن شهودك ونسبتك للأوصاف الربانية إليها لا إليك متبرئاً
منها مع دوام التلبس بها وإلى المقام أشار في الثانية أيضاً بقوله:

فنا الحب ها قد بنت عنه بحكم من يراه حجاباً فالهوى دون رتبتي
قلت: لكن يشترط مع ذلك لطيفة علمية عليها يترتب التكليف وذلك كما يكون
الإنسان في البيت المظلم فهو عالم بوجوده وإن كان غير مشاهد له، كذا نقله الشيخ
تاج الدين ابن عطاء الله السكندري في لطائف المنن عن شيخه القطب أبي العباس
المرسي والله أعلم.

ومما ورد على لسان الحقيقة ما قاله ابن الفارض - رضي الله عنه -:

وإن عبد النار المجوس وما انظفت كما جاء في الأخبار في ألف حجة
فما عبدوا غيري وما كان قصدهم سواي وإن لم يضمروا عقد نيتي
فهذا أيضاً إنما قاله على لسان وارد الحقيقة حالياً عن الله تعالى مشيراً به إلى أن
عبادة الكفار وسجودهم للنار والصنم والوثن واقع في الحقيقة لله تعالى لأن
المذكورات أقل من أن تعبد ويسجد لها، فتقع السجدة لله على رغم أنف الساجد وهو
كافر بنية السجود لغير الله، وهذا معنى ﴿وَلَهُ اسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا
وَكَرْهًا﴾ [سورة آل عمران، آية: 83] أخرج ابن أبي حاتم في تفسيره عن قتادة في
الآية الأولى قال: المؤمن يسجد لله طائعاً والكافر يسجد كارهاً» وأخرج ابن جرير
وابن أبي حاتم وابن المنذر بسند صحيح عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَكَلَّفَ
الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا بِلُيُوتٍ مِنْ﴾ [سورة الرعد، آية: 15]. قلت هذا مما يستدل به على
التوحيد الحالي الباطن الذي أشار إليه الشيخ شرف الدين بن الفارض بقوله:

شهودي بعين الجمع كل مخالف ولي ائتلاف صده كالمودة
وقوله أيضاً رضي الله عنه:

هنيئاً لأهل الدير كم سكروا بها وما شربوا منها ولكنهم هموا
فأما قوله شهودي بعين الجمع إلى آخره: فأشار بذلك إلى أن كل مخالف في

الظاهر هو عين الموافق باعتبار الباطن وبيان ذلك أن المراد بهذا كله وما في معناه حالة الجمع بعالم موطن: ألت بربكم الأزلي وحالة الجمع أيضاً بحضرة الرب بمشهد القلب الأبدي وشاهد هاتين الحضرتين حديث القبضتين المشتمل على طاعة الفريقين فسلكت إلى ربها كل فرقة طريقها ولم تعترها فترة معصية عن سيرها تعيقها وليس لها حظ عن رحالها على ممر الليل والنهار إلا في الجنة أو النار لقوله تعالى [كما في الحديث القدسي]: «هؤلاء للجنة ولا أبالي وهؤلاء للنار ولا أبالي»⁽¹⁾.

فتبين لك بذلك أن الفرقة التي عصت الحق تعالى في الظاهر وخالفت داعي أمره قد أطاعت في الباطن وما خالفت سلطان حكمه وقهره وكلام أهل الحقيقة الباطنة لا يعدو هذا الحكم الباطن ولا يتعدى منه إلى غيره ومن يفهم غير ذلك من كلام القوم فقد أخطأ الصواب ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَرَأَيْتُمْ لَمَّا أَخْرَجْنَاهُم مِّنَ الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمُ الْغُرُوبَ وَجَعَلْنَا لِكُلِّ قَوْمٍ لِّسَانًا مُّشَابِهًا ۗ وَلَئِن كُنَّا تُبٰرِكًا ۗ لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ۗ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [سورة البقرة، آية: 211].

وأما قول: هنيئاً لأهل الدير، فحقيقة التهئة لمثل هؤلاء دون مجازها عليها شديد الإنكار وأي تهئة تحصل لهم ومصيرهم إلى النار، وأما مجاز التهئة لهم فمبني على صدق قصدهم ونيتهم بالعبادة للإله المعبود بحق وإن أخطأوا في تسميته مثلاً بالصنم والحجر والشمس والقمر لأن العبادة لا تقع إلا لله على رغم أنف العابد كما في تفسير قوله تعالى: ﴿ كَوَيْلٌ لِلرَّبِّ بَيِّنَاتٌ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ بَيِّنَاتٌ مِّنَ آيَاتِهِ ﴾ [سورة الرعد: آية: 15].

قال ابن عباس: عبادتهم أجمعين من مؤمن وكافر فإن الكافر يسجد لله كارهاً والمؤمن يسجد لله طائعاً كما تقدم ذلك.

وقال القاشاني في تفسير قوله تعالى: ﴿ اَللّٰهُ لَاۤ اِلٰهَ اِلَّا هُوَ ۗ ﴾ [سورة البقرة، آية: 255] أي في الوجود، فكل ما عبد دونه لم تقع العبادة إلا له علم أو لم يعلم إذ لا معبود ولا موجود سواه قلت: ونظير ذلك من الشرع ما ذهب إليه زفر من أئمة الحنفية لو صام رمضان من غير نية صح صومه لأن الزمان عينه فعلى هذا المذهب لو نرى صوم رمضان غيره كالنفل مثلاً لا ينصرف إلا إليه وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله.

(1) رواه الحاكم في المستدرک، کتاب الإیمان، حيث رقم (84) [85/1] ورواه البزار في المسند، حديث أبي موسى، حديث رقم (3032) [46/8].

وقوله: «كم سكرُوا بها» أي: كم تعبدوا بهذه النية زماناً طويلاً فصاروا في معنى الموحدين في الباطن فقط لكونهم قصدوا بعبادتهم في الجملة الإله المعبود بحق فلم ينفعهم ذلك لأنهم أخطأوا في التسمية حين عينوه بالوثن وأمثاله من الصور تعالى الله عما يقول الظلمون علواً كبيراً ولهذا قال رضي الله عنه «وما شربوه منها» أي: ما أتوا بكلمة التوحيد المطابقة لتوحيد الحق تعالى بل وحدوا الشيطان بتوحيد الرحمن وذلك أنهم نقلوا موضوع التوحيد القديم الأزلي القائم بالذات القديم المقدسة وجعلوه بإزاء المعاني الحادثة الفانية وقوله: «ولكنهم هموا» أي هموا ابتداءً بالتوحيد حيث تلفتوا إلى معبود بحق قبل التعيين والتسمية فحصل لهم نصيب في الباطن دون الظاهر من التوحيد والله أعلم أنشدني العارف بالله الرباني سيدي محمد المغربي لنفسه:

كل الوجود مسبَّح بالحال وموحد بالله لا بالقال
 إلا سعيد القبضتين فكامل حالاً وقالاً واحداً الأبدال
 فإذا رمقت لعلم قوم باطن سلم لتسلم من شديد وبال
 عملاً بهذا الفصل فهو مردهم وإليه مرجع مغرم بوصول
 كن موسوي الوقت عبداً خاضعاً في حضرة خضرية لرجال
 إياك إياك الوقعة فيهم يسلبك توحيداً فتصبح خالي
 من لي بحمل غشائهم بركابهم فجنابهم بين الخليقة عالي
 الحق بهم ما استطعت تلحق ركبهم واشرب بكأس شرابهم بجمالي
 تحضر حظيرة قدسهم وبأنسهم سر لتبين الشهود بدالي
 وعلى ختام المرسلين تحية محفوفة بجلاله وجماله
 ما لاح برق أو تهلل شارق أو هز شوق عاشقاً بليالي

تنبيه:

وأما تخريج حديث القبضتين فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال في القبضتين «هذه في الجنة ولا أبالي وهذه في النار ولا أبالي» رواه البزار⁽¹⁾.

(1) سبق تخريجه.

قال الحافظ أبو الحسن نور الدين الهيثمي أحد الآخذين عن الحافظ زين الدين العراقي وأحد مشايخ ابن حجر في كتابه «مجمع الزوائد» موضوعه أفراد الزوائد التي في مسند الإمام أحمد وغيره على الكتب الستة ورجاله رجال الصحيح غير نمر بن هلال وقفه أبو حاتم وعن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال في القبضتين «هؤلاء لهذه وهؤلاء لهذه» قال فترق الناس وهم لا يختلفون في القدر رواه البزار والطبراني في الصغير ورجال البزار رجال الصحيح .

وعن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى لما خلق آدم قبض من طينته قبضتين قبضة يمينه وقبضة بيده الأخرى فقال للذي يمينه هؤلاء للجنة ولا أبالي وللذي باليد الأخرى هذه للنار ولا أبالي فهم يتناسلون على ذلك إلى الآن» رواه البزار والطبراني في الكبير والأوسط .

وعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ «قال خلق الله عز وجل آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنها الدر وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم فقال للذي في يمينه إلى الجنة ولا أبالي وقال للذي في كفه اليسرى إلى النار ولا أبالي» رواه الإمام أحمد في مسنده في كتاب القدر والبزار والطبراني وقال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ورجاله ثقات .

فصل

ومن التوحيد الحالي الباطن ما قاله ابن الفارض قدس الله سره على لسان الحقيقة :

وَألسنة الأكوان إن كنت واعياً شهود بتوحيدي بحال فصيحة

قال شيخنا العارف بالله سيدي محمد المغربي قوله : «شهود بتوحيدي» يريد توحيد كل العالم أي التوحيد القهري الحالي المدخل للطائع والفاجر والكافر في حكم العبادة بالحال وقوله بحال فصيحة أخرج التوحيد بالقال فلم يتعرض له ولا لأهله لأنه مخصوص بقوم دون آخرين أي بالمؤمنين دون الكافرين وليس هو المقصود الأعظم في الآية المقتبس منها البيت وهي قوله تعالى: **لِيَعْبُدُونَ لِلَّهِ كُفْرًا** عَلَى النَّاسِ ﴿سورة الإسراء، آية: 44﴾ فشيء نكرة وهي في سياق النفي تعم كل شيء من موحد وجاحد وحيوان وجماد فكأن الحق تعالى يقول كل شيء يوحدني ويعبدني بباطنه وإن اختلف أمر ظاهره :

وإن عبد النار المجوس وما انظفت كما جاء في الأخبار في ألف حجة

فما عبدوا غيري ولا كان قصدهم سواي وإن لم يضمروا عقد نيتي

وإلى هذا التوحيد الحالي العام الإشارة في الآية بالفقه في قوله تعالى: **وَلَمَّا تَبَيَّنَ**

وَإِذَا سَمِعُوا ﴿سورة الإسراء، آية: 44﴾ أي هذا التوحيد الباطن فتنهوا له إن

كنتم فقهاء فإنه يحتاج إلى الفهم وهو موضع العلم الباطن الرباني لعلكم تهتدون لأن

فهمه فضل من الله نعمة ولولا أنه دفع الحرج ورحم الأمة لوجه عليها لعدم فهمها

لذلك التوحيد العذاب والنقمة إنه كان حليماً غفوراً، ومن شواهد توحيد الحال

صلاة الضلال قال الله تعالى: **وَهُمْ يَدْعُونَ لِقَائِهِمْ وَأُوتُوا بِهِ لَكُلٌّ مِّمَّا أَحَدًا إِلَّا مَنْ تَصَدَّقَ مِنْ**

رَسُولٍ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ ﴿سورة النحل، آية: 48﴾ لأن كل الوجود وجد دليلاً

على موجوده فلا يكون بعضه غير دليل بل حتى المخالف بدلالة وجوده ومخالفته

عابد راعع ساجد .

فالقول بأن كل جاحد في الظاهر هو موحد في الباطن جائز بين قوم يفهمون

كتاب الله تعالى مواضع إشارته كما تقدم في قوله تعالى: **لِيَعْلَمُونَ أَنَّ كُفْرَهُمْ عَلَى النَّاسِ** لا الذين يكذبون بما لم يحيطوا به من أسرارهِ وبيناته ولكن لو كان هذا التوحيد ينفع الكفار لما دخل أحد منهم النار وإنما هو شاهد الوحدة الحالية الباطنة الأسرار لأن كل مخالف لله تعالى وإن عصى داعي أمره فقد أطاع سلطان قهره بشاهد حديث القبضتين فكل ظلم وجود في الحكم الظاهر حكمة وعدل في الوجه الباطن .

يَنْكُرُونَ تَذْنِيبًا:

ومما ورد أيضاً على لسان الحقيقة قول ابن الفارض قدس الله سره :

فبي مجلس الأذكار سمع مطالع ولي حانة الخمار عين طليعة
وما عقد الزنار حكماً سوى يدي وإن حل بالأقدار بي فهي حلت
قوله فبي مجلس الأذكار سمع مطالع أي مجالس الأذكار كالمساجد والجوامع
كلها مطالع شمس ومواطن أنس بالله وجمع على الله .

وقوله ولي حانة الخمار عين طليعة الطليعة هنا عين دلالة إثبات الألوهية وطلية
عين كمال تصرف القدرة الربانية بظهور أثرها بالسعادة والشقاوة لأهلها بلا شك ولا
مرية .

وقوله وما عقد الزنار حكماً سوى يدي أي ما كفر من كفر وعقد الزنار والعياذ
بالله إلا بإرادتي وقضائي وقبضي لأهل شقوتي بيد قدرتي وهؤلاء للنار ولا أبالي وإن
حل بالأقدار بي فهي حلت أي ولا آمن وأقر بوحدانيتي إلا بإرادتي ورضائي ومحبتي
وقبضتي لأهل سعادتني بيد قدرتي، وقولي هؤلاء للجنة ولا أبالي، ولا مبدل
لكلماتي وأنا السميع العليم هذا الكلام كله وأمثاله وما في معناه متلقى من وارد
الحقيقة الناطق على السنة أهل هذه الطريقة «فائدة» نقل الشيخ تاج الدين بن السبكي
في الطبقات الكبرى عن الشيخ علاء الدين القونوي أنه قدم إليه سؤال من يهودي
بالشام صورته .

أيا علماء الدين ذمي دينكم تحير دلوه بأوضح حجتي
إذا ما قضى ربي بكفري بزعمكم ولم يرضه مني فما وجه حيلتي
قضى بضلالي ثم قال ارض بالقضا فهل أنا راض بالذي فيه شقوتي
دعاني وسد الباب دوني فهل إلى دخولي سبيل بينوا لي قصتي

إذا شاء ربي الكفر مني مشيئته
وهل لي اختيار أن أخالف حكمه
فأجاب رحمه الله ما نصه:

حمدت إلهي قبل كل مقالة
وحاولت إبلاغ النصيحة منصفاً
فأول ما يلقي إلى كل طالب
نزوع الفتى من كل عقد وشبهة
وإلقاء سمع واجتناب تعنت
إذا صح منك الجدل في كشف غمة
صدقت قضاء الرب الحكيم بكلها
وهذا إذا حققته متأملاً
لأن من المعلوم أن قضاءه
يجوز ولا ياباه عقل كما يرى
كما الري بعد الشرب والشبع الذي
فليس ببدع أن يكون معلقاً
بكفرك مهما كنت بالبغي رافضاً
فمن جملة الأسباب مما رفضته
فأنت كمن لا يأكل الدهر قائلاً
فلو أنتم أقبلتم بضراعة
ووفيتم حسن التأمل حقه
لكان الذي قد شاءه الله من هدى
ولا تتكل واعمل فكل ميسر
ولو كنت أدري أن ذهنك قابل
لأشبع في القول بسطاً محققاً

فهل أنا عاصٍ باتباع المشيئة
فبالله فاشفوا بالبراهين علي
وصليت تعظيماً لخير البرية
لمن طلب الإيضاح في كل شبهتي
لتحقيق حق واتباع حقيقتي
تصد عن الإمعان في نظم حجة
فلا خير في المستمحن المتعنت
بليت بها فاسمع هديت لرشدي
يكون وما قد كان وفق المشيئة
فليس بسد الباب من بعد دعوة
بأمر على تعليقه شريط دعوتي
حدوث أمور بعد أخرى تأدت
يكون عقيب الأكل في كل مرة
قضاء الإله الحق رب الخليقة
تعاطي أسباب الهدى مع مكنتي
مع الأمر والإمكان لفظ الشهادة
أموت بجوع إذ قضى بي بجوعة
إلى الله والدين القويم الطريقة
وأحسنتم الإتقان في كل نظرة
وليس تعرض كي تفوز بنفخة
لما هو مخلوق له دون ريبة
لفهم كلام ذي غمض ودقة
على نمطي علم كلام وحكمة

ولكنما المقصود إقناع متكلم فهناك قصيراً من فصول طويلة
ولولا ورود النهي عن هذه التي سألت لصار الفلك في وسط لجة
فها أنا أطوي ما نشرت بساطه وأستغفر الله العظيم لزلّة

فصل

ومنها قول الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض قدس الله روحه ونور ضريحه ونفعنا ببركاته .

أحباي أنتم أحسن الدهر أم أسا فكونوا كما شئتم أنا ذلك الخل إذا كان حظي الهجر منكم ولم يكن وما الصد إلا الود ما لم يكن قلياً وأصعبُ شيء غير إعراضكم سهل

قال شيخنا العارف الله سيدي محمد المغربي نفعنا الله به قوله : أحباي أنتم ، أي لا أبغي بكم بدلاً ولا عن حبكم حولاً أحسن الدهر أم أساء أي سواء عندي أن نعمتموني في حبكم بوصلكم أو عذبتُموني فيه ببعدم لي وهجركم فكونوا كما شئتم أنا ذلك الخل الوفي الراضي منكم وعنكم بأحكامكم إذا كان حظي الهجر منكم ولم يكن فيه بعاد عنكم فذاك الهجر عندي هو الوصل ومثله قوله في التائية رضي الله عنه :

وعيدك لي وعدٌ وإنجازهُ مُنى ولي بغير البعد إن يرم ينبت أي كالبذر والزرع إنما رمية لإرادة الإنبات والنفع لا لقصد الإبعاد والترك والدفع .

وما الصد إلا الود ما لم يكن قلياً وأصعبُ شيء غير إعراضكم سهل فتبين لنا أن الهجر وما في معناه هجران هجر تأديب وتهذيب واختبار وابتلاء عجيب من الحبيب لإدارة الاختصاص والاجتناب والتقريب وهجر تعذيب وطرده العياد بالله تبعيد لكل عدو لأوليائه من مشرك ومعتد وشيطان مريد . فكل ما يصاب به المؤمن في هذه الدنيا من الآلام والأوجاع والأسقام مما تكفر به السيئات ، وتضاعف به الحسنات وترفع به الدرجات وكذلك ما يعالجه السالك في سكرات وحشة الخروج عن العادات وترك الهوى وقطع المألوفات والإكباب المطبق الدائم على فعل الطاعات وأنواع القربات هو بالنسبة إلى نفسه هجر وصد وقطع وبعد وباعتبار ثمراته التي يتوصل إليها به وفاء وورد ووصل وقرب وكذلك كل مقام في الخير من

أنواع المعاملات والسباق في السير هو بالنسبة إلى المقام نفسه حسنه وبالنسبة إلى ما فوقه من المقامات سيئة وكل كلام ملتبس اجتماع الشيء وضده مبني على قاعدة حديث (حسنات الأبرار سيئات المقربين).
يَكُونُ تَنْبِيهِ :

إلى تسمية الحديث بقوله : حسنات الأبرار سيئات المقربين يزول عنك كل ما تستشكله من أوهام أنواع مثل هذه العبادات وينجلي عنك ما انعقد على غيرك في معنى هذا البيت كسائر الآيات :

ودادكم هجر ووصلكم قلى وقربكم بعد وسلمكم حرب
أي بالنسبة إلى نفسه فاعلم أو إلى مقام آخر كما تقدم ومثله قوله الأستاذ شرف الدين بن الفارض - رضي الله عنا به أمين .

فوصلي قطعي واقترابي تباعدي ووددي صدي وانتهائي بدائي
واعلم أن من واجب حسنات الأبرار شهود الأغيار لترتيب العبادة والأحكام عليه في هذه الدار، وإن كان ذلك من سيئات المقربين الذين استغرقتهم الأنوار، وما استهلك السوي عندهم كما استهلك الليل النهار واستحفظت منهم القلوب فأشهدتها وجه البقاء فما كذب الفؤاد ما رأى وما زاغت الأبصار، فما شهدوا أنفسهم ولا أبصارهم وما رأَت إذا رأَت ولكن الله رأى بشاهد حديث الحب «كنت سمعه وبصره»⁽¹⁾ باعتباره فناء الأوصاف، والحديث صحيح، فلا إنكار كل شيء هالك إلا وجهه، وما من إله إلا الله الواحد القهار، فالأولون شاربون بكأس يحبهم وهم أهل النهاية والأبصار، ولنهاية قربهم وليس لشربهم نهاية ولا قرار، وسقاهم ربهم بحبه لهم في خلوة من الأذكار شراباً طهوراً هو الحب سليماً من الادكار **مَلِكُوفٍ** **وَأَلْجُوعٍ** [سورة المطففين، آية: 28] عليك بشربها صرفاً.

والسابقون بالخيرات بإذن الله وإن قصرت فلا يفوتك نعيم الأبرار وهم المقتصدون أصحاب الميمنة المقتصرون على الفرائض واللوازم فالحذر ثم الحذر من السقوط من هذه الدرجة إلى دركة التفريط من جنة الله فتكون من أهل الظلم والاعتزاز الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار أعاذنا الله منها إنه حكيم كريم ستار.
قلت : هذا آخر كلام شيخنا - نفعنا الله به - وهو تقرير بديع لم يسبق إليه أخبرني

(1) هذا الحديث سبق تخريجه .

- رضي الله عنه - أنه اجتمع بالسيد أبي العباس الخضر - عليه الصلاة والسلام - ساعة وضعه لهذا التقرير فتأمله في الكراس فأعجبه وأثنى عليه .

وقال أيضاً في تقرير قول ابن الفارض تمسك بأذيال الهوى أي اطلب علم الحقيقة لأنه علم نفيس مطلوب كعلم الشريعة دليل ذلك ورود قصة موسى والخضر عليهما السلام قال الله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَيَّ أَنْ تَعْلَمَ مِنْ مِمَّا عَلَّمْتُ رُشْدًا ﴾ [سورة الكهف، آية: 66] وقوله واخلع الحيا أي: اجتنب كل مانع يمنعك من الطلب، وأعظم الموانع فيه الحيا لأنه لا يتعلم العلم مستح ولا متكبر، وأكثر الناس مقتصرون في طلبهم على طريق المجاهدة ولا يتجاوز عنها إلا القليل، وهم السادة منهم إلى الطلب المشاهدة، فاسلك سبيل ساداتك وإن قلوا، واخل طريق الناسك بلا إنكار، وقال أيضاً رضي الله عنه ويحتمل أنه أراد بقوله: «تمسك بأذيال الهوى واخلع الحيا» الفناء عن رؤية الأعمال وشهود المعمول له وذلك الفناء من حسنات المقربين التي رؤيتها شرك أصغر فيستغفرون منها، وهذا هو الاستغفار في الفناء عن رؤية الفناء . وقوله: واخل طريق الناسك وإن جلوا، أراد به أهل الغيبة عن رؤية المعمول له بشهود الأعمال وشهودها في حسنات الأبرار التي هي سيئات أعمال المقربين واستغفارهم منها لا بد منه، وهو إنما يكون بترك النظر لها وترك النسب المثبتة للوجود لا بتركها ومثله قوله بعد .

وقلت :

لزهدى والتنسك والتقى تخلوا وما بيني وبين الهوى خلوا
أراد بذلك تفرغ قلبك عن رؤية وجودك رؤية عمك كما فعل السادة - رضي
الله عنهم - لتشهد الحق حقاً بدليل قوله :
وفرغت قلبي من وجودي مخلصاً لعلني في شغلي بها معها أخلو
أي من مزاحمة شهود أثر غيره به فلا يعثرون لغير محبوبهم على أثر بالكلية
لقوله :

وما عثرت عيش على أثر ولم تدع لي رسماً في الهوى إلا عين البخل
هذا مذهب القوم ومشربهم الصافي رضي الله عنا بهم - وقال أيضاً في تقرير
كلام ابن الفارض - رضي الله عنه وعنا به .
نصحتك علماً بالهوى والذي أرى مخالفتي فاختر لنفسك ما يحلو

معناه أنا عالم بالهوى وفعله وفتكه بأهله وقتله «ولا ينبئك مثل خبير» فالذي أراه من الرأي لمن لم يوفِ بشروط طريقي مخالفتي وترك مذهبي وفريق والتعرض لذلك ليسلم وإلا فالبلاء الحب:

في الحب ويعتد ويهتم ويجاهد في الله حق جهاده قال رَحُّ معاً في واغتنم نصحي وإن شئت أن تهوى واعة وهذا التحذير والإغراء المشحون بلا تخيير لا يبعد أخذها من واقعة السيد موسى مع الخضر عليهما السلام حيث قال: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [سورة الكهف، آية: 67] وقال أيضاً في تقدير قوله في التائية:

وكل الجهات الست توجهت بما تم من نسك وحج وعمرة هذا حكم كل عارف بالله تعالى لأن المحب هو عين المحبوب باعتبار الجمع وغيره باعتبار التفرقة ولأن القلب إذا اتصل بالنور النبوي المحمدي صار كعبة المحاسن وقبلة المعاني وقدوة الزمان كما أن النبي ﷺ كذلك في السبق بالعرفان أمام الأنبياء والمرسلين في كل زمان.

فكذلك توجهت الجهات الستة مملكتها وملكها وكلها إليه وعولت في صلاتها وتقربها واتصالها بالله عليه وقوله بما تم من نسك وحج وعمرة أي بما يقصد به البيت مجازاً والحق حقيقة من تعبد وحج وعمرة.

* * *

فصل

ومنها قول الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض رضي الله عنه أيضاً:
قلبي يحدثني بأنك متلفي روعي فذاك عرفت أم لم تعرف
قال شيخنا العارف بالله: سيدي محمد نفعنا الله بقوله: «قلبي يحدثني بأنك
متلفي» خطاب مع الرب عزَّ وجلَّ: أي نفسي تحدثني يا رب عن قلب الكون نبيك
محمد المحدث عنك الذي لا ينطق عن الهوى ومن أصدق من الله حديثاً، وقوله:
«عرفت أم لم تعرف» التفات إلى قلب نفسه معناه: سواء صدقت أيها القلب أم لم
تصدق بما وعدتك به من بذل الروح في طلب الراحة الدائمة لك الموعود بها
المؤمن بالموت في الحديث الوارد بذلك وهو قوله ﷺ: «لا راحة للمؤمن دون لقاء
ربه»⁽¹⁾ وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾
[سورة العنكبوت، آية: 69] أي لا يبرح لي في سبيل المحبة عن ذلك ولو تقطعت
قطعاً في مفاوز المهالك ولهذا قال في التائية:
وما رد وجهي عن سبيلك هولُ ما لقيتُ ولا ضراءُ في الحب مَسَّتِ
وقال أيضاً رضي الله عنه:

وقال تلافٍ ما بقي منك قلتُ ما أراني إلا للتلافٍ تَلَفْتُني
أي لا شهود لآثار أنوار شمس القدم إلا بعد استيفاء فناء جميع الحوادث
فاعلم فقوله وقال تلاقي الناطق هو لسان الهوى والهوى هنا: هو الحب ولا بد لأهل
الارتقاء لتمام بلوغ المنى عن الفناء حتى عن شهود الفناء لأنه ما وصل إلى صريح
الحرية من عليه لنفسه بقية فمن أراد حقيقة المشاهدة بالعتق من أسرار الهوى ورقة
هذه فليدفع بقية ثمن التسليم في طلب حرية وعتقه ولهذا قال في التائية:
ولي نفس حر لو بذلت لها على تسليك ما فوق المنى ما تسلت

(1) رواه ابن حنبل في الزهد، في فضل أبي هريرة رضي الله عنه [156/1] وأورده العجلوني في
كشف الخفاء، حديث رقم (2154) [225/2].

فحين إذن فالمراد بالقلب قلبان قلب الكون: وهو النبي ﷺ وقلب نفسه ويحدثني الحديث الوارد عنه ﷺ «لا راحة للمؤمن دون لقاء ربه» أي لا فداء لقلبه من وجده وكربه إلا ببذل روحه في وده وقربه.

وأراد الشيخ قدس الله روحه بقوله: فذاك أيها القلب سواء عرفت أم لم تعرف: أي صدقت أم لم تصدق بما وعدتك به من بذل الروح والله أعلم. هذا ما قال شيخنا ثم أنشدني في معنى ذلك شفاها لنفسه.

لما قرأت حديث النفس بالتلف ناجيتُ ربي بسرِّ بالفؤاد خفي
ثم التفتُ إلى قلبي فقلتُ له روعي فذاك من الإعياء والكلفِ
لا راحة للمرء إلا باللقاء غداً فشمّر الآن للعليا والشرفِ
وللسراج كلام كاد معجزة يكون وقاد طول الدهر غير طفي
يَنْكُرُ فائدة:

حكي أن بعض العلماء استشكل قوله: «روحي فذاك عرفت أم لم تعرف» فرأى الشيخ في المنام وسأله عن ذلك فقال له: يا مبارك أما علمت أن في كلامهم الالتفات قال: قد صرح القرآن الكريم بالالتفات في عدة مواضع، ولهذا نص عليه علماء البلاغة، وهو من أطف الأنواع البديعية وأبدعها، وممن ذكره في علم البديع الطيبي في التبيان وأصحاب البديعيات.

واعلم أن الالتفات لا يكون في جملة بل في جملتين، صرح به الزمخشري في الكشف وابن السبكي في عروس الأفرح، قال: وإلا يلزم عليه أن يكون في قولك «أنت صديقي» التفات والله أعلم.

فصل

ومنها قول ابن الفارض - رضي الله عنه :

وإذا سألتك أن أراك حقيقة فاسمح ولا تجعل جوابي لن ترى
اعلم أن تأويل ذلك بأمرين : أحدهما الفناء عن الفناء، ومن تحقق في فئائه فقد
مات، ومن مات رأى الحق سبحانه وتعالى - وقال الشيخ أبو العباس المرسي : لا
يدخل على الله إلا من باين : من باب الفناء الأكبر وهو الموت الطبيعي، وإما من
باب الفناء الذي تعينه هذه الطائفة .
ثانيهما أن الله - سبحانه وتعالى - أكرمه بطي الزمان، فرأى الله تعالى - بهذه
الكرامة لا بالفناء .

قال شيخ الإسلام تاج الدين السبكي في الطبقات الكبرى في تعداد أنواع
الكرامات : التاسع طي الزمان، العاشر نشر الزمان، قال وفي تقرير هذين القسمين
عسر على الأفهام وتسليمه لأهله أولى بذوي الإيمان، والحكايات فيها كثيرة .
قلت : من جملة نشر الزمان ما حكاه الشيخ عبد الغفار القوسي في كتاب
«التوحيد» عن شيخ الشيوخ ابن سكيمة ببغداد أن أخاه أخذ سجادات الفقراء وخرج
يوم الجمعة ليفرشها لهم فنزل ليتطهر في الشط فطلع بمصر فوجد رجلاً صباغاً وكان
يدري صنعة الصباغة فاستعمله فيها مدة وزوجه بابتته وأقام معه سبع سنين، وولد له
منها أولاد ثم نزل في يوم جمعة ليغتسل في بحر النيل فطلع ببغداد ووجد السجادات
في المكان الذي تركها فيه، فأخذها وفرشها لهم وصلوا صلاة الجمعة، فقال له
الشيخ : أبطأت في هذه المدة، قال له : يا سيدي جرى لي كذا وكذا وقص عليه
القصة فقال له الشيخ : هل كنت تفكر في شيء وأنكرت شيئاً، فقال : تفكرت في
قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ شَيْئًا مِّنْ خَلْقِنَا لَوْلَا نَكْمٌ ﴾ [سورة المعارج، آية : 4] فقال
لي : يا والدي إن الله ييسر الزمان في حق قوم ويقبضه في حق قوم آخر، وقد أراك
الله تعالى ذلك، ثم أرسل الشيخ إلى مصر وأحضر أولاده إلى بغداد .
قال الشيخ عبد الغفار : هذا وأمثاله جائز ولا يمتنع على الله شيء في ذلك،

قال: وهذه الحكاية وأمثالها وإن كانت غريبة في خرق العادة وإدخال الواسع في الضيق فلا يمتنع على قدرة الله وقته وأمثال أمثال أمثالها ما لا نهاية له؛ لأن هذه القدرة لا يمتنع عليها شيء، والمشية والقدرة لا حجر عليها.

ويجب الإيمان بذلك كله وله مثال ظاهر، فإنك إذا أردت أن تقرأ القرآن بالحروف والأصوات حرفاً حرفاً وقرأته على هذه الهيئة عرفت قدر الوقت الذي قرأت فيه، وإذا سنجح لك في خاطرك كان كاللمحة الواحدة بالنسبة إلى ذلك الوقت، وكذلك إذا أردت أن تكتب القرآن جميعه احتجت إلى زمن طويل، فإذا نقشت الختم في طابع وطبعت به على ورقة واحدة فإنها ترسم في لمح البصر، فهذا وأمثاله كثير.

وضرب المثال في إدخال الواسع في الضيق كالقدح الخردل إذا نشرته أو نثرته في الأرض احتاج إلى أرض واسعة، فإذا جمعته اجتمع في القدح، وكذلك السنة في المنام يرى النائم فيها في البلاد البعيدة والأقطار والرحاب الواسعة في القفار حتى إنه يرى كلما سمعته أذنه في جبل قاف وغيره مما لا يقدر على الوصول إليه في مدة عمره فيصير ذلك في اللمحة الواحدة في السنة، وقد يتزوج ويتوالد في منامه ويقيم المدد والسنين في تلك اللمحة، وقد يرى الله - تعالى - وأنبياءه ورسله وملائكته، وكل ذلك في لمحة بصر في السنة في النوم، ولا شك في ذلك فافهم ذلك وإياك والاعتراض فقد وضح السبيل ورفع النص حكم التأويل ألا ترى إلى قوله - تعالى - حكاية عن سليمان عليه السلام: ﴿الْمَاءُ كُلُّ بَعْرِيثَا﴾ [سورة النمل، آية: 38] الآيات فانظر إلى قول الثاني: ﴿قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [سورة النمل، آية: 40] هذا والمساحة واحدة إلى ما بين حالتي الشحص وسرعة الوقت قطع هذه المسافة، وما كان جائز على الله فعله ولا يمتنع عليه يفعله يجب الإيمان به، ومن لم يؤمن به فهو مكذب بقدرة الله تعالى فهذا آخر كلام الشيخ عبد الغفار بحروفه.

وقال بعض أهل الحقائق وأرباب هذا التصرف على درجات فمنهم من وهب له التصرف في ملكوت العناصر كتصرف إبراهيم الخليل - عليه السلام - في ملكوت النار بالتبريد وتصرف سليمان عليه السلام في ملكوت الهواء بالتسخير.

ومنهم من وهب له التصرف في ملكوت السماء كتصرف النبي ﷺ في القمر بالشق ومنهم من يطوى لهم بسط الأزمنة والأمكنة فيظهر منهم في لمحة تصرفات وآثار لا تحصل لغيرهم في مدة طويلة من أصحاب الجمع ينبت لنفسه ما ينبت لغيره

من هذه الأحوال وأمثالها بطريق الجمع ما قال الشيخ: شرف الدين بن الفارض رضي الله عنه ونفعنا ببركاته وفي ساعة أو دون ذلك في تلاه لمجموعة جمع به ألف ختمة فحيث فاعلم أنه لم يقل وإذا سألته أن أراك حقيقة إلا بعد أن طوى الله تعالى له جميع زمان الدنيا بحيث إنه دخل في وقت الآخرة وسأل الله تعالى الرؤيا في محلها والله أعلم.

لِنَكُونُوا تَنبِيَهُ :

قال الشيخ بدر الدين الأهدل في كتاب الرؤيا اعلم أنه قد يحصل لبعض المحبين شغف في محبته وولع بطلب رؤيته وبمن الله تعالى لتسكين لوعته بفتح عين بصيرته فيتحفه بنوع من مشاهدته كما قال الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه به يتجلى بجماله لقلوبهم بالأنوار والسرور والبشارة بالموهب الجسم من المنازل العالية والقرب منه ولذيد الكلام وما سيؤول أمرهم إليه من المزيد في دار السلام كيلا تفرط بهم المحبة وشدة الشوق إليه سبحانه وتعالى فتنفطر مراتهم فيهلكون أو يضعف عن القيام بالعبودية لطفاً منه ورحمة بهم ومداواة لقلوبهم إنه حكيم عليم لطيف بهم رؤوف رحيم انتهى.

وقال ابن الأهدل أيضاً يغلط بعض المريدين إذا فتح الله عين بصيرته بنوع من المشاهدة فيدعي الرؤية لقصور معرفته كما روى صاحب البهجة في مناقب القطب الرباني الشيخ عبد القادر الكيلاني عن الشيخ أبي عمرو عثمان الصريفي وغيره أنه قيل للشيخ عبد القادر إن فلاناً يقول إنه يرى الله بعيني رأسه فاستدعى به وسأله عن ذلك فقال نعم فانتهى ونهاه عن هذا القول وأخذ عليه أن لا يعود فقيل للشيخ أمحق هو أم مبطل؟ فقال محق ملبس عليه وذلك أنه شهد ببصيرته نور الجمال ثم خرق من بصيرته إلى بصره منفذ فرأى بصره بصيرته وبصيرته يتصل شعاعها بنور مشهود فظن أن بصره رأى ما شهدته بصيرته قال الله تعالى: **الَّذِينَ** **مِن رَّسُولِ** **اللَّهِ** **وَمُحَمَّدًا** **مِنَ الْطَّافَةِ** **إِبْرَازِ جَلَالِهِ** **وَجَمَالِهِ** **إِلَى قُلُوبِ عِبَادِهِ** **فِيأْخُذُ مِنْهَا مَا تَأْخُذُ الصُّورَةُ** **مِنَ الصُّورِ** **وَلَا صُورَ** **مِن وَرَاءِ ذَلِكَ** **رَدَاءَ الْكِبْرِيَاءِ** **الَّذِي لَا سَبِيلَ** **إِلَى انْحِرَافِهِ** **انْتَهَى** **وَقَوْلُهُ** **رَدَاءَ الْكِبْرِيَاءِ** **الَّذِي لَا سَبِيلَ** **إِلَى انْحِرَافِهِ** **يَعْنِي** **النُّورَ** **الَّذِي لَوْ كَشَفَهُ** **لَأَحْرَقَتْ** **سَبْحَاتُ** **وَجْهَهُ** **مَا** **انْتَهَى** **إِلَيْهِ** **بَصْرُهُ** **مِن خَلْقِهِ**.

قال الراوي وكان جمع من المشايخ والعلماء حاضرين هذه الواقعة فأضر بهم

سماح هذا الكلام ودهشوا في حسن إفصاحه عن حال الرؤية وقام بعضهم ومزق ثيابه وخرج إلى الصحراء هائماً قال العلماء: سبحات وجهه تعالى بضم السين والباء والتاء في آخره هو نوره وجلاله وبهاؤه وفي مسلم «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه تعالى ما انتهى إليه بصره من خلقه»⁽¹⁾ والمراد بالحجاب هنا المانع من رؤية المسمى نوراً وناراً كما في رواية أخرى، والمعنى لو أزال ذلك المانع من رؤيته وتجلي لخلقه جلال ذاته جميع مخلوقاته، ولهذا قال الشيخ شرف الدين بن الفارض على لسان الحقيقة:

**ولولا احتجابي بالصفات لأحرقت مظاهر ذاتي من ثناء سجيتي
يَكُونُ تَذْنِيبُ:**

قال الشيخ تاج الدين بن السبكي في الطبقات الكبرى ما نصه حكاية تشمل على تحقيق التجلي قال القاضي ناصر الدين بن المنير المالكي وفي الحكاية المدونة في كتب أهل الطريق أن أبا تراب النخشي كان له تلميذ وكان الشيخ يرفق به ويتفرس فيه الخير وكان أبو تراب كثيراً ما يذكر أبا يزيد فقال التلميذ يوماً من يتجلى له الحق تعالى في كل يوم مرات ماذا يصنع بأبي يزيد فقال له أبو تراب ويحك يا فتى لو رأيت أبا يزيد لرأيت أمراً عظيماً فلم يزل يشوقه إلى لقائه حين عزم على ذلك في صحبة الشيخ أبي تراب فارتحلا إلى أبي يزيد فقبل لهما إنه في الغيضة وكانت له غيضة يأوي إليها مع السباع فقصد الغيضة وجلسا على ربوة على ممر أبي يزيد فلما خرج أبو يزيد فعندما وقع بصر الفتى على أبي يزيد خر ميتاً فحدث أبو تراب أبا يزيد بقصته وتعجب من ثبوته لتجلي الحق سبحانه وتعالى وعدم تماسكه لرؤية أبي يزيد فقال أبو يزيد لأبي تراب لقد كان هذا الفتى صادقاً وكان الحق تعالى يتجلى له على قدر ما عنده فلما رأيته تجلى له الحق تعالى على قدرتي فلم يطق.

قال الفقيه ناصر الدين واصطلاح أهل الطريق معروف وحاصله في ذلك رتبة من المرقى جليلة وحاله من اليقظة والحضرة سرية سنية والإيمان يزيد وينقص على الصحيح ولا تظنهم يعنون بالتجلي رؤية البصر التي قيل فيها لموسى عليه السلام على خصوصه لن تراني والتي قيل فيها على العموم لا تدركه الأبصار فإذا فهمت أن مرادهم الذي أثبتوه غير البصر الذي وعد به الخواص في الأخرى فلا ضير بعد ذلك

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

عليك ولا طريق لسوء الظن إليك والله يتولى السرائر.

قلت وكلام ابن المنير هذا في تفسير التجلي يقرب من قول شيخ الإسلام وسلطان العلماء أبي محمد عز الدين عبد السلام رحمه الله في كتابه القواعد أن التجلي والمشاهدة عبارة عن العلم والعرفان انتهى ومن هنا يؤخذ أن جميع ما أفصح به القوم من العلوم الدنية والاستنباط إنما هي أثر من آثار التجليات.

واعلم أن القوم لا يقتصرون في تفسير التجلي على العلم ولا يعنون به إياه ثم لا يفصحون بما يعنون إفصاحاً وإنما يلوحون تلويحاً ثم يصرحون بالبراءة ما يوجب سوء الظن تصريحاً.

وقد ذكر سيد الطائفة أبو القاسم القشيري رضي الله عنه في الرسالة باب الستر والتجلي ثم باب المشاهدة ولم يفصح بتفسير التجلي كأنه خشي على فهم من ليس من أهل الطريق وعرف أن السلك من القوم يفهمه فلم يحتج إلى كشف له وحاصل ما يقوله متأخر والقوم أن التجلي ضربان:

ضرب للعوام وهو أن تكشف صورة كما جاء جبريل عليه السلام في صورة دحية، وكما جاء في الحديث «رأيت ربي في صورة شاب»⁽¹⁾ قالوا وهذا تجلي الصفة ويضربون لذلك بالمرأة مثلاً فيقولون أنت تنظر وجهك في المرأة وليست المرأة محلاً لوجهك ولا وجهك حالاً فيها وإنما هناك مثالها تعالى الله عن أن يكون له مثال، وإنما يذكرون هذا تقريباً للأفهام وحديث في صورة شاب أمرد موضوع مكذوب على الرسول ﷺ وضرب للخواص وهو تجلي الذات نفسها، ويذكرون هنا لتقريب الفهم الشمس وحضورها برؤيتك الضوء، وقالوا هذا تقريب أيضاً وإلا فنور الباري لو سطع لأحرق الوجود بأسره إلا من يثبته الله، وقد يعتضدون بحديث أبي ذر رضي الله عنه سألت النبي ﷺ هل رأيت ربك؟ قال نور أنى أراه»⁽²⁾. في لفظ قال رأيت نوراً أخرجه مسلم والترمذي ولكنه حديث مؤول باتفاق المسلمين.

قال ابن السبكي هذا حاصل كلام القوم وأنا معترف بالقصور عن فهمه، وقد جالست في هذه المسألة الشيخ الإمام الصالح العارف قطب الدين بركة المسلمين

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، ضمن حديث رقم (1409) [526/1].

(2) صحيح مسلم، باب في قوله ﷺ: «نور أنى أراه..» حديث رقم (178) [161/1] ورواه الطبراني في الأوسط، حديث رقم (8300) [170/8] ورواه غيرهما.

محمد بن الأردبيلي أعاد الله علينا من بركاته وقلت له أتقولون بأن الذي يراه العارفون في الدنيا هو الذي وعده الله في الآخرة قال نعم، فقلت: فبم يتميز رؤية يوم القيامة؟ قال: بالبصر، فإن الرؤية في الدنيا في هذين الضربين إنما هي بالبصيرة دون البصر. قلت فقد اختلف في جواز رؤية الله تعالى في الدنيا قال الحق الجواز، قلت فلا فارق حيثئذ وتجاوز الرؤية بالبصر في الدنيا، قال الفارق أنه في الآخرة معلوم الوقوع للمؤمنين كلهم، وفي الدنيا لم يثبت وقوعه إلا للنبي ﷺ ولبعض ذوي المقامات العلية هكذا قال.

ومما قلت له وقد ضرب المرآة مثلاً قد يقال إن هذا نوع من الحلول والحلول كفر، قال: لا، فإن الحلول معناه أن الذات تحل في ذات أخرى، والمرآة لا تحل فيها الصورة، هذا كلامه، قلت له: فما المشاهدة أهي غير التجلي؟ قال: المشاهدة دوام تجلي الذات، والتجلي قد تكون معه مشاهدة وهو ما إذا دام، وقد لا يكون انتهى. وأقول إذا تبرأ القوم من تفسير التجلي بما لا يمكن ولا يجوز وصف الرب تعالى له فلا لوم عليهم بعد ذلك، غير أنهم مصرحون به عن العلم والعرفان انتهى.

فصل

سئل الشيخ عبد الكريم الحضرمي أحد السادة الكبار عن قول ابن الفارض رضي الله عنه:

وإذا سألتك أن أراك حقيقة فاسمح ولا تجعل جوابي لن ترى
قال ليس هذا من كلامه فإن ابن الفارض عارف والعارف لا يقول مثل ذلك
قلت هذا النفي فيه نظر فقد أجمع العارفون بالله تعالى من أهل زمانه إلى هلم جراً
على أنه خرج من بين شفثيه.

وأما الشيخ عبد الكبير رحمه الله ورضي عنا به فلعله قصد بذلك صون ظاهر
الشريعة لقصور فهم علماء الظاهر عن إدراك الحقائق الربانية لقوله عليه الصلاة
والسلام «ما أنت محدث قوماً حديثاً لم تبلغه عقولهم إلا كان على بعضهم فتنة» هذا
الحديث أخرجه الحافظ ابن الجوزي في كتابه السر المصون بسند صحيح عن
ابن عباس.

ونظير ذلك ما حكاه الإمام عفيف الدين اليافعي في الإرشاد قال سمعت أن
الشيخ الإمام الفقيه عز الدين بن عبد السلام كان يطعن في ابن العربي ويقول هو
زنديق فقال له يوماً بعض أصحابه أريد أن تريني القطب فأشار إلى ابن العربي وقال
هناك هو فقيل له فأنت تطعن فيه فقال حتى أصون ظاهر الشريعة وقد تقدم الكلام
على ذلك والله أعلم.

فصل

حكم من يقول بالإباحة وسقوط التكاليف

وأما القول بالإباحة فقال بحر الشريعة والحقيقة أبو حامد الغزالي رضي الله عنه في كتاب التفرقة بين الإسلام والزندقة ومن جنس ذلك ما يدعيه بعض من يدعي التصوف أنه قد بلغ حالة بينه وبين الله تعالى إلى حيث سقطت عنه الصلاة وحل له شرب المسكر والمعاصي وأكل مال السلطان فهذا ما لا شك في وجوب قتله وإن كان في الحكم بخلوده في النار نظر، وقتل مثل هذا أفضل من قتل مائة كافر إذ ضرره في الدين أعظم، ويفتح به باب من الإباحة لا ينسد، وضرر هذا فوق ضرر من يقول بالإباحة مطلقاً، فإنه يمتنع من الإصغاء إليه لظهور كفره، أما هذا فيهدم الشرع من الشرع ويزعم أنه لم يرتكب فيه إلا تخصيص عموم إذ خصص عموم التكاليفات بمن ليس له مثل درجته في الدين، وربما يزعم أنه يلبس الدنيا ويفارق المعاصي بظاهره وهو بباطنه بريء عنهما، ويتداعي هذا إلى أن يدعي كل فاسق مثل حاله وينحل به عصام الشرع انتهى.

وقال بعض العلماء اعلم أن القول بالإباحة لم يقل به أحد من المعتبرين من أهل التصوف، وإنما قال به بعض الغلاة من أهل الضلال الذين ستروا غلوهم بالانتساب إلى طائفة الصوفية، وزعموا أن الإنسان إذا وصل إلى حد الفناء سقط عنه التكليف وأبيحت له المحرمات.

وقال القاضي عياض ما معناه «الإجماع على تكفير من قال بالإباحة، وقال القونوي في شرح التعرف يحكي عن طائفة من قال بتعطيل الأوامر والنواهي كغلاة المتصوفة وأصحابهم من أهل الزيغ والضلال إن العبد إذا وصل إلى الله تعالى سقط عنه التكليف، وعللوا ذلك بأن المقصود من التكليف هو القرب والوصول إلى الله تعالى.

فإذا حصل المقصود فلا حاجة إلى الوسيلة، وهذا محض الكفر والإبعاد عن دين الله تعالى، فإن من المعلوم بالضرورة أن أقرب الناس إلى الله سبحانه وتعالى

أنبياءه ورسله، ولم يرتفع عنهم التكليف إجماعاً فمن دونهم أولى .
قال الشيخ سعد الدين التفتازاني في شرح العقائد: وأما قوله عليه السلام: «إذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب»⁽¹⁾ فمعناه عصمه من الذنوب فلم يلحقه ضررها لكن ذكر حجة الإسلام الغزالي أنه إن وقع في كلام أحد من المعتبرين ما هو ذلك فتأويله أنه يسقط عنه كلفة التكليف لا نفس التكليف ومعنى ذلك أنه يتلذذ بالعبادات فلا يجد لها كلفة ولا مشقة يدل على ذلك قوله ﷺ وجعلت قرّة عيني في الصلاة وقوله أرحنا بها يا بلال ونحو ذلك انتهى .

* * *

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع .

فصل

يَنْكُرُ ثبوت الجذب والسلوك :

وأما الجذب والسلوك اعلم أن الجذب والسلوك متلازمان لا يثبت أحدهما إلا بالآخر وحقيقة السلوك هي جذب كما قال قطب الزمان الشيخ ناصر الدين بن الميلى الشاذلي قدس الله روحه .

وفي الحقيقة لولا الجذب ما سلكت طريق حق ولا رتبت مراتب، والسالك المجذوب هو القدوة وهو المحبوب ومن ادعى الجذب من غير سلوك سلم له حاله ولا يقتدي بفعاله فإنه أمة وحده هذا مع وجود النور وأما مدعيه بغير نور فهو متبع الشهوات والغرور لابس ثياب الزور المخلط بغير تصديق المخبط بغير تحقيق المدعي للتحقيق فجانبه فهو الزنديق .

واعلم أن السلوك هو اتباع الشرع وجهاد النفس والخروج عن الطبع وامتنال الأوامر واجتناب النواهي وحفظ الأصل والفرع كما قال الشيخ ناصر الدين أيضاً .
وذو السلوك تراه في إرادته مجاهد النفس ذا رعى لباقيه
عش على نهج أهل الصدق ملتزماً شروطهم خائفاً فيما يرجيه
كم من مريد قضى ما نال بغيته حق القضاء عليه في تقاضيه
وكم من مريد ونا من بعد عزمته إذ عزمه ذاك ما صحت مبانيه
من ليس يخلص في مبدأ إرادته يهوى به الحظ في أهوى مهاويه
وما المريد الذي صحت إرادته إلا مراداً له جذب يوافيه
والجذب : هو موهبة من الله سبحانه وتعالى لعبده يأتيه بغتة من غير استعداد ولا جد ولا اجتهاد فتعم عوالمه ومعالمه وباطنه وظاهره بعلم علي ونور جلي وكشف وفي وفتح حفي وسر خفي فيسلك سلوكاً عظيماً كاملاً فالسلوك لا بد منه في هذه الدار وبه شرف الأحرار فعبد سلك ثم فتح الله عليه فجذب، وعبد جذب ثم من الله تعالى عليه فسلك، ثم اختلف أهل الطريق أيهما أفضل فتكلم كل منهم قدر ذوقه وعلى وسع طوقه .

قال الشيخ أبو الحسن علي بن عمر القرشي الشاذلي فَضَّلَ الإمام اليافعي رحمه الله المجذوب السالك على السالك المجذوب، وذكر أن إبراهيم بن إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه كان مجذوباً سالكاً، وإن الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه كان سالكاً مجذوباً.

ثم قال القرشي والصحيح عند المحققين والعلماء الراسخين أن السالك المجذوب أفضل ولهذا قال شيخنا شيخ الإسلام قاضي القضاة القطب الغوث ناصر الدين بن الميلى رحمه الله تعالى والجذب إن جاء من بعد السلوك له أفضل على الجذب مما السعي تاليه .

ثم قال رضي الله عنه والإمام الشافعي هو القطب الغوث الفرد والجامع في زمنه عند المحققين وهو أيضاً مجدد الدين على رأس المائة الثانية وإنا نشهد له بالصدقية العظمى .

ثم قال أيضاً ولقد كان النبي ﷺ يتحنث الليالي ذوات العدد ويتعبد بجبل حراء قبل مبعته حتى بعث بالنبوة والرسالة معاً على رأس الأربعين .

وهذا أول دليل على تفضيل السالك المجذوب، وقال حجة الإسلام الغزالي في كتابه المنتقى من الضلال وكان أول حال النبي ﷺ حيث كان يتبل في جبل حراء يخلو فيه بربه ويتعبد حتى قالت العرب إن محمداً يعشق ربه . قلت هذا أيضاً فيه إشارة إلى أن حجة الإسلام يرى تفضيل السالك المجذوب على المجذوب السالك لما هو مذهب الجمهور والله أعلم .

باب عود علي كرامة الرؤية :

في العود إلى كرامة الرؤية اعلم أن النبي ﷺ لما اجتمع بالسيد موسى عليه السلام ليلة الإسراء وجده قائماً يصلي في قبره ورآه في تلك الليلة في السماء السادسة .

فالروح كانت هناك في مثال البدن ولها اتصال بالبدن حيث كانت كصفات الشمس مثلاً فإنها متصلة بجرمها في كل البقاع في آن واحد لأن شأن الأرواح غير شأن الأبدان .

وكذلك رؤية النبي ﷺ جميع الأنبياء في السماوات الصحيح أنه رأى فيها الأرواح على مثال الأجساد وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ أَنْزَلَ إِلَى الرُّسُلِ خُلُودَهُمْ لِنَصُوحٍ ﴾

مِنَ الدَّمْعِ وَمَا عَرَفُوا مِنْ كُلِّ نَفْسٍ ﴿ [سورة الزخرف، آية: 45].

قال ابن عباس والزهري وسعيد بن جبير وابن زيد يرجع له الرسل صلوات الله عليهم وسلامه ليلة أسري به وأمر أن يسألهم فلم يشكل ولم يسأل هذا صريح الأدلة في ذلك .

ومن هنا قال الأستاذ العارف السيد عبد القادر الكيلاني ما من نبي ولا ولي إلا وقد حضر مجلس الأحياء بأجسامهم والأموات بأرواحهم .

وقال حجة الإسلام الغزالي في بعض كتبه: وأما رؤية الأنبياء في النوم فمثالهم، فأما أشخاصهم الكريمة فلم تنتقل عن مواضعها، وقد ذكرت تفضيل ذلك في كتاب عجائب القلب، وكذلك القول في الجن، ولذلك ترى بصور مختلفة إذ المثالات لا يحصر وجودها كما أن كل من رأى النبي ﷺ لا يراه على صورة واحدة، إلا أن هذه المثالات تكون للأنبياء عليهم الصلاة والسلام في اليقظة وتكون لغيرهم في النوم فقط .

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ لم ير جبريل عليه السلام على صورته إلا مرتين مع كثرة رؤيته له عليهما السلام في كل حين، وقال الغزالي أيضاً في كتاب التفرقة بين الإسلام والزندقة ما نصه: وأما الوجود الحسي فهو ما يتمثل في القوة الباصرة من العين مما لا وجود له خارج العين فيكون موجوداً في الحس ويختص به الحاس ولا يشاركه غيره فيه، وذلك كما يشاهد النائم بل كما يشاهد المريض المتيقظ أو قد يتمثل له صورة ولا وجود لها خارج حسه حتى يشاهد بسائر الموجودات الخارجة عن حسه .

بل قد يمثل للأنبياء والأولياء في اليقظة والصحة صورة جميلة محاكية لجواهر الملائكة وينتهي إليهم الوحي والإلهام بواسطتها فيتلقون من أمر الغيب في اليقظة ما يتلقاه غيرهم في النوم وذلك لشدة صفاء باطنهم كما قال الله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [سورة مريم، آية: 17] وكما أنه عليه الصلاة والسلام رأى جبريل كثيراً، ولكن ما رآه في صورته إلا مرتين، وكان يراه في صور مختلفة يتمثل بها .

وكما يرى رسول الله ﷺ في المنام وقد قال عليه السلام: «من رآني فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي»⁽¹⁾ ولا تكون رؤيته بمعنى انتقال شخصه من روضه المدينة

(1) هذا الحديث سبق تخريجه .

إلى موضع النائم بل هي على وجود صورته في جسّ النائم فقط .
ثم قال أيضاً قال الرسول ﷺ : «عرضت علي الجنة والنار آنفاً في عرض هذا الحائط فلم أر كالأخير والشر»⁽¹⁾ فمن قام عنده البرهان على أن الأجسام لا تتداخل وأن الصغير لا يتسع للكبير حمل ذلك على أن نفس الجنة لا تنتقل إلى الحائط لكن تمثل للحس صورتها في الحائط حتى كأنه يشاهدها ولا يمتنع أن يشاهد مثال شيء كبير في جرم صغير كما يشاهد السماء في مرآة صغيرة ويكون ذلك أيضاً مفارقاً لمجرد تخيل صورة الجنة إذ تدرك التفرقة بين أن تغمض عينيك فترى السماء في المرآة وبين أن تغمض عينيك فترى صورة السماء في المرآة على سبيل التخيل .
وأما الوجود الخيالي فمثاله قوله عليه الصلاة والسلام «كأنني أنظر إلى يونس بن متى عليه عباة تان قطوانيتان يلبي ويحييه الجبال والله تعالى يقول له لبيك يا يونس ها أنا معك»⁽²⁾ . فالظاهر أن هذا بناءً عن تمثيل الصورة في خياله إذ كان وجود هذه الحالة سابقاً على وجود رسول الله ﷺ وقد انعدم ذلك فلم يكن موجوداً في الحال، ولا يبعد أن يقال أيضاً تمثل هذا في حسه حتى صار كما يشاهد النائم الصورة، ولكن قوله عليه السلام كأنني أنظر يشعر بأنه لم يكن حقيقة النظر بل كالنظر والغرض الفهم بالمثال لا عين الصورة .

وعلى الجملة فكل ما يتمثل في محل الخيال فيتصور أن يتمثل في محل الأبصار فيكون ذلك مشاهدة فيه التخيل وأما الوجود العقلي فأمثله كثيرة فاقنع منها بمثالين .

أحدهما : قوله عليه السلام «آخر من يخرج من النار يعطي من الجنة عشرة أمثال الدنيا»⁽³⁾ . فإن ظاهر هذا يشير إلى أنه عشرة أمثالها بالطول والعرض والمساحة وهو

- (1) رواه البخاري ف صحيحه ، باب وقت الظهر عند الزوال . . ، حديث رقم (515) [200/1] .
- (2) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخكاب ، عن ابن عباس ، حديث رقم (4848) [281/3] .
- (3) رواه البخاري في صحيحه ، باب صفة الجنة والنار . . ، حديث رقم (6202) [2402/5] ونصه كاملاً : «قال النبي ﷺ إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها وآخر أهل الجنة دخولاً رجل يخرج من النار حبوا فيقول الله اذهب فادخل الجنة فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى فيرجع فيقول يا رب وجدتها ملأى فيقول اذهب فادخل الجنة فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى فيرجع فيقول يا رب وجدتها ملأى فيقول اذهب فادخل الجنة فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا فيقول أتسخر مني أو تضحك مني وأنت الملك فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه وكان يقال ذلك أدنى أهل الجنة منزلة» .

التفاوت الحسي والخيال ثم قد يتعجب ويقال الجنة في السماء كما دلت عليه ظواهر الأخبار فكيف تتسع السماء لعشرة أمثال الدنيا والسماء أيضاً من الدنيا، وقد يقطع المتأول هذا التعجب فيقول المراد به تفاوت معنوي عقلي لا حسي وخيالي كما يقال مثلاً هذه الجوهرة عشرة أضعاف الفرس أي في روح المالية ومعناها المدرك عقلاً دون مساحتها المدركة بالحس والتخيل .

وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في لطائف المنن قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه الأنبياء يطالعون حقائق الأشياء والأولياء يطالعون مثالها فلذلك قال الرسول ﷺ: «رأيت الجنة فتناولت منها عنقوداً»⁽¹⁾ ولم يقل كأني رأيت، وقال حارثة رضي الله عنه لما قال الرسول ﷺ «كيف أصبحت يا حارثة» قال أصبحت مؤمناً حقاً فقال له رسول الله ﷺ لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك قال عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي ذهبها ومدرها وكأني انظر إلى أهل الجنة في الجنة يتنعمون وإلى أهل النار في النار يعذبون وكأني أرى عرش ربي بارزاً من أجل ذلك أسهرت ليلي وأظمأت نهاري فقال له الرسول ﷺ عرفت فالزم ثم قال ﷺ عبد نور الله قلبه بنور الإيمان»⁽²⁾. فقال حارثة كأني ولم يقل رأيت لأن ذلك للأنبياء دونه .

* * *

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب رفع البصر إلى الإمام في الصلاة . . . حديث رقم (715) [261/1] ورواه مسلم في صحيحه، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف . . . ، حديث رقم (907) [626/2] ورواه غيرهما .
(2) رواه الطبراني في الكبير، حديث رقم (3367) [266/3] ورواه البيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم (10591) [363/7] ورواه غيرهما .

فصل

عجائب ليلة القدر

ومن جملة ما أكرم الله تعالى به أوليائه من الكشوف اطلاعهم على عجائب ليلة القدر قال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله ولقد كنت مع الشيخ مكين الدين الأسمر بالجامع الغربي من الإسكندرية في العشر الأخير من رمضان ليلة السادس والعشرين .

فقال الشيخ مكين الدين أنا الساعة أرى ملائكة صاعدة وهابطة في تهنئة وتعييد فلما كانت الليلة الثانية وهي ليلة سبع وعشرين وكانت ليلة جمعة قال أنا الساعة أرى ملائكة معها أطباق من نور يوازي مأذنة الجامع وفوق ذلك ودون ذلك وهذه ليلة القدر .

فلما كانت الليلة الثالثة وهي ليلة ثماني وعشرين قال رأيت هذه الليلة كالمتغيظة وهي تقول: هب أن ليلة القدر لها حق يرعى أما لي حق يرعى؟ قال الإمام اليافعي في روض الرياحين: قلت لعل تغيظها على الناس لتركهم إحياءها مع كونها جارة لليلة القدر وحق الجار أن يكرم بشيء مما أكرم به جاره . وأما أطباق النور المذكورة فلعلها هدية إلى من أحيا ليلة القدر ومن أناله الله تعالى شيئاً من بركة تلك الليلة والله أعلم .

وقد ذكر بعضهم أنه كشف له عن الحجر والمدر ورأى الأنوار قد ملأت الوجود من الفرش إلى العرش .

وقال لي بعض الفقهاء: رأيت في الليلة المذكورة مكتوباً بالنور **لَيْلَةُ الْقَدْرِ** إِنَّا وَجَدْنَاهُ [سورة آل عمران، آية: 8] قال اليافعي أيضاً: وهذه إشارة إلى الاهتمام بهذا الدعاء وأن لا يأمن أحد من مكر الله .

وجاء الفقيه مكين الدين إلى الشيخ أبي العباس وقال؛ ليس كما أراها كل سنة رأيتها هذه السنة لا نور لها .

فقال له الشيخ رحمه الله السنة لا نور لها نورك طمس نورها يا مكين الدين، وكان الشيخ أبو العباس يخبر أصحابه كل سنة بليلة القدر، ويدعو فيها بمقدار ما يدعو كل ليلة ثلاث مرات، وكان يقول: أوقاتنا كلها والحمد لله ليلة قدر وأنشد بعض أهل الطريق:

**لولا شهود جماله في ذاتي ما كنت أرضى ساعة بحياتي
ما ليلة القدر المعظم شأنها إلا إذا عمرت به أوقاتي**

وقال ابن عطاء الله: ولقد أخبرني الشيخ مكين الدين قال: دخلت مسجد النبي بالإسكندرية «بالدعانس» فوجدت النبي المدفون هناك قائماً يصلي وعليه عباءة مخططة فقال له: تقدم فصل فقلت له تقدم فصل فقال: تقدم أنت فصل، فإنكم من أمة نبي لا ينبغي لنا التقدم عليها.

قال: فقلت له بحق هذا النبي إلا ما تقدمت فصليت قال: فأنا أقول بحق هذا النبي إلا وهو قد وضع فمه على فمي إجلالاً للفظه النبي كيلا يبرز في الهوى قال: فتقدمت فصليت وأخبرني الشيخ مكين الدين أيضاً قال: بت ليلة بالقرافة ليلة جمعة فلما قام الزوار قمت معهم وهم يتلون القرآن إلى أن انتهوا في التلاوة إلى سورة يوسف عن قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَاءً ﴾ [سورة يوسف، آية: 58] وانتهوا في الزيارة إلى قبر يوسف فرأيت القبر قد انشق وطلع منه إنسان طويل خفيف شعر اللحية صغير الرأس آدم اللون وهو يقول: من أخبركم بقصتنا هكذا قصتنا قال الشيخ أبو العباس المرسي والله لو حجبت عني جنة الفردوس طرفة عين ما عددت نفسي من المسلمين.

قال الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور في رسالته: ورأيت بمصر الشيخ الجليل العارف بالله ابن الحسن الدقاق رضي الله عنه كان من أهل مراکش وكان أولاً يتنسب وهو شاب للشيخ الكبير أبي محمد صالح من أصحاب سيدي الإمام أبي مدين شعيب رضي الله عنه - فدخل الشام وحجب فيها الشيخ العظيم أبا محمد الأزهري وأراه آيات عظاماً وحكايات تضيق عنها العقول والأفهام.

فمن حكاياته عنه قال: أدخلني الشيخ محمد العجمي ثلاثمائة وستين عالماً غير عالم السماء والأرض. وقال كان الشيخ إذا مشى إلى أمر خارق أو طي أرض أبقى معه غائباً عن حي المعهود فخرج يوماً في دمشق وأخذنا صحبته إلى أن وصلنا طبرية ووقفنا على قبر سليمان عليه السلام.

قلت يا سيدي هذا قبر سليمان فقال هكذا يقال ثم مشى وأنا خلفه محمول به إلى أن أشرفنا على بناء مهول وإذا بأقوام تلقوا الشيخ وسلموا عليه وتركوا بقدمه ثم مشوا قدامه فوجدت منهم وحشة فالتفت الشيخ إليّ وقال: يا علي احفظ نفسك واشتغل بي ولا تشتغل بمن تراه فهؤلاء جان ونحن قادمون على سليمان بن داود عليهما السلام.

فلما وصلنا للبيان تلقته طائفة أخرى وأخلوه، البناء صورة قصر عظيم والشيخ يمشي وأنا خلفه وإذا في صدر المكان رجل قائم عليه هيبة عظيمة ونور عظيم وفي يده عصا وهو مائل على ظهره قال لي الشيخ هذا سليمان بن داود ثم تأخر الشيخ فأخذ جماعة الجن خدام سليمان وذهبوا به إلى أن أجلسوه في موضع وقدموا ضيافته طعاماً فأكل الشيخ وأكلت معه ثم ذهبوا به يفرجونه على ذخائر سليمان فأتوا به للباسا فوقف عليه فجاءت ريح ففرشته حتى رآه ثم جاؤوه بعرش بلقيس فراه إلى أن استكمل جميع ذخائر سليمان ثم عبر على مغارة فيها دوي مزعج ورائحة منكرة قالوا له يا سيدي هذا سجن ابن بلقيس مسجون في هذه المغارة من زمن نبي الله سليمان.

فلما أراد الشيخ الانصراف وضعوا له سريراً وأشار الشيخ إليّ فوضعوالي سريراً آخر فساروا بنا في إلى أن وصلنا إلى أرض دمشق فنزل الشيخ صفي الدين أيضاً. وحدثني الشيخ الإمام الوحيد القطب أبو السعود رضي الله عنه ببداية أمره قال كنت أزور شيخك أبا العباس الخراز وجماعة في صلحاء مصر فلما انقطعت فاشتغلت وفتح عليّ لم يكن لي شيخ إلا رسول الله ﷺ وإن فتح في معنى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿سُولٌ وَمُحَمَّدٌ نَبِيُّهُ﴾ [سورة الطلاق، الآيتان: 2، 3] وحدثني بفضائل فتحه وما أعطاه الله ورفعته إليه ومنحه وكل ذلك بواسطة النبي ﷺ في إسرائاته ومعارجه وإيضاح أحوال الملكوت وأسرار الملك وأحوال الآخرة وتفاوت المنازل والدرجات وأوزان الرجال ومراتبهم من آدم عليه السلام إلى القيامة يذكر له الرجل في المغرب أو مطلع الشمس فيذكر صورته ووزنه ولقد أخبرني أيضاً أن له نوبة كوسات تضرب في الأرض وفي كل سماء وأنه يصافح النبي ﷺ عقب كل صلاة.

وقال الشيخ صفي الدين أيضاً ورأيت بمصر أبا العباس القسطلاني أخص أصحاب الشيخ القرشي زاهد مصر في وقته بترك زينة دنياه وخدم الشيخ القرشي

بنفسه وإنفاق ماله وفي بيته كانت إقامة الشيخ القرشي وكان أكثر أوقاته في آخر عمره بمكة وبها مات وكان كثير الرياضات يقال إنه دخل مرة على النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: أخذ الله بيدك يا أحمد وجاورت سنة بمكة شرفها الله تعالى، وكانت لي معه أوقات وفوائد يكرمني فوق طوري لقيني مرة في الطواف فأخذني ودخل بي قبة الشراب كانت بيده يختلي فيها بعض الأوقات، قال أريد أن أفيدك فدتك قال: أيهما أعلى وأرجح عندك الإذن أم الأمر فعندما قال كشف لي عن الجواب فسلكت معه الأدب.

فقلت يا سيدي ما أنا قدر هذه المسألة وأنت غالط فيّ. قال لا بد من الجواب قلت يا سيدي الإذن أعلى من الأمر فإن الأمور يتصرف بقوى الأمر كان أهلاً للتصرف أم لم يكن، وصاحب الإذن مستعد للتصرف متهيئ له، وإنما الأذن له في إظهاره قال الله سبحانه وتعالى لعيسى عليه السلام مخبراً له عما سبق لذاته في العظيمة الكلية: وإذ تخلق وتفعل كذا وكذا بإذني فطرب لذلك وأخذ يعنفني على قولي له أنت غالط فيّ، وهذا من مراحمهم وتنزلهم لنا جزاهم الله عنا خيراً.

وقال بحر الحقائق الحامل لواء العلم بالله محيي الدين بن عربي قدس الله روحه في كتابه مواقع النجوم عند الكلام على الكرامات:

اعلم أن هذه الانفعالات الإلهية المختصة بالوجود على يد هذا الشخص الإنساني على مراتبها أصلها الذي ترجع إليه قوى نفسه تسميها الصوفية الهمة وبعضهم يسميها الصدق فيقولون فلان أحال همته على أمر ما نفعل له ذلك، وفلان صدق في أمر ما كان له ذلك.

وهذه الصفة يشترك فيها النبي والولي كما أن العلم الكسبي يحصل للنبي والولي من غير اكتساب بل يعطي الدليل والمدلول ابتداء من غير نظر فكري ولهذا جميع ما يراه الناس في النوم يراه النبي والولي في اليقظة.

وقال الشيخ عبد السلام المقدسي في حل الرموز:

اعلم أن الولي إذا قمع نفسه عن الشهوات ضعفت قوى الحواس حتى صارت كالمعدومة لأنها تشتغل بالاطلاع على الملكوتيات الغيبية ولأن الروح من هناك اقتنصت وفي هذه الهياكل حبست فإذا ضعفت القوى النفسانية فتصفو الروح وتنظف النفس بالرياضات فتشاهد في اليقظة ما تشاهده أنت في نومك عند خمود حسك. وقال شيخنا العارف بالله الرباني سيدي محمد المغربي بعد أن أخبرني أنه رأى

الرسول ﷺ مرتين في اليقظة إنما تكون في المبالغة في الاستعداد والتقرب إلى الله تعالى لقوله ﷺ (ولا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه - إلى آخره) فعند ذلك يصير حال النائم حالاً لذلك الولي يقظة عنده لأن حالة المداومة برسوخ الأقدام في المجاهدة تثمر مشاهدة المغيبات في غالب الأوقات أو على الدوام لأهل الاستعداد التام ولأن المرئي بعين البصر إنما هو لإشراق البصيرة عليه كما قال القائل:

أبعيني أراك أم بفؤادي كل ما في الفؤاد للعين بادي
واعلم أن المراد باليقظة هنا يقظة القرب المشهود في العالم عند هذا العارف مفقوداً والمفقود منه مشهوداً بل يترقى إلى فناء الفناء فلا يجد له مع وجود الحق تعالى وشهد هو وجوداً كما قال الأستاذ العارف بالله شرف الدين بن الفارض قدس الله روحه:

وما عثرت عين على أثري ولم تدع لي رسماً في الهوى الأعين النجل
قلت هذا التقرير الذي ذكره شيخنا قد أرشدنا إلى معرفة مقامه بين القوم لكونه لم يصرح بذلك إلا بعد الذوق والمباشرة كما جرت به عادة القوم في علومهم اللدنية وهذا المقام هو الغاية القصوى.

وقد صرح به رئيس القوم حجة الإسلام الغزالي رحمه الله وغيره من أئمة المسلمين. فإن قلت قد قدرت وقضيت بأن الرؤية لا تكون إلا في يقظة الخواص دون العوام فما الدليل على ذلك في الشرع قلت ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض، قيل وما بركات الأرض، قال زهرة الدنيا فقال له رجل هل يأتي الخير بالشر، فصمت النبي ﷺ حتى ظننا أنه ينزل عليه ثم جعل يمسح على جبينه فقال أين السائل فقال أنا فذكر الحديث...».

فظاهر هذا أن النبي ﷺ كان ينتقل من حاله المعروفة إلى حالة تستلزم الاستغراق والغيبية عند الحالة الدنيوية حتى ينتهي الوحي ويفارقه الملك.

قال ابن القاص وتبعه البيهقي كان النبي ﷺ يؤخذ عن الدنيا عند تلقي الوحي وهو مطالب بأحكامها عند الأخذ ولا تسقط عنه الصلاة ولا غيرها، وهذا لم يذكره الرفاعي في الشرح الكبير، لكن استدركه النووي في الروضة في زوائده نقلاً عن ابن القاص فإنه قال: وفي خصائصه ما ذكر صاحب التلخيص والقفال قالاً: كان

النبي ﷺ يؤخذ عن الدنيا عند تلقي الوحي ولا تسقط عنه الصلاة ولا غيرها انتهى . وهذا قاله القفال في شرح التلخيص ولفظه قال : يعني ابن القاص وكان يؤخذ عن الدنيا عند تلقي الوحي وهو مطالب بأحكام الدنيا عند الأخذ عنها . قال القفال هذا صحيح وكان يؤخذ عن الدنيا في هذه الحالة ولا تسقط عنه الصلاة ولا غيرها إلا أن أوقات الصلاة كانت تحفظ عليه ولا يوحى إليه في تلك الأحوال .

وقال شيخ الإسلام البلقيني هي حالة يؤخذ فيها عند حال الدنيا من غير موت فهو مقام برزخي يحصل له عند تلقي الوحي ولما كان البرزخ العام ينكشف فيه للميت كثير من الأسرار خص الله نبيه ببرزخ في الحياة يلقي الله فيه وحيه المشتمل على كثير من الأسرار .

وقد يقع لكثير من الصلحاء عند الغيبة بالنوم أو غيره اطلاع على كثير من الأسرار وذلك مستمد في المقام النبوي ويشهد له حديث رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة .

وهذا آخر كلام البلقيني بحروفه وقد تقدم ذلك في أول الكتاب مع الاستدلال بالحديث المذكور وبقي أدلة في السنة أيضاً لم أتعرض لذكرها طلباً للاختصار .

فصل

قال الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله في لطائف المنن نقلاً عن شيخه أبي العباس المرسي قال كنت مع الأستاذ الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه بالقيروان وكان في شهر رمضان وكانت ليلة جمعة وكانت ليلة سبع وعشرين فذهب الشيخ إلى الجامع وذهبت معه فلما دخل الجامع وأحرم رأيت الأولياء يتساقطون عليه كما يتساقط الذباب على العسل فلما أصبحنا وخرجنا من الجامع قال الشيخ ما كانت البارحة إلا ليلة عظيمة وكانت ليلة قدر ورأيت الرسول ﷺ وهو يقول يا علي طهر ثيابك من الدنس تحظ بمدد الله في كل نفس قلت يا رسول الله وما ثيابي؟ قال: اعلم أن الله تعالى قد خلع عليك خمس خلع:

خلعة المحبة. وخلعة المعرفة.

وخلعة التوحيد. وخلعة الإيمان وخلعة الإسلام.

فمن أحب الله تعالى هان عليه كل شيء، ومن عرف الله صغر لديه كل شيء، ومن وحد الله لا يشرك به شيئاً، ومن آمن بالله أمن من كل شيء، ومن أسلم لله قل ما يعصيه، وإن عصاه اعتذر إليه، وإن اعتذر إليه قبل عذره، ففهمت حينئذٍ معنى قوله تعالى: ﴿ تَكُنْ وَلِيًّا ﴾ [سورة المدثر، آية: 4].

وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله أيضاً وأخبرني بعض أصحابنا قال لما رجع أبو الحسن الشاذلي من الحج أتى إلى الشيخ الإمام سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام قبل أن يأتي منزله فقال له الرسول ﷺ يسلم عليك قال فاستصغر الشيخ عز الدين نفسه أن يكون أهلاً لذلك قال فدعى الشيخ عز الدين إلى خانقاه الصوفية بالقاهرة وحضر معه محيي الدين بن سراقه وأبو العلم ياسين وأبو العلم ياسين أحد أصحاب العارف بالله محيي الدين بن العربي فقال الشيخ محيي الدين بن سراقه للشيخ عز الدين ليهنكم ما سمعنا يا سيدي والله إن هذا شيء يفرح به أن يكون في هذا الزمان من يسلم عليه رسول الله ﷺ.

فقال الشيخ عز الدين الله يسترنا فقال أبو العلم ياسين الله يفضحنا حتى يتبين المحق من المبطل ثم أشاروا للقوال أن يقول وهو من البعد بحيث لا يسمع ماذا

رتبوا فكان أول ما قال صدق المحدث والحديث كما جرى فقام الشيخ عز الدين طاب وقته وقام الجمع لقيامه .

يَكُونُ مشاهدة الموتى والحديث معهم :

تنبيه :

حكى الإمام الياضي في كتاب الإرشاد عن الشيخ أبي القرطبي نحو ما حكاه غيره عن الشيخ أبي العباس القسطلاني المصري أن الشيخ أبا الربيع الكتي المالكي كان على مائدة من الطعام في جماعة من الفقراء وكان قد بلغه الأثر المروي عن رسول الله ﷺ أنه قال من قال: «لا إله إلا الله سبعين ألف مرة كانت فداه من النار وإن قالها أحد لغيره كانت فداءً له أيضاً...»⁽¹⁾.

قال الشيخ أبو الربيع فكنت قد عملت ذلك وما وهبته لأحد وكان على المائدة صبي من أهل الكشف فجعل يبكي ويقول هذه جهنم أراها وأرى أمي فيها قال الشيخ أبو الربيع فقلت في نفسي اللهم إنك تعلم إنني قد هللت السبعين الألف وقد جعلتها عتق أم هذا الصبي وأكل مع الجماعة قال الشيخ أبو الربيع فصح لي الحديث عن النبي ﷺ وصح لي كشف ذلك الصبي .

وقال شيخ الإسلام سراج الدين ابن الملتن في ذيل كتابه طبقات الأولياء في ترجمة الشيخ خليفة ابن عطية بن خليفة المالكي ما نصه الزاهد العابد صاحب جماعة منهم الشيخ أبو العباس المرسي مات بالإسكندرية في ليلة أربع عشر ذي الحجة في سنة خمس وثلاثين وسبع مائة وكان الشيخ أبو العباس يقول له يا خليفة، أنت خليفة وكان تاج الدين بن عطاء الله يقبل يده تقرباً وزاره بعد موته فخرج من قبره وتلقاه وقال والله لقد سررت بقدمك علي وما أدري إلا أنت وأنا وأنت، وأخبر بوفاة نور الدين البكري، فوافق هذا صريح كلام ابن الملتن بحروفه وناهيك به إمامة وجمالة .

وقال الإمام الياضي في روض الرياحين روينا عن بعض من يحفر القبور من الثقات رحمه الله أنه حفر قبراً في بعض البلاد فأشرف فيه على إنسان وهو جالس على سرير ومعه مصحف يقرأ فيه وربما قال وتحتة نهر يجري فغشي عليه فأخرجوه

(1) أورده المناوي في فيض القدير، حرف السين، فائدة [189/6].

من القبر ولم يدر ما أصابه، فسأله بعض الناس أن يدلّه على ذلك القبر فعزم على ذلك .

فلما كان في الليل رأى صاحب القبر في النوم وهو يقول أقسم بالله لئن دلت أحداً على قبري ليصينك عقوبة كذا وكذا فاستيقظ وتاب مما نوى وعمي عليهم القبر فلم يروا أين هو رضي الله عنه ونفعنا به .

ثم قال اليافعي أيضاً: وفي ذلك حكايات صحيحات يطول ذكرها فمنها ما حدثني به بعض الصالحين عن الشيخ العارف ذي الكرامات العظيمة والمناقب الكريمة الفقيه الإمام رفيع المقام أبي الذبيح إسماعيل بن محمد اليميني المشهور بالحضرمي رضي الله عنه ونفعنا به :

أنه مر على بعض المقابر فبكى بكاءً شديداً وعلاه حزن ثم ضحك ضحكاً حميداً وعلاه في الحال سرور وفرح فتعجب الحاضرون هنالك وسألوه عن ذلك فقال رضي الله عنه كشف لي عن أهل هذه المقبرة فرأيتهم يعذبون، فحزنت، وبكيت لذلك ثم تضرعت إلى الله تعالى فيهم فليل: قد شفّعناك فيهم، فقالت صاحبة هذا القبر وأنا معهم يا فقيه إسماعيل، أنا فلانة المغنية، فضحكت وقلت وأنت معهم ثم إنه أرسل إلى الحفار وسأله من في هذا القبر القريب العهد فقال الشيخ فلانة المغنية .

ومنها ما قاله اليافعي أيضاً أخبرني بعض الثقات: أن الشيخين الكبيرين العارفين بالله كبيرين شيوخ اليمن المقدمين في وقتهم محمد بن أبي بكر بن محمد الحكمي، والشيخ أبا الغيث بن جميل قدس الله روحهما ونور ضريحهما وأعاد علينا من بركاتهما، جاءهما بعض الفقهاء للصحبة بعد موتهما فخرج الشيخ محمد من قبره وصحب الذي أتاه وأخذ عليه العهد والشرايط في كلام وأخرج الشيخ أبو الغيث يده من القبر واصطحب الذي أتاه . قال اليافعي وفي الحكايات كلام يطول .

قلت أخبرني شيخنا العارف بالله سيدي محمد المغربي أنه ورد عليه كشف لما كان في دمياط فرأى في هذه اليقظة شيخه القطب الرباني أبا العباس الحنفي واقفاً في جامع السيد فتح الأسمر بعد موته بسنة فأتى إليه وقبل يده فصاح عليه صيحة فعرف أنه الشيخ بلا شك . انتهى .

قال بعض العلماء اعلم أن الكشف الذي تحصل به مشاهدة الموتى قد يكون في شدة صفاء القلب وظهور الأنوار وكثرة المدد الرباني بالعلم اللدني وقد تكون لوازم

بوارق في بعض الأوقات يكشف بها من يقينه ضعيف ليقوي يقينه بقدرة الله تعالى على خرق العادات، أو ليقوي ظنه في الأولياء أو في شيخه مثلاً، أو ليقوي ظنه في ولاية نفسه وأنه على بينة من ربه.

وقال الشيخ بدر الدين الأهدل في كتاب «الرؤيا»: واشتهرت رؤية الموتى في اليقظة عن الفقيه جمال الدين محمد بن يعقوب أبي حدبة وعن الشيخ محمد بن المؤذن وغيرهما من أهل بلادنا باليمن وقد وقع لغير واحد من أصحابنا بني الأهدل لا أشك في صدقهم.

ولقد حكى لي شيخنا الفقيه العلامة علي بن أبي بكر الأزرق أنه قيل للفقيه علي بن إبراهيم البجلي أن ابن المؤذن يذكر أشياء كثيرة في رؤية النبي ﷺ وغيره في اليقظة قال: لا تكذبه فإني كنت عند قبر رسول الله ﷺ أأزم في حاجة فرأيت ابن المؤذن أقبل في الهواء فانشقت له القبة ودخل على النبي ﷺ فمكث معه ساعة ثم خرج وقال: يا فقيه قال لك رسول الله ﷺ قضيت حاجتك أو كما قال.

وقال بحر الحقائق محيي الدين بن العربي قدس الله روحه في كتابه وربما صح عند القوم من أحاديث الأحكام ما اتفق على ضعفه وتجريح نقله وهم أخذوه في الكشف عن قائله صحيحاً فتعبدوا به أنفسهم عن غير ما تقرر عند علماء الرسم فينسبونهم إلى الخروج عن الدين وما أنصفوا فإن للحق وجوهاً يوصل إليه منها هذا أحدها.

ورب حديث قد صححوه فيتركون العمل به فما أحسن من سلم واستلم واشتغل بنفسه حتى يفارق موطنه لمواطن، فذلك السعيد الفائز بحقائق الوجود.

روى اليافعي في خلاصة المفاهر في مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ قبل الظهر يوم الثلاثاء السادس عشر من شهر شوال سنة إحدى وعشرين وخمسائة فقال: لي يا بني ألا تتكلم فقلت: يا أبتاه أنا رجل أعجمي كيف أتكلم على فقهاء بغداد، فقال لي افتح فاك قال: ففتحته فتفل فيه سبعا ثم قال لي تكلم على الناس ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [سورة النحل، آية: 125] فصليت الظهر وجلست وحضرتي جمع كثير فارتج علي فرأيت علي بن أبي طالب رضي الله عنه قائماً بإزائي في المجلس فقال: يا بني لم لا تتكلم فقلت: يا أبتاه فارتج علي فقال لي: افتح فاك ففتحت فتفل فيه ستاً فقلت: لم لا تكملها سبعا فقال: أدباً مع رسول الله ﷺ.

ثم تواری عني فقلت غوامض الفكر تغوص في بحر القلب على درر المعارف فتستخرجها إلى ساحل الصدر فينادي عليهما سمسار ترجمان اللسان فتشتري نفائس أثمان حسن الطاعة **سُئِلَ وَجُعِلْنَا مِلْمَاءَ كُلِّ** [سورة النور، آية : 36] قالوا فهذا كلام تكلم به على المنبر - رضي الله عنه، وقال القطب الرباني الشيخ أبو السعود الياذيني المتقدم ذكره وهو المترجم في معجم الحافظ الشيخ عبد العظيم المنذري في طبقات الأولياء لشيخ الإسلام سراج الدين بن الملغن ما نصه :

كنت في حضرة النبي - ﷺ - فوق سطح مسجدي إذ أقبل علينا الشيخ أحمد بن الرفاعي في جهة القبلة ومعه ثلاثة يحجبونه يمشون بين يديه فيهم إبراهيم الأعزب والآخر عبد الرحيم والثالث سيدي صالح ولده فلما انتهى إلى درج المكان الذي نحن فيه تقدم الشيخ أحمد بن الرفاعي وتأخر الثلاثة الذين كانوا يحجبونه فلما أمثل علينا مد يده ﷺ ثم تقدم أحد الثلاثة ولم ينته إلى السطح فمد يده ﷺ فقبلها ووقف مكانه ثم طلع الثاني دونه بدرجة فمد يده ﷺ فقبلها ووقف الثالث دونه بدرجة فقبل يده ﷺ ووقف مكانه .

ثم نزلت خلعة خضراء ألبسها الشيخ أحمد الرفاعي ثم نزل لكل واحد من الثلاثة خلعة خضراء ثم نزل برنس أسود فلبسه الشيخ أحمد ثم نزل بعد ذلك سيف تقلد به الشيخ أحمد ثم التفت النبي ﷺ وقال لي هذا قطب زمانه والملك مجلس على بيته ولو بقي من بيته بيت عماء أو حجر، ثم قام من الحضرة وانصرف هو وأصحابه فقلت لسيدي المصطفى ﷺ هؤلاء القوم لم يسلموا عليّ ولم ينصفوني فقال لي حجب نور النبوة نورك يا أبا السعود فلم يروك، فمثل نوري كنور الشمس، ومثل نورك كنور النجوم غطى نور النبوة نورك فلم يروك ثم أشار إليّ أن أدركهم فقمتم فوجدت إلى جانب السطح بساطاً أبيض له خمل فركبت فسار بي حتى أدركت القوم ونزل البساط إلى الأرض ونزلت عن البساط فلما رأوني أقبلوا عليّ فأول من سلّم عليّ الشيخ أحمد وقبل يدي وقبلت يده ثم وقف عن يميني ثم أقبل أحد الثلاثة وقبل يدي ووقف عن يسار صاحبه ثم أقبل الثالث فقبل يدي ووقف عن يسار الثاني .

ثم أحببت أن أسمع شيئاً من كلام الشيخ أحمد فقال لي يا سيدي يا ولدي لا ينال الإنسان أعلى مرتبة الاجتهاد، أنت ولدي في السن وسيدي في القدر، ثم قلت لهم معكم مركوب قال : نعم إلا أنهم لم يحضروا معنا لأجل الحضرة، فبينما نحن

كذلك إذ أقبلت لهم نجب في نور لكل مركوب منهم ركبوا في الملائكة فركبوا
نحبهم وانصرفوا وركب البساط ورجعت إلى حضرة الشريفة فقال لي سيدي
رسول الله ﷺ أي شيء كان فقلت له أكرموني وأنصفوني وسلموا عليّ .

هذا آخر كلام الشيخ أبي السعود بحروفه وقال خادمه السيد الكبير العارف بالله
أبو الفتح سألت شيخنا أبا السعود أن يصف لي حضرة النبي - ﷺ - التي شاهدها في
اليقظة بحضور الأنبياء - عليهم السلام - فقال ما نصه :

حضرت النبي ﷺ - في أرض بيضاء صفة فيه الإمام الشافعي - رضي الله عنه -
في برا، وإذا دخلت جواها فسعتها قدر الأرض التي هي فيها ولها درج فإذا أراد الله
أن يولي ولياً بعث وراءه ملائكة حيث كان فيأتون إلى حضرة النبي - ﷺ - والأقطاب
والصديقين والأولياء والصالحين فيقدمه الملائكة إلى الحضرة الشريفة المحمدية ﷺ
فيكتب له منشور الولاية ويدفع له بقدر الاتباع الذين يتبعونه فعند فراغ التوقيع له
تنادي الملائكة يا ولي والأقطاب والشهداء والصالحين انتهى .

وقال الشيخ أبو محمد بن أبي حمزة في بهجة النفوس والمنكر لرؤيته - ﷺ - في
اليقظة لا تخلو: إما أن يصدق بكرامات الأولياء أو يكذب بها فإن كان ممن يكذب
بها فقد سقط البحث عنه بأنه يكذب ما أثبتته السنّة بالدلائل الواقعة .

وقال الإمام اليافعي في بعض الصالحين ما نصه وقد أخبرني بعضهم أنه يرى
في اليقظة حول الكعبة الملائكة والأنبياء والأولياء عليهم أفضل الصلاة والسلام
وأكثر ما يراهم ليلة الجمعة وكذلك ليلة الاثنين وليلة الخميس وعدوا لي جماعة
كبيرة من الأنبياء وذكر لي أنه يرى كل واحد منهم في موضع معين يجلس فيه حول
الكعبة ويجلس معه أتباعه من أهله وقربته وأصحابه وذكر أن نبينا محمداً - ﷺ -
يُجمع عليه أولياء من أمته خلق لا يعلم عددهم إلا الله ولم يُجمع على سائر الأنبياء
كذلك .

وذكر أن إبراهيم وأولاده ﷺ يجلس بقرب الكعبة حدا مكانه المعروف وموسى
وجماعة من الأنبياء عليهم السلام بين الركنين اليمانيين . وعيسى وجماعة منهم
عليهم السلام في جهة الحجر، ورأى فيه قبر إسماعيل عليه السلام وجماعة من
الملائكة عليهم السلام عند الحجر الأسود ورأى سيد الخلق أجمعين المرسل رحمة
للعالمين تاج الأصفياء وخاتم الأنبياء محمداً ﷺ جالساً عند الركن اليماني مع أهل
بيته وأصحابه وأولياء أمته .

وذكر أنه رأى إبراهيم وعيسى عليهم السلام أكثر الأنبياء لأمة النبي - ﷺ - وأكثرهم فرحاً بفضلهم وأبشهم بهم ورأى في بعض الأنبياء غيرة من فضلهم وذكر أسراراً كثيرة منها ما ذكره يطول ومنها ما لا يحتمله بعض العقول قلت لا تستبعد الغير المذكورة فقد كان من غيرة موسى عليه الصلاة والسلام وبكائه ليلة المعراج ما كان .

والغيرة في الخير محمودة وإنما يذم الحسد وأما ما ذكره عن إبراهيم وعيسى عليهما السلام منهم مناسب لحالهما، وكثرة ودهما لهذه الأمة، يعرف ذلك من له اطلاع على الآثار والأخبار بل يفهم ذلك في القرآن والله أعلم وقال الشيخ الكبير قدوة الشيوخ العارفين وبركة أهل زمانه أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه ونفعنا به لما جاء الغلاء الكبير إلى ديار مصر توجهت لأن أدعو فقيل لي لا تدعو فما يسمع لأحد منكم في هذا الأمر دعاء فسافرت إلى الشام فلما وصلت إلى قرية ضريح الخليل ﷺ تلقاني فقلت: يا رسول الله اجعل ضيافتي عندك الدعاء لمصر فدعا لهم ففرج الله عنهم .

قال الإمام الياضي قلت: وقوله تلقاني قول حق لا ينكره إلا جاهل بمعرفة ما يرد عليهم من الأحوال التي يشاهدون فيها ملكوت السموات ينظرون الأنبياء أحياء غير أموات كما نظر النبي ﷺ موسى أيضاً في الأرض ونظره أيضاً وجماعة من الأنبياء عليهم السلام في السموات وسمع منهم مخاطبات .

وقد تقدم أنه يجوز للأولياء رضي الله عنهم في الكرامات ما يجوز للأنبياء عليهم السلام في المعجزات بشرط عدم التحدي انتهى .

وقال بعض المشايخ كنت في بدء أمري صحبت بعض المشايخ فكان يأمرني بالخدمة وكنت ملذذاً بأمره فأرسلني يوماً إلى القصاب أحمل لحماً للفقراء فابتعت منه حاجتي وحملتها والتفت إلى جانب فرأيت رجلاً يسوق دابه محملة فوكزني فسقطت على يسار مسمار في حانوت القصاب فأصاب جنبي فحملني عليه صاحب الحانوت ووجدت فيه ألماً كثيراً .

فبينما نحن بذلك الشأن مشغولون بربط الجرح وحرمته فإذا بصاحب الدابة قد وقف علينا ومعه ثلاثة رجال من العوامل، وقال: سقط مني صرة فيها عشرة دنائير وكانت في رأسي فحمل القصاب وحملني، وحمل رجلين آخرين إلى صاحب المدينة، وقال: هؤلاء أخذوا الصرة، فضرب كلا من أصحابي ضرباً شديداً ثم

ضربت في جملتهم فكان الضرب يقع على الجرح ثم نظر صاحب المدينة تقطع يده فأمر بالزيت فأغلى واجتمعت عليّ الخلائق بالضرب والسب ونظر أحد الخدم إلى الإناء الذي فيه اللحم فوجدوا الصرة فيه فقالوا هذا السارق فقال بين أربعة رجال، ونادى منادٍ أحضروا السارق فقد طاب الزيت وأنا مسلم أمري لمن بيده ملكوت كل شيء ولطمني أحد الرجال لطمة حتى غبت عن حسي وأنا صابر في ذلك البلاء راجع إلى الله تعالى في ذلك الأمر، وقال: يا لص يا سارق.

ثم جذبني حتى سقطت على وجهي فخررت ساجداً فشهدت النبي ﷺ في اليقظة ينظر إليّ وهو يتسم بما استويت قائماً إلا وقد زال عني ما كنت فيه وفي الوقت نادى منادي الذي أمسكتموه خادم الشيخ فنظروا إليّ وقالوا: لا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم خر الرجال الذي كنت معهم على رجلي وأتى صاحب البلد مسرعاً وقبل رجلي وقال: يا سيدي سألتك بالله العظيم إلا ما غفرت لنا ثم أتى صاحب الصرة وتضرع وبكى فقلت لهم: يغفر الله لي ولكم.

هذه سابقة أظهرت سريرة طائفة في وقتها ثم انكشفت الصرة فظهرت أن العشرة دنائير وحمل الدابة رسالة إلى الشيخ انتهى.

وقال الإمام الياضي حكى عن بعض المشايخ - رضي الله عنه - قال: قال لي أبو بكر يوسف الشقيق بطرسوس إنني سمعت من أبي الخير شيئاً ما يضلّه قلبي منه قلت وما هو.

قال ذكر أنه لقي عيسى عليه السلام فقلت له: أنا أحكي لك حكاية تصديقاً لقول أبي الخير سمعت محمد بن حامد وقد ذكرت قول النبي ﷺ كيف أخاف على أمة أنا أولهم وعيسى آخرهم صلوات الله عليهما فقال ابن حامد إن عيسى عليه السلام ينزل ثلاث مرات يظهر أول مرة للأولياء وفي الثانية للصلحاء وفي الثالثة ينزل بيت المقدس فيراه الخاص والعام.

فقال ابن الشقيق فدخل داره فركب دابة فخرج علينا فقلنا له أين تريد فقال: إلى أبي الخير استمله فقل له اجلس إلى غد فقال: لا إني أخاف الله والموت، فلما كان بعد أيام رجع إلى طرسوس فدخلت عليه في محرابه فلما ضرب بباب المسجد قال لي: يا أبا بكر ارجع فقد جعلناك في حل فرحل رضي الله عنه ونفعنا به وبجميع الصالحين انتهى.

ولقد أخبرني الشيخ الصالح ناصر الدين المنوفي الشاذلي قال: أخبرني شيخنا العارف بالله المحقق صفى الدين أبو المواهب التونسي رحمه الله أنه قال: رأيت النبي ﷺ - في حال اليقظة وقال لي: يا أبا المواهب أنا المشرق في عبد القادر الكيلاني وأنا المشرق في أبي العباس المرسي وأنا المشرق في محمد وفا وأنا المشرق فيك في ولده علي وأنا المشرق فيك وعنايتي بك قديمة وأعتاب بني الوفا لا توطأ بالأقدام وإنما توطأ بالجباه لأنها جلها قدمي . وأخبرني أيضاً عن سيدي محمد الشريعي أنه تلقى الذكر عن النبي ﷺ - في اليقظة سمع ذلك منه مشافهة انتهى .

وقال ابن الحاج أحد أئمة المالكية في المدخل في فصل المتشبهين بالمشايخ أرباب الدعاوي الكاذبة ما نصه: ومنهم من له قدرة على تصنيف الحكايات والمرائي التي يختلقها من تلقاء نفسه سيما والعياذ بالله ما ابتلي به بعضهم في تجرعه في دعوى رؤية النبي ﷺ في المنام وأنه أقبل عليه وخاطبه وأمره ونهاه .

بل بعضهم يدعي رؤيته عليه الصلاة والسلام في اليقظة، وهذا باب ضيق وقل من يقع له ذلك إلا من كان على صفة عزيز وجودها في هذا الزمان بل عدمت غالباً مع أنا لا ننكر من يقع له هذا من الأكابر الذين حفظهم الله تعالى في ظواهرهم وباطنهم .

وقد أنكر بعض علماء الظاهر رؤية النبي ﷺ في اليقظة وعلل ذلك بأن قال العين الفانية لا ترى العين الباقية والنبي ﷺ في دار البقاء والرأي في دار الفناء وقد كان سيدي محمد رحمه الله يحل هذا الإشكال ما قاله هذا القائل صحيح ولكن يرد ما ورد أن الله تعالى يوقف يوم القيامة هذه الطائفة بين يديه فيقول عز وجل أوليائي لم أزو عنكم الدنيا لهوانكم علي ولكن زويتها عنكم لتستوفوا اليوم نصيبكم عندي اذهبوا فاخترقوا الصفوف فمن سلم عليكم من أجلي فخذوا بيده وأدخلوه الجنة فيأتون إلى المحشر وهم يجرون أذيال الفخر فيقول أهل المحشر يا ربنا ما بال هؤلاء دوننا فيقول الله عز وجل أنتم متم في الدنيا مرة واحدة وهؤلاء كان الواحد منهم يموت في اليوم سبعين مرة أو كما قال .

وقد قال سيدي أبو مدين رحمه الله من مات رأى الحق ومن لم يمت لم ير الحق فإذا كان المرء إذا مات مودة واحدة يرى الحق فما بالك بسبعين مرة في كل مرة

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَمُنَظِّرِ الْغَمَامِ إِلَّا مَن تَضَىٰ مِن سَوَاحِلِ الْأَرْضِ يَأْتِيهَا مِن بَيْنِ يَدَيْهَا مِن بَاطِنِ الْأَرْضِ فَأَنزَلْنَاهَا مِنْ فَجْوَاهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمَن يَعْقِلُ [سورة السجدة، آية: 17] فذهب الإشكال والحمد لله ظهر الصواب. انتهى كلام ابن الحاج بحروفه.

ليس هذا مما يستدل به شرعاً على مقام الفناء وقد تقدم الاستدلال به في موضعه والله أعلم.

وقال الشيخ أكمل الدين أحد الأئمة الحنفية في شرح المشارق: الاجتماع بين الشخصين يقظةً ومناماً بحصول مادة الاتحاد له خمسة أصول كلية: الاشتراك في الذات أو في صفة فصاعداً أو في حال فصاعداً أو في الأفعال أو في المراتب ثم قال ومن حصل له الأصول الخمسة وثبتت المناسبة بينه وبين أرواح الكمل الماضين اجتمع بهم متى شاء - انتهى.

وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في لطائف المنن وقد يجذب الله تعالى العبد إليه فلا يجعل عليه مئة لأستاذ وقد يجتمع برسول الله ﷺ فيكون أخذ عنه وكفى بهذا مئة عليه.

ولقد قال لي الشيخ مكين الدين الأسمر أنا ما رباني إلا رسول الله ﷺ وذكر عن الشيخ عبد الرحيم الفتاوي إنه كان يقول: أنا لا مئة لأحد عليّ إلا الرسول ﷺ وإذا أراد الله أن يتفضل على عبد ويغنيه عن الأستاذين لا يكون له فيهم سلف فعل.

وقال الإمام مالك لبعض جلسائه إني أريد أن أجعلك وزيراً قال ليس لي في هذا سلف قال ابني أريد أن أجعلك سلفاً لمن بعدك قلت قد تيسر لنا بحمد الله تعالى في هذه المسألة.

هذه نقول عن جماعة من أعلام المذاهب الأربعة القاضي أبي بكر بن العربي وابن الحاج وابن أبي جمرة وابن عطاء الله وغيرهم من أئمة المالكية وكذا حجة الإسلام الغزالي وقاضي القضاة شرف الدين البارزي واليافعي وابن الأهدل والبلقيني وغيرهم من أئمة الشافعية لا سيما تعدد النقول في ذلك عن الشيوخ محيي الدين عبد القادر الكيلاني، وأما الحنفية فمكثت أياماً وشهوراً أتبع نقولهم في ذلك فلم أجد أحداً منهم من صرح بالمسألة حتى وقفت على شرح مشارق الصاغانى للشيخ أكمل الدين شارح الهداية فرأيت أنه قد صرح بذلك ما تقدم نقله والله أعلم.

فصل

الاختلاف في رؤية الله تعالى في الدنيا يقظة

وأما رؤية الله تبارك وتعالى في الدنيا يقظة فقال الإمام النووي وغيره أجمع أهل السنن على أن رؤية الرب سبحانه في الدنيا ممكنة غير مستحيلة واستدلوا عليه بوجوه:

أحدها: أن كل موجود يجوز أن يرى والرب سبحانه موجود فجاز أن يرى.

الثاني: أن الرؤية نوع كشف وعلم فجازت كالعلم.

الثالث: أن موسى عليه السلام سأل الرؤية ولو استحالت لزم أن يكون جاهلاً

بما يجوز على الله تعالى وما لا يجوز.

واختلاف الصحابة رضي الله عنهم في رؤية النبي ﷺ ليلة المعراج دليل على

الجواز إذ المحال لا يختلف فيه.

قال حجة الإسلام الغزالي رضي الله عنه: ليت شعري كيف عرف المعتزلي من

صفة الرب سبحانه وتعالى ما جهله موسى الكليم عليه السلام والجهل بجدوى

الاستماع أولى في الكلام في إمكان الرؤية وعدم استحالتها.

فأما وقوعها فالجمهور الحضور من السلف والخلف من المتكلمين والمفسرين

وغيرهم على أنها لا تقع في الدنيا أي لغير نبينا محمد ﷺ واختلفوا في وقوعها

لموسى عليه السلام وللجبل أيضاً وذكر القاضي أبو بكر بن العربي المالكي في أثناء

أجوبته ما معناه أن موسى عليه السلام رأى ربه الله تعالى فخر صعقاً، أن الجبل رأى

ربه فصار دكاً، بإدراك خلقه الله سبحانه وتعالى له فعلى قوله هذا يكون تجلى الحق

سبحانه وتعالى للجبل هو ظهوره له حتى رآه فصار دكاً وخر موسى صعقاً وقد روي

عن جعفر بن محمد أنه قال في موسى عليه السلام شغله بالجبل حين تجلى ولولا

ذاك لمات صعقاً بلا إفاقة . . .

وقال القاضي عياض وقوله هذا يدل على أن موسى رآه قد وقع لبعض

المفسرين في الجبل أيضاً أنه رآه واستدل بعضهم برؤية الجبل على رؤية نبينا محمد ﷺ كما سيأتي، واختلفوا في جوازها للأولياء في الدنيا على سبيل الكرامة. وحكى الأستاذ القشيري في رسالته عن ابن فورك أنه حكى فيها قولين للأشعري: أصحابهما لا تقع لحصول الاجتماع عليه الآن وخلاف الصحابة رضي الله عنهم إنما كان في رؤية النبي ﷺ وليس الكلام فيها، وبه قطع الغزالي في الإحياء والشيخ شهاب الدين السهروردي وغيرهما من الصوفية من الخلف والسلف.

أما وقوعها لنبينا محمد ﷺ فالراجح عند أكثر العلماء أنه رأى ربه ليلة الإسراء بعيني رأسه بخصوصية له خصه الله بها دون الأنبياء وسائر الخلق لمزيد اشتياقه وحببه لربه سبحانه كما قال بعض العارفين نظر الله إلى الأرواح أو قال اطلع الله على الأرواح فوجد أشدها شوقاً إليه روح نبينا ﷺ فأكرمه بالمعراج تعجيباً للرؤية والمكاملة ونقل حصول الرؤية له ﷺ جماعة من المفسرين والمحدثين عن كثير من السلف والأمة من الصحابة رضي الله عنهم وغيرهم وممن نقله واختاره من المحدثين الإمام محيي الدين النووي في شرحه لمسلم وفي فتاويه ولفظه في شرح مسلم بعد أن حكى الخلاف عن السلف والخلف. والحاصل أن الراجح عند أكثر العلماء أن رسول الله ﷺ رأى ربه ليلة الإسراء بعيني رأسه لحديث ابن عباس وغيره وإثبات هذا لا يأخذونه إلا بالسمع من رسول الله ﷺ هذا ينبغي ألا يشكك فيه ثم إن عائشة رضي الله عنها لم تنف الرؤية بحديث ترويه عن رسول الله ﷺ انتهى.

وقال في فتاويه وكان الإسراء برسول الله ﷺ سنة خمس أو ست من البعثة وقيل سنة اثنتي عشرة منها وقيل: بعد سنة وثلاثة أشهر وكان ليلة السابع والعشرين من ربيع الأول وقال في الروضة من رجب وقال في الفتاوى وكان الإسراء مرتين مرة في النوم ومرة في اليقظة ورأى ربه سبحانه بعيني رأسه هذا هو الصحيح الذي قاله ابن عباس وأكثر الصحابة والعلماء ومنعته عائشة وطائفة من العلماء وليس للمانع دليل ظاهراً. انتهى.

والقول برؤية العين مروى عن ابن عباس وأنس أبي ذر وكعب والحسن وكان يحلف بالله على ذلك وعكرمة والربيع بن أنس وحكي عن ابن مسعود وأبي هريرة وأبي الحسن الأشعري وأصحابه وقال به الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنهم أجمعين.

وقد روي عن بعض الصحابة رواية لا حاجة إلى التطويل لذكرها قال صاحب

التحرير في شرح مسلم بعد اختيار إثبات الرؤية والحجج في هذه المسألة وإن كانت كثيرة ولكننا لا نتمسك إلا بالأقوى منها وهو حديث ابن عباس رضي الله عنهما وقوله: «أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية لنبينا محمد ﷺ» عن عكرمة سئل ابن عباس رضي الله عنهما هل رأى محمد ﷺ ربه وكان الحسن يحلف بالله لقد رأى محمد ﷺ ربه.

والأصل في الباب حديث ابن عباس حبر الأمة والمرجع إليه في المعضلات وقد راجعه ابن عمر في هذه المسألة وراسله هل رأى محمد ربه فأخبره أنه رآه. ولا يقدر في هذا حديث عائشة رضي الله عنها فإنها لم تخبر أنها سمعت النبي ﷺ لم أر ربي وإنما تأولت قول الله تبارك وتعالى: ﴿مَقْرَحٌ وَإِذَا سَمِعُوا﴾ [سورة الأنعام، آية: 103] و﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ [سورة الشورى، آية: 51] والصحابي إذا قال قولاً وخالفه غيره منهم لم يكن قوله حجة، وإذا صحت الروايات عن ابن عباس في إثبات الرؤية وجب المصير إلى إثباتها، فإنها ليس مما يدرك بالعقل ولا يؤخذ بالظن وإنما يتلقى بالسمع لا بالظن والاجتهاد.

وقال معمر بن راشد حين ذكر اختلاف عائشة وابن عباس ما عائشة عندنا بأعلم من ابن عباس، ثم إن ابن عباس أثبت شيئاً نفاه غيره والمثبت مقدم على النافي انتهى كلام التحرير ونقله عنه النووي.

والجواب عن الآية الأولى ما تقدم وعن الثانية أنه لا يلزم من الرؤية وجود الكلام حال الرؤية بل يجوز وجود الرؤية في غير كلام، أو أنها في العام المخصوص بالأدلة الواردة في إثبات الرؤية وأن المراد بالوحي ما يلقيه الله في قلب النبي من غير واسطة كما نقله القاضي عياض.

وقال القاضي أبو الفضل والحق الذي لا افتراء فيه أن رؤيته تعالى في الدنيا جائزة عقلياً وليس في العقل ما يحيلها فقد سألها موسى عليه السلام ومحال أن يجهل نبي ما يجوز على الله وما لا يجوز بل لم يسأل إلا جائزاً غير مستحيل فقال الله له لن تراني أي لا تطيق ولا تحتمل رؤيتي.

قال أبو بكر الهزلي في قوله تعالى ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ [سورة الأعراف، آية: 143] أي ليس لبشر أن يطيق أن ينظر إلي في الدنيا وإنه من نظر إلي مات قال القاضي وقد

رأيت لبعض السلف ما معناه أن رؤيته تعالى في الدنيا ممتنعة لضعف تركيب أهل الدنيا وقواهم وكونها وتغيره معرضة للآفات والفناء فلم تكن لهم قوة على الرؤية . فإذا كان في الآخرة وركبوا تركيباً آخر رزقوا أبصاراً ثانية باقية وأتم الله أنوار أبصارهم وقلوبهم وقواوا على الرؤية وقد رأيت نحو هذا للإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى : لم ير في الدنيا لأنه باقٍ ولا يرى الباقي بالفاني وإذا كان في الآخرة ورزقوا أبصاراً باقية رؤى الباقي بالباقي .

قال القاضي كلام حسن فإذا قوى الله من يشاء من عباده وأقدره على حمل أعباء الرؤية لم يمتنع في حقه وقد نقل القاضي عن تقي بن مخلد عن عائشة رضي الله عنهما قالت كان النبي ﷺ يرى في الظلمة كما يرى في الضوء والأخبار كثيرة صحيحة في رؤيته ﷺ للملائكة والشياطين ورفع النجاشي حتى صلى عليه، وأتى إليه بيت المقدس حتى وصفه لقريش والكعبة حيث بنى مسجده وأنه كان يرى في الثريا أحد عشر نجماً وهذه كلها رؤية عين .

قال أحمد بن حنبل وغيره ثم قال ولا إحالة في ذلك وهي من خواص الأنبياء وخصائصهم ومن قوله ﷺ «إني لأراكم من وراء ظهري»⁽¹⁾ ، وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : «لما تجلى الله لموسى عليه السلام كان ليصير النمل على الصفا في الليلة الظلماء مسيرة عشرة فراسخ»⁽²⁾ .

قال القاضي ولا يبعد على هذا أن يختص نبينا ﷺ مما ذكرناه في هذا الباب بعد الإسراء والحظوه بما رأى من آيات ربه الكبرى .

ثم قال القاضي هنا وقد تقدم ما ذكر في قوة بصر موسى ومحمد ﷺ ونفوذ إدراكهما بقوة منحها لإدراك ما أدركاه ورؤية ما رآياه والله أعلم قال القاضي وأما ما ورد في قصة الإسراء في مناجاته لله تعالى وكلامه معه بقوله تعالى : ﴿شَهِدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ﴾ [سورة النجم، آية : 10] إلى ما تضمنته الأحاديث أكثر المفسرين على أن الوحي هو من الله تعالى إلى جبريل إلى محمد ﷺ ذكر عن جعفر بن محمد الصادق

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب عظة الإمام الناس في إتمام الصلاة وذكر القبلة، حديث رقم (408) [161/1] ونصه كاملاً: «عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: هل ترون قبلي هاهنا فوالله ما يخفى علي خشوعكم ولا ركوعكم إني لأراكم من وراء ظهري» .

(2) أورده السيوطي في الدر المنثور، الأعراف 143، [545/3] وعزاه إلى أبي الشيخ في العظمة عن أبي هريرة .

أنه قال أوحى الله إليه بلا واسطة ونحوه عن الواسطي وإلى هذا ذهب بعض المتكلمين أن محمداً كلمه ربه ليلة الإسراء وحكي أيضاً عن الأشعري وذكره عن ابن عباس وابن مسعود وذكر النقاش عن ابن عباس في قصة الإسراء عن رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿لَنْ نُفَرِّقَ أَهْلَهَا﴾ [سورة النجم، آية: 8].

قال فارقني جبريل فانقطعت عني الأصوات فسمعت كلام ربي وهو يقول ليهدى روعك يا محمد ادن ادن وفي حديث أنس في الإسراء نحو منه وقد احتجوا في هذا بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ [سورة الشورى، آية: 51] كتكليم موسى عليه السلام وبارسال الملائكة كحال جميع الأنبياء وأكثر أحوال نبينا ﷺ.

الثالث قوله [وحيًا] ولم يبق في تقسيم صور الكلام إلا المشافهة مع المشاهدة هذا نقل القاضي عياض رحمه الله.

ثم قال القاضي وقد ذكر أبو بكر البزار عن علي رضي الله عنه في حديث الإسراء ما هو واضح في سماع النبي ﷺ لكلام الله تعالى في الآية فذكر فيه فقال الملك الله أكبر الله أكبر.

ف قيل لي من رواء حجاب: صدق عبدي أنا أكبر وقال في سائر كلمات الأذان مثل ذلك.

قال القاضي في كلام الله تعالى لمحمد ﷺ ومن اختصه من أنبيائه جائز غير ممتنع عقلاً ولا ورد في الشرع قاطع يمنعه فإن صح ذلك في خبر اعتمد عليه وكلامه تعالى لموسى عليه السلام كائن حق مقطوع به نص على ذلك الكتاب العزيز وأكدته بالمصدر دلالة على الحقيقة ورفع مكانه على ما ورد في الحديث في السماء السابعة بسبب كلامه ورفع محمد فوق هذا كله متى بلغ مستوى سمع به صريف الأقلام فكيف يستحيل في حق هذا ويبعد سماع الكلام فسبحان من خص من شاء بما شاء وجعل بعضهم فوق بعض درجات وقال القاضي: وأما ما ورد في حديث الإسراء فظاهر الآية من الدنو التدلي منقسم بين جبريل ومحمد عليهما السلام أو مختص بأحدهما من الآخر أو من سدرة المنتهى.

قال الراوي وقال ابن عباس - رضي الله عنه -: هو محمد ذنى فتدلى من ربه، وقيل معنى ذنى قرب وتدلى رآه في القرب وقيل: هما بمعنى واحد أي قرب.

وحكى الماوردي عن ابن عباس: هو الرب دنا من محمد ﷺ فتدلى إليه أي أمره وحكمه .

وحكى النقاش عن الحسن قال: ودنا من عبده محمد ﷺ فتدلى فقرب منه فأراه ما شاء أن يريه من قدرته وعظمته قال: وقال ابن عباس: هو مقدم ومؤخر تدلى الرفرف من محمد ﷺ ليلة المعراج فجلس عليه ثم رفع فدنى من ربه قال عليه السلام «فارقتي جبريل وانقطعت الأصوات وسمعت ربي»⁽¹⁾ .

وعن أنس في الصحيح: «عرج بي جبريل إلى سدرة المنتهى ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى وأوحى إليه خمسين صلاة»⁽²⁾ وذكر حديث الإسراء .

وعن محمد بن كعب: هو محمد دنا محمد من ربه فكان قاب قوسين أو أدنى وقال جعفر بن محمد: والدنو من الله لا حد له ومن العباد بالحدود وقال أيضاً: انقطعت الكيفية عن الدنو ألا تراه كيف حجب جبريل عن دنوه ودنا محمد إلى ما أودع قلبه من المعرفة والإيمان فتدلى بسكون قلبه إلى ما أدناه وزال عن قلبه الشك والارتباب فهذا كله مما نقله القاضي عياض رضي الله عنه . .

وقال الإمام أبو الحسن الواحدي في قوله تعالى: ﴿إِذَا سَمِعُوا مَا نُزِّلَ إِلَيْهِ﴾ [سورة النجم، آية: 11].

قال المبرد: معنى الآية أنه رأى شيئاً فصدق فيه . . وقال أبو الهيثم: ما أوهم الفؤاد أنه رأى ولم ير، بل صدق الفؤاد رؤيته، ونقل القاضي عن أهل التفسير في هذه الآية ﴿إِذَا سَمِعُوا مَا نُزِّلَ إِلَيْهِ﴾ لم يوهم القلب العين غير الحقيقة بل صدق رؤيتها .

وقيل: ما أنكر قلبه عليه السلام ما رآته عينه انتهى . قال الواحدي في الآية: وهذا إخبار عن رؤية النبي ﷺ ربه ليلة المعراج . قال ابن عباس رأى محمد ربه بفؤاده ولم يره بعينه فيكون ذلك على معنى أن الله جعل بصره في فؤاده أو خلق لفؤاده بصرًا حتى رأى ربه رؤية غير كاذبة كما يرى بالعين . .

(1) أورده السمعاني في التفسير، النجم 9 فكام قاب قوسين، [287/5] .

(2) أورده الحضرمي في سيرة النبي المختار، فائدة [225/1] .

قال الواحدي: ومذهب جماعة من المفسرين أنه رآه بعينه وهو قول أنس وعكرمة والحسن وكان يحلف بالله لقد رأى ربه، فكل هؤلاء أثبتوا رؤية صحيحة إما بالعين وإما بالفؤاد انتهى.

وقد تقدمت الروايات عن ابن عباس في رؤيته وتقدم في كلام القاضي عن ابن عباس أن الأشهر عنه أنه رأى ربه بعينه، وروي ذلك عنه من طرق قوله تعالى: **ظَهْرَهَا وَلَكِنَّ اللَّيْرَ مِنْ** [سورة النجم، آية: 17].

قال الواحدي: ما مال بصر النبي ﷺ يمينا ولا شمالاً وما طغى: ما جاوز ما رأى وهذا وصف أدبه ﷺ في ذلك المقام إذ لم يلتفت جانباً ولم يمل بصره ولم يمدّه إلى أمامه إلى حيث ينتهي.

وقال الشيخ شهاب الدين السهروردي في العوارف: أخبر الله تعالى عن حسن أدبه في الحضرة الإلهية حيث اعتدل قلبه المقدس في الإعراض والإقبال أعرض عما سوى الله تعالى وتوجه إلى الله وترك وراء ظهره الدار العاجلة بحفظها والآخرة بحفظها.

قال: وفي وجه آخر ألفت من هذا ما زاغ البصر حيث لم يتخلف عن البصيرة ولم يتقاصر، وما طغى لم يسبق البصر البصيرة فيتجاوز حده ويتعدى مقامه، بل استقام البصر مع البصيرة والظاهر مع الباطن بحسب ما أمده الله من القوة ضعف موسى عليه السلام عن أحد الوصفين في قوله: **ظَهْرَهَا وَلَكِنَّ اللَّيْرَ مِنْ** فضعف عن الرؤية انتهى مختصراً وبالله التوفيق.

فائدة:

قال الشيخ الإمام عبد الجليل القصري وقد ورد عن النبي ﷺ في أحاديث الإسراء وما رأى من آيات ربه الكبرى أنه قال: «قربت إلى سيد العرش فأبصرت أمراً مهولاً» ثم قال بعد ذلك «ولم أر عند رؤية ربي أحداً من خلقه» سواء كانت الرؤية رؤية عين أو رؤية قلب.

الحكمة في المعراج إلى السماء:

وسئل بعض المحققين عن الحكمة في المعراج إلى السماء مع أن الله تعالى قادر على أن يتجلى له وهو في الأرض ويكلمه فقال: إن الشيء المرئي إنما يظهر

في المحل الذي يظهر فيه على قدر موجودات ذلك المحل، فالنبي ﷺ أخرج من هذا العالم إلى الملكوت الأعلى ليشاهد الآيات الكبرى التي لا يسع ظهور شيء منها في العالم حتى وصل إلى العرش فرأى منه عظمة الحامل له، واستوى إليه التعظيم حتى رفع إلى المستوى الأعلى، وانقطع عن جميع الأشياء، فتجلى الله تعالى له في كل موطن على قدر ذلك الموطن انتهى ما ذكره مختصراً.

وقد رأيت لبعض المشايخ المصنفين نحوه فإنه لما تكلم على العوالم وأن بعضها أوسع من بعض قال: وما أحد أكرم بهذا الصعود على معراج التدرج إلا نبينا محمد ﷺ نصب له المعراج فسلك به الطباق العليا إلى أن فهم علم كل فلك وملك إلى أن بلغ مستوى سمع فيه صريف الأقلام الكاتبة عن القلم الكاتب يكتبون علم كل فلك وملك وافق ما يليق به فعلم ما يكون وانكشف له الأمور واتضح له الملكوت والله أعلم.

فائدة أخرى:

قال الشيخ الإمام المحقق الرباني محيي الدين عبد القادر الكيلاني - نفع الله به - في طلب موسى الرؤية وامتناعها لضعفه عنها وحصولها لنبينا محمد ﷺ، لما قضى موسى الأجل خرج بأهله وقد استبان وضع الحمل والليل كسواد حدق حور الجنة تنثر عبرات عيون السحب وسيوف البرق تنسل من غمد الغمام وأسود الرعود ترتجز في غابات الدير فطلب قطراً يأوى إليه من القطر ليقدح لزوجته من زند الظلام سرراً وتطلب في أكتاف الوادي المقدس ناراً، هذا والغرام غريم سره والوجد نديم روحه والشوق سمير قلبه والشوق جليس فؤاده والهوى حشو صدره.

فلاح له النور في معرض النار نصب لاصطياد طائر روحه شباك إنبي أنا الله رأى سطرراً من سطور لوح القدرة تجلت لفراشة روحه شمعة الطور وقعت رجل عقله في شرك أنس أنيس أفرغ في كأس سمعه شراب لا إله إلا أنا أكسره بإدامة شرب مدام وكلمه، ربت فيه نشوات الشوق وطمت به أمواج بحار الوله، غلب على قلبه هيمن العشق، خرقت لذة التكليم منافذ سمعه حتى وصلت إلى قلبه فطلب البصر نصيبه من النظر ووافقه شوق القلب، فقال رب أرني أنظر إليك، قيل: يا موسى انظر أولاً إلى مرآة الجبل وحط ذهب ثيابك على محل فإن استقر مكانه فسوف تراني.

اعتبر سكونك عند حركة الصخور تجلى تمادت به أجزاء السطور عند إشراق

لمعان ذلك النور وتعطرت أشجار الوادي المقدس بنسيم القرب وارتجت رياض البقعة المباركة ببهجة وقت الوصل وصارت هضبات الطور حدائق لأجل من تجلى وامتلات جنباته بالملائكة استعظماً لقوله: أرني، وقامت أرواح الأنبياء تترصد ما يكون.

بعد ذلك سمع كلاماً ككلام البشر خطابه ليس من جنس المحدثات، نودي من جميع آفاق جهات الوجود، صارت جملته سمعاً وبصراً، فتلفت بعين سره إلى الطور، وقع شعاع نور عقله على لموع نور في مرآة الجبل انعكست أشعة المتفادحات ببرق بصر الحس، ذهلت عين الفكر، خرس لسان الطبع، انقطعت أسباب الحواس، قر لسان حال موسى، وخشعت الأصوات.

قال المخبر عن صدق طلبه وخر موسى صعقاً قيل يا موسى معدة طبعك ضعيفة عن تناول شراب التجلي، شوق عينك ضيق عن مقابلة أنوار سبحات أرني أنظر إليك، عين الحدث لا تنفتح في شعاع شمس القدم، ورد النظر لا يطلع في شجر كانون هذا الكون، إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا، خلعة النظر مدخرة في خزائن الغيب لصاحب قاب قوسين هذا البشر: وَالرُّجُوعَ إِذْقَائِنَمَا تُولُوْا فَنَمَّ وَجْهُ اللَّهِ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ ﴿سورة الإسراء، آية: 34﴾ انتهى.

وقال رضي الله عنه في الفرق بين الرؤية والمشاهدة: النظر عبارة عن الرؤية بالأبصار، ولم يبلغه مخلوق في هذه الدار سوى صاحب المقام المحمود، والمشاهدة عبارة عن الرؤية بسائر الأسرار تخرج تواقع مقاماتها من ديوان «يختص برحمته من يشاء» انتهى كلامه بحروفه وهو في غاية الحسن والتحقيق مصرحاً بالخصيصة العظمية في الرؤية الكبرى لنبينا محمد ﷺ، فلا يخطبها خاطب بعد كفتها العزيز الكريم ومن ذا ينالها وقد منعها موسى الكليم، وما أحسن نظم الشيخ الياضي في منع ذلك في قصيدة يمدح فيها النبي ﷺ قال:

فنال التي قد رام موسى ولم ينل لدى الطور في أعلى السماء غير رائم⁽¹⁾
فقال لسان الحال في ذلك منشداً يعبر عن موسى بنظم ملائم
أيا طالب والغير مطلوب من أنا بها مغرم أهريق في جهاد دم

(1) رثم الشيء: أحبه وألفه، ورثم الجرح رأماً ورثماً: انضم للبرء، رثم الناقة ولدها: عطفت عليه ولزمته، فهي رؤوم وراثمة وراثم (لسان العرب).

معنى بها والغير فيها منعم وكم بين مشغوف معنى ولازم
قضاها لغيري وابتلاني بحبها بسابق علم لست فيه بعالم

تنبيه :

كرامة الرؤيا في الدار الآخرة :

اعلم أن كرامة الرؤية في الدار الآخرة يختص بها المؤمنون من الآدميين دون
الملائكة، فلا نصيب لهم في الرؤية، وكذا مؤمنو الجن إذا قلنا يدخلون الجنة فلا
نصيب لهم في الرؤية، وممن نص على نفي رؤية الملائكة الشيخ ابن عبد السلام
وصاحب الجواهر المنظومة من أئمة الحنفية وقاله الزركشي عن الشيخ عز الدين
وأقره .

قال العلامة بدر الدين الأهدل في كتاب «الرؤيا» وقسنا عليها مؤمني الجن
بطريق الأولى وجامع اشتراكهم في عدم القوة المركبة في الآدمي على مقتضى
عناصره الأربعة التي خلق بها، ولأن الملائكة تنعموا بالقرب وتلذذوا بالطاعة
وقهرتهم الهيبة فلم يتشوقوا للنظر بخلاف الآدمي، فإنه دفع إلى الدنيا وعوائقها
وأرخت دونه الحجب الكثيفة لكن أهل الإيمان ثبت معرفتهم بربهم وبصفاته على
الغيب وقرع أسماعهم الوعد الكريم بالرؤية في الآخرة فتشوقت قلوبهم وامتدت
أطماعهم وحسن ظنهم بربهم أنهم يلقونه ويرونه عياناً، وهو سبحانه عند ظن عبده
به .

وأما مؤمنو الجن فيدخلون الجنة لنطقهم بالشهادتين ويكونون في أسافلها وليس
لهم من المعارف الربانية ما يتأهلون به لرؤية اللقاء والرؤية فإن ذلك إنما هو ثواب
الإيمان القلبي والتصديق اليقيني والعلم اللدني وأما الجنة فهي جزاء الأقوال
والأعمال الصالحة والله أعلم .

خاتمة

وقد تم هذا الكتاب مشحوناً علماً، المودع من جواهر العلوم جامعاً جماً، الكائن من التحقيقات مع عذوبة الألفاظ بالمحل الأسمى الفائق على نظائره إيحازاً وجمعاً، المشيد أركان مبانيه إحكاماً ووضعاً، المرفوع عن همم أهل العصر قطعاً، فعليك بالنظر في عبارته والتأمل في فحواها وإياك والمبادرة بإنكارها لألفك سواها ودونك إبراز محاسنها التي لا تخفى إلا على جامد البصيرة أعمها، فربما نقلنا عن أحد من أئمة القوم خلاف ما نسبه بعض المشاهير إليه، فحسبه غلطاً، من لا اطلاع له ولا تحقيق لديه وما شعر أن ذلك بعد التطلع والفحص الشديد عليه فدونك مختصراً قد انطوى على زبد ما به مصنف واحتوى على ما به العيون تقر والإسماع تشنف، وأتى من العجب العجائب بما لم يجمعه قبله مؤلف فحق أن يكون على كتب الأنام سرياً وبأنواع المحامد والمحاسن حرياً، جعلنا الله به مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ورفعهم مكاناً علياً، وسائر مشايخي والمسلمين وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

قال المؤلف -: بلغه الله ما يؤمله من خير الدنيا والآخرة وختم له بخير ورحم سلفه وأعانه على قدوم الآخرة بمثمه وكرمه آمين.

كان ختم تأليفه بالخانقاه الصلاحية سعيد السعداء يوم الأربعاء قبيل العصر، خامس عشر شهر ربيع الآخر أربع وتسعين وثمانمائة وحسبنا الله ونعم الوكيل. سألتك الله لا تعجل بشتك لي فإني لست معصوماً من الغلط اللهم اغفر لمؤلفه ولكاتبه ولوالديهما وللمن أعان على جمعه ولمشايخهم وللمن ذكر فيه من العلماء والفقهاء والفقراء والصالحين وللمن نظر فيه ودعا لهم وللمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات بالمغفرة والرحمة وصلّى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى سائر الأنبياء والمرسلين ورضي الله عن الصحابة أجمعين آمين يا رب العالمين وقد وافق الفراغ من نسخ هذا الكتاب المبارك نهار الخميس الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة 1131.

[انتهى]

المحتويات

3	تقديم
5	ترجمة المصنف
6	مقدمة المؤلف
15	الكلام على رؤيته ﷺ مناماً
15	هل تعد رؤيته ﷺ تشريعاً؟
18	أدلة تصديق رؤياه ﷺ مناماً وحجيتها في رؤيته ﷺ يقظة
22	أقسام الناس بين العزم برؤيته ﷺ والتجويز
23	«باب» في الكلام على رؤيته ﷺ في اليقظة
27	ما وقع لبعض الأولياء حال رؤيته ﷺ
29	الاستدلال على الجواب
32	دليل أوليته ﷺ ونبوته حينئذٍ
35	تقرير بديع للسبكي: شبهة وجواب
36	لطائف في قوله تعالى: «لتؤمنن به»
38	فصل في شكل الأرواح
40	عالم المثال
44	بعض من خوارق العادات
52	رؤية الملائكة يقظة
56	دليل رؤية الملائكة من السنة
59	«عود إلى تشكّل الأرواح»
61	فروق في خرق العوائد عن ابن عربي
65	شبهة وجواب
67	فروق بين الروح والجسد

68	قطوف من الكرامات
70	الرد على الإسفراييني في إنكاره الكرامات
71	حكم منكر كرامة الأولياء
73	الكرامة والاستقامة
75	لماذا أكثر الكرامات في العصر الأخير
77	الكرامة ليست علامة على الأفضلية
79	من كرامات الصحابة والتابعين
81	هل يشترط التكليف في وقوع الكرامة؟
83	شبهه القدريّة وجوابها
85	بيان لطيف في المراد من الحكمة
86	حفظ الولي والفرق بين الحفظ والعصمة
87	الفرق بين إلهام الملك وإلقاء الشيطان
89	حاصل الفرق بين المعجزة والكرامة
92	أنواع الكرامات
94	كلام الموتى
101	الاستدلال على أن كرامات الأولياء عين معجزات الأنبياء
107	(فصل) استئناس على خرق العادة
114	سبب قلة الكرامات في عهد الصحابة وكثرتها فيمن بعدهم
115	الفرق بين الكرامة والسحر
115	عموم الكرامات وخصوصها
116	هل للسحر حقيقة؟ وما قدره
117	فرع في ذكر ما يتعلق بهذه المسألة من فروع الفقه
117	حكم تعلم السح
117	آراء الفقهاء في الساحر
117	حكم توبة الساحر
118	الاستقامة شرط لتحقيق الكرامة
120	«عود إلى الفرق بين المعجزة والكرامة»

121	موقف العلماء من رأي القشيري في تخصيص الكرامات
122	هل يشترط العلم بالولاية
124	وجه الاستدلال على وحدانيته بالحديث: «من عرف نفسه عرف ربه» ...
126	مذهب السبكي فيما يمنع من الكرامات وما يقع
127	ترجيح المؤلف لمذهب الجمهور
127	أنواع الكرامات
132	صفات الأولياء
133	الفرق بين عباد الرحمن وعبيد الشيطان
135	«فصل» كيفية الكشف عند القوم
137	أمثلة من الفراسة الصادقة
138	حقيقة الفراسة
138	عودة إلى أمثلة الفراسة
144	أنواع الغيب باعتبار إطلاقه وقيده
147	تحقيق القول في القطب الغوث ومدة مكثه
147	مراتب الأولياء
150	حكاية في مراتب الأولياء
152	علة ستر الله لأوليائه عن تقدم الزمان
153	وجه الدقة في إثارة الأنبياء على الرسل في الحديث
154	تفاضل الأولياء
156	الفرق بين الفراسة والإلهام: مذهب ابن القيم
157	مذهب الهروي
157	توفيق بين الآراء
157	مذهب الإمام الغزالي
158	هل يقع الخطأ في الكشف والإلهام؟
158	هل الإلهام حجة؟
159	حجة من أنكروا حجة الإلهام
159	القول الفصل: من أثبت الإلهام وحجته

160	سبب انقطاع ابن سينا عن طريق القوم
160	الصلة بين التصوف والكتاب والسنة
162	من مناقب ابن عربي
163	باب في تبرة القوم من أهل التصوف من الحلول والاتحاد
165	من أوصاف المتصوفة
166	من ثناء الفقهاء على المتصوفة
167	تأويل ما جرى بين الإمام أحمد والجارث المحاسبي
170	سند التصوف
171	كيفية تسلسل رجال التصوف
175	ثناء العلماء على طريق أبي الحسن الشاذلي
182	نسب الشاذلي وصفات طريقته
184	من أخبار أبي الحسن الشاذلي - رضي الله عنه
184	سلوكه طريق القوم
192	فصل : تدرج القطبية
195	من صفاته الجسدية - رضي الله عنه -
196	فصل : وفاته
198	تاريخ وفاته - رضي الله عنه - وعمره حينئذ
199	سلسلة لبس أبي الحسن رضي الله عنه للخرقة
204	فصل : «حكم القائلين بالحلول والاتحاد»
208	نبذة عن ابن عربي رضي الله عنه
210	القول فيمن طعن في ابن عربي من العلماء
211	حكم ما جرى في كلامهم مما يخالف ظاهر الشرع
212	فضيلة حسن الظن بالناس، وخطر المبادرة إلى التكفير
215	ثناء العلماء على ابن الفارض
216	ثناء العلماء على ابن العربي
216	الفرق بين المتصوف والمتشبه
217	منزلة الإيمان بطريق القوم

218	فصل: حكاية آخر حجة للسهروردي
219	فصل: في التستر
220	فائدة في كيفية النظر في دقائق العلم
222	الفرق بين ابن العربي مَعْرِفًا وابن العربي مُنْكَرًا
223	فصل
224	سبب قتل الحلاج
225	محامل شطحات الحلاج
227	موقف الجنيد من الحلاج
228	من كلام الحلاج وتأويله
229	مقياس الولاية عند أهل العلم
230	العلماء بين الباطن والظاهر
232	حقيقة العلم اللدني
233	أدلية عقلية ونقلية على أفضلية العلوم الوهبية وأصحابها
241	لطيفة في فضل العلم الباطن على الظاهر
242	معنى قولهم لا يعرف الله طاعة ولا عصياناً
242	تأويلات بعض أقوالهم الباطنة
244	نبذة عن الشيخ اليميني الصياد رضي الله عنه
245	من كرامات الشيخ الصياد
247	نبذة عن القسطلاني
250	تحقيق الهروي للعلم اللدني
250	ماهية الغيب وغيب الغيب
252	علة تسلط الشياطين
253	مضادة عالم الغيب لعالم الشهادة وأجوبتها
255	ما تشترك فيه النبوة والولاية
255	ما يفترقان فيه
256	اختلاف ميراث الأولياء في هذه الأمة

- 256 دليل شرف علم الحقيقة
- 257 عين اليقين وحق اليقين
- 261 فصل : بيان وجه البقاء بعد الفناء
- 262 أثر زيادة الحب
- 262 تحقيق المغايرة شعراً في نظم أكابر القوم
- 264 تحقيق القول في التوحيد عند الصوفية
- 264 وجه موافقة الاستشهاد للهروي
- 266 مراتب التوحيد
- 267 بيان وجه الحصر في مشاهدة الله لا غير
- 270 مراتب التلاوة عند ابن عربي
- 270 تفسير الهروي للتوحيد نظماً وبيان ابن القيم له
- 281 فصل : تفسير الغين اللائق بمقامه ﷺ
- 285 فصل : تأصيل علم الحقيقة
- 292 فصل : دليل آخر على الحقيقة
- 296 فصل : تأويل المقدسي لمراتب السلوك
- 301 فصل : دليل آخر على الحقيقة
- 302 فصل : دليل آخر على الحقيقة
- 303 فصل : دليل آخر
- 306 فصل : الخلاف في مطالع السور
- 307 أسباب تعدد الفهم عند القوم
- 314 باب في شرح ألفاظ مشكلة تتعلق بمذهب القوم
- 321 الشطح وتأويله
- 331 فصل
- 335 فصل
- 342 فصل
- 359 فصل : حكم من يقول بالإباحة وسقوط التكاليف

366	فصل : عجائب ليلة القدر
382	فصل : الاختلاف في رؤية الله تعالى في الدنيا يقظة
388	الحكمة في المعراج إلى السماء
391	كرامة الرؤيا في الدار الآخرة
392	خاتمة